خولة القزويني

رجل تكتبه الشمس

رواية

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الطبعة الثالثة (منقحة ومصححة)

دار النبأ للنشر والتوزيع - الكويت

www.mlazna.com-RAYAHEEN

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

الطبعة الثالثة
(مصححة ومنقحة)
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

إصدار: دار النبأ للنشر والتوزيع - الكويت
توزيع : مكتبة الأسفار
الكويت - ميدان حولي - شارع أحد
هاتف: ٥٦١٩٩٠٧

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية في الكويت
2500 / 00343
ردمك : ISBN: 99906-83-46-8

موقع الأديبة /خولة القزويني
www.khawlaalqazwini.com

الإهـــداء

عندما تشيخ الأشجار..
تثبت أغصانك كل عام..
متوحداً بخضرتك..
بنمائك بعزمك الجامح تقفز متنمراً فوق المنارات..
أعلى من الأقبية..
هكذا أنت..
وستبقى دائماً..
أسرج لك..
ملامح فارس..

خولة القزويني
الكويت ٢٠٠٥

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الفهرس

الفصل	رقم الصفحة
- الاهداء	٣
- الفهرس	٥
- من رحم الزمن	٧
- على شاطئ قلبها	٣٩
- أميرة الألوان	٣٥
- أحلام تتحقق	٧١
- همس العيون	٨٧
- ديناميكية.. ولكن!	١٠٣
- جمر الغيرة	١١٧
- حنين	١٣٣
- مأزق	١٤٥
- الحب المستحيل	١٦٣
- الذكريات البعيدة	١٨١
- الجذور	١٩٥
- بلا حياة	٢٠٧
- طوفان الشك	٢٢١
- انعتاق	٢٣٣
- نزوة	٢٥١
- صراع	٢٦٩
- تجاذب	٢٧٧
- بلا رجل	٢٨٧
- رسالة الحقوق	٢٩٩
- المرأة الغامضة	٣١٣
- رحلة الغفران	٣٢١

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الفهرس

الفصل	رقم الصفحة
- في عينيها صقيع	٣٢٩
- أيام الحزن والألم	٣٣٧
- أحرف من دمي	٣٤٩
- صولة شامخة	٣٥٧
- قرار منع الحجاب	٣٦٧
- انتفاضة روح	٣٨٣
- اسألي قلبك	٣٩٧
- شمس الشموس	٤١١
- لاءاتك... تنعش قلبي	٤٣١
- ضُرتان في وجه العاصفة	٤٤٣
- وما زال الدفق مستمراً	٤٥٥
- إشراقة في الذهن	٤٦٧
- ضريحك المقدس	٤٨٣
- صفر على اليمين	٥٠١
- سوط الحرمان	٥٢٣
- وداعاً أيها الشهم	٥٣٣
- نقطة تحول	٥٤٥
- المرضة الشقراء	٥٥٥
- بلا أجنحة	٥٦٥
- في مهب الريح	٥٧٩
- في الإنتظار	٥٩٩
- أزمة فرسان	٦٠٥
- وغابت الشمس	٦١٩

الفصل (١)

من رحم الزمن

فاجأه هاتف الصباح باكراً، الصوتُ الآتِ من الزمن البعيد يظنه ومضة حلم، يقهقه الآخر مؤكداً وجوده في البلد، مبدياً رغبة شديدة في اللقاء، ينطلق سرب الكلمات مفعماً بمشاعر ودٍّ تزقزق في فضاء صباحه، يتبدد النعاس عن عينيَّ صاحبه، كلّما توغل الصوت في الذاكرة الغافية:

«أتلهف إلى مـائدتكم العـامـرة، هل مـازالت الوالدة تطهي شورية الخضار مع الخبز المحمص؟

اتخذ الشاب النائم وضع الجلوس يحاول أن ينفض النعاس عن عينيه.

ومضى الآخر:

«آه يا صديقي، إن لها مذاقاً مميزاً في ذاكرتي لم تُنسنِي الأيام نكهتها، وشدو الكناري يصدح في حجرة الاستقبال».

وفي شبه يقظة التقط ذبذبات المتصل مجفلاً، وحاول الانسحاب بتبريرات وشت عن مشاعر باردة، بيد أن صديقه قد تناول الأمر بدعابة لطيفة جعله راغم الأنف في قبول الدعوة.

أقفل «عماد» الهاتف بعد صحوة مريرة، فقد استحوذت عليه أفكار مُشبعة بانتكاسات مؤلمة، لازال يشعر بالانكماش أمام شخصية فؤاد الواثقة وتمددها الانبساطي، تلك الكاريزما المغنطة بجاذبية آسرة، هذا الآت من أروقة «السوربون» ومقاهي الشانزليزيه وأدب «لامارتين» يقحم نفسه في كوكب المعدمين الذين لا يملكون قُوتهم، ويجترون المبادئ كخبز يومي، أيظنها نزهة حالمة في ليلة مَطِرة، شذّ فيها عن الآخرين، أم تراه باحثٌ يستنطق الواقع المرير عبر فرضيات فلسفية، أو كاتب رواية مستحدثة عن بؤساء «فكتور هوجو».

نفض عماد عن خاطره كل هذه الاحتمالات الساخرة ثم وجه حديثه إلى أمه بامتعاض:

«يبدو أن فؤاد قد عاد من فرنسا وسيتناول الغداء معنا».

أبدت الأم ارتياحاً أدهش عماد:

«سبحان الله فقد رأيته في منامي الليلة، إنه شاب طيب ويحبك كثيراً».

دوماً هناك فجوة نفسية بين الصديقين، استعصى عليه احتواء المسافة.

تسأل الأم:

«ما بك مكتئباً، ظننتك ستفرح بهذه الزيارة فقد افترقتما منذ زمن».

اختلجت عيناه، الحدث استنفر الذاكرة الراقدة فرشحت صوراً من الماضي المزعج.

ذات يوم قائظ من شهر أغسطس أقبل عماد على صديقه فؤاد ليسلمه كراسة المحاضرة إثر غيابه المفاجئ، ارتجت أعصابه، أفقدته الدهشة وعيه، انبهار محزن منشؤه حالة التطرف تعيشها البشرية وفق نظريات اقتصادية وضعية ساهمت ودون قصد في حفر الهوة بين الأثرياء والفقراء..

دخل «الفيلا» بدعوة ملحة من صاحبه كي يشاطره الغداء.. ثمة طقوس غريبة سدت شهيته، ربما عرض المائدة الباذخ يبهر عينيه ويشاغله عن تناول الطعام، أطباق كثيرة وملاعق براقة من الفضة تتلفع بمناديل بيضاء نقية، تراجعت أصابعه متهيبة، يخشى أن يكون فعله مستهجناً!؟ تذكر مقولة لأمّه تربى عليها منذ الصغر «كُن مؤدباً أمام الضيوف وتظاهر بالشبع، لا تنكفئ على الصحن بنهم».

كان يعود في كل مرة متضوراً من الجوع تسرع أمه في إعداد الطعام، أرهقه التصنع، أنهكه التحفظ، التوصيات كانت تلازمه حتى لا يقع في فخ السخرية، يسعى أن يتأدب في حدود اللياقة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كي يحفظ كبرياءه، يخشى أن تخونه أصابعه فيكون أضحوكة، برغم الأطايب الوافرة، والأطباق الشهية ينكمش مُحجماً، متعففاً، وطّن نفسه على أن يكون دائماً أكبر من الأشياء مهما بلغ حجمها... المهم أن تكون صورته لامعة مصقولة بعنفوان وتهذيب.

قالت الأم وهي تقطع الردهات استعداداً للضيف:

«سأطهو له الحساء المحبب إليه، ولحسن الحظ عندنا بقايا من اللحم سأضيفه إلى الوجبة».

مناخ خاص بمقتضى حالة الشاب الاستثنائية، تلميع البلاط مرة أخرى فقدماه أنقى من أن تدنس ببقايا الغبار العالقة.

انطلقت أخته «علياء» إلى البقالة المتاخمة لبيتهم تشتري بعض المرطبات.

استطردت الأخت الصغرى «فداء»:

«يمكنني غسل الستارة على وجه السرعة».

تثنيها الأم:

«الوقت لا يسمح».

وتصرّ:

«ستجهز خلال ساعتين».

دفعت الأم «عماد» إلى محل الزهور:

«اذهب واشترِ باقة ورد ترحاباً بالضيف».

نهرها غاضباً:

«لِمَ تفعلين كل هذا؟ إنها مبالغة في الاحتفاء».

وتبرّر الأم:

« في بيتنا يشعر فؤاد بذاته».

صمتت وكأن هاجساً استوقفها لتقول مستدركة:

«لا أدري لم تحاول أن تنسلخ عنه وتصر على اجتنابه رغم تودده لك».

كأنه يبحث عن عذر:

«إنه دائم السخرية من كل شيء، يتحدث بأنفه ويتصرف بغرور».

قاطعته الأم غاضبة:

«هذا وهَم يا بُنيَّ، إن ما تشعر به هو من وحي ذاتك الموسوسة ظناً منك أنك دونه مقاماً».

رد عماد جازماً:

«بالضبط هذا هو الواقع».

انتفضت:

«يجب أن ترفع رأسك شامخاً في كبرياء، فلَكَ أمٌّ مكافحة

نحتت في قلب الصخر قدرها، وشقت طريق الحياة بعنفوان وشموخ، صحيح أني مطلقة لكني استطعت بعزمي أن أختصر زمن الحرمان ومسافات الشقاء بجهود جبارة يعجز عنها حتى أصلب الرجال».

نكس «عماد» رأسه خجلاً، وحاول أن يخرج من هذا المأزق:

«آسف يا أمي لم أقصد»..

أشاحت الأم برأسها منزعجة.

لكنه أنهى وقفته متعللاً الذهاب إلى الحمام.

تفتق جرح «ثريا» القديم بعدما هبت ريح عارضة كشفت عن ألم لم يبرأ بعد، فمن يستطيع أن يختار مصيره؟ كلنا يجتهد في الحياة كي يعيش بسلام، لكن أقدارنا تمضي بنا في نهايات غامضة ومصير محتم.

قبل سنوات كان «عماد» طفلاً غضاً على يديها تناغيه في المهد وابنتاها ترتعان في فناء البيت، الأمور تسير سيرها الرتيب، اعتادت ثريا يومياتها بفطرة أنثى محكومة بالخضوع لحالتها الزواجية بكل ما فيها من دفق ونضوب، يباغتها «شاهين» بوجهه المحتقن متذمراً يندب حظه العاثر وضيق الحال، شاطرها المحنة كقطعة خبز يابسة لكنه سرعان ما لفظها عندما لاحت في أفقه بشائر النعيم.

ارتعشت جوارحها في ذروة الاستحضار النفسي للأحداث،

مازال مشهد الأمس يستثير غضبها العاصف حينما فاجأها شاهين بقرار جاحد، وكلمات تتعثر في حلقه، ينسف صرح أحلامها المشيد بالكفاح، يختزل مقدمات التبرير:

«مضطر إلى طلاقك «ثريا» فقد أعيتني المطالب والقروض، هبة القدر زوجة عجوز جاءت تلملم جراحي وتفرد أمامي جناحي السعادة وفق شروط مريحة أن أترك كل ما عليّ من التزامات، وأرتبط بها».

توقف ثم رفع عينيه ليستكشف ردود أفعالها..

وبدت ثريا ملغومة بالغضب.

واصل بلسان مضطرب:

«ربما أراها لاحقاً وأسدد ديوني وأفي مطالبكم الكثيرة».

استراح في تهيدة أطلق فيها عبء الاعتراف بيد أنها لم تقو على الإصغاء والبحث في تفاصيل القصة، لأن المقدمات دلت على النتائج وانهارت معنوياتها وتبددت آمالها كالسراب فعنفته كأقصى ما تستطيع من طاقة ودموعها تنهمر على وجه طفلها المعتنق صدرها.

وفي ومضة استيقظت على حاضرها، التفتت إلى باب الحمام المؤصد على ابنها عماد، كيف فرّ من حجرها بعد سنين العذاب وها هو الآن رجل تتشامخ به وتحسب أن نزيف المحنة لم يذهب سُدى.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ثم تعود ذاكرتها إلى الحوار الأعنف والمواجهة الأخيرة من ماضيها البائس:

«نعم أستحق هذه الطعنة لأني جنيت ما لا يُغتفر حينما اخترتك دوناً عن غيرك زوجاً، أنا الملامة لأني قد عصيت والدي وسلكت معك طريقاً واحداً بدافع الحب الذي حسبته منتهى أملي وإذا به وهم تذروه رياح الحقيقة».

كان شاهين مرتبكاً حينها، يحاول أن يلملم أطراف الحديث ليهرب:

«لا أستطيع الاستمرار معك».

هبت كالملدوغة تؤنبه:

«لأنك ضعيف وجبان، اخترت الدرب الأرخص، وأنا من تزوجتك بإرادتي وأنت مشرد، صعلوك، لا تملك وثيقة انتماء لهذا البلد، بهرتني بحديثك المعسول ووعودك الزائفة، قلت لي أنك مشروع كاتب فصبرت وتحملت معك ضنك العيش ومنحتك كل ما أملك من ثروة كي تقف على قدميك، بدّدتها بمشاريعك الخاسرة تأتيني في النهاية ذليلاً صاغراً متشبّثاً بأذيال عجوز أدبرت عن الحياة، أنت كائن طفيلي تعيش وباء على كيانات الآخرين، اذهب لسماك فأنا من أرفضك لأنك بكل بساطة حقير وسافل، تذكر أنك لم تكن يوماً سوى أجير في محل والدي أوهمتني بمزاعمك الخبيثة أنك رجل عصامي ستثابر من أجل أن تفوز بي».

رد بلهجة ساخرة تقطر مرارة:

«السنون لم تستطع أن تنزع فتيل الكبرياء والغطرسة من ذاتك إنكِ تدارين خجلك عندما تُمسُّ حالتك الزواجية بمس عارض وكأنه نقص تداريه، كنت أتحسس ندمك في بعض المواقف العارضة».

تزجره بمنتهى الألم:

«لإحساسك بالضعة والحقارة».

صرخ بأعلى صوته فبهتت الطفلتان وفرّتا سراعاً إلى الداخل.

واستأنف:

«كفي عن تجريحي ومضايقتي، فقد حاولت إسعادك بكل ما أملك من جهد وطاقة».

«والآن ماذا حدث؟».

«فرصة ثمينة لا أريد أن أخسرها».

فاض فيها الغضب، وطفح فيها الكيل صرخت وهي تشير إلى الباب:

«اخرج من حياتي فأنت إنسان رخيص».

انخفض صوته:

«يبدو أنكِ قد قطعتِ خط الرجعة».

ومضت في ثورة غضبها:

«أنت لا تصلح قدوة لأبنائك، الأفضل أن تختفي من حياتنا».

وخرج من حياتها إلى الأبد..

وغاب شاهين في دروب الحياة وانقلبت حياتها رأساً على عقب، قضت ليلتها مرتبكة، منزوعة الفؤاد، مجروحة الكرامة احتضنت صغارها وبقيت مستيقظة تتحدى العتمة بفكرها اليقظ، تقلّب صفحات حياتها وتغوص في المخابئ لتنسج خيوط النجاة للزمن القادم، رسمت عبر هذا السكون المطبق ملامح حياتها الجديدة تشحذ كل ما في داخلها من قوة وكبرياء.. الدموع لن تمحو القدر المستتب سنين في الألواح.. فلتترك هذا الوهن والضعف وتلتفت إلى المستقبل مستنفرة كل قواها، فتاريخها يشهد أنها كانت دوماً سيدة المواقف، كابدت الأمرّين في السعي وراء غايتها وبلوغ مرماها في إقناع والدها بهذه الزيجة حتى لاكت الألسن اسمها بكل ذميم من القول، وبذلت جهدها وأفرغت وسعها في إثبات حقها المشروع في هذا الرجل الذي اصطفته عن كل الرجال.

آمنت بشاهين عندما كان للروح دفق جميل يجعلها ترى الأشياء بشفافية مطلقة، وكانت تختال بهذا الحب الذي لا تستوعبه معادلة منطقية، كافحت من أجل أن تخلق حالة من التوازن في حياتها لكن اضطرابها كان يوقعها في مفاجآت فسَّرت نبوءات أبيها لكنها تنهض من كبوتها عنيدة بغرور محبذ، وإصرار مفعم بالتحدي، تجربتها الخاصة هي خلاصة تكوينها

النفسي وستقوّم تجربتها مهما انحرفت، بيد أن حلمها قد تبدد، لأن ما كانت تحسبه فارساً انسلخ عنه الثوب المطرز بقيم الرجولة، ليكشف عن باطن مشوّه وأعماق مشروخة ارتابت متخوفة، وصدماتها تتلاحق تترى.. جعلوا منها حكاية تمضغها الألسن فتسلحت بالصمت جداراً تتساقط عند أعتابه سهام الشائعات والنميمة والحسد.

هتفت «فداء» بصوت اختزل الحنان سبعة عشر عاماً:

«ماما: الستارة جاهزة ساعديني لتثبيتها على النافذة».

التفتت الأم وهي تردد في فكر مشوش وحواس مرتبكة:

«هل عادت علياء؟».

تجيبها «فداء» وهي مشغولة بتعليق الستارة:

«ألا تعرفين أن مشاويرها تأخذ الساعات».

وعلى الفور دخلت علياء تحمل كيساً معبأً بعلب العصير:

«سمعتكما، تستغيباني».

لم تخفِ الأم ضيقها:

«قلنا عليكِ هذا كل ما في الأمر».

ابتسمت بمكر:

«مررت بصديقتي «خديجة» لأستعير ثوبها الجديد الذي ارتدته في حفل خطوبة أختها».

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ثم فتحت علياء الكيس وأفردت ثوباً أرجوانياً من الساتان واستطردت موجهة حديثها إلى «فداء».

«أتذكرين هذا الثوب؟ لقد طار صوابي يوم رأيته على جسد خديجة».

«سأرتديه حالاً».

هرعت إلى غرفتها ثم التفتت فجأة إليهما قائلة:

«إنه ماركة شانيل، منذ فترة وأنا أغبط خديجة على هذا الثوب».

قالت الأم بشيء من الاستياء:

«أفاعيلك الحمقاء تجعلني في موقف حرج».

هزت كتفيها دون اكتراث:

«لست صغيرة، سأتخرج هذه السنة وأعتمد على نفسي ويمكنني أن أميز الحماقة من الصواب».

ووجهت عينيها صوب فداء مشددة على كلماتها:

«لست معقدة، أنا منفتحة على الناس، أطلب ما أشاء دون حرج».

دافعت فداء عن موقفها:

«كرامتي لا تسمح لي أن أفعل ذلك».

أقفلت «علياء» الباب، ارتدت الثوب وعيناها تقتحمان المرآة في تحدٍ غاضب تناجي نفسها:

«حتما سأعجبه، إنه يخصني بالعناية، فحديثه قبل سنوات كان ينم عن إعجاب كبير، ولن أنسى وعده لي بترتيب بعثة دراسية إلى باريس.. الله.. باريس كما يصفها الأدباء بلد الجن والملائكة، منذ أن تلقيت هذا الوعد والحلم يخامرني كطيف جميل لا يبارح خيالي، أيقظ فيّ طموحاً للتجدد، لنفض هذه الحياة البالية التي أعيشها تحت عباءة الفقر والحاجة، سأنزع منه الاعتراف بأنني الوعد المنتظر لإشباع طموحه كفنان، لن أسمح لأية مخلوقة أن تخترق مداره، إنه صنف مميز يستهويني، يثير شراهتي إلى استحواذه.. أقنعته زمناً أنني حالة قابلة للتشكيل طالما كان للرجل أصابع ماهرة في نحت أعماقي .. وقتها برقت عيناه دهشة، استغرق يفكر بي مستهاماً بذكائي، آرائي استوقفته في زحمة الحِسان الفرنسيات وأدارت عنقه إلى فتاة مميزة لها بصمة فريدة اجتذبته برغم طابور الفتنة والإغراء، هذه الآراء ستخرج من هذه الجدران المهترئة وتضيء ليل باريس بعبقرية فذة من الشرق».

تثنت وتمايلت بالثوب وكان فضفاضاً بعض الشيء، ضيقته بالدبابيس لينحسر على تضاريس جسمها الفاتن ينحت بروزاته وانحناءاته بشكل صارخ، فبدت فيه منصهرة بتوثب أنثوي جامح يستفز العين بإثارة مقصودة، ترتبك في مخيلتها أسئلة كثيرة

محورها الغواية بكل فنونها ستبذل جهدها لاختراقه ذهنياً ونفسياً... إنه محصن بمتاريس قوية وإشباعات وافرة.. تحتاج إلى جرعات كبيرة لتخدير هذه القوة.. قد لا يكون استسلاماً مطلقاً، لكن لفت الانتباه كمرحلة أولى فهل لعينيه عدسة رجل يلتقط سطوحها الصامتة التي لا تميزها عن أية أنثى أم تخترق الثورة المحصنة خلف الجسد، وهذا الشلال الأسود يتبعثر على كتفيها المستديرين بجسارة ثرثر عن روحها المختزنة حمماً، تطلي لونها الشاحب بظلال وردية تشف عن لون رائق تستعيره للحظات خاصة، فمازالت بعض ملامحها الفقيرة إلى النضارة تذكرها أن لها وجهاً مكسوفاً يفقد بهاءه عندما تتغضن في غضباتها رغم غضاضة عمرها، تبرز خطوطاً قاسية تضفي على عمرها سنوات.

انشقت عن صدرها حسرة حينما تذكرت أختها «فداء» كيف استراحت على كف القدر متصالحة مع وجهها الطافح نداوة، شرب رواء الزهر دون مساحيق، وفاض حيوية ونضرة أضفى عليها رونقاً وبهاءً.

لسعتها الغيرة وطافت بها الخائلة نحو جوانب مستترة في أختها الصغرى، من يومها تسعى للتميز عن أختها، فيها رغم صمتها المتدفق حياءً ارتقاءً نحو الأبعد، خيل جامح يسبح في فلك خاص بعيداً عن التسطح في المقارنات والمفاضلات المهمشة، هادئة في صفوها الروحي، ساكنة في وداعة مهيبة،

كأنها حورية متسربلة بهالة من دفق السماء تستثيرها في الغالب «علياء» فتنسحب إلى وكر صمتها في تهذيب تأنف مجاذبات الإناث المبتذلة، تتغاضى عن الأخطاء بطرفها المشعّ حناناً، منغمرة في تأملاتها الخاصة، استثنتها أمها بخاصية جعلت الأخت الكبرى في حالة تحفز لأية مقارنة عابرة، مس الغيرة يحرص على المصادمات العابرة لكنها سرعان ما تتراجع كلّما تتسحب إلى منابت أختها الدافئة، إذ تحتوي «فداء» ذلك الاحتقان بطلاوة حديثها وسكون روحها.

تخرج «علياء» مترنحة في استسلام لكل نقد فقد تعبأت بطاقة احتمال تفوق قدراتهم وكان أولهم عماد يقف أمام مرآة الصالون يجفف شعره بالسشوار، بُهتت عيناه لمرآها المثير وفتنتها المتفجرة، خامره إحساس خانق ولسعة غيرة بانت مرارتها على أمائره فباغتته على الفور وقبل أن ينبس بحرف:

«ألم تقرأ اسم «قاسم» شقيق خديجة في جريدة اليوم حيث أعلن ديوان الموظفين اسمه ضمن المقبولين في وظيفة المحاسبة في وزارة التجارة».

محاولة ذكية لتشتيت انتباهه عن جسدها الذي قدم نفسه بسخاء ومضت في استطراد مفتعل:

«سألت عنك خديجة اليوم، وأفضيت لها أنك تبحث عن عمل آخر، ما رأيك لو تعرض خدماتك على فؤاد أظنه قد لمح لك سابقاً في هذا الأمر».

www.mlazna.com-RAYAHEEN

انفجر وكأن حاسة الإصغاء قد تجمعت في عينيه المحتقنتين شرراً:

«قبل كل شيء اخلعي هذا الثوب، أظنه غير لائق».

وختم جملته ساخراً:

«كاد الثوب أن يتمزق على جسدك»

صاحت الأم بغيظ:

«لا فائدة من قولك فهي مقتنعة بما تفعل».

بأعصاب باردة ترد:

«بالضبط، أنا مقتنعة بما أفعل».

ثم عادت بعماد إلى محور الحديث:

«لم تجبني بعد، ألا ترى من المناسب أن نتحدث في هذا الموضوع مع فؤاد».

بامتعاض يرد دون أن يلتفت إليها:

«لن أفرض نفسي على أحد، سأنتظر العرض كمبادرة منه».

الجَلَبة في الخارج، بوق سيارة يمخر عباب الصمت، يبدو أنها من ذلك الطراز المرعب للحالمين، الحضور الباذخ لهذا الشاب غمرهم بقلق كبير، وسبب لهم حرجاً لشحة أسباب الاحتفاء اللائقة به، طرق هادئ على الباب، يتقدمهن «عماد» مقبلاً على الضيف هاشاً باشاً، جذبه عبيره الباريسي يتضوع

في ذرات الهواء يشبع أنفاسهم برحيق مُسكِر، بدهشة استفزت أبصارهم المحدقة فيه حتى الإبهار، يتجاذبون النظر إلى بعضهم البعض تستوقفهم بذهول مظاهر الجلال والمهابة في سمته الزاهر وألقه المميز، فما عادت أياً من عبارات الإطراء تستوفي حق تلك الروعة الحاشدة.. بكل عوامل الفتنة جاء «فؤاد» محملاً بأكياس فاخرة، تناولها عماد على استحياء، بينما انبرى الضيف يستنشق الأبخرة المتفشية في أجواء البيت معرباً بإيماءات استعراضية عن أُلفته الحميمة:

«أشم رائحة الحساء المنعشة».

ضحكوا مرحبين به.

أطلق لعينيه النظر إلى وجوههم وكأنه يستوثق من قسماتهم إن طالها الزمن ببعض التغيير.

الأم كانت أشدهم فرحاً فبادرت:

«اشتقنا إلى مرحك وأحاديثك الشيقة».

أجلسهم في الصالون بأريحيّة وانبساط وبدا كأنه يذعن في احتواء الحواجز:

«تفضلوا اجلسوا لنتحدث».

تفرقوا بشكل يجعل للضيف خصوصية مع صديقه عماد.. وقفت الأم عن بعد تتابع الشاب ظناً منها أن لحضوره قصداً

في البنتين، ستترقب نيته، ستتفشى من تلقاء نفسها وفقاً لإيماءاته وشوارده.

لم يكن له ميل في أي من (البنتين)، بحذاقتها تفهم ما يدور في خلده، بدت البنت الكبرى متوترة في استجدائها لطفه، مستشفعة بهذه اللوحة المزيفة أن تلقى في عينيه استثارة لافتة، تحشر نفسها في مداخلة سخيفة بين حديث الشابين فتبدو مستهجنة، تشمله برعاية وافرة علّه يلمحها بعين الاسترضاء ثم ترتد محبطة ترتمي على مقعدها منفعلة، قلقة، تسأله وقد استبد بها التأثر الشديد متسللة إلى ثغرات الصمت حينما يكفان عن الكلام وإذا بإصغائه يتشتت، وذهنه يشرد، لم تلمح في عينيه بوادر اهتمام تتبدد كلماتها دون طائل، تركت المكان خائبة متجهة إلى مرآتها تحدثها الواهمة أن العيون وحدها الأقدر على استثارة الإحساس وترنو إلى وجهها المتضرج غضباً «ماذا حدث له، فقد تغير بشكل كبير، قد تجاوزت معه الحدود اللائقة، ينبغي عدم التهور، خصوصاً مع فنان مثله».

تناهى إلى سمعها ثرثرته تصدح في الصالون مع أختها «فداء»، فتحت الباب بشكل موارب لتلتقط فحوى حديثهما، كان مشغوفاً بتلقائية، كلمات «فداء» تنساب في مجرى سمعه كعزف مريح، تحدثه عن محاولاتها في الكتابة القصصية، حالة إحباط لمراهقة مفعمة بالحيوية الفكرية ويخترقها الصوت وكأنه يذعن في إيلامها، ها هو يستطرد بأدبه الجم «طالما كانت مناهج

الدراسة مكثفة بمضمون ضعيف فلن تجني إلا الإحباط، ليتك تأتين إلى باريس وتدخلين أروقة المدارس والجامعات ستشعرين بالفرق الهائل».

المتربصة عند الباب تُستثار:

«المنافق، يوعدها بباريس كما فعل معي».

وبحركة تنمّ عن غيظ صفقت الباب لتخرج إليهما حانقة، وجهت حديثها لـ «فداء»:

«اذهبي لأمي في المطبخ، إنها تحتاجك».

ثم اتخذت لها ركناً مواجهاً لفؤاد، حاولت استجماع قواها الواهنة وأردفت:

«أنا قلقة على مستقبلي، البلد هنا تجعل من الوساطة مطية للوصوليين والمنتفعين، وأنا إنسانة طموحة، مبدعة، أبحث عن الوظيفة التي تستوعب طاقاتي وقدراتي».

ران على فؤاد الصمت فقد بدا محرجاً، فقد فطن إلى أبعاد حديثها.

بإلحاح تسأله:

«ما رأيك؟».

وكان رده مقتضباً:

«المسألة تحتاج إلى صبر».

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ويضيف عماد:

«محاولة منه لاستخراج الحديث من محوره».

«تخيَّل أن الخريجين يبقون في حالة بطالة حتى يتم توظيفهم في مواقع لا تتناسب وميولهم أو تخصصاتهم، فمخرجات التعليم لا تشبع دوماً سوق العمل، المصالح متضاربة، الخريج وحده المتضرر في هذه المسألة وأظن هذا أحد أسباب الفساد الإداري».

استرجع فؤاد ذاكرته:

«لا أعرف بالضبط كيف تطور الوضع بهذا الشكل، لكني أحرص يا عماد أن تتولى الشؤون المالية في شركتنا، فقد جئت إليك اليوم لأعرض عليك هذه المهمة ثانية، فمنذ فترة قد هيأتك لهذا العمل لعلّك تنمي نفسك في هذا الاتجاه، تعلم أنني مضطر للسفر لفرنسا بين فترة وأخرى لأراعي مصالحي هناك، ولعلّك تعرف يا صديقي أنني مذ كنت طالباً في المدرسة لا أحب الأرقام وأبغض المعادلات العلمية، ميولي ثقافية وفنية، وعبء كبير أن أدير هذه الإدارة بعدما فشلت في مادة المحاسبة والإدارة وتوسمت فيك القدرة والروح القيادية التي تخولك لهذا النوع من العمل».

انكفأ عماد بغتة يسوطه الضمير تقريعاً، فكيف أساء ظن هذا الإنسان وغرق في وساوس شيطانية هي من نسيج وهمه وحدسه الخاطئ.

ربت «فؤاد» على كتفه وهو لا يعلم عمّا في طويته من محاذير وهجس.

ثم صاح فؤاد فجأة:

«لم أعد أحتمل الجوع أكثر من ذلك، سأفتتح المائدة بنفسي».

الأم آتية تحمل طبق الحساء، تضعه على المائدة مرحبة بالضيف:

«البيت بيتك يا ولدي».

سحبت الكرسي الذي يتصدى رأس المائدة:

«تفضل يا فؤاد».

أخذوا مقاعدهم، الروائح الشهية تنبعث من الطعام.

انكب فؤاد على الصحن هاتفاً وهو مأخوذ برائحتها الطيبة:

«آه ما أشهى رائحتها لا أقاوم إغراءها».

يتفكه عماد:

«يبدو أن أعز رغبة عند الفنانين بطونهم».

يرتشف فؤاد رشفة من الحساء ثم يتابع:

«لا تدري السرَّ المكنون في هذا الطبق، ولك الحق لأنك اعتدت هذه الحالة وتعايشت الوضع ففقد قيمته وتأثيره في

نفسك بحكم الألفة، السرُّ في هذه الأم العظيمة التي صنعت لبيتكم أشياء جوهرية التقطها من فوري كفنان شفاف قد لا يدرك الآخرون مدلولها الأبعد، اسأل من يفتقد هذه الألفة الحميمة ويعيش بين الجدران الباردة تنهشه مخالب الوحدة الكئيبة. تبلغ الشوربة روعتها لأنها محملة بطاقة حب تشع من أصابع أم حنون، أنت تأكله محصلة جهد طيب وذرات إيجابية اجتمعت لتبلور لك إحساساً ذا ذائقة شهية، صدقوني حينما آتي هنا إلى عشكم هذا أهرب من صقيع الأيام إلى دفء الحب والبسمة الصافية، هذا الطبق بسيط في ظاهره، عميق في باطنه، أعتبره طاقة شفاء تدخرها الأم لأولادها حينما تصب فيه قطر عاطفتها وذوب روحها.

يقاطعه «عماد» متشككاً:

«مدهش! أظنك ستقنعني أن الطهاة الماهرين في قصركم العامر أعجز عن توفير هذا الشفاء المزعوم».

انزعجت الأم، فأكدت كلام فؤاد:

«أفهمك يا ولدي، أعرف المعنى العميق الذي تقصده وأضيف عليه أنني في كل خطوة أخطوها لابد أن تكون مشعة بهالة حب تسطع من قلبي، لا أفعل شيئاً برغمي، في كل دقيقة من دقائق حياتي أتحرى المحبة والإيجابية حتى تنتقل هذه الطاقة إلى الآخرين...

سخرت «علياء»:

«يا جماعة إنها مجرد شوربة، هل نحن مضطرون إلى الانغماس فيها حتى النهاية»..

انبرت «فداء» بشيء من اللطف:

«قرأت ذات مرة في إحدى المجلات الطبية أن شوربة الخضار علاج لأمراض الرشح والبرد، مفعولها كأي مضاد حيوي».

توقفت هنيهة وهي ترنو إلى أمها بفيض من الحنان مستطردة:

«فما بالك إذا كانت مطعمة بنكهة أمي الغالية».

أطرقت الأم خجلة، ثم رددت بهمس:

«حبيبتي، حبيبتي».

قال فؤاد:

أحضرت لكِ يا خالة طقم شاي صيني انتقيته لكِ من أرقى محلات باريس، أعرف أنك مولعة بالأواني المنزلية وقد حرصت على اختيار اللونين الأزرق والأبيض».

ضحكت بدهشة:

«ولِمَ اخترت هذين اللونين؟»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«مزاجك الهادئ، وولعك بألوان الطبيعة، كل ألوان البيت تشير إلى ميلك لهذين اللونين الباردين».

أشارت بلحظها إلى «فداء»:

«إنه ذوق «فداء» هي مهندسة الديكور المنسقة لجماليات هذا البيت البسيط».

التقطت «فداء» خيط الحديث وتابعت بفخر:

«كنت الأولى بالأشغال اليدوية حتى أن معلمتي نصحتني بتنمية موهبتي في معهد الفنون».

وتمضي الأم في إطراء ابنتها:

«الستائر والمفارش، والزهور المنسقة بهذه الرهافة، أضف إليها المساند، الفازات كلها من صنع يديها».

استدارت عينا فؤاد في كل ناحية وركن مستعذباً ذلك التناغم والتنسيق وقد أفرط في الرقة والنعومة وهتف:

«ذوق رفيع ينم عن حس مرهف».

سحبت «فداء» نفسها من حلبة النقاش:

«سأعد الشاي».

تستوقفها الأم مشيرة إلى صندوق كبير مغلق:

«جهزي الطقم الصيني، نستفتحه بولدنا العزيز».

أردفت علياء بصوت مخنوق أشبه بفحيح أفعى تطلي غيرتها بطلاء بارد كي تبدد عن نفسها هذا الانقباض:

«أروع الأشياء من باريس الثياب، العطور، الأقمشة، لوازم البيت ماركات على مستوى عالٍ من الجودة، من يقتنيها لا يجد في إنتاجنا المحلي البسيط قيمة تذكر».

يرنو عماد إلى صاحبه هامساً:

«لن تستطيع محاججة علياء لأنها من أشد المدافعين عن فرساتشي وكريستيان ديور وكارتيه، وأكثر خصومة للإنتاج المحلي».

ثم في دعابة رفع عماد كفيه إلى السماء داعياً:

«اللهم احشرها معهم يوم القيامة».

بعد أن فرغوا من غدائهم اتجهوا نحو ركن صغير يزدان بأرائك خشبية ومائدة كبيرة من خشب البلوط الأحمر نصب فوقها أصيص من زهر القرنفل اصطفت عليها بعض التحف الصغيرة بدا من بساطتها أنها من صنع هاوٍ غير محترف، رفع «فؤاد» إحداها ملتفتاً إلى «فداء» بومضة قدحت من عينيه شرراً كان لها وقع مريك في قلبها:

«رائع.. أنتِ فنانة بمعنى الكلمة».

ارتعدت بحالة غامضة لا تعرف لها سبباً وقالت على استحياء:

«جمعت أصداف البحر وأعواد ثقاب لأصنع هذا الكوخ البسيط».

ثم همت «فداء» لتصب الشاي في الأقداح وإذا بـ «علياء» تجذب منها الدورق زاجرة في غضب مشوب بالغيرة:

«دعيني أفعل بدلاً عنك، فقد تماديت في الثرثرة وأخشى أن يكون الشاي قد برد».

أجفلت «فداء» مبتعدة لفرط حرجها، فتعللت بالمذاكرة وأقفلت راجعة إلى غرفتها.

حاولت «علياء» أن تتدارك الموقف، وتغلف غيرتها بساتر من الملاطفة والتهذيب قائلة:

«أخشى على شقيقتي الصغرى التعثر في المذاكرة فقد شغلتها أنشطة البيت عن قضيتها الأهم».

انقلبت كل المعادلات في ذهنها بفوضى لا طاقة لها على ضبطها بالمنحنى المناسب فكلما دنت منه ملاطفة انكمش أكثر وكأنه استهجن فيها التكلف والرعونة.

وضعت كوب الشاي أمامه متمادية في جذبه:

«فعلاً إنه طقم فاخر، كم كلفك؟».

تفادت الأم حرج السؤال:

«أياً كان ثمنه هو عربون محبة لا تقدر بسعر».

وبجرأة استطردت «علياء»:

«فؤاد ليس بالضيف الغريب، إنه أخ عزيز وليس هناك ثمة تكلف وحرج في هذا السؤال».

يدرأ فؤاد عنه الحرج قائلاً في تهذيب:

«لا أتذكر على وجه التحديد».

استاءت الأم من فظاظة «علياء»:

«لا تؤاخذنا يا ولدي، فطبعها خارج عن السيطرة».

قطع «عماد» الحديث متبرماً من هدر الوقت:

«اتركانا لوحدنا فثمة أحاديث خاصة بيننا».

انصرفت الأم وتبعتها «علياء»، ولمّا دخلت غرفة «فداء» وجدتها غارقة في البكاء، احتضنتها:

«ما بكِ يا ابنتي؟»

وجهت «فداء» لعلياء عينين لائمتين:

«تذعنين في إهانتي على الدوام».

لم تكن الأم مدركة لحقيقة الموقف.

تنكر «علياء» في غرابة مفتعلة:

«لا أدري عمّا تتحدثين؟».

تعنفها «فداء»:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«أو تنكرين؟».

استوعبت الأم الموقف، فأنبت علياء:

«كنتِ فظة وحشرية لدرجة لا تطاق».

انتفضت علياء كالملدوغة:

«نعم، كل شيء فيّ لا يُطاق، لطالما تضعين النظارة السوداء على عينيك فيخيل لك أنني في منتهى البشاعة والسواد، في حين تغمرين الصغرى المدللة بفيض حنانك وتبجيلك فلا تقع في قلبك إلاّ موقع الرضا والمحبة».

تبرر الأم:

«إنها تتصرف بلباقة وكياسة بيد أنك تفرضين نفسك على الضيف بشكل يُسيء لكرامتك يا ابنتي».

صمتت «علياء» حاولت أن تتماسك، حدجت أمها بنظرة غاضبة ثم خرجت مندفعة وهي تصفق الباب وراءها، تغمغم بعبارات مقتضبة تختزل جنونها وأفكارها الصاخبة تحدث نفسها «آن الأوان كي أمزق الأغلال وأخرج من هذه الجدران المهترئة وأتمرد على سلطة امرأة تتشبث بأذيال قيم ولى زمنها دون رجعة».

وجدت نفسها أمام الشابين دون أن تهدأ ثائرتها، تلقي كل ما في أعماقها دفعة واحدة ودون تردد.. الناجح ينبغي أن يتحدى

حتى لو كان خصمه مجهولاً تحجبه سحب الغيب، وبنبرة حادة حاسمة قالت لفؤاد:

«تعرف أنني متفوقة في الجامعة وذكية، وأتمنى لو أوظف ذكائي في عمل حر يبرز كل إبداعي ونشاطي، وتوسمت لي مكانة في شركتكم، أستطيع أن ألتحق بدورات تدريبية لأنمي مهاراتي في مجال أي عمل تقترحه عليّ حتى لو اضطرني الأمر السفر إلى أوربا لأتزود بالخبرات الجديدة».

أجفل «عماد» حاول أن يبدد الحرج:

«ربما لا يجد لك مكاناً لائقاً، فلِمَ تصرين على موقفك؟».

بيد أن فؤاد رد بطريقة مقتضبة لا تحمل أي تجاوب:

«سأتحدث إلى والدي في شأنك»

ولأنها مصممة أن تصل إلى أبعد نقطة في خطتها بغطرسة مشوبة بالتحدي أكدت:

«أنا واثقة أنه سيوافق، ويشرفني لقاءه، دعني أعرض عليه مواهبي فليجربني في البداية، مؤكد أنه لن يستغني عني فيما بعد».

غاص عماد في مقعده وهو لا يدري كيف يتفادى هذا الحرج، فانبرى يقول لفؤاد على استحياء:

«لا تكلّف نفسك فوق طاقتها».

بدأ فؤاد يلملم أشياءه المبعثرة على المنضدة، نظارته، قلمه، ساعته مفاتيح سيارته.

«تهم في المغادرة؟»، قال له عماد وهو ينهض معه يتمغط ويتثنى في تكاسل:

«أوشكت الشمس على المغيب وأظن أنه آن الانصراف فقد قضيت معكم نهاراً سعيداً».

انطلقت أسارير فؤاد، وهو يلمح طيف القادمتين، بشَّ وجهه فاستطرد وهو يستأذن «فداء»، ممسكاً بالكوخ الصغير من صنع يديها «أتسمحين لي، سأضعه على مكتبي تذكاراً لحالة مميزة».

انقدت وجنتيها وتصاعد لهاثها فلم تنبس بحرف، بيد أن الأم انهمرت بتجاوب مفرط:

خذها جميعاً، هذه التحف لو كنا نملك أكثر...

قاطعها وهو يشير إلى التحفة:

«هذه فقط إنها تعني لي الشيء الكثير...».

بابتسامة فاترة وطرف سخي بالمشاعر همست:

«هذا التميز إمضاء من فنان محترف».

وتبادلا النظر بخصوصية دفعت كليهما إلى ناحية مستثناة عن الآخرين، وانتفض، تذكر أنه غرق في أفق آخر، التفت إلى ثريا:

شكراً لكِ يا خالة على الغداء الشهي والحفاوة الدافئة.

ثريا معربة بامتنان:

«نشكر حضورك يا ولدي، وأشكرك على هذه الهدايا الثمينة، بلغ تحياتي لوالديك».

غادرهم فؤاد مع هدير الأذان يصدح في سماء المدينة، سكون يحتضن النفوس المضطربة ويهدئ الروع، منذ متى تغاديه وتراوحه أجراس الكنائس في باريس وضواحيها المعتقة برائحة الخمر، للقداسة طعم بنكهة اللهب المتضوع في الأفئدة المحزونة، يقف مشدوها لجلجلة الصوت المخضب بالنور يعانق روح الإنسان في استدراج انسيابي نحو السماء حيث الصعود إلى أهداف الكمال الإنساني دون نقصان أو تذبذب، التقط أنفاسه، فاسترخت أطرافه المشدودة وهو يسمع بالفَلاحَين تنهمر في سمعه «حي على الفلاح، حي على الفلاح» والشارع المعبَّد يجره بتلقائية إلى الأمام تاركاً نفسه تمتد في هذا الأفق المترامي ونشوة تستشري في أوصاله وتميل به في خطى متعرجة، تنساب مع أفكاره المتطرفة يميناً ويساراً، أطلَّ على مساحة خضراء يفصلها عن ساحل البحر ممر من الحصى وبعض الكثبان الرملية الخفيفة، استنشق النسائم الرطبة تتسلل إليه من رغوة البحر واسترخى بنداوتها الخفيفة، رائحة طازجة مست أوتار حسه المرهف كفنان يختزل الطعم والرائحة والنكهة في لون مميز، قادر أن يُحدِث للصمت دوياً مسموعاً يفجِّر الجزئيات الساكنة بومضة حياة، أرخى ربطة عنقه ليتسنى له استنطاق الألوان والأبخرة المتصاعدة من الشواطئ بأريحية

www.mlazna.com-RAYAHEEN

مطلقة، تتمدد الموجة المشبعة بالرطوبة والملوحة إلى المرفأ تترنم بلحن رتيب، تعاقبت الأطياف الهادرة مع زرقة البحر في ذاكرته، كأنها تحفر فيها صوراً مكتنزة بالفرح والحزن.

شق وسط هذا الرمل درباً يخطو به نحو الموج الثائر يمتد إليه بكفين مخيفين أن أقبل وضع بينهما حياتك، في هذا البحر الجائر اقتل همومك برشة ملح، لا تعتقد أن الكائنات الحية في القاع جاءت محض صدفة إنها آكلة الهموم، تفتح فمها لتأكل حزنك وتشرب دمعك وتطهرها من الأنا الرابضة في البدن المسكين، قف على الساحل، كما وقف غيرك من التائهين والضائعين وغامر في خطة جديدة، مازالت حياتك متذبذبة تتصادم مع الآخرين وتتجاذب دون هدف تذكر هل جاء هذا الكون صدفة؟!

هذا السمك المنساب مع الموج يستنشق همك الذائب في الماء مثلك تماماً، كائن حي ولكن وضعه مختلف، وكلنا على اختلافاتنا منظمون في برمجة كونية منسقة.

إذن لِمَ لا تتعلم أن تنسق حياتك المضطربة وتنسج لأحلامك ثوباً جديداً، كنت مع تلك الأسرة مخلوقاً متطفلاً يحاول أن يحشر نفسه في رحم الحياة من جديد ويحفر لذاته وطناً معبَّداً بالحب ليبقى موصولاً بالكون في حبل سُري ممتد، شيء ما في ذاتك يشعرك أن ثمة ضياع فيك، اترك الأيام تصادفك بحقيقة هويتك.

الفصل (٢)

على شاطئ قلبها

سيارته الفارهة تنهب شوارع المدينة في اتجاه منتظم، الطرقات منسَّقة أفضل من أفكاره، لا يشعر بقدميه وهما تضغطان على قوة فرامل دافعة يحاول أن يكبحها كي لا تصطدم مع الآخرين والأشياء من حوله، فحواسنا الظاهرية تعبِّر برغمنا عن أعماقنا المخبوءة.. صور مشوشة تفيض عن حدود الاستيعاب تستنزف نفسها عبر ملامحنا المنفعلة، الذاكرة ترحل به إلى مكان في باريس، قلبه المرهف ينبت له في لحظة توق جناحين فيسافر به إلى بقعة أكثر خصوصية في حياته.. رن هاتفه، أيقظه من غياب مقصود يشتت به حالة ضجر مفاجئة، المتحدثة والدته:

«فؤاد، لا تنتظرني على العشاء فقد اضطررت البقاء في الصالون لأمر طارئ».

تنهد بغير اكتراث:

«لا بأس».

«مع السلامة».

مصادفة ودون تخطيط التقاها، حينما تسترجع الذاكرة يومياتنا في زمن ما يصبح لها وقع غريب في النفس أشبه برواية مثيرة نظل متأثرين في أبطالها حتى بعد استكمال قراءتها.. قد تكون اللحظات الآنية مشبعة بالدهشة والانفعال وعند فوات الحاضر نقف على مشارف المستقبل مأسورين بجماليات ذات مذاق عاطفي يذكي النفس بوهج يخفت بالتدريج مع بلوغنا الحاضر، استوقفته ملامح «جميلة» رآها ذات ليلة في حلم، تلك العينين البراقتين زرقة السماء الصافية مخلوطة بخضرة عشب ارتوى تواً من مزنة حنان، أحلى ما فيها إصغاؤها المريح وهي تسند رأسها على كتفه، تجالسه بأريحية أنثى تنساب كالماء الرقراق في المنحدرات العطشانة فتسقيها، انتزعت من صدره شكوكه المتكومة سنين طويلة، ذاته المشوشه، حتمية وجوده، تحولاته المباغتة، فلسفته الخاصة وفورات جنونه، من يصدق أن جميلة كان اسمها «جانيت» نادلة المقهى الفرنسية التي تنحدر من أصول عربية التقاها في لحظة سأم وملل، جاء ليعبث معها كما فعل مع غيرها من الحِسان اللاتي يبذخن في الفتنة ويصدرنها في إيماءات مثيرة.. ترك عند أقدامهن الدولارات والفرنكات وتحول عنهن لفرط التخمة التي أفقدته طعم الأشياء وقيمتها، عرفته جميلة كياناً شاحباً يتوارى

خلف قناع مزيف، أدركته في نوباته المزاجية الحادة، وصخبه المخيف عندما يعجز عن نيل مراده.. تجاذبت وإياه في حوارات فكرية فألجمت قواه الشرهة واستوقفته متأدباً في محراب عقليتها الفذة.. فيها ذلك الحضور المبهج في نفسه، بسمتها الصافية تسرج ضوء الحب في عتمة حياته اللاهية.. تزوجها بعد أن أعلنت إسلامها وغيَّرت اسمها من جانيت إلى «جميلة» تعمل وتدرس الحقوق في الجامعة.. بعد إسلامها اجتاحتها الأقاويل والنقد والسخرية، «لقد لحق بها العار» المخادعة الخائنة، هجرت دينها وقومها لتتزوج من عربي مسلم، حُوربت حرباً نفسية ضارية، تزوجها فؤاد فأشعلت النار والنور في شقته الباردة، واستوعبت بحنانها اليقظ كل جزئيات ضجره، وتمكنت بقوة عزمها على احتواء الأشياء الصغيرة السالبة قبل أن تستفحل فتدمر عشها، تأتيه مطرقة ذات ليلة قائلة: «أنا ممتنة لك يا فؤاد فقد انتشلتني من هذا الوحل والدونية وتوجتني امرأة ذات كيان وشخصية، الآن أشعر بطمأنينة عجيبة حولت كل ما تبعثر في من كرامة إلى وحدة ذائبة فيك لها من الخصوصية المريحة».

انتشى باستحضاره كلماتها المنتقاة بدقة فتصيب مرمى رجولته، زهواً وكبرياء.

خفف من سرعته، بدت أسوار الفيلا العالية تطل من بعيد كأشباح عملاقة متحفزة، لمح البواب يلوح بذراعيه مشيراً إلى أحد الأرصفة المتاخمة للفيلا:

سيدي أركن السيارة هنا.. إنها بحاجة إلى غسيل».

ويترجل من سيارته ملاطفاً البواب:

قل لي يا مصطفى «هل أعجبتك الهدية؟».

بخضوع فيه من الحب أكثر من الرياء:

«كلك خير وبركة يا ولدي».

والده كان في الداخل، رائحة غليونه تشي بفخامة حضوره إنها جغرافية خاصة بذاته، ومناخ له من الأوجه المختلفة ما يحوِّل هذا الرجل إلى ظاهرة مستثناة، الفيلا ساكنة كعادتها لها رائحة مميزة، يحس بها الغريب عندما تلامس وتر الوحدة في قلبه.. كما للجدران المتآكلة رائحة الطين المبتل أو عفن الزوايا العتيقة تختمر فيها بقايا الطعام.. لقصور الأثرياء رائحة باردة تدفعك إلى الانزواء في ركن حي أو التدثر بلحاف دافئ.. إنها أشبه بمعابد أوثان، لها رهبة في النفس ووحشة كئيبة.. جدران الفيلا منقوشة بصور خرافية رسمتها ريشة فنان إيطالي تخصص في رسم الفلل والقصور أهدته والدة فؤاد هدية باهظة الثمن تقديراً لجهوده المميزة في تجميل فيلتها بهذا الرسم الكلاسيكي، يستطيع فؤاد أن يتذكر كل تحفه دخلت هذا البيت والهدايا القيمة من رجال الأعمال الذين ترددوا على بيتهم.

حيَّا والده باحترام ثم جلس.

بادره الوالد على الفور:

«كيف قضيت نهارك؟».

«زرت بعض الأصدقاء».

«حسناً فعلت».

«اتصلت أمي تعتذر عن العشاء».

الوالد بتبرم:

«منذ أن افتتحت هذا الصالون وهي في غياب دائم عن البيت».

«لا تلمها يا أبي فأنت دائم الانشغال عنها، غالباً ما تشعر بالوحدة والفراغ».

صمت الأب هنيهة ثم استدرك:

«هل اشتكت لك؟».

«شعرت دوماً بنبرة حزن في صوتها».

قهقه الأب فجأة وكأن الذاكرة استوقفته عند أمر فأردف ساخراً:

«وهل حدثتك عن عملية التجميل التي ستجريها في باريس؟».

لم يكن الأمر مبعث سخرية لفؤاد، إنه يحمل لأمه عاطفة من نوع خاص وبدا يدافع عنها:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«هذا أمر تفعله كل النساء الآن».

يربت الوالد على كتف ولده:

«ما بك يا بنيّ يبدو أن كلامي لم يعجبك».

«تعرف يا أبي أن أمي امرأة طيبة تحاول أن تسترضيك بشتى الوسائل ولا أظن في هذا مدعاة للسخرية».

صمت الأب كأنه يستجمع أفكاره ثم قال في حدة:

«أتعبتني بشكوكها وغيرتها، حَوَّلت حياتي إلى جحيم، لكن الحمد لله أن مشروع صالونها سيشغلها عني بعض الوقت».

– «لا تنس أنك كثير التغيب عن البيت، تهمِّش حقوقها كأنثى لها من الرقة والإحساس كأمي، تحتاج إلى دعمك وحنانك، أضطر أن أعترف لك يا أبي أنها كانت تشتكي لي عبر الهاتف وكنت أحاول التبرير عن تقصيرك».

دعاهما الخادم إلى مائدة العشاء، لم يكن فؤاد جائعاً فبعد غداء اليوم والألفة الروحية التي أشبعته عن كل الطعام جعل كل هذه الأطايب ذات مذاق مرير في حلقه.. تفرَّس به الأب طويلاً واستشعر بحذاقته المعهودة بسبر أغوار النفوس أن ثمة تحولاً في مزاج ابنه وقلق يختمر في كلماته المختصرة:

– «لم تحدثني يا بني عن نشاطك في باريس، أظن أنه من المناسب الآن أن تتولى إدارة الشركة، أريد أن أعيد ترتيب نظامها من جديد».

يتململ فؤاد:

– «تعرف يا والدي إني مشغول بمعارضي الفنية فحبي للفنون يطغى على كل القضايا التجارية ولهذا هيأت لك مديراً بارعاً وطموحاً، سيعجبك».

انقبضت سحنة الوالد وبدا نافراً بينما واصل الابن الحديث محاولاً ترطيب الأجواء «هل تعرف صديق الدراسة عماد؟» الطالب المتفوق، إنه شاب نشيط ميال إلى القضايا الإدارية وقد درس أصولها فضلاً عن شخصيته..

قاطعه:

– «تريد أن نسلِّم الزمام للغرباء».

– «لا تتعجل الحكم يا أبي، جربه، إني حريص جداً على هذا الشاب أعرفه حق المعرفة وله أخت رائعة، متحمسة جداً للعمل قد تحتاجها في إدارة العلاقات العامة».

اشتعل الوالد غيظاً:

– «يبدو أنك رتبت كل شيء تماماً وما علي إلا الإمضاء».

«صدقني يا أبي لو أحسست أني كفء لهذا المنصب لفعلت ولكني عاجز عن أداء هذه المهمة، فالبشر خلقوا بميول وأذواق مختلفة».

تمالك الوالد نفسه وحاول أن يستميل ابنه:

«يا بني طبعك دبلوماسي وهادئ، أحسبك قيادياً ناجحاً فقد توسمت فيك كل السمات المؤهلة لهذا الدور».

بفطنة وحنكة يمتص غضب والده:

- «حسن يا أبي سأفعل ما يرضيك لكن دعني أستعين بصديقي في إدارة شؤون الموظفين والإدارة المالية وسترى النتائج».

- «وما الداعي لهذا الصديق».

«يا أبي الشركة كبيرة وأقسامها كثيرة ويصعب عليَّ استيعاب كل هذه الأنشطة دفعة واحدة، أنا مسؤول عن اختياري، مسؤول عن قراري، امنحني الثقة وسترى».

أدار الوالد وجهه معترضاً:

- «ستترك الجمل بما حمل لتمارس فنونك المزعومة، أعرف أنه نوع من الهروب».

- «أعدك يا أبي أن كل شيء سيتم على خير».

وانكبا على الطعام، وتشاغلا حتى لا يصطدمان في مواجهة جديدة، لفهما صمت مفتعل، كلٌّ في جعبته أفكار نقيضة لأفكار الآخر، اجتنبا الخوض في الحيز الوعر، يضمران الهروب من المواجهة، الأب يهرب من تساؤلات ابنه التي يدرك مسبقاً أنها تدينه في كثير من الأشياء، والابن يهرب من مطالب أبيه التي لا تتفق وميوله.

انبرى الوالد يتساءل «معتقداً أنه في الحالة الإيجابية التي تسر ولده»:

- «والد خطيبتك حدثني قبل يومين على ضرورة عقد القران خلال هذا الشهر».

ابتلع «فؤاد» ريقه، تململ في مقعده، فقد وقع في المحظور ولف والده الحبل حول عنقه إما أن يستسلم أو ينتفض ليتخلص من هذا المأزق. أعاد الوالد عليه السؤال وفي عينيه نظره حادة:

«أراك منزعجاً.. هل نسيت خطيبتك ماجدة؟».

جَبُن عن الاعتراف، حاول أن يداري الموقف:

«ولِمَ هذه العجلة؟».

الوالد ساخراً:

«عجلة؟ سنوات من الخِطبة وتحسبها عجلة، يا بني الفتاة تنتظرك وأنت تؤجل ريثما تتخرج، وقد تخرجت ولم تمارس أي نشاط سوى الرسم، أظن آن الأوان كي تعلن زواجك».

يبدو أن لا مفر من الاستسلام وتفجير الموقف مهما كانت عواقبه:

«أعتذر يا أبي عن هذه الزيجة، لم أعد بحاجة إلى هذه الفتاة!».

دفع الوالد كرسيه ونهض من مكانه غاضباً ورعدة هزت أطرافه:

«ماذا تقول؟».

وانطلق لسان فؤاد:

«لا أحب ماجدة، لا تصلح لي زوجة، حاولت أن أقترب منها، أستوعب مفاهيمها، إحساسها لم أستطع، في كل مره أسافر وأعود لأختبر عواطفي أجد نفسي معرضاً عنها».

وقع الوالد في حيرة لا يكاد يبحث عن مخرج وتبرير حتى يصطدم بحقيقة واقعة لا تقبل التضليل، هربت الأفكار من رأسه واستدرك وهو ساهم: عائلتها! ما ظنهم بنا؟ إنهم أهلنا، أقاربنا، يا ولدي فكر ملياً في الأمر، سنصغر في عيونهم، أين عهد الرجال؟!

وقطع فؤاد عليه طريق العودة:

«لقد تزوجت فرنسية وهي تنتظرني الآن في باريس».

ارتج الوالد دهشة:

«فرنسية؟».

المفاجأة ألجمت لسانه..

واستطرد فؤاد وكأنه ماضٍ في سد كل ثغرة في هذا الموضوع:

«أحببتها ولم أستطع تركها، أسلمت وتزوجتها وأنا سعيد جداً معها بينما ماجدة فتاة فارغة، تافهة، لا أعرف بماذا أتحدث معها فضلاً عن افتقارها لأدنى مقومات الجمال».

ويخرج الوالد من حالة شروده:

«هل تورطت مع الفرنسية لتتزوجها».

«لا.. تعرفت عليها في مقهى ثم تحاورنا في قضايا كثيرة وتطور الأمر بيننا حتى شعرت معها بالراحة والحب فتزوجتها لأنعم معها بالاستقرار».

عنفه الوالد:

«تترك سليلة الحسب والنسب وتتزوج من...».

«لم أعلن خطوبتي على ماجدة رسمياً، لِمَ تفرض عليّ هذه الفتاة يا أبي إنها نموذج سخيف لا أتقبله إطلاقاً».

يحاول الأب استظهار أسلحة المكر مع ولده:

«اخف أمر زواجك من الفرنسية، إنها هناك بعيده وتزوج ماجدة فزواجك الاجتماعي المقبول تحتاجه هنا في بلدك، هكذا يفعل الرجال، في حياتهم أسرار.. لهم حياة ظاهرة وأخرى باطنة وبحكمة يوازنون بين الحياتين ليعيشوا سعداء».

نظر الابن إلى عيني والده بتخابث:

«ها.. أظنك من تفعلها يا أبي».

«لا يا بني، لا تأخذك الظنون بعيداً فليس لي وقت لذلك».

ثم أعاد دفة الحوار إلى محوره:

«أو طلق زوجتك الفرنسية، ليس بالضرورة أن تكمل معها المشوار».

استاء فؤاد:

«أحبها يا أبي ولا أستطيع الاستغناء عنها، هجرت دينها وقومها من أجلي ورعتني في غربتي»، ثم إن الموضوع الأساسي هو أني لا أحب ماجدة وليس زواجي من الفرنسية هو السبب، قبل أن أسافر كنت صغيراً لا أعرف حقيقة نفسي، انصعت لأوامرك يا أبي غير مدرك لمشاعري وعندما سافرت وتغربت نضجت شخصيتي وفهمت الدنيا وخبرت الناس، توسعت مداركي حتى أدركت احتياجاتي من المرأة التي تشاركني حياتي ولا أجدها في شخصية ماجدة إطلاقاً.

شعر الأب بالعجز، تسمَّر في مكانه استنفد كل سُبل الإقناع ووجدها ضعيفة والغضب لن يحل المشكلة، ترك المكان مغتاظاً وفرَّ إلى مكتبه يصفق الباب بغيظ.

بينما تنفس فؤاد الصعداء بعد أن أطلق حمم معاناته وأزاح عن كاهله هذا العبء الثقيل ومزَّق خيوط القلق التي نسجت في ذهنه وهم الخوف.. لابد أن يرتب حياته ولا يترك أموره معلَّقه، هناك من تنتظره وتتوسم فيه الأمل والحياة.. يعرف أن لهذه الزيجة عواقب ولكنه سيتحمل كل النتائج بقوه وشجاعة.. فحياته ليست خطه اقتصادية تفرض عليه خطة استراتيجية ذات نمط منطقي جامد، إنه يتطلب واقعاً جديداً بناءً على

أحاسيسه وانفعالاته، فسعادته وشقاؤه من وحي إرادته واختياره، ولا يستطيع أحد مهما كان قريباً منه أن يمد يده إلى أغواره البعيدة ويحرك راداره الخاص، إنها ذاته، كيانه، حلمه الذي يتفسر خطوة خطوة، سيترك للزمن قياده كي يرتب له محطات الاستقرار دون قيد أو شرط، فالفنان مخلوق قدري يترك لأحاسيسه تكمش وتنبسط بأريحية الفطرة والتلقائية، ويعتقد أنه من الإنصاف أن يترك للقدر كي يصقله بشفافية وتناغم، فقد سئم حياة باذخة قائمة على الأتيكيت والبرستيج والبروتوكول.

وهو الآن مقبل على حياة لها رنين مترع بالأمل أيقظت قلبه المنكفئ من موات الروتين.

لكن هذا الرنين خفت بغتة.. لترجع به الذاكرة إلى إحباطات أخرست أجراس الفرحة.. وتركته في حزن وقلق، يتذكر صوراً عبرت في ذهنه لها مضامين سالبة، في أيامها الأخيرة كانت جميلة أشبه بموجة حب عاصف انحسرت عن شاطئ قلبه وتركته مهجوراً في مدها المعهود تغرق معه حتى الثمالة.. حتى كان التراجع سريعاً، اللقاءات الأخيرة شهدت جزراً مخيفاً آثار شكوكه، ظنها أمر عارض وانقضى ولهذا فقد فشل في أن يكون لها قمر.. في سطوته تجاذبات المد والجزر..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الفصل (٣)

أميرة الألوان

ثمة نساء من نوع خاص، لهن ذائقة مميزة ومناخ مبهج يطلي الأشياء بطلاء برّاق، اجتمعن في الصالون، هن صور لحكايات أخرجها الزمن من جوف الأساطير، يسكنهن العمر خارج حدود المألوف، ترحل أنفاسهن اللاهثة إلى أبعد مسافة تستوعبها أحلامهن من الصبا، المقاييس ضاعت في وجوههن النضرة التي تجردت من نضوبها التكويني واغتسلت بذلك البهاء المستعار من رواء النعيم والراحة.

تواجهك مالكة الصالون السيدة «أم فؤاد» تجلس بمكتبها الفخم من خشب الجوز المصقول، يحد أطرافه نحت ذهبي أعطى له المهابة والفخامة، فوقه زهرية من الكريستال بهيئة كفي امرأة تحتضن زهور دوار الشمس، بدا على هذه السيدة الانهماك في ترتيب بعض الأوراق وحساب واردات الصالون رغم معاونتها الفلبينية التي تنسق أعمالها وتتقنها بشكل كبير.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

يحطنها نسوة يترقرق الثراء في اختلاجات جفونهن المسترخية في دلال وبطر.. أدبر عنهن الشباب لفترة ثم عاد في أبهى صوره.. يثرثرن مع السيدة هند «أم فؤاد» ويتقاسمن وإيّاها قهوة المساء، روحها الطلية تخلق شيئاً من الحميمية لهذه الجلسة ينضح محياها ألقاً عندما تمسك عن الكلام ويحتار فيها المرء في أيها أجمل في صمتها الناطق سحراً أم في مبسمها المستبطن حزناً.. في نظراتها شرود مختال، حديثها يتيه في الفراغ والحيرة، بريق عينيها انكسار دفين يستثير فيك الفضول.

تقلب صفحات الكتالوج الكبير أمامها ثم تضعه جانباً قائلة بتذمر:

«لم يعجبني أي موديل!».

وتجيبها صاحبتها «أم خالد» بنبرة تشي بحسد مبطن:

«إنه يصلح لقوام الرفيعات جداً، أجسامنا قد ترهلت مع كبر السن».

كأنها تهمة تدرؤها عن نفسها:

«كل واحدة تتحدث عن نفسها، فأنا مازلت رشيقة وبمقاييس مثالية».

انبرت إحداهن بشيء من الاهتمام:

«هل تصدقن أن «ميادة» سافرت إلى بيروت وأجرت عملية شفط دهون لأردافها وبطنها ثم عادت كما لو كانت صبية في العشرين».

انتبهت الحاضرات وأصغين يطلبن المزيد.

وواصلت المتحدثة:

«وتقول أنها ستجري عملية شد لبشرتها في السنة القادمة».

امتعضت «هند»:

«كل هذه المخاطرة من أجل عيون الأزواج الفارغة».

قهقهت إحداهن وهي تشعل سيجارتها:

«لماذا لا نصارح أنفسنا، إننا نفعل ذلك لأجلنا نحن، لذاتنا، لرغبتنا» وتردف سوسن:

«وماذا نفعل إذا كانت صلاحية الجمال محدودة، نحمد الله أن ظهرت في عصرنا الحاضر عمليات التجميل هذه، طالما نملك المال والقدرة فلِمَ لا نجربها؟»

وأدلت أخرى برأيها:

«كل شيء يمكن تحديه إلا الزمن، إننا نكبر ونشيخ من الهموم، من الإهمال. ها هو زوجي يخرج من العاشرة صباحاً ولا يعود إلا في وقت متأخر من الليل حتى أني أمزح معه قائلة أخشى أن تكون قد نسيت طلة وجهي ما إذا كنت جميلة أو قبيحة، سيان عنده، عمله هو كل حياته واهتمامه».

اندفعت إحداهن متشككة:

«راقبيه جيداً فربما يوهمك بالعمل، هناك من يتخذ له

خليلة أو زوجة أخرى وتحسبيه مشغولاً عنك في زحمة العمل، كوني أكثر فطنة وحذراً».

تنهدت سوسن:

«نحن نطمع في كل شيء الحب، الثراء، الاهتمام، والجاه ينبغي أن نعتقد بضرورة التضحية عن أحد هذه الأشياء إذ لا توجد سعادة كاملة».

وتمسك هند طرف الحديث قائلة وقد بدا عليها التوتر:

«وماذا يمكننا أن نفعل، أزواجنا في سفر دائم إلى كل بلدان العالم ويرون في طريقهم أجمل النساء وأكثرهن فتنة، ولا ندري ماذا يحصل في غيابنا فزوجي لم يعد بحرارة حبه، فقد كبرنا معاً نمط تفكيره قد تغير، أحسه ضجراً، انطوائياً يجتنب ثرثرتي كزوجة تحتاج إلى من يسمعها، وأتساءل لِمَ لا نشعر بالملل نحن النساء؟ نبقى دوماً خلف سراب الأحلام وخيال العذارى وخفقة القلب التي تحدث فينا رجفة لذيذة، هل تصدقن أننا نبقى مهمشات في ذاكرتهم نبحث عن رونق الحب ودفء اللقاء؟ ويخفت صوتها، ويتلاشى في غيبوبة عارضة وكأنها طفلة لم تستيقظ بعد من حلم نزهة على شاطئ البحر، تمتد أصابعها المرمرية المطلية بنسيج زهري لتعبث بزهر دوار الشمس ثم التفتت إليهن بطرف حزين وهن مشدوهات إليها بترقب من يحتمل في باطنه حسد دفين إلى امرأة مميزة قد لفتت إليها الأنظار وشدت إليها القلوب، وتابعت هند بعد أن أطلقت زفرة حسرة..

«أحب هذه الزهور كثيراً، إنها تشبهني في كثير من الأشياء.. الشمس ملهمة لهذا الدفء يغمر النفس بإحساس جميل يجعل الروح متوقدة بالنشاط والحيوية فأتحدى كل عجز ومرض وشيخوخة.. وعندما تغرب شمسي أتذكر سنين عمري كيف تهرب دون رجعة».

تضيف إحداهن:

«ربما كانت خياراتنا خاطئة».

وتسترسل «هند» في حديثها.

«من الصعب التوافق مع طاقتين متضادتين».

وتسألها سوسن:

«ماذا تعنين؟»

تجيب «هند»:

«لا يمكن أن تتوافق امرأة عاطفية مرهفة الحس والشعور مع رجل مبرمج كالحاسوب لغته محسوبة بالأرقام يسخر من احتياجات الروح والقلب ويظنها أحلام الفاشلين».

وتوافقها أخرى:

«بعد سنين تنعطف حياتك باتجاه قهري فتقفين عاجزة عن التصرف، مثلاً بالأمس سافر زوجي إلى روما في مهمة رسمية حاولت أن أرافقه لكنني تراجعت بعد أن درست ظروفي جيداً

فابنتي على وشك التخرج، وابني يعد لزفافه القادم، ثمة أمور تضطرنا نحن النساء إلى ترتيب حياتنا بصورة مختلفة ولا يمكننا ذلك إلا بالتضحية، يشتكي زوجي إهمالي له، رغم أني بذلت أقصى وسعي إذ أديت واجباتي اتجاه البيت والأولاد.. إن للأبناء احتياجات ومطالب كثيرة تضطرنا إلى تفضيلهم على احتياجاتنا الخاصة، لا يقدِّر الأزواج أحياناً هذه الخاصية التي قد نفقدها مع مرور السنين، لكننا نصبها في الأولاد عبر تغذيتهم الروحية والمعنوية والمادية».

وتستطرد إحدى الحاضرات:

«هذا هو الخطأ الذي نقع فيه، فالزوج له الأولوية في الاهتمام خصوصاً وأن أزواجنا رجال أعمال وأثرياء، يملكون الكثير من الفرص».

وتسخر واحدة منهن:

«أية فرص؟ أتقصدين فرص الخيانة؟ ولماذا نوجه تفكيرنا في هذا الاتجاه السلبي؟ نحن نتحدث بإحباط وكأن كل أزواجنا متورطون في الخيانة أو كأننا زوجات مهجورات».

هند:

«ليس هذا القصد، إنما نحاول أن نطور حياتنا، نقوِّم الاعوجاج الذي يحدث، لا ننكر أن هناك محطة في حياة المرأة تقف على مشارفها خائفة، قلقة، يربطها الزمن بوثاق العمر

البغيض فتتحرج في هندامها، سلوكها، مواقفها، كل لفتاتها محسوبة ويظل الرجل في بحث عن الأنثى الناعمة المغناجة التي توقظ صباه».

نهضت سوسن من مكانها لتهم بالمغادرة.

استوقفتها هند:

«إلى أين؟ مازال الوقت باكراً.»

نظرت إلى ساعتها مشيرة إلى تأخر الوقت.

ودعتهن قائلة في طريقها:

«لا تنسوا معرض المجوهرات الهندية غداً في الشيراتون».

وكأنها عدوى مست الحاضرات لينسحبن وراءها حتى تركن الصالون ساكناً.

بدأت العاملات في الصالون يرتِّبن المكان ويحملن الفناجين الفارغة إلى المطبخ، ويعدن الأجهزة إلى نصابها والأغراض إلى أماكنها، كانت الساعة قد قاربت الحادية عشر ليلاً، أقفلت «هند» الصالون لتعود إلى بيتها حيث كان السائق في انتظارها قرب العمارة، الشارع هادئ، ساكن إلا من بعض دوريات الشرطة تتفقد الشوارع أثر عمليات إجرامية حدثت في العاصمة، كانت تستعيد شريط الحوار العاصف قبل لحظات، وفي داخلها طاقة ضجر صوتها يعلو فوق كل الأصوات، تركها رماداً، وبجهدها الذي تتكبده تبعث لهذه الخارطة الجميلة المنسوجة من حرير

البشرة ومضة حياة.. في أعماقها مدن مهجورة، وشت بذلك ملامحها التائهة، التي لا تستقر على حال لها أوجه القمر في اكتماله ونقصانه.. باطنها المعذب يحفر لوجهها مناخات متناقضة.. فمزاجها المرهف ينحدر بها في اتجاهات متناقضة يصعب رصدها في كل مرة.. في البدء كانت شامخة كنخلة محمَّلة بالثمر تذرع ردهات المعرض جيئة وسط حشد من الزوار بحضورها المتألق نجمة ساطعة صاغت من بريقها الأخاذ أجمل لوحة، وكانت تميس بقدها الأهيف بين صفوف الناس فتدير إليها الأعناق، عكست بوميضها جماليات توقاً وإبهاراً لوحة الخالق قد نسَّق تكاوينها فجاءت آية في الإبداع.

ارتدت في تلك الأمسية ثوباً فضفاضاً على طراز أندلسي أذياله الحريرية مطرزة بخيوط من ذهب تعتمر قبعة حمراء مغروسة في طرفها ريشة طاووس مقتناة بقصد الدهشة والإغراء، توليفة جمال جعلتها مثار نميمة وتندُّر.. وعدسات المصورين تحتار في التقاط الزوايا المثيرة تجتمع فيها كل مواطن السحر، التقته مصادفة.. بدا في هيبته المتعالية حالة مستعصية أيقظت فيها فضولاً غريباً، حدثت نفسها «من يكون ذلك الشاب؟» أرهفت السمع إليه يحدث صاحبه مشيراً إلى إحدى لوحاتها «إنها رائعة».. برغمها وجدت قدميها تأخذانها إليه وكأن في داخله طاقة جذب ساحرة، فانبرى يقول لها وهو مازال في وقفته المتأنية أمام اللوحة:

«لوحتك هذه أشبه بلوحة فنان إيطالي حضرت معرضه العام الفائت».

ارتجفت رجفتها الأولى، اعتقلت لسانها في دهشة، صمت امتزج فيها الخجل بالنشوة..

واصل:

«لكن، إحساسك فيها كان أصدق».

بصوت يرتعش وتنخفض نبراته عن الحد الطبيعي:

«ذلك إطراء أسعد به».

وبتخابث وهو يستمرئ انفعالها البريء:

«هكذا هم الصفوة من الفنانين يتواضعون أمام أي إطراء!»

نضح وجهها بالبشر، لزمت الصمت، تستزيده..

استطرد:

«أعرفك بنفسي»

أبدت تجاهلاً مصطنعاً:

«المهم شخصك»

«هاشم عبدالله رجل أعمال»

«تشرفت بلقائك»

غاب في طرفة عين، لكن بقى ظله يلازمها ليومين، أعجبت

www.mlazna.com-RAYAHEEN

به، باختياله الجامح وعنفوانه المستبد، فيه تلك المسحة المتمردة الحادة يصبغ الأشياء بلون واحد، غلبها بسطوته واقتحم وجودها الآمن بحزمه الذي اختصر التردد والتشتت.. لحظات ممغنطة بقوة جذب أسرتها إلى حد التشتيت.. فكانت طوال حفل الافتتاح تفكر به، ترك غيابه قلقاً في داخلها.. في كل يومياتها عاشت الألوان بجرأة وارتدت ثيابها ضمن ذائقتها في الألوان.. لون واحد لم تدركه إلا فيه.. اختزل ألوانها بلونه الخاص، خطبها واثقاً أن إبداعها يكمن في قدرتها على ضبط مزاجاته مع عقارب قلبها وحفل زفاف أسطوري كان مثار الحسد واللغط أميرة الألوان تزف إلى إمبراطور المال.. عاشت سنواتها ترحل عبر امتداد هذا اللون تتساقط معاقل ألوانها لوناً بعد آخر في خسارات مقصودة.. رهينة حب بقي مشتعلاً لا ينضب.. وانتفاضات مسكونة بحالة عشق تستمد حرارتها من تلك المعادلة الغريبة، شذّت عن غيرها في معادلات الزواج.. متصلب عندما تجيش بها المشاعر، شوقها إليه يتأزم ورواؤها المستحيل بقي معلقاً رهن أسباب غامضة في حسها الداخلي ترتاب في وسوسة مستديمة أن بأعماق هذا الرجل جرحاً غائراً يداريه، إنه مازال يجاذبها الحياة بسطحية واضحة.. ولدت ابنها فؤاد.. ثمرة حب غاضب يأسرها في حلم مستحيل ورجل تلهث وراءه كالسراب.. من يصدق أنه قد تزوجها؟ طوال هذه المدة بقيت مختبئة في أزرار سترته، تراقبه، تلاحقه، أين تركت الأخرى؟ ضالتك المنشودة.. أنفاسك تبعث رائحتها من

جوف صدرك.. وتبدد الفن من بين أصابعها المرتعشة قلقاً، أسكنها الوهم في بئر الحزن يتجدد في كل حين.. تسأله قبل ليلتين بعد أن راح في غيبوبة استقطعها من انشغالاته الكثيرة «أمازلت تحبني؟» يطلق قهقهة باردة ويشدها بآلية رتيبة «كل الحب يا مالكة قلبي؟».

تبتسم شاردة وعيناها أشبه بعصفورين يرحلان عبر شواطئ الحزن الذي لا يرحم.. ترجلت من سيارتها وانطلقت بخفة الريح نحو باب الفيلا، فاجأها الصمت والهدأة المخيفة، تسأل الخادم بدهشة «أين السيد؟».

«إنه في المكتب للتو أدخلت له الشاي».

تلفتت حولها، تستطلع آثاراً موحية بالسلب وحدسها غالباً ما يصدقها في مثل هذه الأمور.. انتبهت لوقع أقدام فؤاد آتيا عبر السلم يحتفي بها ثم يعانقها مشفقاً على هذه الرقة المكبوتة في نسيج مصقول، يشير إلى باب المكتب الموصد قاصداً والده والغضبة مازالت توغر في صدره:

«اسمعي يا أمي، أنا أرفض الزواج من ماجدة وقد فكرت أن أغير نمط حياتي، ووالدي يرغمني على حياة لا أتقبلها مطلقاً».

أثار غيظها دخلت على زوجها في المكتب وصدرها يلهث، غلبها الضعف عندما اصطدمت بعينيه الحادتين ينطلق منهما شرر ماحق.. ارتجفت.. صاح وهو أشبه بالبركان:

«سأجن من تصرفات ولدك».

«دعه يختار حياته، لا تقحمه في زيجة غير مستحبة».

اقتربت منه، إنه ملء كفيها، استدارت ناحيته:

«لِمَ تأخذ الحياة بقرارات حازمة وحادة؟ أرجوك افهم موقفه، فليس كل شيء في الحياة خطة عمل أو مشروع، إنه عاطفي وحساس وإرغامه على هذه الزيجة تدمير لشخصيته، لا تدعه يكرر محنتي..

بحزم يرد عليها:

«ما بكِ تحدثيني بهذا الانكسار، ألستِ سعيدة معي؟».

«سنوات وأنا ألهث وراء السراب، زوج يأتيني في المواسم، يدعني في انفجاراتي العصبية أحترق، ثم ينسحب بكل هدوء، قد أتقبَّل قدري بهذا المقدار، لكن لا أسمح لك أن تخضع ولدي إلى خططك وإرادتك بقهر واستبداد أخشى أن أخسره، فهو وحيدي في هذه الدنيا، دعنا نرضيه ونحقق له كل ما يشتهي».

«أفسدتيه بدلالك، نشأ ناعماً، رقيقاً بعيداً عن كل صفات الشدة والحزم».

«وهل تظن أن القسوة رجولة، والعناد قوة، إنه رحيم، عطوف وأشفق مخلوق عليّ».

صمتت على مضض لكنها احتوت الموقف بلسان ناعم:

«كم أحب قربك يا هاشم، رغم كل صدودك فأنا أحبك».

شدته بحنان من ذراعه قائلة:

«رافقني إلى الصالون لنشرب القهوة معاً، لا تدع هذه الأمور تفسد خلوتنا أنت دائم الانشغال عني».

وتبعها إلى زاوية شاعرية في الصالون قد رتبت لها متكأً مريحاً ومضت تربت على كتفه وتمسد شعره:

«اهدأ يا هاشم، دعنا نتفاهم في هذه القضية حتماً سنصل إلى حل يرضي جميع الأطراف».

وسكن هاشم في دعة روحها ورقة مشاعرها مستسلماً إلى دفء حنانها كظامئٍ قطع المسافات المرهقة كيما يصل إلى واحة مخضرة بالعشب والماء.

جذبته ليستند على المقعد بأريحية:

«أنت هنا الملك وأنا جاريتك، هل تحب أن تدخن الأرجيلة.. سأدع الخادم يعدها لك، لو عادت عقارب الساعة إلى الوراء لاستطعت أن أرصد آخر جلسة حميمة جمعتنا سوية.. إنها أشبه بحلم في ليلة صيفية كما يقول شكسبير».

وضحكت بوجه يتألق بشراً بيد أنه تألم كيف يسبب لها كل هذه المعاناة.. هل كان يملك قلبه حينما اختارها زوجة.. استنفذ كل منابت أعصابه الهامدة كي يستفزها من ذلك السكون الجاثم في كيانه زمناً.. لا يعرف النفاذ من هذا الجرح المستحيل

يظل رغم غوره يقف حائلاً بينهما.. موجات الحزن تنتابه فجأة وتقصيه عن الحاضر إلى ماضي بعيد جداً فتارة يستسلم لسكون أنوثتها تمتص فيه كل معاناة الغضب وتارة يفيق إلى واقع متناقض تفرضه عليه ذكرى قد ولَّت.. مازالت هند بتهذيبها ورقتها لم تمس السنون شيئاً من روائها، صوتها المتناغم مع انسياب مشاعرها الحارة، تثرثر معه بلطف وخفة وكان حضوره مازال بالنسبة لها ابتهاج دائم لم ينضب بعد وتبادله أحاديث متنوعة تأخذه من النقيض إلى النقيض، هادرة في فيضانها العاطفي تجتره من بئر فؤادها الظامئ.. ويصغي بشرود مرهق..

«المهم أنك تسمعني يا هاشم وتشعر بي، فأنت أحب الناس إليَّ».

رنين الهاتف يقطع حبل الود، ويبدد مناخهما الخاص.. تأخذ الهاتف غاضبة.

«دعه يرن.. لا ترد».

بيد أن مزاجه قد خرج عن نطاق الانسجام واستنفرت كل شوارده متجهة ناحية الهاتف.. فلم يسكن الرنين.. يئست من استعادة حضوره فرد بصوت حاد.. واستبدت به حالة غيظ بعد أن أصغى للطرف الآخر فعلق على الفور «دعني أدرس الموضوع قبل القرار».

انحسرت موجات الدفق العاطفي، وحل محلها انفعال قاتم، ترك زوجته حانقاً «سأذهب للمكتب، ثمة أمر طارئ».

ارتدت مشاعرها خائبة، وتولاها حزن شديد، صعدت إلى حجرة فؤاد وجدته منكباً على كتاب يقرأه بشغف، أقبلت عليه وجلست على حافة السرير.

«لا تقلق يا ولدي، سأتحدث إلى والدة ماجدة بنفسي وأسوي الأمر».

«أنا آسف جداً يا أمي لأني أعقَّد الأمور وأوقعكما في حرج، أفضل فسخ الخطبة الآن وقبل فوات الأوان لا يمكن أن تبنى حياة دون أساس من الرضى والمشاعر».

تنهدت الأم وكأن ابنها أصاب السهم في المرمى.

«أو يبقى حباً من طرف واحد».

«أجدك غائمة وحزينة».

«ما أحببت في حياتي أحداً حبي لوالدك، حب عذبني وكلفني طاقتي ومواهبي وكل عمري، لكني أجده بارداً، مهملاً، يتجاهلني باستمرار».

«أفهمك، فأنت مفرطة الإحساس من الصعب احتواء كل نقائضك الجميلة ووالدي رجل عملي يتعامل مع الناس والأشياء بآلية وروتين».

www.mlazna.com-RAYAHEEN

غيَّرت دفة الحديث إلى ناحية أخرى لتبدد أجواء الحزن.

«والآن حدثني عن زوجتك الفرنسية».

شدته من طرف أذنه مازحة:

«يبدو أنني آخر من يعلم».

شد نفساً عميقاً، استحضر الذاكرة المسافرة وابتسامة رضى تشرق في وجهه «آه يا أمي لو رأيتيها لأحببتيها على الفور، جانيت كانت حلم حياتي لها من الرقة والعذوبة أعجز عن وصفها، تخيلي أن هذه المرأة تحولت إلى قوة عجيبة بعد أن أسلمت وتغير اسمها إلى جميلة دافعت عن دينها وحاربت الجميع من أجل معتقداتها.. تغيرت بشكل مدهش، لقد ساندتني وآزرتني في دراستي ومعارضي، وكثيراً ما تنتقدني لاستخفافي بالصلاة والعبادة، هجرت دنياها الصاخبة وعاشت معي حياة الزهد، دخلت شقتي الفخمة وأدخلت عليها الكثير من التعديلات وكثيراً ما تتهمني بالإسراف والجنون وأنا أضحك ملء فمي قائلاً باستخفاف «تزهدين نعيماً تحسدك عليه كل نساء الأرض».

قالت الأم باندهاش:

«ماذا فعلت بها لتتحول كل هذا التحول؟! هذه متصوفة يا ولدي والأمر على ما يبدو مزعجاً بالنسبة لك».

«فيها من الصفات النادرة التي يتمناها كل رجل، دائماً لها

قلب يغفر، لا تترك النقائص الصغيرة والهفوات تنهش رباطنا، تثق بي وتؤمن بقدراتي، شعرت معها بالأمان والسكينة، تفهمها كان عوناً لي على نجاحي».

«شوقتني لرؤياها».

«حتماً ستعجبين بها يا أمي، إنها الآن مشغولة في إعداد رسالة الماجستير وحتماً عندما تواتيها الفرصة المناسبة ستحضر معي وتنعمين برؤياها.»

باقتضاب قالت الأم:

«رسالة ماجستير؟»

بفخر يرد فؤاد:

«نعم، فهي مثقفة جداً، ومطلعة على كل ثقافات العالم وتدرس الحقوق حتى أنها تتردد على كثير من المراكز الثقافية الإسلامية في أوروبا بحثاً عن كتب الحقوق في الإسلام لتعد مقارنة بين حضارتين وواقع حقوق الإنسان فيهما وتخص الحقوق في القانون الفرنسي والحقوق في الإسلام، تركتها وهي في لجة الصراع الفكري، تبحث وتسأل وتقرأ، معرضة نفسها للنقد والتجريح، لكنها شجاعة، لا تبالي بهذا الطوفان طالما هي مؤمنة بقضيتها».

تسخر الأم:

«إذن تزوجت من مناضلة! وهل تتوقع أن تدوم سعادتكما»

أجفل فؤاد فعاث يبرر بعدما لدغته أمه المزدرية:

«أنا سعيد بالمقدار الذي تمنحه لي، لا أنكر انشغالها عني في كثير من الأحيان، لكن يكفيني إحساس الطمأنينه التي وفرتها لي، لست مضطراً للدخول في المقدمات والنتائج المهم أنني احتضنتها وأويتها بعد أن هجرت دينها ولن أتخلى عنها مطلقاً.

أطرقت الأم، ثم أردفت وقد لفحها مس من الغيرة:

«صرت تتكلم بلسانها دون أن تشعر».

«وهل في ذلك ضير؟».

احتدت لهجتها:

«أخشى يا ولدي أن تسحب شخصيتك وتذوب فيها، أغلب الشباب يفقدون هويتهم عندما يتزوجون من أجنبيات.

«اطمئني يا أمي جميلة ليست من هذا النوع»

حدجته أمه بنظرات مرتابة، وجعلت تفكر بتوجس.

لكنه قطع الشك باليقين قائلاً:

«ما رأيك لو اتصلت بها الآن لأسمعك صوتها»

انتفضت متبرمة:

«لا.. ليس لي مزاج الآن.. عندي صداع، سأخلد إلى النوم.. تصبح على خير».

الفصل (٤)

أحلام تتحقق

بترتيب مسبق، وتوصية مشددة، التقى السيد هاشم (والد فؤاد) صاحب الشركة بالشابين «عماد» و«علياء» وهناك من استعلم بإفاضة عن جذورهما وتاريخهما وسيرتهما بدقة ليقدمهما إلى الكهل الذي أقبل عليهما بانجذاب لا يعرفان مكنونه.. هذا التجانس الذي لم تكن له سابقة في تاريخ السيد هاشم جعل ولده يفكر باندهاش عن سرِّ القبول لديه والاحتواء الحميم لهما بشكل لافت للنظر، غمرهما بروح فكاهة ودعابة بددت أجواء التوتر.. اجتنب معهما الرسميات الثقيلة فأقبلا عليه بانفتاح وأريحية قوضت المسافة فاختصرت المقدمات الطويلة.

أبدت «علياء» ارتياحاً من نوع خاص فإذا بها تداعب الكهل بطراوة كلماتها موجهة حديثها إلى فؤاد:

«إن أباك شاب فتي، وأظنه أكثر وسامة منك».

اختلس إليها الكهل نظرة متأملة، غاب على أثرها في ماض سحيق بينما واصلت:

«إن من يراكما يظن أنكما أخوان».

فؤاد مداعباً أباه:

«أنت محظوظ يا أبي شخصيتك تأسر الصغيرات دوماً».

وبدهاء أنثى تستطرد:

«الشخصية فقط» لا، يبدو أنك تغار من أبيك يا فؤاد، أنا أقصد هيئته الشابة وأنصحك يا عم أن تحصَّن نفسك من الحسد.

انكمش عماد بانزعاج، الجرأة الوقحة تبديها أخته برياء واضح، قدراتها الممتدة دون تحفظ تحرجه بشدة، تكشف خباياها بحماقة وتكلف.. أصبح عاجزاً عن تطويق جموحها، فوضويتها تصدم مهابته الذكورية كأخ مسؤول، تركها تمارس طقوس إغراءاتها بشكل سميج.. ثم تفحَّص بنظرة استطلاع إلى وقع كلماتها على الرجل المسن، لم يبد أي انفعال لافت وكأنه اعتاد هذه المجاملات.. وبدهاء رجل خبر الناس قطع سيل جنونها قائلاً:

«يبدو أن لكِ طموحاً في مجال العمل، وأعتقد أنكِ قادرة على فعل كل شيء طالما تملكين الحماس والإيمان».

تراجعت، وتصاغرت فجأة وكأنه كشف خبيئتها وفضح تزلفها السافر.

بلسان متعثر أردفت:

«أهم شيء هو شرف لقائك».

انبرى فؤاد يرطب أجواء الحرج:

«إنها قوية الشخصية قادرة على إدارة العلاقات العامة».

وجه الأب نظرة ناحية عماد يتفحصه بإعجاب، يتوسم في صمته قدرات خصبة فقال:

«في الغالب يثير إعجابي من يسمع أكثر ممن يتكلم فتلك هي الحكمة».

تضرج وجهه خجلاً.

قال السيد هاشم وهو يقلِّب الأوراق بين يديه:

«الشهادة والوثائق الرسمية هي إجازة مرور لدنيا الأعمال، لكن تهمني الخبرة والمهارة وأظن نشاطك اليومي سيفصح لاحقاً عن قدراتك».

مسه شيء من الإحباط فقال بصوت متردد:

«أنا مستعد يا عمي لأي تجربة تضعني فيها».

أطرقت علياء في استياء واعتراها نوع من الإحباط لكنها استعادت على الفور حيويتها عندما لمحت في عيني الكهل بريقاً

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ممتنعاً خالته نوعاً من الإعجاب فطربت نفسها وتدفق فيها النشاط.

«يكفيني فخراً أن أعمل تحت إدارتك».

قلَّب السيد هاشم نظره في الشابين، مشيعاً جواً من القلق والغموض وإذا بداخلهما حيرة وخوف، لا يعرفان ما يختبئ في عقلية هذا الرجل، بدا متردداً في قراره الأخير.. هل كان هذا اختباراً أم تمريناً لاكتشاف الشخصية وهل كان الفشل نصيبهما.. عبَّر وجه علياء عن خوف وخذلان فقد أخذ الرجل يجنح إلى المراوغة في حديثه.. عيناهما مصوبتان إلى فمه بانتظار الحكم النهائي الذي يتوقف عليه مصيرهما.. زفر «عماد» زفرة وكأن قلبه يرزح تحت ثقل كبير.. ولما بلغ بهما اليأس ذروته افترت شفتا الكهل عن ابتسامة حانية قائلاً:

«إنني على استعداد لمد يد العون لكما طالما أظهرتما لي استعداداً حسناً ولن يداخلني ندم على هذا القرار، فقد وطدت عزمي على قبولكما حينما لمست فيكما الحرص والاجتهاد».

خرج وهو يودعهما بإيماءة من يده.

رغم الاضطراب والتوجس بقي في أعماق علياء خيطاً شدها فجأة إلى هذا الكهل، شعرت فور خروجه أن طرف هذا الخيط بقي معه الشابان يثرثران بفرحة الانتصار وهي تغيب في لجة الفكر مستهامة.. صنف معقَّد من الرجال يستثير

رغبتها في اكتشاف مجاهيله حدثت نفسها وعيناها متجهتان إلى النافذة المطلة على الشارع.. حتماً له مفتاح سري أستطيع من خلاله النفاذ إلى قلبه.

انتبهت من شرودها إلى صوت عماد يسألها:

«ماذا تراك تقولين؟».

تهز رأسها مستدركة في صمت.

«ما بك؟»

بتململ قالت:

«نتحدث ملياً في الغداة، لست بحال جيدة».

عاد عماد يقول وهو منغمر في الموقف:

«كنت مستعداً لمواجهة أسوأ النتائج».

يربت فؤاد على كتف صاحبه:

«وهل أنت مستعد لهذه المخاطرة؟».

بثقة يؤكد عماد:

«جربني وسترى».

دعاهما «فؤاد» على عشاء فاخر في إحدى فنادق العاصمة.

تهمس علياء بتخابث وقد استردت وعيها:

«أنعتبر هذا احتفالاً ببلوغ القصد».

«هو كذلك».

مازال هذا الكهل يتردد في ذاكرتها وعيناها ترصدانه في شغف، هل هي لعبة جديدة تستثير فيها شهوة التحدي؟!.. إنها مندهشة لتقلبها المفاجئ، هل تراها تبحث عن فريسة تستفز مخالبها الشرهة وكان هذا الكهل طعماً لأحلامها العابثة.. ظنت في السابق أن «فؤاد» منتهى حلمها، هو الأمير العاشق الذي سيدخلها أميرة متوجة إلى قصر خرافي مترع بالنعيم، فتوهم نفسها أن زواجها منه يأخذها إلى الكمال حيث السقف الأعلى للثراء والنماء الأبعد لطاقاتها الجامحة.. عن اقترابها من هذا الحوت العظيم تصاغرت حوله كل الكائنات فبدت أسماك صغيرة تتلاشى في عينيها، تذوب حتى العدم.

يأتيها صوت السمكة الصغيرة «فؤاد» وقد أجلسها أمام المائدة يسألها عن خيارها في الأكل، وتمنت لو تأكل حوتاً.. كاد أن ينزلق لسانها في هفوة لتردد «هاشم، هاشم هو خياري الأفضل»، تسمع تطميناته تحسم حالة القلق داخلها.

«قد تكون مهمة شاقة يا عماد، لكني واثق أن قدراتك هائلة في إدارة حسابات الشركة».

وسأله عماد عن موعد استلام الوظيفة.

«الأسبوع القادم».

انبرت علياء:

«ولكن بدا والدك مترددا في قبولنا».

ابتسم:

«هذه هي طريقة والدي».

أبدت موافقة لما يقول:

«نعم يبدو أن له طريقة مميزة، وعلى أية حال فهو شخص يصعب فهمه».

حاول «عماد» إضفاء نوع من الثقة لفؤاد:

«سأخوض التجربة بنجاح وسأتعلم لأكسب الخبرة والمهارة».

قال فؤاد:

«سأطلعك على الملفات والكشوفات الخاصة بالإدارة، وسيكون معك أشخاص ذوي خبرة في هذا المجال، مهمتك المراقبة والإشراف والتدقيق في هذه الحسابات».

وأثارت علياء انتباهه بنبرتها المستاءة تغلفها بغنج مفتعل:

«يبدو أنني نكرة فلم أشعر أن لوجودي أهمية».

قال فؤاد بشيء من الحرج:

«الآن تتولى «ديانا» مهمة العلاقات العامة، يمكنك لفترة العمل تحت إدارتها لتكسبي بعضاً من الخبرة».

باحتيال قالت:

«أفهم من كلامك أنني مرفوضة مقدماً، وما كان قبولي إلا مجاملة».

حاول ترويض الموقف وترطيبه ليدرأ عنها الحرج:

«أنا لا أشكك في قدراتك، ولكن يفترض الخبرة في هذا المجال عليكِ اكتساب اللباقة والكياسة في معاملة المستفيدين والموظفين، حسب علمي أن «ديانا» ستترك الشركة مغادرة إلى بلادها بعد سنتين ولن يكون غيرك مؤهلاً لهذا الدور».

ردت باقتضاب مشوب بتوجس:

«سأثبت لك أنني الأكفأ».

عاد الشابان بعد دعوة العشاء تغمرهما نشوة الظفر، وتفاجأت علياء بثورة أخيها يعنفها قائلاً:

«كنت غبية وحمقاء، تتصرفين كالجائع الذي سقط على وليمة ينهشها بنهم، لا تعرفين كيف ترسمين خططك بحكمة؟».

«ماذا تقصد؟».

«تمهلي دائماً في تقبلك للأشياء حتى لا يفسر اندفاعك تفسيراً خاطئاً».

ابتلعت الغصة وانتحت ناحية بعيداً عن أخيها، تقلّب أفكارها المشوشة تتشاغل بهاتفها المحمول وهي شاردة.. فقد ألقمها حجرة ألجمت لسانها وشلتها عن كل تعبير».

السيارة تنهب المسافات بسرعة وتقربهما إلى البيت ونسيم الليل البارد وحده استطاع أن يهدئ من روع الفتاة، عرَّضت نفسها للملامة والتقريع، قد نتصرف بحماقات لا ندركها إلا بعد فوات الأوان.. وإذا بإحساسها يختلج في نقائض الأفكار حتى استقرت على مرفأ واحد، إن هذا الكهل وعدها المنتظر.

«هيا..» قال لها «عماد» وقد فهم لوعتها.

دخلا البيت وهما مفعمان ثقة وشت بها ملامحهما المرتاحة، كانت أمهما تجلس على كنبتها الخاصة تقرأ القرآن الكريم، كل شيء حولها يوحي بالسكون رائحة الطهر وعبق النظافة، أقبلا عليها يقبلانها.. صاحت علياء بصوتها المرح وصخبها المعتاد:

«أين فداء؟ لا أجدها معك؟».

ردت الأم دون أن ترفع رأسها عن المصحف:

«إنها في الداخل».

دلفت «علياء» إلى الداخل بينما جلس «عماد» قرب أمه يحدثها عن تفاصيل اللقاء.. كانت فداء جالسة على مكتبها بهيئة توحي انسلاخها عن المرئيات حولها، منهمكة تكتب واختلاجات عينيها تنضح دفقاً من المشاعر حصيلة انفعالات شخوص قصصها هو مزيج من شخصيات ترسمها في الذاكرة.. وأصابعها المرتعشة تعزف على ورقها نبضاً صادقاً يشف عن رقة وإحساس مرهف، تباغتها «علياء» وهي تقفز كقطة مشاغبة من خلفها.

«مرحباً بكِ أيتها الكاتبة العظيمة».

تلتفت إليها«فداء» وقد انتفضت فزعة:

«لا أحب أن تفاجئيني بهذه المشاكسات، فقد قطعت عليّ حبل أفكاري، بامتعاض تجفل علياء:

«آسفة يا حضرة الأديبة».

واستعادت «فداء» روعها لتمضي في عملها متجاهله أختها».

بينما ارتمت «علياء» على فراشها مبهورة الأنفاس، تمسح الجدران العتيقة بعينيها المبهوتتين وقد طار شعاعهما إلى أبعد من فضاء الغرفة تستحضر صور الحاضر القريب وقطوفه الدانية إلى النعيم بنهم صبياني أرعن طاشت رغباته في كل اتجاه هي أشبه بالصادي الذي أرهقه السير حتى عثر على دوح مخضر مترع بالخضرة والنبع.. إلى متى هذا الاندثار تحت طيات الفقر وذاتي مفعمة بالحيوية والطموح.. فبريق الزمن القادم يغويها أن تقتحم المجهول وتلقي نفسها في عبابه، تتأوه وهي تتقلب في لوعة شيء في داخلها كالغربال يصطخب ويكاد ينفذ من صدرها المختنق.. استدارت فداء ناحيتها مندهشة.

«ما بكِ ملتاعة.. تتأوهين؟».

غابت، كالمأخوذة، تغمض عينيها وتهمس كأنها عاشقة غارقة في لجة العشق:

بهرني «هاشم» والد فؤاد، إنه فارسي المنشود، كل ما فيه شدني إليه بعمق».

تصمت «فداء» وكأن في صمتها دعوة للاستطراد، ومضت علياء دون أن تكبح ولعها..

«إنه رجل غير عادي».

وتستحثها فداء:

«وماذا بعد».

جلست القرفصاء وكأنها تنهض من غيبوبة واستتلت:

«لكن ما الفائدة؟ رجل صعب المنال، كم كنت أتمنى لو كان لي أب بهذا الحجم والقدر».

«وماذا نفعل إنها الأقدار يا أختاه».

«الأقدار ظالمة أحياناً تهب البعض كل النعيم وتمنع عن الآخر أقل الفُتات».

تبتسم فداء ابتسامة ساخرة:

«هكذا أنتِ، ساخطة على قدركِ دائماً».

«تعرفين أنني لست انهزامية أبداً بإمكاني أن أوجه مسار قدري بالصورة التي أريدها.

وفور دخول أمها تلزمان الصمت.. تحمل ثياباً قد انتهت من

كيها تواً، تضعها في خزانة الثياب، ولدى اقترابها المتعمد من مكتب فداء.. أطلت على الورق وهي تسأل:

«هل انتهيت منها؟».

«لازالت النهاية عصيَّة عليّ يا أمي».

ثم وجهت حديثها إلى «علياء».

«تصبرين عليّ هذا الشهر فمدخراتي لا تسمح بشراء الثوب الذي طلبتيه».

استاءت:

«تصرفي يا أمي فأنا الآن موظفة في شركة كبيرة، حتماً سيكون لمظهري الأثر في استحسان الناس وقبولهم».

«خلال شهرين سأستلم نقود الجمعية وسأمنحك ما ترغبين».

وبضجر تواصل الفتاة:

«تهتمين بالطعام أكثر من الثياب، لا تعرفين كيف يعيش العالم الآن، فالدنيا مظاهر، قد لا يأكل الإنسان ما يسد حاجته لكنه يرتدي ما يعجب الناس».

«لا أستطيع مجاراتك في هذه الفلسفة».

«اصبري علينا، سنعمل أنا وعماد وسنعيش جميعاً في حياة مرفهة سعيدة»، شد انتباهها نداء «عماد» في الصالون يدعو

أمه لترد على الهاتف.. تباطأت بعض الشيء، لكنه ألحَّ في النداء قائلاً:

«إنه أبي يا أماه».

صمتن مذهولات.. تسمرن في مكانهن، الدهشة عقدت لسان الأم لبرهة ثم انبرت منزعجة، متوجسة من المجهول «ماذا يريد بعد هذا الغياب؟»

علياء بتهكم:

«أب النحس».

تنهرها «فداء»:

«مهما كان فهذا والدنا لا ينبغي التطاول عليه أو المساس به».

بدت الأم مترددة، تولتها حيرة، عجزت عن التصرف لكن نداء عماد المتواصل وهو يحمل سماعة الهاتف عجلها لترد:

«نعم؟».

«كيف حالك ثريا؟ وكيف حال الأولاد؟».

بلهجة مقتضبة:

«بخير»

صمت، ثم تلعثم، نبرة خجله تتوارى خلف حقيقة يحاول التكتم عليها سارعت ثريا على الفور:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«ها.. هل توفيت المحروسة زوجتك لتأتيني ظافراً منتصراً بالغنائم كما زعمت قبل سنوات».

أجهش باكيا:

«هذه الحرباء حملتني فوق طاقتي وجعلتني وسيلة لتنفيذ مآربها».

يشتد بكاؤه..

صعقتها الدهشة، فردت بحزم:

«وأتيت لي تائباً مستغفراً».

«سأدخل السجن، فقد تراكمت عليَّ الديون الثقيلة».

مذعورة :

«ماذا فعلت؟».

«وقّعت على شيكات بدون رصيد بحدود خمسين ألف دينار».

انقضَّ عليها بهذه الحقيقة المرة فأحست بقواها قد انهارت وأن رجليها تخذلانها، السماعة ترتعش بين أصابعها.. إنها على حافة الانهيار اقترب منها الأولاد عندما لامسوا شرودها المفاجئ، صاحوا مذعورين:

«أماه.. ما بكِ؟ ماذا حدث؟»

بذهول:

«أبوكم في محنة».

احتضنتها فداء وأجلستها على الكنبة:

«ارتاحي يا أمي، هدئي من روعك».

سقتها بعضاً من الماء.. وفجأة انتفضت باكية تردد بحشرجات جرح لم يبرد بعد:

«كنت قد أقسمت قبلاً أن أقطع صلتي به للأبد، وها هو اليوم يعود إليَّ منكسراً، استفزَّ كل مشاعري وأحاسيسي».

تقبِّلها فداء بحنان مرددة:

«كم أنتِ طيبة يا أمي».

استبد الخوف بعماد متسائلاً:

«ماذا حدث له؟» ماذا فعل؟.

قالت دون تردد:

«سيدخل السجن».

انتفضت علياء في مكانها:

«يا للعار».

وبغيظ يضرب عماد بقبضة كفه الحائط:

«المصائب تلاحقنا في كل مكان».

ويفزع هستيري راح يتمتم وكأنه يحدث نفسه مستعرضاً حياته الجديدة:

«سيؤثِّر هذا الأمر على عملنا، على سمعتنا، خططنا، ستضر حياتنا ماذا سنفعل؟!».

وتستدير «علياء» حول الغرفة في حيرة تثرثر كالبلهاء:

«أحلامنا سقطت على الأرض.. أبونا عار علينا».

فجأة ودون سابق إنذار تصرخ الأم بهما غاضبة:

«اصمتا واغربا عن وجهي».

يفقد عماد زمام أعصابه فيعنف أمه:

«تدافعين عن المجرم البائس الذي اسقطنا في الوحل».

تثور ثائرة الأم فتلطم وجهها وهي أشبه بعصفور ينتفض من البرد، ترتعش أوصالها، تخرج الكلمات من فمها حارة، مبهمة المعاني، كأنها تائهة في مجاهيل سحيقة تتخبط في فضاء الأفكار دون كابح.

«اغربا عن وجهي لا أريد التحدث في هذا الأمر».

فرَّ الشابان إلى حجرتيهما بينما لبث في مكانها وحيدة مطرقة، انبعاث مفاجئ لقصة الأمس تنهش بكامل طاقتها صور الذاكرة العتيقة لكن الحديث الآن أحيا فيها الطراوة والحرارة.. وكأن البدء كابوس لم تفق منه بعد.

الفصل (٥)

همس العيون

سـيـارة الأجـرة تندفع في ليل باريس المضيء، مـصـابيح الأعمدة الشامخة تتراقص أذيالها على سطح نهر السين الممتد في أخدود هادئ يشمخ بماضيه العتيق الأرصفة والطرقات تسبت في خوف، هذه المدينة تغفو على قصص عشق بددها الحاضر الدامي، ترقد في العتمة أشباح المقاهي تغزل من ضوء القمر حكايات (لامارتين).. ترقد في عتمته حكايات لبشر متناقضي الهدف.. أفواج تسهر في المقهى وحلم الزمن البعيد يستعيد نشوته بعزف سمار الليالي حينما ينشد أهازيج الشوق.

والمرأة الساكنة في السيارة تذرف الدمع السخين، تختفي المرئيات أمام صورة مصلوبة في وجدانها كالقدر، تجفف دمعها وهي تسترجع الأحداث وتقلِّب الماضي بحسرة وألم، تناجي نفسها حينما تعبر محطات مزدوجة أشبه بهذا الطريق المتعرج الذي يأخذها إلى غايتها.. لِمَ فعلت كل هذا بنفسها؟ «حالاتها

المزاجية السوداوية أرهقت أعصابها فبدت في نوبات هستيرية مرعبة، كم من المرات دعوتها أن تترك هذا الشاب؟».

شدت نفساً عميقاً والمقلتان تفيضان، تتذكر شقيقتها الصغرى «سالي» منذ طفولتها والنحس يطاردها، حينما كانتا تسبحان في البركة المتاخمة للبيت أوشكت أن تغرق لولا أحد المارة استنجدت به لينقذها، ثم في مرحلة الصبا تعرضت لحادث سيارة رقدت على أثره ثلاثة أشهر في المستشفى، محطات خطرة كان لله اليد الطولى في إنقاذها، اليوم تختفي سالي عن الحياة، تقتل نفسها عمداً تستهين بجمال روحها وتطلق العنان ليأسها أن يلتف كطوق خانق حول عنقها من أجل رجل بائس حطم كل آمالها وألقاها مهملة على قارعة الزمن المرّ.

«توقف هنا».

دفعت إليه الأجر وترجلت مسرعة.

وعندما دفعت المفتاح في قفل الباب، تعذَّر عليها الأمر، ثمة شخص في الداخل.. ويفتح الباب فجأة.. وإذا به زوجها فؤاد، اندفعت إليه وهي في حمأة الحزن المريع «فؤاد، سالي انتحرت!».

تسمَّر في مكانه غير مصدق:

«ما السبب؟».

مسحت مدامعها وهي تلهث:

«منذ فترة وهي في خصام مع صديقها فيليب» كانت المسكينة تحبه حباً شديداً وأخلصت له بكل مجامع قلبها بيد أنه متقلب غشاش، حاولت إقناعه بالزواج بعد أن حملت منه وجمعت مبلغاً مناسباً كي يؤثثا بيتهما، سرق المال وهرب، كم كنت أحذرها من ألاعيبه وخدعه.

يسأل فؤاد وهو مازال في دهشة:

«وهل يستدعي ذلك الانتحار؟».

واستتلت:

«منذ فترة وهي تعاني من انهيار عصبي، وهذا الرجل كان يتلاعب بعواطفها يستهين بمشاعرها والمسكينة كانت تبحث عن الاستقرار والأمان، وعُودهُ أشبه بالسراب، نصحتها أن تتركه فهو لا يستحق حبها، فتلتها اللوعة، تحملت حتى فاض بها الكيل وبلغت روحها ذروة اليأس».

استراحت «جميلة» عندما ألقت نفسها على الكنبة ومضت تتمتم في صوت هامس:

«أشعر بالذنب يا فؤاد، كانت تحتاجني دوماً، لم أسعفها بالوقت المناسب شغلتني أعمالي وأنشطتي عنها ونسيتها في غمرة مشاكلي الخاصة كم أنا مذنبة، أشعر بالألم يعتصر فؤادي».

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يجلس «فؤاد» بقربها ويمسِّد كتفها بحنان:

«لستِ مذنبة، هم الذين قطعوا حبل الودِّ بعد أن أسلمتِ، وقفت هذه الجفوة بينكما حائلاً وبادرتِ كثيراً في رأب هذا الصدع دون جدوى إذ حمَّلوك وزراً لا ذنب لك فيه».

«كنت أحبها، شقيقتي الوحيدة، تربينا معاً ونسجنا أحلامنا الوردية فوق غيمات الزمن الماضي، جمعنا طريقاً واحداً، أحببنا الرسم وتمنينا أن نؤسس معرضاً مشتركاً لكن الأقدار فرقتنا، وهذا المنعطف القهري قوَّض حلمنا لكن.. وآه من لكن.. قلبي كان معها يتوجس أن تضيع في دروب الغربة لوحدها إذ لم تستطع الأيام أن تنال من حبي لها أبداً».

صاح فؤاد:

«كفي عن لوم نفسك، فقد حصل المقدر وليس لك يدٌ فيه».

شدت نفساً عميقاً وهي مطرقة:

«سأجهِّز لك العشاء ريثما تأخذ حمامك» قالت وهي تنهض بتثاقل متجهة إلى المطبخ، وعصفت في ذاكرة فؤاد صور مشوشة عن لحظات غابرة كانت مثار اهتمامه وحافزاً لنقده، التقى «سالي» في المقهى جاءت لتزور أختها وحدث بينهما لقاء خاطف وأبدت سالي وقتها رغبة في زيارة معرضه.. لازال يتذكر وقع أقدامها الصغيرة وهي تخترق الطاولات المتراصة بحركة عصبية وبجسد صبياني غابت عنه معاني الاكتناز، منذ

اليوم الأول أدرك حالتها القلقة وشرودها اللاواعي، استثارت فيه الشفقة وتمنى لو تستريح هذه الملامح بعض الشيء لتهدأ صاحبته، منذ أن عرفها وهي في خصام مع نفسها حاول في مرات عدة أن يعقد مصالحة مع ذاتها المتأرجحة وإذا به مهتز مع ذبذباتها السريعة.. كان يقول في نقيضتها جميلة «جانيت سابقاً» مقدرة في نسيج خاص قابل للمرونة، تتكيف بانسيابية دون أن تفقد خواصها المميزة.. سكن في روحها مترعاً بحنان مزروع في دمها كالهرمون».

«ألم تأخذ دوشاً؟ قالت وهي ترص الأطباق على الطاولة».

أفاق على صوتها المنغَّم مبتسماً إثر المقارنة، وشعر بالفارق الكبير بين من تعلن عن نفسها عبر مقدمات وبين من تفرض نفسها وهي صامتة.

ومضت تثرثر ودبيب أقدامها الناعمة في غدوها ورواحها تلهب مشاعره الساكنة:

«آسفة يا فؤاد، جئت لتفاجئني بزيارتك السعيدة وإذا بك تصدم بمصيبتي العظيمة، كنت أتمنى لو كان لقاؤنا في وضع أفضل، سامحني عزيزي».

احتوى المسافة بينهما وكان في اقترابه منها ملغوماً بالشوق.

دفعته بحنان ورقة:

«سأجهِّز ثيابك الآن».

«تناولت العشاء في الطائرة، أعدي لي بعض القهوة ريثما أنتهي من الحمّام».

كان بيتهما الصغير أشبه بلوحة فنان قد اختزن قصص العشق إحساساً ليذرفه ألواناً متعانقة بمزاج متعطش إلى الاحتضان في الجدران والنوافذ متصلة بالنباتات المتسلقة بوصال متقد الإحساس، أرائك مخملية بلون العناب تبعثرت بتمرد يختزل نزعة فنان قلق.. سجاد وثير اشتراه «فؤاد» من إيران في أضخم مزاد في (تبريز) ميله إلى التراث والفن جعل كل مقتنياته تنفيساً عن هذه الذائقة الفنية المتضورة بدمه، جنون الألوان وهي تنساب بأريحيـة في تمازج حنون يعطي لمكانهما حياة دافئة، تغمرك شاعرية متسربلة بخيوط من حرير تنسج لك ثوب أمير مغرم في عصر الفرسان.

«ارتدت «جميلة» أجمل ثيابها ووقفت كرمح انسلّ من شق مسحور تمشّط شعرها الذهبي المنساب بأنوثة، وتحدّق في مرآتها تتساءل عن سرّ زيارته المفاجئة هذه المرة، فمن عادته الاتصال هاتفياً قبل الحضور».

وفور أن دلف إلى الغرفة سألته:

«كيف وجدت الأهل هناك؟».

«بخير».

«فاجأتني زيارتك!».

«لم يكن هناك تخطيط مسبق، إذ جاء الأمر بشكل تلقائي

«تبدو منزعجاً».

اقترب منها..

تراجعت خطوة بدعابة تقول:

«ليس قبل أن أعرف ما بك»

«الشوق لا يعرف المقدمات»

تركت نفسها له، تشاغلها في العمق استغاثات سالي الحزينة.. مسحة اقتضاب كست وجهها الذي ارتوى فبدا كعنقود العنب طفحت منه نداوة السكر.. هزها معنفاً:

«لم أعد أجدك رغم قربك الحميم، في كل مرة أعود لأرى ذهنك مشتتاً بصراعات لا تنتهي وهموم لا تقف عند حد، شرودك وضعني في مهانة لا أقبلها مطلقاً».

حاولت أن تسترضيه:

«أرجوك، تفهّم ظروفي، فأنا للتو سمعت بهذه المصيبة فكيف أتوافق معك وأنا معتلة المزاج؟»

استدار في غضبة سريعة تاركاً المكان وهو يشعل سيجارته:

«غابت السعادة التي قطفت ثمارها في أول الطريق»

انتفضت:

«تصريحك خطير يا فؤاد»

بإصرار لا هوادة فيه:

«يمكنك أن تنتبهي إلى نفسك ما عدت كسابق عهدك، مشاغلك الدراسية، صراعك العقائدي استهواكِ بشكل وضعتيني في الهامش».

صرخت بعنف من لسعتها حرارة الجرح:

«لم أهمشك أبداً، فقد وجدت أن بعض الأعمال هي من صميم واجباتي كقضية المسلمات المحجبات ووضعهن البائس، حاجتهن إلى موقف دفاعي يعيد لهن كرامتهن.. هل تعترض على هذا النشاط وأنت المسلم، ألا يمس هذا غيرتك على العقيدة؟!»

معترضاً:

«وما يعنيني أنا بهن، وهل خلقني الله كي أغيِّر الكون».

بدت حانقة:

«لا أدري ماذا بدر مني كي تجرحني بهذا الشكل».

«مضطر أن أقول لكِ أنكِ أصبحتِ مملّة أشبه بدمية من ثلج»

ثارت ثائرتها:

«أنت تجرحني بدم بارد يا فؤاد، تتهمني تهمه لا أستحقها»

«ليست تهمة، إنه إنذار لكِ كي تتفهمي مشاعري»

هبَّ على الفور إلى خزانة الملابس ليستبدل ثيابه..

وعندما همَّ ليخرج نادته بصوت ملتاع:

«إلى أين؟».

«أحتاج أن أشم الهواء»

وبصوت يختلج فيه الأسى والخيبة:

«إبق أرجوك، دعنا نتفاهم»

أعرض في غضب.

وما أن صفق الباب منزعجاً حتى ارتمت جميلة على سريرها باكية، تستعيد لحظات اللقاء باندهاش وتشتت، لا تدري كيف تحتوي قضاياها الكثيرة التي ما برحت تستحوذ على ذهنها وتمتص طاقتها ومخزونها العاطفي.. منذ أن أسلمت وهذا الشرخ الناتئ في جسد العلاقة أوشك أن يتحول إلى فجوة.. التباين الكبير في الفكر والهدف جعل قلبيهما يضطربان في مسارات متعرجة، في لحظة توق تغيب الفكرة، ويذوب العقل.. وإذا بالحس ينهش كل المنطق في العلاقة وحدها العاطفة تجرفهما في حمأة الانصهار.. وبعد السكرة ونشوة الغياب يستفيقان على واقع متناقض بكل ما فيه من هزيمة وإحباط.. أجهشت في البكاء منهارة الأعصاب، مخذولة، إنها تحبه ولا تفكر في فصم الرابط، يوم أن كانت جانيت أخذنها كلها بمجامع روحها وعقلها حتى استوطن قدرها وخلق لها مساراً يتوافق مع

www.mlazna.com-RAYAHEEN

مزاجه الخاص... والتفتت إلى حاضرها مستدركة في سرها عن مواطن النقص والتعثر وتتذكر كيف كان في بعض حالاته يفيض ابتهاجاً وشوقاً.

انكمشت في مكانها خائفة، أرعبها انطفاء عينيه، وتبدد رغبته.. احتضنت الوسادة بذعر وكأنها سفينة بلا ملاَّح، عصفت في رأسها الأخيلة السوداء وتدافعت في صخب «كيف سأعيش بدونه؟ إنني أحتاجه، أحبه، أين أذهب والكل هنا يشهر مخالبه ليفترسني بعد أن هجرت ديني».

مازالت تراودها أفكار مشوشة تشدها في تيارات معاكسة، «ندوتها» التي تتضمن حقوق الإنسان موعدها بعد ساعات ولم تستعد لها تماماً، جاء يباغتها في زيارة خاطفة ليعطلها عن نشاطها، إنه رجل متطلب، لا يكف عن معاملتي كجارية مشتهاة تخضع لرغبته متى ما استبدت به، ليته اتصل قبل هذا الموعد لنظمت جدولي بطريقة مريحة لي وله «وما زاد من ضيقها نقده الجارح، طعنة صوبها إلى أنوثتها المتدفقة التي سلبت لبه في يوم ما، التفتت إلى حقيبته الملقاة على أرض الغرفة تناجي نفسها:

«حبي هكذا.. يسافر ويرحل في هذه الحقيبة.. إنه لا يعرف في كل مرة أن في وحدتي لوعة أقفلها في قلبي كما يقفل هذه الحقيبة» تولتها حيرة «لم يكن هكذا عندما عرفته؟ ينبغي أن أسترده بذكاء، بمهارة، لمَ كان قلبه معرضاً عني بهذا الشكل؟

أخشى عليه من انفعالاته الصاخبة واندفاعه المحموم، إنه ثري ووسيم وكثيرات من يترامين تحت أقدامه».

جلست عند مكتبها لتعد ملف الندوة، عقلها شارد، قلقها يبدد الفكرة، إنها واقعة في متاهات كبيرة، لكنها في النهاية استسلمت استسلام العاجز الذي فقد كل أسلحة الإنقاذ.

وكان فؤاد جالساً قرب بحيرة ساكنة قد اشترى مجلة «نيوزويك» واتخذ له ركناً قصياً مستظلاً بأغصان شجرة كثيفة حجبته عن المارة.. تهدت حواسه بعد حالة توتر ألمت به وإذا بنسائم الطبيعة وصمتها المتبتل يشيع في نفسه الراحة والسكون، رحلة تأملاته الصامتة عندما يخلو بنفسه ويناجي السماء المطعمة بحبات من نور، تحيي فيه شاعرية ناسك يجعل من مدارج الروح صلاة ذات نمط خاص، ويحول ناظريه إلى البحيرة وكأنها عيناها الزرقاوتان، يتذكرها، جميلته المتبدلة الأطوار يخضعها الطقس لتقلباته المفاجئة، يحاول أن يبرر افتعالها كعارض، نسيت في غمرة انشغالاتها رهافته كفنان يستشف من نسيج ثيابها باطنها ما بين الصخب والنضوب، ليس هو ذلك النوع من الرجال يستهويه البدن مهما كان منسقاً وجميلاً طالما كان إشعاعه الباطني منطفئاً يبقى أشبه بلوح ثلج أو كيان معطوب.

أطلق زفرة مكروبة وهو متخوف، متشكك من هذا التلاشي التدريجي لها.. كانت ملء كفيه، ملء أعماقه، غادرها الدفء

العاطفي فغدت كلوح ثلج، في كل يوم تواجهني بقصة تستكمل ملامحها بخيوط وجعي الدفين.

غادر المكان موزع البال، شارد اللُب، يخوض في عباب أفكاره كملاح تائه، اقترب من إحدى المقاهي ليشرب القهوة تحت ضوء الشمس وانبلاج الصبح بتدفق حيوي يرمق المارة وهو متثائب بخمول، الشارع كان ساكناء تذكر أنه يوم الأحد عطلة البلاد حيث ينام الناس إلى ساعة متأخرة من النهار، صور مقلقة تتثاءب معه ويجد نفسه مرغماً على تقبلها، ترك الأولى معلقة لفترة كي يختبر قلبه، (فماجدة) رقم مجسَّم في قالب إنسان يستثير لعاب والده كي يضمه إلى إمبراطوريته، وهذه المتبدلة الأطوار حبه الأوحد يختل ميزانها فجأة ويبرر لها ولأكثر من مرة وظن أن مزاجها قد يستعيد حيويته، بيد أن انطفاءها مزمنة تنخر في وصالهما.

اشرأبّ عنقه على حين غرة ثمة قادمة من بعيد تلوح بيدها قال محدثاً نفسه «إنها جميلة.. كأنها آتية !!».. همَّ لملاقاتها وإذا بظنونه ذهبت سدى فقد ألقت نفسها في أول سيارة أجرة استجابت لإشارة يدها. رشف رشفته الأخيرة من قهوته المرة وهو مستغرق في الفكر، من يصدق أن هذه هي جانيت، قررت أن تشق طريقها لوحدها بقوة وإصرار، القطة الأليفة التي ما لبثت أن استأسدت في مجتمع صاخب وجهت له حرابها النارية غير مبالية بالعواقب تتركني في وحدتي مهملاً مهمشاً، فما

نفعها لي بعد الآن وقد تبدلت مشاعرها من النقيض إلى النقيض.

رن هاتفه وكانت جميلة يأتيه صوتها لينا ناعماً:

«حبيبي.. انتظرني فقد خرجت لعمل طارئ وسأعود بسرعة».

أقفل الهاتف غاضباً دون أن ينبس بحرف.

وعادت تتصل ثانية مبررة حرجها:

«لقد انقطع الاتصال»

بجفاء يرد:

«لستِ مضطرة إلى الاستطراد والتبرير»

«أراك بعد ساعتين»

تركها تثرثر على الهاتف مبررة موقفها بينما لزم فؤاد الصمت، شاعراً بشيء من الانكفاء والضيق، فأنهى المكالمة بنبرة مقتضبة.

«اتركيني أرجوك».

بطاقة تحترق داخلة اتخذ طريق الرجعة إلى البيت حيث ركنه الخاص معتنقاً لوحاته وألوانه.. تذكر أن المعرض على الأبواب وباريس متعطشة إلى بصمته الفريدة حينما تمزج الشرق والغرب في لون خرافي.. هناك في انتظاره الوحدة

الباردة، يعود إلى ذاته مبعثراً لا تفهمه إلا اللوحات الناطقة هي وحدها من تجسد ارتعاشاته المحمومة وقلقه المتحفز.. بعيداً عن المؤثرات يطلق سراح روحه فتشاغب وتثرثر وتعربد متمردة على كل قيد.. ويزج نفسه في إحدى اللوحات تتقمصها النهاية المقنعة.. عصت عليه الرؤيا، وتبدد الإلهام احتد مزاجه وإذا بريشته المغامرة تطعن في قلب اللوحة نزفه الأزلي.. يركل برجليه إحدى الموائد الصغيرة لتنقلب الأواني عليها وتتكسر ارتمى على الأرض مختنقاً بإحساسه العاصف، ثورة غضب أشعلت فتيلها محبوبته الحمقاء.

كتب رسالة صغيرة «كل شيء بيننا قد انتهى». ألقاها على المائدة ووضع فوقها زهرة حمراء إذعاناً بالذبح المهين.

أعد حقيبته على عجل وغادر الشقة.

ولدى عودتها، جاءت جميلة محملة بالأكياس كما هي مترعة بالنوايا الطيبة والمقاصد البريئة وباقة ورد عنوان اعتذار في قانون المحبين.. بوجه مشرق صاحت «فؤاد.. حبيبي.. فؤاد..».

التفتت يميناً ويساراً محدثه نفسها في غرابة «ربما لم يعد بعد» مشت قليلاً ناحية المرسم وروعتها المائدة المقلوبة والأشياء المتناثرة أوحت لها أن ثمة معركة نفسية اختلجت في أعماقه.. استدارت مقلتيها في كل ناحية متوجسة من لحظة مباغتة تغتال كل فرحتها.. تعثرت بالزهرية وهمّت لتضعها على المائدة لتفاجئ بقصاصة ورقة تحت الزهرة وما أن قرأتها حتى خرت

باكية تصطلي بنار الهجران وهول الصدمة. لا تدري ما تفعل، تدور حول نفسها ملتاعة حاولت الاتصال به وكان جهازه مقفلاً.. عجزت عن التفكير.. شلت قواها فلمن تلجأ وكل قومها وأحبتها قد نبذوها ازدراءً وامتهاناً.

وفي صولتها الحارقة ومن بين الصور والأخيلة تتراءى لها حياتها محطات متلاحقة في لهاث مستعر.. استوقفتها محطة.. حتماً هناك من سيقف إلى جانبها ويصونها من الإذلال والوحدة.. تذكرت من بين الوجوه وجه «الشيخ عز الدين» إمام المسجد الذي أسلمت على يديه وارتدت الحجاب بفضل تشجيعه وتوجيهه.. فرت إليه منهارة لعلها تجد فيه الملاذ والأمان.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (٦)

ديناميكية.. ولكن!

اللقاء الذي تم بين عماد ومدير الحسابات أقلقه بشكل كبير، فالمسؤولية جسيمة والشركة من الاتساع ما جعله يتحرى الدقة في الجزئيات الصغيرة.

تلقى العمل وكأنه مكرمة سخية من كف القدر بعد حرمان طويل وعثرات حالت دون بلوغه المقاصد، تذكر والده السجين وأمه الملتاعة تكابد الحياة وحيدة وتتلقى ضربات القدر بقلب كبير.. موقف أمه من محنة أبيه تمخض عن مشاعر دفينة تداريها بكبرياء جريح.. إذ تركها ذلك الهاتف المفاجئ تتمرغ على قيظ الألم وتبرر أن ما في دخيلتها لم يكن سوى إشفاق، وفكر عماد أن يُخرج أباه من السجن كي تسترد أمه طمأنينتها المعهودة.

حدثته علياء بفحيحها الشيطاني وبوسوسة خبيثة، يمكنك إقناع صاحبك فؤاد بأن يخرج أبانا من السجن، كأن يقدم لنا هذا المبلغ بعنوان قرض.

أجفل من هذا الخاطر.. فهل يلقي هذا العبء المخزي على كاهل صديق وفيّ.. ثمة طرق أكثر ذكاءً تجعل من الآخر يقبل عليه بامتنان ويفسح له طريق الهبات عن طيب خاطر، فاجتهد في عمله وأبدع، وكان اقتحامياً غير هيَّاب بالمجاهيل خاض العمل بإرادة صلبة وعزم شديد، جمع الملفات المنسية قد تركها الزمن مدفونة تحت أكوام من الغبار ودرسها بدقة بل إنه استأنس معها في ليالي السهاد يقرؤها بشغف، تستثيره رغبة في تحدي الصعاب، وعمل على رسم سياسة مالية جديدة للشركة، حتى أن النحول والإرهاق جعلاه في حالة من التشنج والقلق.

فكان كثير الوحدة والانزواء مستغرقاً في الأرقام إلى حد جفت فيه مشاعره.. فهمت علياء من واقع التصاقها به أغوار هدفه فعملت على مساندته دون أن يشعر، إذ كانت تلتقط الثغرات السلبية التي يمكنه من خلالها اختراق بعض الحواجز التي فرضتها إدارة بالية لطبقة من المسنين كانوا ينظرون إليه بحسد وغلّ.

وعندما التحقت بعملها رسمياً كانت الأكثر دهاءً في استغلال الظروف لصالحها، كأن للطبيعة يداً في تدريبها على مهارة أذهلت الجميع، استيعابها السريع، حيويتها المتوقدة تجعل من الجمادات كائنات حية تشتعل بحرارة دفقها، متمكنة من الحيز الذي تشغله إلى حد الطغيان، تتمدد فيه وكان لها أذرع

أخطبوط تحتوي الأشياء في دائرتها مهما كانت بعيدة، وتدرك بفطنتها ما تختمر به عقلية العميل المراوغ ...

كان دافعها الأوحد والذي تحوّل إلى هاجس يسبح في ذرات دمها «هاشم» صاحب الشركة، تفتعل عن قصد بعض المهمات المشتركة بينهما كي تتفرد به فكان هاشم يجدها في انتظاره في كل مرة يعود فيها إلى مكتبه، أبدت سكرتيرته الخاصة انزعاجاً واضحاً، تحدث زميلتها الأخرى بامتعاض:

«هذه النوعية تهشها قرفاً لكنها سرعان ما تعود لتلتصق بك ثانية».

ارتباك في روتين العمل، الموظفون يتندرون بسخرية لتطفلها السافر، يشتكون بتذمر حشريتها في أدق أعمالهم. جاء مدير شؤون الموظفين يقدم تقريره إلى المدير العام «هاشم» ولَمَّح له باقتضاب:

«هذه الفتاة تشاغل الموظفين بملاحظات لا طائل لها»

اختصر المدير العام الموقف:

«أظنها قد تدربت كفاية في وظيفة العلاقات العامة، قم بإجراءات تثبيتها قانونيا».

ابتلع السيد غازي مدير شؤون الموظفين الغصة:

«إنها دينامو نشط لا يكلّ ولا يملّ، حفظت جميع أقسام الشركة وإداراتها».

وهز رأسه مندهشا :

«إنها شخصية عجيبة»

ضحك السيد هاشم، وأثار هذا الإطراء إعجابه:

«إنها مخيفة فعلاً في طاقتها المتقدة وحيويتها المشتعلة، دعها تمارس عملها وكن رقيباً لها من بعيد».

وبعد إجراءات سريعة تستأنف علياء رحلة نشاطها بجدية وحزم، المكتب الواسع الذي سيحتضن جموحها ينم عن شخصية محافظة خائفة، كل النوافذ مغلقة حجبت عنها الرؤية والانفتاح المبهج على ضوء الحياة، ستردم هذا الجدار إنه يقطع عليها مشوار الأحلام وهي ستمضي باندفاع محموم يسحق في تيارها كل الأشباح المثبطة للعزم، الأثاث قديم فيه انطفاء وحدود تحاول أن تعتقل الزمن في حقبة الإنسان القديم تركت الفراشين يحملون القطع القديمة منه إلى الطابق الثاني لتعد له إعداداً جديداً يعبّر عن ملامحها الخاصة وشخصيتها الديناميكية..

همهمات الموظفين وشفاه نمّامة تستغيبها بخبث، وتترقب المجهول بقلق شديد، هذه الدخيلة، آتيه كالطاغوت ثقة وقوة، تحكم بأمرها الخاص ولا تبالي..

أعادت ترتيب العاملات في وضع جديد يسمح لها بالسيطرة الكاملة حتى على هواجسهن الخافتة فاستبدلت أماكنهن

واحتوت المسافات البعيدة لتكون موصولة حتى بشواردهن أثناء العمل، إنها لا تقف عند حد.. كالطوفان المنهمر بقوة دافعة لا تُقاوَم، كل يوم لها شأن، سنت لها قوانين خاصة إذعاناً بالجدية والالتزام.. وجنّدت في الخفاء أشخاصاً تلتذ لهم الفتنة ويروق لهم التجسس ليقدموا لها تقارير سريّة حول الهمس الخفي الذي لا تلتقطه الأذن عبوراً إنما يحتاج إلى قوة خارقة تسمع دبيب النملة.. هؤلاء تكوين خاص ونسيج من الناس أشبه ببقايا النفايات تلفظها الحياة على الشواطئ المهجورة عندما تخفق، تجند موهبتها في حصد إخفاقات الآخرين وتحويلها إلى قنابل ملغومة تنسف النجاح والناجحين.

التحقت في دورات تدريبية لتتقن استخدام الحاسوب والتعامل مع شبكة الانترنت وأنشأت لها موقعاً خاصاً ودرَّبت الموظفات على أحدث البرامج الإحصائية التي ترقى بالعمل والإنتاج إلى أرفع مستوى.

خرجت إحداهن غاضبة من عندها «إنها مرعبة» وبهمس تسألها زميلتها:

ماذا حدث؟

بتذمر.. «تطالبني بإعادة الصياغة من جديد». ولا ترد الأخرى.

أمرنا لله.. أثير اللغط حولها وهي سعيدة بأن تثار مثل هذه النميمة.. إنها قريبة من المدير، «مسنودة»، «عشيقته».

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وتحرص على لقاء «هاشم» في كل يوم منتحلة شتى الأعذار، مشفوعة بإنجازاتها المذهلة، حتى أنه كان مدهوشاً لهذا الذكاء المفرط والحيوية المشبعة عاطفة.. كيف تجاوزت حدود عملها ودرست ملفات الإدارات وألقت الضوء على الثغرات السلبية ونقاط الضعف في نظام الشركة.. إنها تتحدث إليه باستمرار، ويستأنس لهذا النشاط الذي اختصر له الوقت والجهد.. وتستثير فيه ذاكرة وجرحاً قديماً كان قد اندمل زمناً.. هذا الخيط الواهن يشده إلى عبق غابر ذوى لفرط الاحتراق.. لكن عادت هذه الذبالة الخافتة تشتعل من جديد وبرسم آخر.. يبصرها بعينين غائرتين يلمح فيها صورة لازالت تخاتله في بعض الأحلام..

وانتبه إليها تقف متسمّرة قائلاً وهو ينفض الخواطر:

«هل هناك مشكلة؟».

لحنت نبرتها مبدية تودداً مفرطاً:

«المشكلة أنت».

أجفل مبدياً عدم اكتراث.

ومضت بحرقة صوتها:

«نعم المشكلة أنك تتجاهل حضوري دوماً».

قهقهة ساخراً إذعاناً بهزيمتها .

فهمت مرماه:

«لا تسخر مني أرجوك، دعني أوضح لك الأمر فأنا معجبة بك وأنت تعرف ذلك وتصرّ على نكرانه».

مفارقة عجيبة أوقعه الدهر بها في زمن آخر.. النسخة السقيمة للأصل الذي برّح به كالداء.

«يا ابنتي أنا في سن والدك، هذه المشاعر ضرب من ضروب الوهم».

واتخذت لهجتها طابع الجدية:

«في البداية كنت معجبة بولدك فؤاد، حتى لقيتك وشعرت بالفارق الكبير بينكما، أنت من تستهويني، شخصيتك آسرة وسحرك ملهم، حتى أن كل الرجال انكمشوا أمام إبهارك الساطع».

«فؤاد، رجل مميز، مقدام، وليس ضعيفا كما تتصورين؟».

«أقصد أنه يتضاءل أمام حضورك العملاق».

لملم الأوراق المبعثرة على مكتبه إنذاراً منه بحسم الحديث وإشارة واضحة لفض الموقف:

سأذهب الآن وأي تقرير جديد سلميه غدا للسكرتيرة.

أحست وكأنه استل سيف الصد ليذبح كبرياءها عن تعمد فتراجعت مبهورة، خرجت بأعنف ما تكون فيه النمرة المجروحة وصفقت خلفها الباب بقوة.

وانزعج لتهورها فتمادى في ذبحها، فتح الباب موجهاً لها صيحة ساحقة:

«أرجـوك لا تكرري هذه المحـاولة مـرة أخـرى، فـأنا أحب زوجتي ولست من النوع الذي يستغل غيابها بخيانات سخيفة».

حدجتـه بنظرة جعلت من مقلتيهـا مـوقد نار تصطلي بها حُرقة ممزوجة بالخذلان..

صاحت برعشة خافتة امتصت كل طاقتها:

«أرجوك كفى»

واتقدت في داخلها نيران الغضب، وانهزمت ذاتها المترفعة، أهكذا تظل مشبعة بأحلام سراب وتترك نفسها لعبث الأقدار تصنع بها الأيام مـا صنعت بغيرهـا أليست هي القـوة المكتنزة بالطموح والشغف تستطيع أن تستولي على كل مـا تشتهيه النفس؟!!

تكمش محبطة، مهزومة فهذا الرجل قد زهدها كما فعل ابنه فؤاد.. بل إنه تصلّب أكثر فأكثر.. وهي تشتعل هيـاماً وحباً.. ما أتعس المرأة الولهى عندما يصدها من ميزته حبيباً.. مـا أرخص النفس عندما تُلقى على رصيف الصد والإنكار؟ هل يظن أن لها مطمع في ثروته؟ خيل لهـا أن صبـاها المتفـجر حيوية، دفقاً تتعطش له الكهولة الذاوية.. وهي برغمها أسيرة هذه الحيـرة التي لا تفـتـأ تقض سكونهـا كلمـا لاح لها بدفء حضوره.. تُجَن، تريده، كأنها مبتورة الأوصال دونه.

ومن بين شواردها التائهة تلمح عقرب الساعة اللاهث وراء زمن كئيب يجرُّ قدميها عنوة إلى الخارج، المكاتب الصامتة وخلو الشـركـة من الموظفين، البـواب يتهنه ونظراته المريبـة أشـبـه بدبابيس في البدن، وجودها مثير للشبهة، أعادت ترميم شعرها ووجهها المبعثر الملامح وهبت خارجة بانكسار تشخط رجليها الناحلتين إلى البيت، أمها منهمكة في جمع الأغراض وإعداد الحقائب للانتقال إلى البيت الجديد، إنهـا في مزاج نافر لأي نشـاط، ارتمت على الكنبـة سـاكنة تتطلع إلى أمـهـا بـعـينين شاردتين، تمسح الأم دموعها:

«يعـزّ عليّ ترك هذا المكان الذي شـهـد أحلى الذكـريات» وأشارت مبهوتة كالثكلى التي تنعى ولديها، هنا كان مجلسنا، وهناك كان عماد يلعب بدراجته يأتي بها من الخارج وقد تلوثت عـجـلاتها بالوحل، آه يعـزّ عليّ فـراق أحـلامي وأعـذب ليـالي العمر.

عماد متهكماً:

«دعك يا أمي من هذا الهـراء، تتـحـدثين عن أجـمل الليـالي وأنت أول من اكتويت بنار الألم والشقاء».

في ذهول حزين راحت «ثريا» تمسح الجدران بعينيها مودعة افـتـقـدت ابنتهـا الصـغـرى وإذا بهـا تأتي محملة بحقـائب من القماش وخيوط الصوف صرخت بها علياء حانقة:

«ما هذه الكراكيب؟ دعيها هنا».

وبانكسار تحتضن فداء أشياءها:

«إنها أعمالي، أعتز بها، صنعتها بجهدي، لا أستطيع الاستغناء عنها».

وبصوت يحتقن فيه الغضب والتشنج ترد علياء:

«سأشتري لكِ ما هو أفضل منها، نملك الآن المال الكافي لإشباع كل حاجاتنا».

ينهرها عماد:

«دعيها وشأنها».

فالحمم المحبوسة في الصدر تغلي غلي الحميم، إنها قابلة للانفجار تحت أقل تماس.... تهالكت كي تحتوي هذا الأمر الممض حتى لا يحس به أحد.. وتعللت بانفراط نظام البيت وساعات الغداء والجوع:

«أنا متعبة اليوم جدا وجائعة، وحريٌّ بكم لو أجلتم هذا الأمر حتى صباح الغد».

لم تسمع رداً فهم يتناوشون الأغراض لنقلها إلى الشاحنة، منهمكين في العمل، كلٌّ حريص على حاجاته..

وتسألها الأم وكأنها تصفعها:

«هلمي لمساعدتنا.. ألم تتفحصي أدراجك وخزائنك إن كانت حاجاتك مكتملة».

بضجر تتأفف:

«أنا متعبة يا أمي، سأتصل بالمطعم لأطلب وجبة غداء».

قالت الأم وسط دموعها الصامتة:

«ماذا فعلتما بشأن والدكما السجين؟».

ترد علياء بتذمر:

«سنتحدث إلى فؤاد فور عودته من باريس».

وأضاف عماد:

«والله أنا أخجل من هذا الكرم الذي هلّ علينا من فؤاد، الشقة الجديدة قدموها لنا بإيجار مريح».

علياء بازدراء:

«أظننا نستحق هذه الأتعاب فقد حملنا عنهم عبئاً كبيراً».

«ثريا» بافتخار:

«كن يا ولدي على مستوى الأمانة حتى تبيض وجهي أمام فؤاد».

ومضى عماد:

«سأوفّر شيئا من راتبي كي أشتري سيارة بالأقساط».

www.mlazna.com-RAYAHEEN

علياء غاضبة:

«ولِمَ تفعل ذلك؟ عليك أن تأخذ السيارة مكافأة تستحقها لجهودك المثمرة».

لا.. لن أكون طماعاً إلى هذا الحد.

وتؤكد علياء موقفها:

«أنت الآن مدير الحسابات، ألا يفترض بهم منحك هذا الشي البسيط».

عماد:

«إذا لم يبادروا لن أطالب، الآن وصلت إلى المستوى المريح من العيش والأيام القادمة كفيلة بكشف الخبايا فأنا أجتهد ليل نهار وأثابر بإخلاص، وهم وحدهم الأقدر على تقييم الموقف».

انتبهت «فداء» إلى أخيها «عماد» وقد كانت تصغي له مدهوشة:

«أصدقك القول يا أخي».

ترفع ثريا كفيها شاكرة الله على ما أنعم عليها.

تناولوا طعامهم فور وصوله ثم تركوا الدار بعد فراغهم من نقل الأثاث والأغراض، وفي مساء هذا الصيف القائظ دخلوا دارهم الجديدة وقد بدت باردة من الحياة، لا زالت آثار الغبار تكسو سطوح بلاطها الأبيض والنوافذ معتمة بورق لاصق قد تم

استبداله بالستائر مؤقتا وبعض آثار الصبغ قد تناثرت على أطرافها..

تنهدت ثريا وكأنها تلقي الأعباء من كاهلها دفعة واحدة:

«يبدو أن أمامنا يوماً شاقاً، فالمكان مستودع نفايات».

باب الشقة بقي مفتوحاً، العمال يتوافدون لنقل الأثاث وتركيبه.

حاول عماد أن يخفف العبء عن كاهل أمه:

«سنتعاون جميعنا في تنظيف المكان، المهم نريد بعض الكنبات لنجلس عليها».

تذكرت «علياء»:

«نسينا الهاتف».

وألقت نظرة فاحصة على المكان ثم أشارت:

«هنا ننصب مكان الهاتف».

عماد:

«قدّمت على رقم جديد وسيتم تركيب الجهاز خلال يومين».

فداء:

«ونقلي إلى المدرسة الجديدة».

عماد متفهماً:

سيتم كل شيء بأقصى سرعة، لا تقلقوا من هذه الإجراءات، ستعتادون الحياة الجديدة.

علياء ممتعظة:

«الشقة ليست بالمستوى اللائق».

تشيح الأم بوجهها متبرمة:

«هكذا أنتِ دائماً يا علياء، معترضة، لا يعجبك أي شيء، احمدي الله يا ابنتي على ما أنعم علينا، فالحي هادئ، والشقة واسعة، هل تريدين لنا مستوى الأثرياء، طموحك ليس له حد، وستتعبين، اقنعي بما قدّره الله لكِ فهو مقسّم الأرزاق، اعملي واجتهدي حتى توفري المبالغ اللازمة لنشتري لنا بيتاً».

تجولوا في ردهات الشقة باستطلاع من يبحث لنفسه عن حجرة كمستقر أخير، وعندما وقع كل منهم على خياره المناسب عملوا جميعاً على تفريغ الثياب في خزائنها، بينما شرعت «ثريا» في ترتيب عدة المطبخ في دواليبها انطلقت «هداء» إلى الشرفة وأطلت بعينين مذعورتين إلى بُعدها الشاسع صاحت والدهشة سمرتها في مكانها. إننا في أعلى دور، انظروا إلى المشهد المفزع.

ألقت الأم بنظرها إلى الشارع وإذا بها تجفل خائفة:

«فعلاً المشهد مخيف».

شدت ابنتها من ذراعها:

«تعالي لتساعديني في ترتيب الأغراض».

جمر الغيرة

اليوم الخميس ..

وقد اكتظ الصالون بالعرائس ولهذا انهمكت «هند» بالعمل حتى تناست الحديث الشيق بين صاحباتها .. فمسألة شد البشرة وإبر البوتكس تستدعي الانتباه بالنسبة لها شخصياً خصوصاً وأن دلال ربة الجمال والأناقة كانت السبّاقة إليها جعلتها في وضع تحسد عليه، من كان يظنها جدة مخطئ في ظنه إذ بدت بعد رحلة استغرقت شهراً إلى لبنان شابّة نضرة تعربد حرارة الصبا في وجنتيها المحقونتين.

تقف الكوافيرة «شروق» في موضع قريب منهن يجعلها مرغمة على التقاط ثرثرتهن والغضب يضج في عروقها، قد أتت شروق قبل خمس سنوات كوافدة تعيل أسرة عدد أفرادها خمسة، توفي زوجها في حادث دهس، إنها تجمع البخشيش الخاص بأدق احتياجاتها كامرأة لتوفره مع الراتب إلى أولادها،

أنهك الحرمان قواها الفتية وامتص نضارتها فبدت أكبر سناً من عمرها الحقيقي، إنها واقفة تصفف شعر الزبونة وأذناها مصغيتان بشغف إلى أحاديثهن الفارغة، فتختزن الألم في جوف مكدود وتود لو تخرج الصرخة المكتومة إلى العلن هاتفة بأمنيات أنثى قطع القدر فيها حبلها السري عن مخزون غذائها فبقيت رابضة في رحم الزمن «يا لحماقة تلك النسوة، تفيض النعم بين أصابعهن الحريرية وفرة، حتى تحولت الحياة إلى لعبة لا يجد فيها الأشقياء مكاناً لهم».

انتبهت «هند» إلى وجه «شروق» المتجهّم وقد غرق في الحزن تصرخ بها:

«ابتسمي في وجه الزبونة».

وتفرد وجهها العابس على مضض بيد أنها تغدو منكمشة مغتاظة، ساخطة على هذه الحياة حين تركتها مع غيرها من الأشقياء يلتهمون البقايا من الفتات، تحدث نفسها وهي مازالت في وقفتها:

«ما هي حكمتك يا رب؟»، «أناس يتسلون بالأموال وآخرون ترهقهم الحاجة».

وتلتقط هند، طرف الحديث المثار:

«ابني الآن في فرنسا، أستطيع أن أسافر إليه وأجري عملية الشد عند أمهر جراح تجميل في العالم».

تؤكد لها إحداهن:

«ستكونين ملكة جمال يا هند».

همهمة الحضور، صوت السشوار، الباب يفتح ويقفل، ضجة كبيرة اليوم، تنهض هند من مكانها قائلة وهي تشير إلى إحدى الغرف:

- «هلمن معي إلى هذه الغرفة فهي أهدأ».

تضايقت «شروق»، فقد انقطع عليها وصل الحكاية فقد بدت رغم تفاهتها مسلية في وقفتها المتعبة تتنهد «حكمتك يارب»

صنف من النواعم يعملن دون قصد على إذكاء مشاعر الخيبة والإحباط في نفسها المكدودة، إنها تنهزم بانحدار شاق وتتحول إلى كائن حاقد على كلِ شيء.

يُطرق الباب الموصد على النسوة الأكابر، تهب «هند» واقفة بانشداه وعيناها قد تسمرتا هاتفة:

«فدوى؟»

تدخل «فدوى» غاضبة وبشكل اقتحامي، وتوسع لها هند مكاناً تحدثها بلطف مفتعل:

«تفضلي سيدتي»

تعرف أن المرأة محقة في غضبها، فابنتها «ماجدة» قد انتظرت الغد حلماً وإذا بالحلم يتبدد وحري بهم أن يحسموا موقف هذه الفتاة المعلّقة.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عجزت هند عن الاستدلال إلى الخيط الأذكى في امتصاص رهبة الموقف.

دعت الحاضرات إلى الانصراف لتختلي بالمرأة في مسألة خاصة.

خرجت النسوة وحمى الفضول قد افتضح في بريق عيونهن المتسائلة.

«أرجو المعذرة فدوى»

تمالكت المرأة أعصابها وحاولت أن تبدو متماسكة:

«سمعت أن فؤاد قد عاد من باريس وانتظرنا منكم مبادرة ولم تحصل للأسف، الفتاة الآن بحكم المخطوبة وننتظر عقد القران لنحسم الأمر»، وكانت هند أكثر ارتباكاً وحرجاً لكنها ألقت بالحقيقة دفعة واحدة:

«حدّثت فؤاد في الأمر ملياً، حاولت إقناعه بيد أنه رفض الأمر برمته». استشاطت (فدوى) غيظاً:

«وماذا حدث؟»

بنفس متقطع وبعبارات مرتبكة تواصل «هند».

«يبدو أنه على علاقة بامرأة فرنسية أو ربما تزوجها، لا أدري بالضبط».

تهب «فدوى» واقفة كعاصفة ترتعد متهمة هند:

«أنتِ المسؤولة عن سمعة ابنتي، أنا لا يهمني إن كان على علاقة بإحدى الساقطات، المهم أن ابنتي غبنت دون وجه حق».

تمالكت «هند» نفسها وهي تقبض على المرأة من رسغها تهدئ من روعها:

«استريحي أرجوك، دعينا نتفاهم».

نفضت فدوى يدها من قبضة هند قائلة وهي مازالت مشتعلة:

«خطب «ماجدة» العشرات من الشباب المرموقين ورفضتهم جميعاً باعتبارها مخطوبة وتأتيني الآن بهذا الرد البارد؟!».

لا تدري «هند» كيف تدفع عنها الحرج:

«صدقيني أنا مثلك منزعجة تماماً، حاولت إقناعه بعقد قران على ماجدة، هاج وماج ومع كل دعيني أحاول مرة أخرى».

عجلت «فدوى» بالانصراف قائلة بحزم:

«سأنتظر منك هاتفاً أخيراً يحدد مصير هذه العلاقة، وأرجو أن يكون رداً إيجابياً كي نحفظ ماء وجهنا».

استجابت هند بخضوع من يدرك خطيئته ويحاول أن يبررها:

«حاضر .. سأقنعه».

وألقت بنفسها على الكنبة شبه منهارة، تلعق جراحها النازفة وإهانة صوبتها إليها امرأة متنمِّرة، استبد بها الغضب فاتصلت بزوجها، كان هاتفه يرن ولا يجيب مرات عديدة باءت بالفشل، كأن الظروف تجتمع لإثارة أعصابها، كيف تخرج من هذه الربكة المفاجئة؟ زوج بائس يضعني في مواقف حرجة، فرض علينا هذه العائلة بمقتضى المصلحة المتبادلة، ماذا أفعل؟ فليتصرف بالطريقة التي تتناسب وهذه الذئاب، هو وحده من يخلصني من هذا المأزق».

وتناهت إلى رأسها فكرة «الأمر لا يحتمل التأجيل، فلأذهب لزيارته في مكتبه وأضعه أمام الأمر الواقع».

ارتدت معطفها الأسود، اندفعت باتجاه الباب والفكرة تستبد بها أوصت من تنوب عنها:

«سأذهب لأمر طارئ، أرجو متابعة العمل، ريثما أعود».

تبتسم شروق على غير عادتها، ابتسامة التشفي أرخى للأعصاب وأعذب للقلب القاسي إنها أشبه بطراوة الماء يتسلل بين الصخور فيحفر فيها مساحات للفرح، تحدث نفسها «عجباً يا دنيا، هؤلاء مثلنا يتألمون، ويغضبون، إذن لسنا وحدنا من نتألم ونغضب»، صعدت حمرة الانفعال والبشاشة إلى وجهها المنكمش.

تتحاور العيون الصامتة بأبلغ ما عند اللسان من بلاغة، كن

يترقبن بفارغ الصبر نتائج الاجتماع المغلق، ويقرأن في وجه هند نهاية التوصيات، نشوة تغمرهن باسترخاء عجيب لم تكن صفقة ناجحة أو مشروعاً مربحاً وجهها المرتبك شف عن مشكلة كبيرة فأقفلت الفم على هم دفين، ما كادت المرأة تخرج بفحيحها المحموم حتى لحقتها هند وهي أشد حماة وسعيراً .. لو كان لعيونهن ألسنة لنسجن لها حكايات كثيرة من وحي حسدهن الأخرس.

بخطوات محسوبة وقد ممشوق دخلت هند الشركة وبلفتات رشيقة فيها من الغطرسة استوقفت الموظفين والعاملين في الشركة إجلالاً لمهابتها واحتراماً لمكانتها.

اقتحمت مكتب زوجها .. بوغتت بفتاة تختلي به، السكرتيرة تركت لها الطريق معبداً، أليست هي زوجة مالك الشركة؟! قد تكون مناسبة رتبها القدر كي تتم المواجهة وتخرج هذه الفتاة من حالتها الجنونية، واجتيازها الحدود الشائكة واختراقها المسافات القانونية.

تلعثم «هاشم» صعقته المفاجأة، ارتاب من هذه الزيارة، حضورها لم يكن إلا في مصادفات محسوبة حدجت بالفتاة ملياً بينما الأخرى لم تتورع عن الترنح باختيال .. فلها ما يميزها ويصنفها في خانة خاصة.

بلفتة حادة من رأسها:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«اخرجي لو سمحت، لي حديث خاص مع زوجي».

تلتفت علياء إلى «هاشم» بدلال من تتقصد إثارة زوبعة وبنبرة ناعمة فيها إيحاء تفهمه النساء فقط:

«أراك لاحقاً سيدي».

وعندما صفقت الباب ألقت بهذا «الشوب» الذي أنهك أعصابها وهي تفتعل مشهداً مزيفاً، اعترتها حالة من الغيرة فتمتمت وهي مازالت عند الباب «هذه إذن زوجته».

النظرة الساخرة من عيني السكرتيرة تجعلها أكثر إثارة لكنها لن تترك لها فرصة للتشفي.

فانبرت تقول بابتسامة صفراء توحي بتبرمها من المدير العام:

«ارتحت الآن فقد خلصتني زوجته من طلباته الكثيرة!».

لم تكن هند في حال مستقرة، توترها الواضح دفعها إلى التخبط في الظنون «هاتفك مغلق، اتصلت لأكثر من مرة والسكرتيرة أوهمتني أنك في اجتماع خاص»..

«نعم كنت في اجتماع».

وبتخابث:

«اجتماع مغلق، وعلى مستوى القمة!».

لم يكترث ..

ثم استطردت ساخرة:

«ثمة انقلاب كبير في الشركة، وجوه جديدة، نظام جديد».

بتماسك واثق يرد هاشم:

«الحمد لله فقد تطور الوضع للأفضل، تعرفين «عماد» صديق فؤاد هو الذي يدير شؤون الحسابات والموظفين أحياناً وهذه الفتاة التي خرجت تواً شقيقته مديرة العلاقات العامة، دينامو فعّال في الشركة لم أر مثلها في حياتي طموحة ومتوقّدة جعلت من الشركة خلية نحل مفعمة بالنشاط متدفقة الإنتاج»

اطمأنت.. إحساسها الخاص ينبئها دوماً أن زوجها رجل صادق غير مراوغ ولا يحتاج إلى تبرير وأعذار ليملص نفسه من وضع مستهجن لكنها تحدس أن لها مآرب أخرى.

نفذت بعد برهة إلى موضوعها الأصلي وحدثته عن «فدوى» واقتحامها الصالون وبلوغ المسألة ذروة الاختناق.

بدا «هاشم» حازماً في رأيه:

«فليتزوجها حتى لو كان مرتبطاً بألف امرأة..».

ثم طافت عيناه في وجه زوجته غاضباً وصرخ:

«فليكن رجلاً ويحسم أمره»

امتعضت هند:

«كيف يمكننا أن نفعل ذلك دون علمه»

«ابنك هش في قراراته، متردد، دعينا نتصرف»

اشتد غضبها:

«لا يمكن أن أفعل ما يزعجه»

مازال هاشم، مصراً:

«اتصلي الآن بفدوى واخبريها بالموافقة»

صاحت بتضرع:

«أرجوك»

«هذا هو المنطق، الفتاة بحكم المخطوبة لابننا كيف يمكننا التخلي عنها بعد إصرارها على فؤاد وانتظارها سنين طويلة»

ثارت «هند»:

– «إنها علاقة خاصة به لِمَ تتحدث بلسان الجميع وكأنه مشروع عام، لا أريد لولدي أن يخضع لإرادتك بهذا الشكل الظالم»

– سأتصل بوالد الفتاة وأحسم الأمر.

وضجت بمجاميعها غاضبة:

– «وفؤاد؟»

ببرود وثقة:

– «دعيه لي، الآن عرفت السبيل إلى قلبه»

وانهارت على سفوحه عاجزة .. تركته بعد أن يئست من اختراق هذا الرأس الصلب ومداراة شخصية غريبة الأطوار، وعندما خرجت تذكرت «الفتاة» اقتربت من سكرتيرة هاشم تسألها:

«ما أمر هذه الفتاة؟ ارتبت من سلوكها».

انفجرت حمم السكرتيرة.

«نعم منذ أن أتت الشركة وهي تتحكم في قرارات سيدي هاشم وهو منزعج من تطفلها، إذ تسمح لنفسها باختراق قوانين الشركة».

بذعر تسأل «هند»:

«وكيف يسمح لها وهو الرجل العنيد؟»

خشيت السكرتيرة أن تقع في فخ لا يمكن الخلاص منه، فثمة أسرار ينبغي كتمانها كما يشدِّد عليها «هاشم»

تفادت الحرج:

«أقصد أنها تدخل مكتبه دون استئذان أحياناً»

وبفضول قلق تسأل «هند»:

«وماذا يفعل سيدك؟»

«يردعها طبعاً بلباقة وكياسة، لكنها إنسانة لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها طوراً ودودة، وطوراً عدوانية»

استغرقت هند في فكر شارد، ثم صمتت وبان عليها القلق.

«أرجو أن توافيني بأخبارها بين الحين والآخر»

وغمزت بطرف عينها هامسة:

«تعرفين ما أقصد»

ومضت إلى «علياء» لتختلس إليها نظرة متأملة لتسبر غورها بمقتضى خبرتها في الحياة، تدرك عن يقين أنها ليست بالقوة الطاغية التي تضاهي زوجها فتؤثر في قراراته كي يوظف هذا أو يرفض ذاك، لها أسلوبها الأنثوي المرهف الذي لا يضيف إلى محاسنها سوى هالة من الإبهار سرعان ما تخبو كلما توغلت في الأعماق واكتشفت أن تحت هذا السطوح مخلوقة مضطربة، هشة.

داهمت «علياء» في مكتبها الأنيق وحدجتها بنظره متعالية وفي صوتها رجفة اضطراب:

«أتمنى لك التوفيق والمزيد من الجهد في عملك فزوجي يقدر الموظفات المجتهدات باستمرار»

حاولت «علياء» أن تسترخي في هذا الزخم التنافسي الصامت وبعثرت مشاعرها الغاضبة بين أوراقها المتناثرة على المكتب، دعتها بأدب جم:

«تفضلي سيدتي لأطلب لك القهوة»

استرجعت «هند» ذاكرتها محدثة نفسها «حقاً إنها متقلبة الأطوار، كانت مع زوجي ناعمة، متزلفة، متغنجة»

انتبهت «هند» إلى صوت علياء يناديها:

«كأنك سيدتي تبحثين عن شيءٍ ما؟!»

صعدت إليها نظرة فاحصة، ندت عن قلب متشكك:

«مشوارك صعب جداً، فصاحب الشركة ليس بالرجل الغض الذي يمكن تكوينه في أحلامنا على شاكلة نريدها»

أدركت «علياء» بفطنتها مرمى حديث «هند»:

«إنه سيكون غضاً عندما يريد ذلك، فلا أزعم أنني ماهرة في التشخيص لكن أظن أن الحديد حتماً يلين تحت حرارة النار!»

أطلقت «هند» ضحكة ساخرة في الهواء واستطردت بجهد شاق:

«لست كاهنة ولكن قد نلتقي مرة أخرى وقد تحولت أحلامك إلى حطام»

بقيت «علياء» في مكتبها تجتر آلامها وتذعن لواقعها المرير، فزوجته ذكية فهمت ما يعتمل داخلها من مشاعر ناحية زوجها ويحكم رقيها تصرفت بلباقة وحنكة، هذه المرأة تعرف زوجها حق المعرفة وتختصر المسافة كي تصوب هدفها، لن ترى فيها حماقة بعض النساء وقد تحولت الواحدة منهن إلى بارود طائش يتساقط دون هدف، لقد أصابت المرمى بفطنتها وقلبها الحي.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أطرقت في غمامة وهي تنوء بهذا العبء:

«كم أنا غبية، تورطت في حب هذا الرجل المتصلّب، أكاد أذوب في حبه المستحيل، يصدني وما من أمل في اجتذابه، آه.. ماذا عساي أفعل؟ سأحاول بكل ما أوتيت من طاقة وجهد لأحفر لي مكاناً في قلبه، سأتحدى الزمن، ونفسي والناس والعالم .. إنه حلم حياتي».

جمعت أوراق الملف وأقفلت راجعه إلى هاشم، كانت هذه المرة عنيفة مضطربة.

قال «هاشم» بضجر:

«عدتِ ثانية؟»

وانبرت تسترسل بفحيح ولهاث:

«زوجتك جميلة ومميزة كم أنت محظوظ بها».

ابتسم لغرض في نفسه:

«وأشعر معها بالاكتفاء».

عضت على شفتيها هامسة والدمعة تفر من بين أهدابها:

«كم أنت غليظ وجاحد».

أدار ظهره متظاهراً بالانشغال في ترتيب الأشياء في الخزانة...

«ولكنك تبدو أصغر منها سناً»

ضحك بصوت عال حتى اندهشت.

«ما المضحك في الأمر؟»

«أنتِ تصطادين في الماء العكر»

وتركها غارقة في دموعها، ولوعتها الملتهبة بجمر الغيرة، أغضت من تهكمه فهو محق في إيمانه بزوجته وليس ادعاء فقد ظنتها عجوز بالية الروح، نضب منها الصبا وإذا بها تشهد مظاهرة حاشدة بكل صنوف الجمال والأناقة والبهاء .. يترك غيابها دهشة في النفس وتوق لا يهدأ ...

الفصل (٨)

حنين

في ساعة متأخرة من الليل، استيقظ كل من في الدار على طرق الباب والدهشة قد سمرتهم في أماكنهم.. هاشم في حيرة يتساءل:

«من يكون قد أتى في هذا الوقت؟».

وكانت المفاجأة..

«فؤاد» جاء على غير موعده..

انبرت «هند» تسأل وهي مازالت تحت تأثير النعاس:

«ماذا حدث؟ كنت قد قررت المكوث هناك أشهراً طويلة».

ويرد هاشم دون اكتراث:

«لعله شبع، هكذا هو، مزاجي بطبعه»

بدا فؤاد مرهقا بعض الشيء، فعجل الذهاب إلى حجرته:

«أنا متعب الآن، نتحدث في الصباح الباكر»

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

تركهما في حيرة مبهوتين، يرمقانه باستغراب فرَّ من عيونهما الشاخصة ، قال هاشم بانزعاج:

«واضح أنك قد اختلفت مع زوجتك»

بينما ظلت «هند» تترقبه ببرود وهو يقطع درجات السلم مترنحاً لا يكترث بها.

شدت هند ذراع زوجها تستدعيه إلى النوم:

«دعه وشأنه، فلنعد إلى الغرفة»

ضرب هاشم كفا بأخرى، متمتماً وهو ينفض كل ما له من طاقة وصبر:

«حيرني هذا الابن»

كانت ليلة يشهد لها القمر، نفسه المعذبة وهي تذوق مرارة الوحدة ووحشة الغربة، فجأة وجد كل من حوله يضطهدون ذاته المرهفة ويغرسون الشوك في صدره، ويظنون أن سعادته مرهونة بالمال والسعة، تحتاج إلى المزيد من الجهد كي تنتشل نفسك الضائعة من هذا الوحل، حتى المرأة التي أحببتها تركتك منهاراً وهي أعلم الناس بحقيقة ذاتك، لِمَ لم يفهموك جيداً ويرحلون إلى أعماقك بكل شفافية؟!

«هل استيقظ فؤاد؟»

تسمع نداء أمك، في شقشقة الفجر ونعاسك يغتسل البهجة المتصنعة تضطر أن ترسمها فوق تقاطيع أهلكها التكلف.

«مضطر أن أشرب القهوة بحكم طقوس الصباح، هي وحدها كانت قهوتي عندما أشعر بالإعياء، لكنها تبدو كالموسيقى الصاخبة تثير توتري عندما تجعلني جزءً ضئيلاً في يومياتها أو إنجازاً تقليدياً لا يتعدى قسطاً من نفقات عواطفها».

«اجلس لأحدثك»

قال هاشم موجهاً فرماناً قاسياً إلى فؤاد:

تصب هند القهوة في الأقداح وشواردها في تشنج وانبساط، القهوة تسيل مع مشاعرها الهادرة.. كلها إصغاء قلق.. ثمة مطرقة معلَّقة ستهوي على الرؤوس المنكّسة في اضطراب.. ردود أفعال غير متوقعة، تضارب في الأهداف، تنافر في الاتجاهات..

وبدون مقدمات يقرر هاشم:

«سيعقد قرانك على ماجدة الخميس القادم».

تشتد «هند» توتراً، في انتظار زوبعة مخيفة.. لكن الرد يأتيها مقتضباً بارداً:

«حسن كلهن نساء»

اندهشت والغصة ترمضها:

«ماذا؟»

سُرَّ والده فطلق يقول وهو يربت على كتفه:

«نعم يا ولدي كلهن نساء، صنف واحد، وقرار الزواج قائم على اعتبارات أدبية واجتماعية»

أطلق فؤاد تنهيدة من كبد محرور وذاكرته تشحن فيه دفقاً من الحنين غم قلبه فاعتراه حزن واضح.

همست هند ملتاعة:

«ما بك يا فؤاد؟ عدت هذه المرة مكروباً»

هز رأسه بالنفي.

تحاملت على نفسها فنظرت إليه صامتة مستطلعة خباياه الدفينة ثم تابعت:

«إن كان زواجك من ماجدة يسبب لك مشكلة يمكنك أن ترفضه بشجاعة».

استهجن الأب موقفها:

«دعيه وشأنه.. إنه قرر وانتهى الأمر، لا تعبثي بأفكاره مرة أخرى».

صمتت هند وهي في أشد حالات الجزع..

خيَّم عليهم شبح الهدوء حتى بادر فؤاد وهو يتململ محرجاً:

«حياتي مع جميلة شابها نوع من الاضطراب».

صاحت هند على الفور:

«وماذا حدث؟».

هاشم مغتبطاً:

«كانت نزوة وانتهت»

دافع فؤاد عن موقفه بلهجة جادة:

«لا.. لم تكن نزوة مطلقاً مازلت أحبها ولم أطلقها بعد لكن جميلة استنزفت عواطفها بالمشاغل والأعمال الكثيرة فاستحوذت على اهتمامها أكثر مني»

اغتاظت هند:

«أهم منك؟ يا لها من حمقاء»

صمتت هنيهة تفكر ثم انبرت تقول:

«ربما لم تعرف كيف تملك قلبها يا ولدي»

هاشم ساخراً:

«دعك من حماقة الشعر والفن، فقرار الزواج أمر يحكمه العقل والمنطق»

ما زالت «هند» تحاول، ولا غضاضة في ذلك فهي تعرف احتياجات ولدها بحدس وفطنة.

فهمست عن قرب منه:

«دعني أسافر معك هذه المرة لعلي أستطيع تسوية ذلك الخلاف»

قهقهة «هاشم» وبمشاكسة لطيفة وجه لها دعابة لترطيب الموقف المتشنج:

«إنها فرصة لإجراء عملية تجميل لوجهك المتغضن».

ثارت «هند» بغضب مفزع واحتقن وجهها غيظا وكأنها متهم يدرأ عنه تهمة باطلة، هبت كعاصفة هوجاء تصرخ وهي تترك المائدة:

«نعم مؤكد أنني عجوز في نظرك طالما هناك من تدللك وتغنجك، الشابات الصغيرات اللاتي يخطبن ودك...».

يقهقه الرجل بدم بارد.

غاص فؤاد في مقعده من شدة الحرج مشفقاً على أمه المجروحة تفجر جرحها المترسب حتى المنابت ويفهم لغتها ويعرف حجم مصيبتها وإذا بنبرتها تتكسر هواناً وتذرف الدمع مدراراً ورجفة اهتزت لها كل الأوصال.

تراجع هاشم وهو لا يكاد يصدق، اقترب من زوجته يهدهدها، يربت على كتفها ملاطفا:

«هند.. ما بكِ؟ كنت أمزح معك».

تدفع يده غاضبة:

«دعني وشأني، كلماتك جمرات حارقة في صميم جرحي.. تسقيني السم الزعاف وتأتي متذرعا بتطبيب جرحي، أصبحت كارهة لحياتي معك».

ضمها إلى صدره في حنان في محاولة منه احتواء غضبتها وتسرية همها وإذا بها تستكين على صدره كطفل محروم، ويمسح على شعرها بتؤودة ونبرة مفعمة بالشفقة والألم:

«أنت أغلى جوهرة في حياتي، ومهما حاولت النساء استمالتي فلن تستطيع أي امرأة في الوجود الاستيلاء على عرشك أنت وحدك مالكة قلبي»

سحب فؤاد كرسيه وقد اطمأن أن والديه قد التحما في هدأة الحب فاستأذن:

الحمد لله كنت السبب في لمِّ الشمل.

صاحت به هند:

«اجلس».

وشدّد عليه «هاشم»:

«دعنا نخطط لمشروع زواجك».

وعاد الحديث سيرته الأولى.

وحسم «هاشم» الموقف، إذ اتصل بوالد «ماجدة» واتفق معه على عقد القران الخميس القادم.

ترك هذا القرار قلقاً في نفس فؤاد فبعد أن حسم الموقف لفّته دوامة من الحزن والضيق، فقد أوقع نفسه في مأزق حرج لا خلاص منه، أتراه اندفع في قراره؟! نعم كان متردداً ومحجماً

www.mlazna.com-RAYAHEEN

في نفس الوقت، تلتف حول عنقه الظروف كالأفاعي الخانقة، كيف يجرؤ على اتخاذ خطوة دون اقتناع يعرف أنه لا يطيق ماجدة ولا يستهويه هذا الصنف من النساء، دخل حجرته واستلقى على السرير يفكر بجميلة يناجي طيفها، أنتِ السبب، أنتِ من دفعتيني إلى هذه الهاوية، لطفك الذي اعتدت الانغماس فيه حتى الذوبان تحول في الأيام الأخيرة إلى صقيع وبرود، اقترابك الانسيابي بنعوقه أحسسته توقاً مفتعلاً حناناً يطعم ريشتي ألوان البوح الجميل، فرسمتك على جدران قلبي مزن الحب تمطر في كل موسم وجد وحنين، وتنبت في حقل ليلي غصون الورد والريحان، اليوم تتورعين، تتبدلين، طوراً غضوبة، وطوراً طروبة متقلبة في كل حين، تلهثين خلف الوهم وتتركين لي الغياب والحنين.

سالت دمعة حارة على خده، وزفرة شقت صورة فإذا بداخله سعار وجد وحنين دفعه إلى ملامة نفسه «كم أنت قاسي يا فؤاد»، ندت عنه آهة اغتسلت من داخله كل الشكوك والريبة ناحيتها، وعاد يبرر تحت ثقل الشوق «نعم اعترف أنك قد خذلتها وما صنت عهدها، تركتها وحيدة في غابة من الذئاب، قف معها أخاً إن زهدتها زوجاً وحبيباً، خرجت هائماً تبحث عن سراب أنثى من زمن خرافي رسمتها ريشتك المدللة، عِش الواقع، وتقبل أن الإنسان يخضع للمتغيرات، وأن مؤشر الحب يخبو أحيانا تحت وطأة الظروف القاهرة. نفض عن ذهنه تلك

الصور ونهض من السرير ليفتح إحدى الأدراج والتقط من بين الأوراق صورها المبعثرة،إحداها كان لها وقع خاص في قلبه ترتدي صدرية المطبخ وتحمل ملعقة كبيرة تجلس على حافة النافذة المطلة على منحدر جبلي في شقتهما الصيفية يوم كانا في مدينة مونتانا السويسرية.. يومها كانت ملء قلبه، ملء يديه، بعد أن يتناولا الفطور يرتعان ويجريان في مرج بين المروج الخضراء تحفهما أشجار الصنوبر، والأبقار الزاهية الألوان معتقة الأجراس ترعى في هذه المنحدرات، تشدو جميلة بصوتها المتماوج رقة أحلى الآمال كأنها حورية انشقت من جدر السماء وانحدرت إليه بخاصية تتناغم مع كيميائية جسده.. وغربة روحه في انغمار أفقده الإحساس بالمرئيات حوله وكأنه محض روح ترفل في فردوس ملائكي، يتأملها هائماً، وجهها الباش يمطره ندىً كل صباح تقفز كقطة سيامية ناعمة تكشف الستارة عن نافذة يغمرها نور الشمس ثم تقترب منه تمسِّد شعره وتمس خديه بخفيف قبلاتها الرقيقة هامسة:

فؤاد..

صباح الخير..

أعددت لك النسكافيه..

هيا حبيبي..انهض..لا تقتل الوقت بالنوم.

دعنا ننجز شيئاً هاماً.

ويتبدد النعاس من عينيه تحت ضوء محياها البديع، تتهادى أنفاسها المعطرة بزهر البرتقال عندما ينقدح في موسم اللقاح. يضمها إلى صدره تتكمش إليه، يحتويان بعضهما في انصهار ذوب المكان والزمان في حدود الكون اللامتناهي. كانت الحياة تزغرد في عشهما الهادئ، صوتها المنعش كل صباح يشعل فتيل حماسه ويشحذ عزمه ويوقد جذوة عطائه، تجهز له حماماً ملكياً برغوة صابون الليمون تستدرجه كي ينغمس في المغطس باسترخاء لذيذ قد ذوّب الماء كل عنائه وابتلع المغطس كل همومه، وتقف جميلة عند الباب تحمل على يديها البرنس كجارية خارجه تواً من حرملك السلطان، تدندن بنغمات يقطر منها الظرف واللطف، تتمايل كغصن ريحان هفهاف، في قهوتها طعم رضابها العذب ثرثرتها لها مذاق الخبز المحمص في فطوره، لازالت أشياؤها الصغرى عالقة في روحه كوشم أبدي حفرته عرّافة فرعونية منذ زمن ونسيته ونساها مع الأيام.. لفتاتها الذائبة وَجد تتمايل برأسها الصغير في لفتات معسولة وخفقة قلبه مطواعة لسحر هذه اللفتات، جميلة انغرست في قلبه عنوان حياة.

أفاق من شروده وانتفض كالملدوغ يضرب وسادته بقبضة كفه ليسرب تلك الصرخة المدفونة «إنها لي، ملكي أنا، أخذوها مني عنوة، جميلة تغيرت منذ أن ارتبطت بتلك الجماعة الإرهابية صارت جافة، قاسية غامضة، اللعنة على الشيطان».

ورويداً.. رويداً..

استرد هدوءه وتذكّر «كم أنت جبان وحقير، تركت المسكينة تكابد لوحدها مع قوم ذئاب ينهشون عقيدتها، وفكرت بنفسك، بتجربة جديدة، مع امرأة أخرى». لكنه عاد وبرر فعلته ثانية: «قد يكون هذا الموقف صدمة توقظها من غيها، لأنها رفضت العودة معي وآثرت البقاء في باريس، فلتبق لطموحها آلة صماء تفقد فيه كل إحساسها بالحياة، هي السبب في فشل علاقتنا، لست طوع بنانها كي تحركني وفقاً لمشتهياتها.. فلتبق محبتها في قلبي رغم هذا الجرح لكن من حقي أن أستقر في بلدي ويكون لي أسرة وأولاد»

مشاعره الصاخبة تضطرم في صدره وهو ينتحي في تفكيره كل ناحية ويتخبط في فضاء الخيال دون كابح، وثب من سريره وثبة شريرة غاضبة يلوم نفسه وكأنه يصارع الهواء ويدور في الغرفة حول نفسه «كيف أتركها لوحدها نهباً للضياع، فهي امرأة جميلة يتودد لها الكثير من الرجال لكن.. ألا يعقل أن هناك من اقتحم حياتها في غيابي وقلب موازينها رأساً على عقب، ألا يكون هذا هو سبب تقلبها المفاجئ؟!»

افترسته الشكوك، وأرقته الوساوس كاد أن يضعف ويهاتفها ليسكن شكه، لكنه عدل في النهاية، رفض الهزيمة ظناً منه أنه سيد الموقف، قد تركها في المنطقة المحايدة لتثب إلى رشدها وتعود له نادمة، كانت رغبته الدفينة أن يصفعها بقسوة كي

تفيق من أوهامها، اتصاله يعني اعترافاً صريحاً بندمه وأسفه وهذه نقطة تحسب ضده في العلاقة، «كنت أظن أن أعمالها هذه ملهاة لها في غيابي.. لم أكن مدركاً حجم تأثيرها السلبي على علاقتنا».

تصاعدت الوساوس في رأسه، وتفتقت الذاكرة عن صور ومواقف أخذت الواهمة تسرجها بمخيلة، منهوكة فبدت سوداء قاتمة..

ودون إرادة منه..

ويعد أن ألقى بمرساة تفكيره في بحر الضياع..

يصرعه النعاس وتتلاشى ذاكرته..

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

مــــأزق

استبدت الوحدة بجميلة بعد قرار الهجر وتردت في هوة سحيقة من الإحباط وألمَّ بها الجزع، وتناهت في الوسوسة إذ كيف يتنكَّر لها زوجها ويتركها هائمة دون قرار، وتساءلت عما يخلق بها أن تفعل، سجت من مقلتيها الدموع وهي تتذكر تفانيها في حبه وذوبانها فيه.. جلست لوحدها في الدار غائمة حزينة تناجي نفسها ومشاهد الماضي تطوف بذاكرتها سريعاً «كيف تكون حياتي دونه؟ إنها ذات العدم، لم يقلق رغم كل محاولاتي في احتوائه، حسبته سنداً وعوناً وإذا به حلم قد بددته الأيام»، ولبثت تفكر في مخرج لأزمتها حتى انتهت إلى قرار قائلة: «من يســاعــدني في هذه المحنة ويوجــهني إلى القــرار السليم؟»، استعرضت بعض الوجوه في ذهنها المشوش حتى استقرت على «الشيخ عز الدين» الذي كان لها دوماً خير سند.

استقلّت سيارة أجرة وهبت مسرعة للقائه، لعلها تجد فيه

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الملاذ والأمان فهو إمام المسجد الذي نطقت الشهادتين بين يديه، وظلت تعاود الاتصال به في المسائل الشرعية والقضايا الفكرية.

مسحت طرفها وهي مطرقة تحاول استعادة هدوئها النفسي، ولدى اقترابها من بيت الشيخ، ترجلت بسرعة ودلفت إلى الداخل وهي متلفعة بثوب أسود، وشت ملامحها قلقاً وكمداً فما عادت تملك القدرة على ضبط أعصابها المهزوزة.

تهالكت على المقعد منهارة.

يسقيها الشيخ شربة ماء قائلا في اطمئنان:

«اهدئي يا ابنتي.. فلكل مشكلة حل».

بصوت مخنوق استطردت:

«أمن شيم المسلم يا شيخنا الوقور هجر امرأة ضعيفة، منكوبة بقومها.. أسلمت لتوها واستنجدت بزوجها كي يحميها»؟

وترتعش كعصفور ذبيح ثم تنفجر باكية، يحاول الشيخ تسرية همها:

«اهدئي ريثما تلتقطين أنفاسك».

ازدردت رمقها مقهورة:

«ربما تذكرني وتعرف قصتي مع زوجي»

أومأ الشيخ بالإيجاب.

استتلت بحرقة:

«الآن هجرني، ولا أعرف موقفي بالضبط، هل أنا بحكم المطلقة أم ماذا؟!»

«وضعي متعب إذ قطع عليَّ الاتصال من جميع الجهات، أهلي حاربوني بعد أن أسلمت وكان زوجي هو السند والحماية، أشعر بالضياع، بالخوف، ليست لي القدرة على مواجهة الحياة لوحدي، أشعر أنني مشتتة»..

التقطت أنفاسها برهة ثم تساءلت:

«أهذه شيم المسلمين؟ أي قيم يعتنقها رجال الإسلام؟».

انتفض الشيخ وكأن مساً أصابه فانعصر قلبه غيرة على دينه فهم ليقول:

«لا تحكمي على الجميع بهذا الحكم الجائر، هذا التصرف الفردي لا ينبغي توصيفه على كل المسلمين، الإسلام دين الأخلاق وحلم الإنسانية الرفيع، هذا الرجل هجرك لغاية في نفسه لا يمكنني تخمينها طالما هو بعيد عني، ما أرجوه الآن معاودة الاتصال به مرات عدة علّه يفيء إلى نفسه بعد أن يهدأ غضبه.

استشاطت غيظاً:

«لست أدري لِمَ فعل ذلك؟ لم يبدر أي تصرف مني يسيء له، كنا في غاية الانسجام والتفاهم».

أطرق الشيخ يفكر لعل العقل يسعفه في ومضة تضيء طريقه فلا يمكنه أن يبت في أمر خاص طالما لم يسمع شكوى طرفي المشكلة فأولى به أن يسألهما معاً لتتبلج الحقيقة واضحة ثم تابع مناجاته والمرأة جالسة قبالته مطرقة كمن ينتظر حكماً نهائياً «هل هذا الرجل مزاجي؟ هوائي؟ بعد انطفاء رغبته زهدها؟ هل هناك عائق اجتماعي يحده؟ هل بدر منها تصرف غير لائق فأجفل مدبراً؟ إنه يتذكر فؤاد جيدا، في الظاهر كان شابا وقوراً متزناً، وبدا أنه فخور بها يوم التقاهما معاً».

سألها مستعلماً:

«هل تحدث إليكِ عن وضع أهله الاجتماعي وموقفهم منكِ؟».

مسحت طرفها قائلة:

«إنه صاحب قرار ولا يكترث لأحد».

«الحل الوحيد هو الاتصال به وحسم الموقف، حاولي يا ابنتي مراراً كي تتفهمي وضعه، وإن شئت سأفعل ذلك، أحدثه وأقنعه».

انفرجت أساريرها ابتهاجاً:

«أتمنى ذلك يا مولانا».

استخرجت من حقيبتها بطاقة فؤاد:

«تلك هي أرقام هواتفه، أرجوك أن تتحدث إليه، أنا أحبه وأوده ربما فهمني خطأ، أقنعه كي يعود لي ثانية»

طمأنها:

«عودي إلى بيتك منعمة بالراحة،حتما سينصلح الحال فلا تقلقي»

لملمت جميلة أذيالها وهبت واقفة لتخرج، صادفها البوستر المعلق على الجدار قرأت فيه ما مس عقيدتها وإنسانيتها بمساس الغيرة فأردفت:

«يسرني أن أساهم في مشروع هذه المدرسة مولانا».

«المشاريع الخيرية قائمة على التبرعات ومساهمات الأيادي البيضاء وأجركم على الله فيما تفعلون».

واستأنفت تسأل:

«وأين أضع المال؟».

«في صندوق التبرعات المنصوب في واجهة الدار».

وفور أن خرجت «جميلة» اتصل الشيخ عز الدين بفؤاد وأجابه الآخر بصوت ملهوف، شعر الشيخ من واقع خبرته بأطباع الناس، أن لهفة فؤاد وهو يتجاذب في الحديث عن زوجته ميَّال لها بشدة وعرف كيف يسرج خيوط الحوار ليتقصى فيه مواطن الخلل حتى أقنعه بضرورة السفر إليها وحسم

الموقف بالطريقة القانونية والشرعية، إذ لا يمكن أن تدوم الحال على ما هي عليه دون وضع حدود وضوابط واضحة.

سرى نفح من ذكراها في نفس فؤاد وود لو كان له جناحان لطار بهما إليها مترعاً بحنين فياض وقلب نكأه الغياب بحرقة لا تبرد.

استجاب فؤاد للشيخ مطواعاً، منقاداً لنصائحه، وربما البعد أشعل فيه جذوة الشوق فانقلبت موازينه بشكل جديد لذا أخبره أنه آت في الشهر القادم.

أعاد الشيخ الاتصال بجميلة فور أن حسم الأمر مع فؤاد وشرح لها بعض الثغرات الغامضة في العلاقة، لم تفطن إليها وهي في حمأة محبتها.

استطرد موضحاً:

«زوجك يحبك كثيراً، وحين عودته أقبلي عليه بتحفظ لا تكوني طيعه لنزواته المزاجية، دعيه يعاني كي يستمرئ لذة الحضور، يظنك في متناول يده، يبعدك ويدنيك كيفما يشاء ووقتما يشاء، تعوّد أن يأخذ دون صد حتى استعصى عليه أن يتذوق الأشياء على مهل.. لم يترمض برغبة عصية ليستعذب المكسب في الآخر.. أحسست به ذا طبع نزوي، حينما يدرك خسارته لك سيفكر ملياً قبل أن يقطع خيط الود بينكما».

وتركها الشيخ ساهمة تفكر، تسترجع مشاهد من حياتها

معه وتستعرض مزاجيته وتصادق على كلام الشيخ.. أسعدها قرار العودة وسرى في عروقها كالسحر بل إنه تركها في حيرة.. رغبتها في التعبير عن لواعجها بشوق يتضور في أعماقها.. ستقول له إنها تحبه.. وإنها حماقة إن ظن غير ذلك. لكنها عادت وانكمشت وتذكرت سياسة الشيخ وهو يرسم لها نهجاً جديداً في استجلاب محبة زوجها.. ينبغي أن تتماسك. تأففت متذمرة «هل أستطيع أن أتصنع غير ما أحس به، إنني في توق إلى التعبير عن مشاعري بكل جنون»

وظلت تحدث نفسها مستشرفة المستقبل بنظرة جديدة «أعرف أنه يحبني أكثر من أي مخلوق آخر ربما فعل ذلك لحالة عارضة ألّمت به، لكنني سأعيد ترتيب حياتي من جديد كي أحتوي هذه الفجوة وأرأب هذا الصدع، سأقلل من حصص الأخوات المسلمات وأختصر المحاضرات وأرافقه في حله وترحاله، سأسافر معه هذه المرة لأتعرف على عائلته».

انتهت إلى هذا القرار المريح، فاستقرت هواجسها وهدأت وساوسها نهضت لساعتها وقصدت مكتبها لتراجع بعض بحوثها وأعمالها وقراءاتها وأقبلت على كتاب الحقوق لتقرأه وإذا بالسطور تهرب من عينيها ثمة غشاوة حجبت عنها رؤيا الكلمات، ورجفة في أطرافها جعلتها في وضع خائر، منذ فترة وهذا الوهن يسري في بدنها الرقيق وأوعزت الحالة إلى هبوط الضغط المستديم الذي تعاني منه باستمرار بسبب إرهاق

www.mlazna.com-RAYAHEEN

العمل. مرات عديدة كانت تزور الطبيب وينصحها بالتغذية الجيدة لكنها تستهين بأمرها لفرط حماستها في الأنشطة وكأن اشباعات النفس تغني عن الطعام، هذه المرة اشتد غثيانها فحسبته آثار قلق نفسي بعد هجر زوجها فآلت على نفسها استكمال البحث مستنفرة كل طاقتها وجهدها بيد أن خور صحتها وغمامة تطوف كسحب داكنة فوق عينيها أعاقت إنجازها هذا، ألقت بالكتاب مذعورة:

«ماذا حدث لي؟ ماذا دهاني؟».

الأمر مقلق جداً، شدت رحالها إلى الطبيب الساكن على بعد أمتار من منزلها، ربما يكتب لها بعض المنشطات والفيتامينات، اتجهت إلى غايتها وهي تخطر الشارع تلمحها جارة عائدة لتوها من السوق، مازالت تناديها جانيت:

«تبدين شاحبة وذابلة يا جانيت»

بصوت منهك ترد جميلة:

«مجرد إرهاق بسبب الدراسة التي استنزفت جهدي»

بتخابث تسألها الجارة:

«هل حقيقي أنكِ انفصلت عن زوجك العربي؟»

بنبرة مقتضبة تقول:

«معلومة خاطئة، إنه مسافر وسيعود الشهر القادم»

ثم تعجلت بالذهاب معتذرة:

«عن إذنك فأنا في عجلة من أمري»

ودلفت إلى عيادة الطبيب حيث بدت خالية من المرضى اللهم إلا مريض واحد، فحصها الطبيب جيداً ثم بادرها قائلاً وبشره في وجهه:

«أنتِ حامل يا جانيت»

تهلل وجهها، حدقت بالطبيب غير مصدقة:

«حامل؟.. أنا حامل؟»

يبتسم الطبيب وهو يواصل:

«نعم ولكنك ضعيفة تحتاجين إلى بعض المقويات وخصوصاً الحديد والراحة فهما ضروريان خصوصا في الأشهر الأولى من الحمل»

دبّ فيها النشاط وعجلت في الذهاب إلى المنزل كي تتصل بفؤاد.. سيأتي إليها ملهوفاً ليضمها إلى صدره ويقبّلها تائباً هتفت إلى نفسها والفرحة مستحوذة على مشاعرها، «أبعد ليالي الحزن تعوضني يارب بهذه النعم، كم أنا سعيدة يارب بعنايتك ورحمتك».

اتصلت بفؤاد وقد نسيت مشورة الشيخ، وبدون مقدمات أو تفكير اقتحمت عليه حيرته، بادرته بصوتها المرتعش:

«فؤاد.. أنا حامل»

قالها في تعجب واضطراب:

«حامل؟»

«نعم حامل»

وانطلقت أساريره بشراً وراح يقبّل سماعة الهاتف كالمجنون، فرحاً، جذلاً، إنها بشارة مفاجئة، يتساءل غير مصدق:

«هل تحققت من الأمر؟»

وتمضي جميلة في استطرادها الهادر:

«أنا مثلك تفاجأت تماماً، كنت قد قررت ترك فكرة الحمل ريثما أنتهي من رسالتي»

واستتلت قراراتها الجديدة مندفعة بحرارة الفرحة:

«سأسافر معك هذه المرة يا فؤاد، لأستقر في وطنك للأبد سأفعل أي شيء فيه رضاك، أنا نادمة أشد الندم لأني أهملتك»

انقلبت فرحته إلى وجوم، صمت مسترجعاً موقفه الأخير، وتراجعت فرحته وغاضت السعادة حينما تذكر زواجه الأسبوع القادم، مفارقة لم يحسب لها حساباً، تناديه جميلة بثرثرتها المعتادة:

«فؤاد، فؤاد، ما بك حبيبي أراك صامتاً؟!»

أفاق من شروده على صوتها المتوسل، طمأنها قائلاً:

«صدمتني المفاجئة، حقاً أنا سعيد، سعيد بكِ، سعيد بهذا الخبر المفرح»

وبنبرة ناعمة، لينة تتضرع إليه:

«عُد إليّ هذا الأسبوع فأنا في شوقٍ عارمٍ ولهفة حارة إليك»

«سأرتّب نفسي خلال أيام»

غشيه الهم، فقد تلاشى الخصام، وزالت القطيعة، ولا يمتلك تلك المبررات التي تسوغ له الاتجاه في هذه الزيجة الجديدة، العائلتان تعدان الاحتفال الكبير والدعوات الرسمية لكبار رجال الأعمال والساسة قد حُسِمت على وجه السرعة ومن الصعب عليه اتخاذ خط الرجعة، فقد نفَّذ والده كل إجراءات الحفل وانقضى الأمر، قلَّب أفكاره مراراً علّه يعثر على مخرج منطقي ومبرر لهذا المأزق، والده أقدر على تهوين هذه العقد وتذليل تلك العقبات، وعلى وجه السرعة ذهب إليه حاملاً همه ليستشيره في هذه القضية.

دخل الشركة مشوش البال، مضطرب الفكر، صادفه «عماد» في الردهة صعَّد فيه بصراً فاحصاً وفي سره استدراك «أهذا عماد؟!»

حياه الآخر بصوت رصين خلا من دعابة الزمن الجميل.. نبرته الخجولة شابها نوع من الحدة.. حالة التحفظ لكل طارئ نبت فيه مجدداً تبعاً لطبيعة عمله الحساس، ربما ماكنة العمل

القاسية وآليات الشركة الرتيبة سلبت طراوته في التفاعل الإنساني حتى مع صديقه الحميم، وأغض بطرفه محاولة منه اجتناب أي مفاكهة عارضة أو مشاكسة تناقض مناخه الخاص، بان في عيني فؤاد حسرة على صداقة فاتت ومحبة غابت لكن عماد فهم المقصد فبرّر موقفه:

«العمل يضطرني أن أبرمج كل حواسي وأستنفر كل قواي حتى أسيطر على هذا الأسطول الضخم، فقد اكتشفت سرقات كبيرة، ومناقصات مشبوهة تأخذ أباك على حين غرة وتقدّم له أرقاماً وهمية»

اقترب منه «فؤاد» حتى انعدمت المسافة بينهما وربت على كتفه يقطع عليه استطراده في الحديث لأن هناك ما يشاغله عن الاستزادة في هذا الأمر.

«أنا فخور بك يا صديقي»

ومضى عماد:

«هناك مشاريع تحتاج إلى خبراء وقد اضطررت الاستعانة بهم من الخارج»

حاول فؤاد أن يختصر الوقفة:

«واضح أنك متحكم بالعمل تماما وملمٌّ بحسابات الشركة وهذا ما كان يحرص عليه والدي»

تشاغل فؤاد عنه بالبحث في المكاتب متسائلاً:

«وأين علياء، لم أرها منذ فترة؟»

وتبعه عماد قائلاً:

«إنها الأخرى تحاول إدخال بعض البرامج التدريبية لتطوير أداء طاقم السكرتاريا، ووالدك يتابع أعمالها باهتمام»

«إذن اقتنع بها أبي»

«كل الاقتناع»

وقبل أن يدخل مكتب والده استوقفه عماد والحرج بادٍ على محياه، وبنبرة مترددة انبرى يقول:

«فؤاد..أحتاج أن تسدي لي خدمة»

«تفضل يا عماد»

بلسان أخرسه الخجل قال:

«هناك قضية معقدة تخص والدي، فقد حكم عليه بالسجن لإمضائه على شيكات بدون رصيد، خمسون ألف دينار نحتاج هذا المبلغ لإخراجه من السجن، وأنا أتعهد بتسديده على شكل أقساط أو استقطاع جزء من راتبي شهرياً إن لزم الأمر»

فؤاد شد على يده قائلاً بثقة:

لا تقلق سيخرج والدك بإذن الله، لكن تكتم على هذا الخبر حفاظاً على سمعتك كمدير مهم في هذه الشركة»

«شكراً لك يا عزيزي»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وفور أن فتح باب المكتب لمح «علياء» تخرج غاضبة، انبهر لمرآها بادرها مبهوراً:

«تبدين كسيدة أعمال من الطراز الرفيع»

وبنبرة جافة خالية من أي علائم ودّ:

«شكراً لهذا الإطراء»

قاطعها مندهشا:

ما بكِ تبدين متجهمة؟

تداركت الموقف:

«ضغوط العمل تجعلني أحياناً جادة»

«أهناك ما يكدرك؟»

صمتت هنيهة وهي تلتقط أنفاسها، لكنها أمسكت عن الكلام خشية أن تبدد نفسها دون طائل، ثم انصرفت وفي عينيها انطفاء، فقد ألقتها الأقدار في دوامة سحيقة ليس لها قرار.

هربت متعذرة:

«عن إذنك عندي شغل»

ظن فؤاد أن هذه الفتاة ماكنة تطحن بقسوة وعندما لا تجد لمطامحها منفذاً تتكفئ محبطة.

دخل مكتب والده ولا زالت صورة علياء بانكسارها في ذهنه:

«أرى علياء خارجة من مكتبك منزعجة»

أشعل والده سيجاراً وهو يردد في هدوء:

«اللعنة، اللعنة، هذا الصنف يحتاج إلى كسر رأس»

أقبل على والده بعد أن رقت تقاطيعه الجادة وأجلسه إلى جانبه وأستأنف حديثه:

«هذه الفتاة تعاني من نقص شديد، تتضارب الظنون في رأسها وتحسب أني فتى حلمها المناسب»

يهز فؤاد رأسه مبهوتاً:

«لا أفهم، هذه المخلوقة طاغوت ليس لها مكان في دنيا المشاعر»

«لا يا بني إنها مخلوقة ضعيفة، غارقة في أوهام حتما ستصحو منها يوماً وتدرك أن ما تصبو إليه مستحيل».

«وماذا تريد؟»

تنهد الوالد وهو ينفث الدخان في الهواء موغلاً في فكرة استبدت به إلى درجة الملل:

«محاولة يائسة لاستدراجي، المسكينة تستنفر كل أسلحتها وفتنتها لغوايتي في حين أزداد عنها بعداً ونفوراً»

يسأله فؤاد مرتاباً:

«ألم تلامس وتراً من شغاف قلبك؟»

«وهل تظنني صيداً سهلاً تأسرني مفاتن امرأة»

وقهقهة ساخراً وهو يسترسل:

«ويا ليتها مفاتن من نوع فاخر»

استطرد فؤاد وقد استنكر موقف والده:

«ولكنها مغرية وشابة تعجب أي كهل»

تابع الوالد مبرراً:

«الحب الذي غمرتني به أمك جعلني دوماً في حالة تجدد عاطفي، فمنذ أن عرفتها وإلى الآن لم تنطفئ شعلة قلبها وبقيت متأججة.. أمك فتية يا فؤاد، لم تنضب أبداً، ما زالت مشاعرها تفيض رقه وعذوبة، ضوء الحنين في لحاظها له بريق أخاذ فلِمَ أستبدلها بامرأة أخرى وإن كانت أصغر سناً منها».

صعق فؤاد وهو ما زال متشككاً من تصريح والده:

«اعترافك خطير يا أبي، أمي تشتكي بعدك وغيابك وتظن أنك لا تحبها أبداً»

ابتسم الوالد ابتسامه ذات مغزى:

«أتريد أن أسرك أمراً؟»

«هذا هو الأسلوب الأفضل لمعاملة الزوجات، كي تظل الواحدة منهن مشتعلة، عندما تجد رجلها طيراً طليقاً تلهث

بعاطفة قلقة من أجل أسْره ثانية فتتفانى من أجل إرضائه بشوق دائم وحنين متجدد»

ثم شد أذن ولده مازحاً:

«إياك أن تفشي لها هذا السر، وقد أفضيت به لك خصيصاً لأنك مقبل على حياة جديدة»

ضحك فؤاد وهو يتخلص من قبضة والده:

«أنت خطير يا والدي»

وبعد وقفة قصيرة، تناول فؤاد خيط الحديث ليلج في موضوعه فَسُرَّ والده بحمل زوجته المفاجئ والحرج الذي وقع فيه وهل بإمكانه العدول عن هذه الزيجة.

تهلل وجه الوالد بقدوم حفيد له، وتاهت في رأسه الأفكار وفاض فيه الحنين لاحتضان طفل يحمل اسمه قائلاً وهو مشدوه غارق في أحلامه:

«أعز من الولد ولد الولد»

ثم جلس على مكتبه والحيرة مرتسمة على أمائره، لم تستطع الفرحة أن تبددها وطفق يقلّب الأفكار في رأسه عله يرسو على حل مردداً بين الحين والآخر:

«خبر مفاجئ، خبر مفاجئ»

وتاهت الحلول شتى في ذهنه حتى استقر إلى إحداها قائلاً:

«الآن لا يمكننا أن نتراجع، أقدم يا ولدي على خطوة الزواج، ودع زوجتك الفرنسية تمكث في فرنسا متعذراً بشتى الأعذار ريثما تلد»

قال فؤاد:

«وإذا عرفت ماجدة أني متزوج ولي ابن»

«لا تعترف بأي شيء الآن، ستتفهم الموقف فيما بعد وترضخ للأمر، كن ذكياً وحاذقاً حتى تمر الأزمة بسلام»

أفتر عن ثغر الوالد بابتسامة رضية واستعاد بشره ثانية، أغمض عينيه ساهماً، محلقاً في فضاء الخيال يناجي نفسه بتمتمات مسموعة:

«حفيد، حفيدة، لا يهم، حفيد بشعر أشقر وعينين زرقاوتين».

«كم أنا سعيد»

ولم يلبث فؤاد أن ردد باقتضاب:

«وكم أنا متورط في هذا الأمر.. يقلقني مستقبل غامض وزيجة أشبه بالقبر أذهب إليها مرغماً»

الفصل (١٠)

الحب المستحيل

تحاول «فداء» اقتحام عالم الكتابة بكل ما تملك من ثقة ورؤيا، بدأت تكتب مقالاتها القصيرة في الصحف وبأسماء مستعارة وتترقب نشرها على خوف وقلق خشية أن تهمل وتبدد دون اكتراث، عادت للتو من مدرستها أمسكت الصحيفة وراحت تقلبها وعيناها تتفحصان بتوتر حتى استقرت على صفحة أقلام شابة وقرأت مقالتها «بالأمل نصنع الحياة» لم تصدق ما رأت. صرخت بأعلى صوتها تنادي أمها فرحة:

«ماما، نشروا مقالتي»

تحمل الجريدة متجهة من فورها إلى المطبخ، الأم تغمرها البشاشة وتلتهم السطور وتقبّل «فداء»:

«ستكونين أعظم كاتبة في العالم»

«أحلم يا أمي أن أصنع عالماً جديداً يعيش فيه البشر بسلام وأمان»

تتفرّسها الأم بعينين شاردتين:

«أنتِ من تجسدين أحلامي»

مازالت «فداء» مبتهجة ترنو إلى اسمها المحفور على الصحيفة بزهو وخيلاء قائلة:

«أتدرين يا أمي عندما تنشر لي مقالة أتشجع أكثر وعندما تُهمل أحبط»

ربتت الأم على وجنة فداء بحنان مشجعة:

«في المرة القادمة اكتبي اسمك الحقيقي لأفتخر بك أمام الناس»

تضرجت بحمرة خفيفة:

«أخجل يا ماما، لازلت في هذا المجال طرية، أحتاج لوقت طويل كي يشتد عودي»

«وماذا فعلت بشأن المسابقة؟»

«لم أنته بعد من تأليف قصتي القصيرة، ومدرسة اللغة العربية أجّلت موعد استلامها للشهر القادم.

«أظنها ستفوز بالمركز الأول»

«ولكني لست مستقرة على الفكرة إلى الآن، أحتاج تقمص الشخصيات بإحساس حقيقي كي أكتب صدق مشاعري»

«تريثي حتى تقتنعي بالفكرة تماماً طالما هناك شهر حتى يحين موعد استلامها»

نهضت الأم بعد ذلك كي تعد سفرة الغداء، فولداها قادمان بعد لحظات وصدق حدسها، فقد دخلا في موعدهما المعتاد، ابتدرتهما «فداء» وهي تدفع الصحيفة في وجهيهما قائلة:

«اليوم نُشِرَت لي مقالة في الجريدة»

ابتسم «عماد» ابتسامة جامدة وهو يتصنع الاهتمام:

«رائع.. غدا ستكونين كاتبة مشهورة»

بينما أشاحت علياء بوجهها مستاءة بغير اكتراث:

«أنا منهكة الآن، اقرأها لاحقاً»

انكمشت «فداء» وتراجعت فرحتها بشيء من الخذلان فما كانت تظنه أمراً عظيماً في نفسها هو شيء عارض لا قيمة له بالنسبة لأخويها.

رمت «علياء» بثقلها على الكنبة، اندفعت الأم تسألها لاهثة وقد انفجرت:

«منذ فترة وأنتِ حزينة، مكتئبة، تخفين عنّي سراً، ماذا حدث لكِ يا ابنتي؟ بان عليكِ الضعف والهزال»

شدت علياء نفساً عميقاً وأطرقت صامته بينما واصلت الأم قولها بشيء من الإصرار:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«بانت الحسرة في أمائرك المنهكة، لا أظن أن الأمر عادي، ثمة ألم دفين يختبئ في صدرك وأخاله يمتص قواك وحيويتك»

لم يكن «عماد» مدركاً ما حل بأخته علياء، فهو منهمك بعمله منصرف إلى أمره الخاص مقتنع أنها تستنزف جهدها في أنشطتها المعتادة في الشركة، قد بلغه شيء من اللغط والإشاعات عن خصوصية العلاقة بين أخته وهاشم صاحب الشركة، بيد أن خياله لم يجنح إلى ما هو أبعد من حدود العمل والمصلحة فالرجل كهل، سلوكه المتزن لا يدعو إلى الشك والريبة، خصوصاً وأن علياء في عمر ابنته، لم يلحظ أن هناك ممارسات مريبة تسيء إلى الشرف والسمعة ويظنها أوهاماً نسج خيوطها وشاة حاقدون ممن كان لهم مطمع في منصبه، وهذه «علياء» نصبت فخا للكهل كي يقع في شراكها لتنقض عليه بصباها وحيويتها وتغرف من هذا البحر الزاخر ما شاء لها من النعيم، يلاعبها هذا الكهل بمهارة فيسحب خيط اللعبة فيلفه طوقاً حول عنقها فتقع في فخ حبه، والهة، معذبة، تكتوي بنار الصد والحرمان، إنها تريده بكل جوارحها وتسخر من نفسها كيف سقطت في هذه الدوامة دون حساب، ليتها بقيت على الشاطئ متخذة تدابيرها، لمَ جازفت ورمت نفسها في لجة أعماقه وإذا بها تبحر وتبحر يستثيرها غموضه الساحر لتغوص حتى القاع والهة. وتكتشف الخبايا والجواهر.. ورغبة جامحة

في امتلاكه، وكأن النفس تزداد شغفاً عندما تستعصي عليها الرغبة، جُنت به بينما ازداد صداً ونفوراً، وزادت حيرة ولوعة أخذت تلاحقه في كل مكان وتتصل به في كل الأوقات، تطارده ويقطع عليها طريق الحلم بقسوة «أنت مجنونة» تثور ثائرتها وتلهج بفحيحها الملتهب «مجنونة بك» أسرتني بقوتك، بصرحك الشامخ الذي حاولت تسلقه فعجزت، هيبتك القاسية أجّجت في قلبي شوقاً لا ينطفئ، كم من المرات لُمت نفسي على غيها متذرعة بمبررات كثيرة فهو كهل في عمر أبيك.. النفس لا تقنع وتأبى إلا أن تغوص فيك حتى النهاية.. طيفك يلازمني في كل مكان، أراك في وجوه الرجال ممن لهم بريق خاص، بسمتهم المهيب، ولفتاتهم الرزينة، بحثت لك عن شبيه في كل الطرقات وقررت أن أتشبث به وإن كان زيفاً طالما هو السبيل لقتلك في نفسي.. وما تركت جنوني يأخذني إلى الانهيار، سعيت في البحث عن مخدر لهذا الألم، ألم حبك المستحيل.. هل تتصور أنني كنت أبحث لك عن شبيه لأخادع نفسي وأوهمها بالبديل، نعم رأيت لك شبيهاً نفس الطول والحجم العينين، الشعر الأشيب المصفف بأناقة محسوبة، كانوا صوراً تتساقط في العدم.. وإذا بحقيقة مصلوبة في جدران قلبي تأبى إلا أن تستيقظ في إصرار لتعذبني.. أوقدت فيَّ لوعة وتركتني في لجة الأحزان معذبة.

تراقبها الأم بقلق:

«حتى شهيتك لم تعد كالسابق»

عظت على شفتيها محاولة دفع حرقتها إلى الداخل لتظل حبيسة الضلوع.. لكن مقاومتها فشلت.. رمت الملعقة وهي تضج صارخة ودموعها تنهمر:

«أرجوك يا أمي كفي عن إلحاحك هذا»

صمتوا مذعورين، بينما سحبت علياء كرسيها منتفضة بعصبية واتجهت صوب غرفتها. تبعتها الأم وأوصدت الباب خلفهما، تنادي مرعوبة:

«علياء.. علياء..»

ونوبة بكاء مريرة..

تمسح الأم دموعها، تضمها إلى صدرها، تستحثها على البوح:

«تكلمي يا ابنتي.. حتماً سأساعدك»

تمسح طرفها ونشيجها الملتاع يثير فزع الأم، فتساءلت والظنون تأخذها كل مأخذ:

«هل أخطأتِ مع أحدهم؟»

تنفي الفتاة بشدة وهي تحدق بأمها مندهشة لظنها السيء.

«أرجوكِ يا أمي دعيني وشأني»

صرخت الأم بأعلى صوتها وهي تمسك علياء من كتفها تنفضها بشدة:

«تكلمي.. سأرغمك على الكلام فمهما بلغ الأمر من الخطورة لن تجدي غيري ملاذاً»

دخل عماد «وفداء» وهما واجمان، يسأل عماد مرتاباً:

«ماذا حدث لها؟»

ترد الأم بحزم:

«دعونا لوحدنا»

وخرجا..

استراحت علياء وهدأت نوبتها فشدت نفساً عميقاً وأنشأت تقول:

«لا أدري بماذا أحدثك يا أمي، إنني مغرمة بصاحب الشركة، وهذا الشعور يتنامى عندي يوماً بعد آخر.

صرخت الأم معنّفة:

«هل سلّمت نفسكِ له؟»

اغتاظت «علياء»:

«أرجوك اسمعيني للآخر، لست أدري لماذا تظنين بي هذا الظن السيء، هل أنا من الرخص كي أفرط في شرفي»

بإصرار تصرخ الأم:

«نعم.. الشرف.. الكرامة»

مسحت علياء طرفها مستطردة:

«إنه يصدني بقسوة، وحبي له يتوقد ويتعمق حتى أكاد أفقد صوابي فقد أعيتني كل السبل والحيل لاجتذابه حتى فشلت فشلاً ذريعاً»

ثارت الأم:

«أهذا هو منتهى الطموح الذي كنت تخططين له؟! تعشقين رجلاً مسناً وولي نعمتنا»

غضبت علياء نادمة:

«ليتني ما بحت لكِ بهذا السر، هل أنا مضطرة لسماع تأنيبك الجارح؟»

أطرقت الأم بشيء من الأسف:

«أقول هذا لفرط حبي لك وخوفي عليكِ يا ابنتي، فحبك هذا وهم وخيال وطريق مسدود ليس له هدف أو أمل، الرجل رفضك وصدك لأن له مبررات كثيرة ليفعل، ذلك انسيه يا علياء نحن لسنا في مستوى هؤلاء الناس، لطبيعة حياتهم نسيج مختلف عنا تماماً».

«أو تظنين الأمر بهذه السهولة؟ كم من المرات حاولت نسيانه،

تجاهله، بل التشاغل عنه لم أستطع، بل أزداد ولعاً به، صدقيني لو كان هناك دواءٌ للنسيان لما ترددت في شرائه وإن كان بأغلى الأثمان، إني طرقت كل الأبواب كي أنجو من هذه الهوة السحيقة التي أوقعت نفسي بها.. وإذا بي أعود خائبة تفتك بي ضراوة حب شديد استحوذ على قلبي بشدة.

صمتت الأم حزينة، ساهمة تفكر، تتنهد بحرقة، ثم انبرت قائلة:

«أحسن حل أن تتركي العمل هذا، فطالما أنتِ معه في نفس المكان سيظل هذا الشعور يلاحقك كالظل..»

صرخت علياء:

«لا.. لا.. لا أستطيع إنه يعني موتي، هلاكي»

حدجتها الأم بعينين مبهورتين:

«إلى هذه الدرجة أنتِ متيمة به»

أطلقت زفره حارة:

«وأكثر»

وفي غرابة تتساءل الأم:

«ماذا فعل بك هذا الكهل؟!»

إنها تعرفه منذ قديم الزمان، ذلك الكهل لمحته وهو جالس مع أبيها في دكانه، لم يكن في خاطرها المرفه آنذاك سوى

www.mlazna.com-RAYAHEEN

شاهين زوجها السابق .. تتزود من شاهين كلما خطرت بالدكان وهي عائدة من المدرسة، تلمحه يقف في زاوية المحل يتظاهر بتنسيق البضاعة فوق الرفوف بينما عيناه ترتشفان الحب بلمحة خاطفة، وقتها كان هاشم جالساً مع والدها في زيارة عارضة وضاعت صورته في كثير من المشاهد المزدحمة في الذاكرة العتيقة.. لم يترك في نفسها أثراً يجعلها تستحضره ثانية بشيء من الاهتمام اللهم إلا اسمه الذي لمع كصاحب شركة، والمصادفات التي يرتبها القدر بشكل عشوائي.

سمعت ابنتها تردد بانبهار:

«نعم أنا مسحورة به، مفتونة»

اغتاظت الأم وفقدت السيطرة على نفسها:

«اخرسي، أيقظي نفسك من هذه الأوهام»

انكبت «علياء» على وسادتها باكية:

«أحبه يا أمي، فالأمر خرج من يدي»

تركتها الأم وهي تعاني الكثير من الانقباض والكدر.

خرجت وهي تضرب كفاً بأخرى مرددة «لا حول ولا قوة إلا بالله»

ماذا تقول؟ وكيف تتصرف، المسؤولية ثقيلة والحالة عقيمة، علاقه غير متكافئة تفتقد إلى التوازن الطبيعي، فلمن تذهب

وتستشير، فالرجل موقفه واضح وزوجته سيدة معروفة ستدمرنا جميعاً إن شعرت بمطامع ابنتي في زوجها.. لا.. مستحيل أن تنتهي هذه العلاقة بالزواج، الفكرة غير معقولة ولن أسمح لنفسي حتى التفكير بها.. الرجل المحترم ساعدنا، ووقف إلى جانبنا، أهكذا نأتي بكل بساطة لنهدم بيته.

باغتها عماد بسؤاله:

«ماذا حدث لها يا أمي؟».

الأم محرجة، افتعلت قصة أنقذتها من هذا المأزق:

«ثمة خلاف مع صديقتها وتشعب الأمر..»

تشكك عماد:

«لا أظنه سبباً معقولاً فعلياء ليست من الضعف بحيث تسحق بهذا الشكل»

ترسم الأم ابتسامة تداري بها حرجها:

«قضية تخصنا نحن النساء، لا تشغل نفسك بها»

اختلت «فداء» بأختها «علياء»، بينما جلس عماد يحدث أمه:

«ابشري فسيخرج أبي من السجن»

تهلل وجه الأم، تبدل مناخها بابتهاج بدد عنها كل هذا التشنج:

«معقول؟ وكيف حدث ذلك؟»

«ستقدم لي الشركة قرضاً كبيراً على أن تستقطع قسطاً من راتبي شهرياً للتسديد»

انكبت الأم على ولدها تقبّله فرحة وكأن عبئاً ثقيلاً كانت تنوء به انزاح فجأة.

«بشَّركَ الله يا ولدي..»

بتخابث يتساءل عماد:

«إلى هذه الدرجة تحبين أبي»

اتخذ سمتها نوع من الانكماش فأنشأت تقول بشيء من التأكيد:

«المسألة أعمق من ذلك يا ولدي، أفكر بسمعتكم، نجاحكم سيلثم بهذه الفضيحة، ناهيك عن زواج أختيك عارٌ عليهما أن يكون أبوهما سجيناً»

رنا عماد إلى أمه بإعجاب مردداً:

«كم أنتِ عظيمة وحكيمة يا أمي، تتصرفين دائماً بتعقل»

بينما واصلت الأم باهتمام:

«أقلق على زواج البنتين، إنها مسؤولية كبرى يؤرقني ثقلها»

يطمئنها «عماد»:

«لا تكترثي لهذا الهم، فسأكون معك دائماً»

فجأة تعكر صفوها عندما خطر لها ذلك الخاطر المزعج، أزمة ابنتها العاطفية تدفعها إلى اتخاذ كل التدابير لاحتوائها»

استأذنها عماد:

«سأخلد إلى الراحة فأنا منهك، أتحتاجين شيئاً يا أمي»

«بحفظ الله ورعايته يا ولدي»

صممت «ثريا» على إنقاذ ابنتها من هذه الهاوية السحيقة التي تردت فيها إلى أسوأ حال ولن تجد غير «الزواج» مخرجاً لهذا الاحتقان، سيحميها بمقدار معقول، فالبنت متهالكة عليه، مفتونة بهواء فقدت أشرعة التوازن فعاثت تترنح ضائعة، تائهة في خيالاتها المتضاربة، تذكرت جارتها «أم محسن» حدثتها يوماً عن الخاطبة الشهيرة في حيهم تدخل البيوت وتثرثر بلسانها العذب الجميل ما يجعلها مرضية في نفوس الناس، راقت لثريا هذه الفكرة، الزواج هو الدواء الشافي لداء ابنتها المستعصي، سترغم علياء على الزواج من رجل آخر يستطيع امتصاص هذه المشاعر الفائرة، الأمر لا يحتمل التأجيل.. ارتدت عباءتها وأطلقت لرجليها الريح دون أن تلتفت إلى من في الدار، كانت مستغرقة في فكرتها الجديدة استوقفتها (فداء) عند الباب:

«إلى أين ذاهبة في مثل هذا الوقت يا أمي»

«أمر طارئ»

تكتمت على الأمر وخرجت تعدو لاهثة مسترجعة صور

الماضي، مفارقة عجيبة يضعنا فيها الدهر بشكل مختلف، لحظة إصرارها على زواجها من «شاهين» كانت ثريا من القوة ما يجعل الآخرين يذعنون لقرارها في الآخر، وتحملت عبء هذا الخيار مستنفرة كل متاريس الحماية لأي نقد أو لوم، شاهين كان موظفاً بسيطاً في دكان والدها أحبته باندفاع أنثى قوية في معتقداتها في حين كان والدها يخطط لها زيجة من نوع آخر، أحد الشباب الكادحين الذين كانوا للتو يغرسون أول لبنة في مشوار الكفاح، تتذكر هذا اليوم الذي عادت فيه من المدرسة لتأخذ بعضاً من الدنانير من والدها كي تتبضع، لمحته واقفا قرب والدها، وقفتها الخاطفة وهي تستلم النقود، والدها يشير من طرف خفي إلى الشاب الجالس قربه.. عيناها تطوفان بشاهين، ترصدانه بشغف كان جالساً في ركن منعزل عنهما.

اختل توازنها في لحظة.. مأخوذة بجموحها إلى شاهين، لم تكن عيناها متناغمتين مع إحساسها.. نظرتها الغائبة تجعل من المشهد ضبابياً فلم تعلق صورة هاشم في ذهنها، ذات الموقف تكرر في سالف الزمن «علاقة غير متكافئة» عبَّر والدها عن استيائه حينما رفضت الشاب هاشم وتشبثت بأوهام حبها لـ «شاهين» وكان اسمان يتصارعان في حلبة البيت هاشم وشاهين، لكن الخفقة المشتعلة في القلب تقلب موازين العقل والمنطق منقادة بجنون جامح إلى شاهين، أشار لها الأب أن دعي لنفسك هدنة، تمهلي، تدبري، ينصف القدر حينما يجد

في بعض الناس حماقة يشق لهم طريقاً آخر كي يعيدوا حساباتهم ثانية، كان هاشم جالساً في ارتباك من ينتظر من عينيها حكماً نهائياً، وتجاهلته منساقة إلى مشاعرها الطرية تلون لها الحبيب بجماليات متدفقة، هذا هو الطريق الذي تسلكه كل يوم من البيت إلى المدرسة، جرأته المكتنزة في جسد مفتول وسحنته السمراء الساخنة تركت لها ذبذبات جاذبة، كان يكتب لها شعراً ويدس الوريقات بيد خادمتها حينما تأتي إلى الدكان.. أوهمها أنه مشروع كاتب، فاشترت له الكتب والقصص كي ينمو على يديها، واختبأت عن العيون تغذي حلمها البكر، في أوقات فراغه يكتب بعض المقالات تطبعها على ماكنة اشترتها خصيصاً له ثم تبعثها إلى الصحف.. من أجله أخذت دورة في الطباعة كي تختلق كل وشائج المحبة لتشتد وتقوى فينهمر الحب مع القلم.. منذ صباها مثقفة وتحب المثقفين وصاغت معه عالماً خاصاً بهما، أضرمت فيه العزم كي يتجاوز حدود مكانه ويرحل في آفاق بعيدة ينهل العلم والمعارف.. وإذا بها تقف يوماً خالية الوفاض.. الحالة الثقافية التي نسجتها شرنقة حولهما دفعته بعيداً عن أسوارها.. فيخفق الحلم ويتبدد الشوق، ترك شاهين القلم ينتحر في طمع النفس الدنية كانت تروج اسمه كاتباً وتنسّق له هوية ثابتة يتحرك في الحياة وفق قواعدها.. ما فعله كان حبلاً من حبال الزيف لاصطياد ظبية شماء.. كان له فيها مطمع.. ويدب فيه ملل الحياة الرتيبة عندما تزهد الملذات وتتبتل في محراب الكتب والثقافة..

تداعت ذات مرة صروح آمالها في شجار عارض يقذف في وجهها حقيقته البشعة «رائحة الدنانير تنعش دماغي». وتنتكس على عقبيها مقتولة النفس مخذولة هل كان يستحق هذه المجازفة؟!.. تزوجته رهناً لحلم قد تلاشى بعد خسارات قد تحملت وزرها لوحدها.. رجل بدون وثيقة انتماء ظنت خلاصه في هوية كاتب تسد بها كل ثغرات نقصه..

لن تدع ابنتها تتجرع في مغامرة سيئة العواقب، صرخة والدها تمتد عبر السنين كجرح منقوش على صفحة قلبها..

«علاقة غير متكافئة»

لن أدع ابنتي تسير في غيها وطيشها، سأقرر القرار الحازم الذي عجز والدي عن اتخاذه رغماً عني، ليته قطع عليّ الطريق لأثب إلى رشدي، فقد أدركت بعد فوات الأوان خطيئة كثير من النساء يقعن في الوهم، يبهرهن بريق الحب الخاطف.

التقت «ثريا» جارتها «أم محسن» وحدثتها بضرورة لقاء الخاطبة «أم عابد».

وقامت الأخرى من فورها واتصلت بالخاطبة وحددت معها موعد الزيارة.

قالت أم محسن:

«الخاطبة أم عابد» برمجت مشروعها في جهاز الكمبيوتر بطريقة دقيقة وذكية وحريصة جداً على التوافق بين الطرفين

فقد نجحت في كثير من الزيجات، إنها تحرص على إثبات جدارتها في هذا المجال ولهذا اكتسبت شهرة واسعة.

تبتسم ثريا باطمئنان:

«كل شيء يتطور حتى أسلوب الزواج!»

«نعم إنها تملك ملفات سريَّة وأسماء كثيرة وشخصيات متعددة وتنسق بين طرفي الزواج بمهارة نادرة»

بقلق تقول ثريا:

«أرجوك عزيزتي، اكتمي هذا السر. فالأمر حساس جداً، وخصوصاً وأن ابنتي حادة المزاج ستثور إن علمت بهذا الترتيب المسبق.

«اطمئني تماماً يا أم عماد» فقد زوجت ابنتي بهذه الطريقة ونجحت، وعلياء لا تقل مكانة عن سهام، سرك في الحفظ والصون.

وتذكرت «ثريا» أن عليها عبئاً كبيراً.. كيف تقنع ابنتها بالزواج؟!

طافت في مخيلتها صور سلبية مما دفعها أن تصر «سأرغمها بقوة إن تطلب الأمر، أخشى أن تتهور في تصرف أحمق تدفع العائلة بكاملها الثمن غالياً»

وتوجست ثريا مرة أخرى:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«المشكلة أن ابنتي عصبية، مغرورة، قوية الشخصية، ليس من السهل ترويضها»

تلقي أم محسن فيضاً من الاطمئنان في قلب ثريا:

«الزواج قسمة ونصيب، إن كان لها نصيب سيتم والا فلا تيأسي حاولي لأكثر من مرة حتى تقتنع»

رفعت ثريا كفيها داعية:

«اللهم آمين»

«انذري لها ليتم الزواج»

استساغت الفكرة..

«ذلك أفضل، سأنذر لها ختمة قرآن إن وافقت»

عادت «ثريا» أدراجها وهي تعد نفسها لمواجهة عاصفة لابد أن تقنع ابنتها أن زواجها هو المنفذ من هذا الاحتقان، حتماً ستثور وستتخذ موقفاً متصلباً إزاء هذا الأسلوب بل وتعتبره إهانة لشخصيتها المستقلة إنها تعرف «علياء» وشخصيتها العنيدة، لكنها مصممة وبكل إصرار حتى لا تدفع ثمن زواج غير متكافئ، تصحو بعد سكرة الحب على واقع مرير، ورجل قد مزَّق ثوبه المتسربل فيه بكل زيف ليظهر في باطن أجوف.. وهنا تحدث المفارقات، المشاكسات اليومية التي تصرف العمر والطاقة في عذابات ليس لها انفراج إلا الانفصال.

الفصل (١١)

الذكريات البعيدة

ارتدت الفيلا ثوب الفرح وأشرقت أضواء الحفل في كل الأرجاء بينما صدحت أنغام العرس في سماء مزدانة بألعاب نارية كأنها كرنفال بهيج، تدفق المدعوون فرادى وجماعات لتهنئة العروسين، نصبت الموائد المحمَّلة بالأطايب على امتداد حوض السباحة، شكَّل مع تراقص أذيال المصابيح في الماء وانعكاساتها توليفة فرح من طراز خاص، تفرَّق الخدم بين الضيوف وهم يرتدون بزة من الساتان الأسود وطاقية حمراء يحملون أقداح العصائر والمرطبات، تناثرت باقات الزهور في كل زاوية وركن حتى لتحسب أنك في حقل الزنابق والياسمين، أينما تولي وجهك تباغتك باقة عملاقة من هذين الصنفين وقد تنسَّقت بشكل مدهش، زخرف العرس افترش المكان ببساط متجانس هنا ومتناقض هناك تداخلت بضجيج استفزازي يجعلك تستنفر كل ما عندك من طاقة فرح، السيدتان العريقتان «أم ماجدة» و«أم فؤاد» استحدثتا أنماطاً خلّابة من الديكور أبهر

الحضور فما رأت عيونهم أرقى من هذا الإعداد، تتطاير الحمائم البيضاء محلّقة في سماء الحفل محدثة مع الزغاريد المجلجلة مشهداً أسطورياً مهيباً، يخطف الأبصار ببريق يسطع من كل اتجاه، المجوهرات المغنجة بأعناق الحسان جعل لجمالهن سطوة آسرة، أجساد تميس بروعة مبطشة، وجوه رائقة يطفح منها البطر، منعمة طرية، ندية، الراقصات المتناغمات في حركة متنسقة خفت أقدامهن حتى لتحسبهن فراشات الربيع الريّانة يتمايلن كأعواد الريحان، جلس العروسان في مقعديهما مشدودين بتوتر يشي بنفور دفين، كانت «ماجدة» مزهوة بحالة مزاجية تعبر عن أنانية طافحة في سلوكها المتغطرس وما همها والعالم يحتضنها في احتفالية رائعة، بينما يطرق «فؤاد» في تيه وشرود مستحضراً صورة أرهقته طوال الليل «زوجته الحامل» تنتظر الوعد القادم، قلّب الفكرة في كل اتجاه بحثاً عن مخرج مقنع لهذا المأزق حتى استنفد السهد كل طاقته ليستسلم إلى واقعه بكل خذلان.. عندما يلتقي العروسان وجهاً بوجه تند عنهما ابتسامة صفراء، باردة، متصنعة، يرتدان إلى بعضهما في خيبة، تختلس «ماجدة» النظر إليه، محاولة التسلل إلى خباياه والبحث عن لفحة ميل لكنها تصدم بجبل من جليد تتساقط أحلامها عند سفوحه ذائبة، لن تعجز عن اختراقه، مسألة تحدٍ وإصرار تستفزها من الأعماق.

اقترب الوالد من ابنه وهمس في أذنه مداعباً:

«كم أنت محظوظ يا فؤاد عندك الشقراء والسمراء!»

تركه لحيرته فعاد يطيل النظر في وجه ماجدة أثناء انشغالها بالحديث مع صديقاتها المهنئات يبحث عن معالم هذا الوجه المحنّط، معالم دهشة تثير فيه البهجة كرجل مرهف.. لم تكن سوى طفلة مدللة مدفوعة برغبة جنونية إلى بؤرة ضوء مكثفة تستخرج فيها كل مخزونها المتوارث بطقوس احتفالية، منذ سنة وهي تتقن آليات هذا المشروع، الثياب من روما، الحلوى من باريس، الحُلي من جنيف، مصممون ومهندسون وفنانون طاقم كامل على أهبة الاستعداد حتى لا يبقى بيت ولا شارع إلاّ ويصرّح أن هذا العُرس كان أسطورة والعروس نجمة تلألأت في سماء المجتمع.. كانت تلك غايتها ودافع تجربتها.

ارتد إليه البصر حاسراً وهو يزفر بحرارة:

سألته باستخفاف:

«ما بك تبدو ضجراً»

افتعل ابتسامة:

«أشعر بالضيق فالجلوس بهذا الشكل ممل»

«اصبر، بعد ساعات قليلة سننتقل إلى غرفتنا»

فجأة استرعى انتباهه قادم، تهلل وجهه، اندهشت ماجدة لمرآه فأطلت إلى الشاب الذي شدّ انتباهه.

«ألف مبروك» قال له عماد وهو يحتضنه ومقبّلاً وتتبعه أمه وشقيقتاه.

رمقتهم ماجدة بنظرة فاحصة مستعلمة عنهم.

أجاب بأريحية سرَّبت كل ضيقه:

«هؤلاء أعزاء قلبي».

استدعى والديه، حضورهم كان له ضيافة تاريخية جعلت للماضي لسان طلق يثرثر عن ذكريات بعيدة.. حينما أتى والده يختال بحلته المهيبة أذهله ذلك الوجه إذ جعله يرجع خطوة إلى الوراء مبهوراً غير مصدق «ثريا؟؟» وكاد أن يلفظ اسمها سهواً لولا بقية من خجل، ارتبكت ثريا وتلعثمت هاتفة «هاشم؟؟» حاولا أن يبددا الحرج بكلمات خرجت منهما مبعثرة دون منطق، فما في النفس ظل عالقاً، كامناً.. وحدهما يعرفان طوية بعضهما.. خيّم الوجوم على الجميع فانبرى عماد يستعلم والدته:

«أتعرفين السيد هاشم؟»

بارتباك تنفي:

«لا.. ومن أين لي أن أعرفه؟»

أقبلت عليهم السيدة «هند» ترحب بهم ثم أجلستهم في المقاعد الأمامية..

وعادت مخيلة «ثريا» سنين إلى الوراء، تذكر هذا الشاب حينما تصدف عنه بغير اكتراث مولية اهتمامها شطر «شاهين» عرفته تمام المعرفة، الحواس كانت لها ذاكرة أعادت المشاهد كما لو كانت حيَّة في النفس، لم يتغير في هاشم شيء، ميزته في أنفه الطويل الذي اخترق وجهه بقوة والشامة اللحمية الكبيرة نبتت بعنفوان على أنفه، تاهت عيناها في عينيه، مجاذبة شوق وحنين يطل بهما الماضي من وراء الذكريات.. يختزل الصمت رسائل مفعمة بالمشاعر، شردت ببصرها إلى الناحية الأخرى لتهرب من عينيه اللجوجتين وهما تتبعانها بإصرار.. لم تكن تحلم به يوماً، كان وجهاً مهمشاً في أحداث حياتها، نسيته مع الأيام وعاد إليها اسماً لامعاً في الاقتصاد ووقفت على شاطئ الأمان متهيبة مجازفة مجهولة العواقب.. نأت بنفسها عن الماضي، إنه مجرد رب عمل احتضن ولديها.. هكذا هي دائماً تتفاعل بمقتضى اللحظة الآنية التي تغمرها لا تقفز وراء الأسوار وتسقط نفسها في الغموض والمجاهيل، ذاكرتها المنهكة ادخرتها لأيام قادمة تقتضي منها تنشئة أولادها بطريقة سليمة.

بيد أنه يطوي خافقيه على قصة يتلظى بعذابها صامتاً، أسكنها في جوفه وأقفل عليها الضلوع ونسيها في أعماقه، لم يكن يدرك أن المصادفات تخلق لنا معابر جديدة تنقلنا من حالة إلى حالة، أحس لتوه أن يد القدر امتدت لتنفض غبرة الزمن

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عن صندوق قلبه ليتدفق فيه الدم والروح ثانية بعد أن كان فؤاده جثة هامدة، وتنبش أصابع الزمن في الأحداث لتستخرج ورقة صفراء مدفونة بين نفايات الماضي والدفاتر العتيقة.. قصتها.. صورتها.. حينما خطرت ذات مساء بمحل والدها وقلبه المذعور ترقباً يتابعها تمشي كرمح أشم، وشت ملامحها خيلاء نادر تطرف إليه بخفر وترفّع، جاء مدفوعاً إليها بفضول الاستكشاف فقد ثرثرت النسوة بسجاياها النبيلة، صلبة، حازمة، لا تتردد في اختراق قرارات والدها بقوة لا تبقي ولا تذر، أطلقت «ثريا» تنهيدة حارة من الأعماق متمتمة باندهاش:

سبحان الله ما أعجب الأقدار، تقصينا عن بعضنا شباباً وتجمعنا كهولاً، مازالت غير مصدقة، هل رتبت العناية الإلهية لقاءهما عن قصد وتدبير؟»

منذ تعارف فؤاد وعماد وهي تجتنب الخوض في تاريخ الأب بل وقفت على الحياد وحتى عندما تطور الأمر وعمل ولداها مع «هاشم» في الشركة كتمت الأمر وتجاهلت الماضي، لكنها اغتمّت فجأة عندما تذكرت ابنتها المغرمة بهاشم.

اختلست النظر إلى «علياء» كانت متجهة إلى العروس في جلسة متململة، فقد اعترضت على «مخلص» خطيبها المقترح، فقد ضجت بالصراخ وثارت ثائرتها، فلم تكد تلتقط أنفاسها من عناء تجربة مريرة حتى ألقت الأقدار في دربها مخلص، رجل طيب وبسيط من عائلة محافظة ما إن التقى علياء في زيارة

عائلية حتى وقعت في قلبه ومضى يتعجل عقد القران بينما هي رافضة، ساخطة، تعنف أمها «أهذا هو شريك حياتي؟»

هزت ثريا رأسها وهي مازالت تسترجع أحداث الخطبة في الأسبوع الماضي:

«كم هي مغرورة أعتقد أنها تحتاج إلى رجل حنون على شاكلة مخلص يمتص جحيمها ويحتوي ثورتها، ثم إنه طيب ومثقف وزوج مناسب بكل المقاييس»

اصطدمت عينا الأم بعيني علياء فوجدتها غارقة في حزنها، تهفو بكل جموحها إلى هذا الكهل وإلى حبه الجارف حتى طفر الوجد من عينيها، فبدت ساهمة ولهى تلاحقه بنظراتها الذائبة، لاحظت ثريا صدوده إنه متجه بمآخذ لبه إليها.. تحفة الماضي، أيقونة الحب والجمال، ها هو يتوارى عن الأنظار بشكل متقصد ليتخذ من بعض الزوايا البعيدة منفذاً لمشاهدتها والتزود منها حتى زالت هيبته وفقد وقاره لفرط اضطرابه، كان موزّع البال يقفز من مكان لآخر، فهذه المرأة عاشت بين ضلوعه أمنية خافتة، كضوء القمر تطل عليه كل مساء يستحضرها في خاطره ويجلسها في ذاكرته على متكأ مريح ويناجيها كطيف، قيمة إنسانية ضاعت وتبددت في زمن الربح والخسارة.

وكانت تخشى تطفله، ها هو أقبل يناجيها، التفت حوله مستطلعاً أجواء الحفل ثم حدد طرفه ثانية فيها واستدار نحوها بشكل متحفز، يحدق في محياها كأنه يقرأ سطور أعماقها عبر خلجاتها المرتبكة..

بصوت متهدج أقرب إلى الهمس:

«كنت واثقاً أنني سألتقيكِ يوماً».

طأطأت رأسها وأجابت بصوت رقيق:

«ما سبب هذه الثقة؟ كل شيء قسمة ونصيب، فالأمر كان عارضاً بالنسبة لي»

نفث زفرة حارة في الفضاء وأطلق لتفكيره العنان صامتاً، في شرود مع الذكريات، في جوفه تسكن حكايات مفعّمة بالمشاعر لا يسعفه الزمان والمكان أن يبوح بها، تفقد بريقها إن لامست هذه الجدران ستتساقط ذاوية، تعكرها النفوس الملوثة.. فهي أنقى من أن تُدنَّس بأصداء الصخب المفتعل يحجب عن الروح انعتاقها الفطري.

كانت تنظر إليه ثم ترجع ناظريها إلى الحفل..

واستأنف في تأثر:

«هل يمكنني الاتصال بكِ لاحقاً، إن ما في داخلي لا يمكن استيعابه بهذه العجالة»

تضرَّعت إليه خائفة:

«أرجوك دعنا من هذا الحديث الآن فالناس يلتفتون إلينا بفضول»

حاولت «ثريا» أن تتجاهله خصوصاً وأن ابنتها علياء كانت لها عين رقيبة سيدهشها هذا الاهتمام المفاجئ..

شد نفساً عميقاً وهو يغادر:

«الأمر متروك لكِ، تعرفين أرقام هواتفي»

سنون طويلة تمضي، تطمس الوجوه، الأحداث، الأسماء، لكن يبقى في الذاكرة اسماً محفوراً في الوجدان يلقي ظلاله على الروح بالرغم منا ويطل على حياتنا لأنه مشبع بحواسنا، فإذا به يفكر معنا، يتنفس معنا، يتحدث معنا بثنائية محببة.

الحضور منشغل بالتصفيق ومتابعة الحفل. غاب عن هذا الضجيج، هذه المرأة خلقت له حالة من العنفوان غمرته بطاقة مذهلة، منذ الطريق الذي كانت تسلكه إلى البيت شاخصة ببصرها إلى الأمام مستطرقة الزمن بحدة وإصرار.. سحنتها المتوهجة بلهيب حرارة الشمس.. عيناها المختالتان. أربع فتيات كنت الوسطى بينهن أشبه بقنديل ضوء يسقط عليهن بعضاً من فيوضاته.. خطواتك المتشامخة بتؤدة تربك خطوهن اللاهث.. يتعثرن بأذيال حسنك وهو يفترش الأرض.. وكان البحث المستديم عن الأنثى الرمز في تقاطيع النساء.. صورهن كانت سقيمة.. لكِ وحدكِ ذلك التميز والرونق الخطاف.

رفعت «ثريا» رأسها بحركة مرتبكة بحثاً عن زوجته.. كانت متألقة ألق النجم الساطع في سماء معتمة.. أضاءت ما حولها بشكل لافت، أحست «ثريا» بشيء من الانقباض فقد باغتتها بهجمة عاصفة من المشاعر.. أيقظ فيها فرحة بعد رقدة روح نضب منها الرواء، التقطت أنفاسها فور أن تخلصت من عينيه

النهمتين.. عادت لها أريحيتها.. مرهقاً كان اعترافه.. عاصفة هوجاء اقتحمت مدنها الآمنة وعرت صمتها فبدت عزلاء تكابد الواقع بمرارة، ورغبة ملحة تصارع سلوكها الرافض.. منذ متى وهي تقاوم إحساسها كأنثى جعلت من دائرة الرجل منطقة محرَّمة تأبى الاقتراب منها.

رغم انبساطها المريح يبقى في داخلها غربال يغلي ويصطخب.

عاد السيد هاشم أدراجه مبلبل الفكر، شارد العقل، استرد ماضيه في لحظة خاطفة إذ كان هاجس هذه المرأة يجيش في صدره كلما اختلى بنفسه، إحساس غامض ظل يطارده سنين طويلة، قلبه الصخري ظل منحوتاً في تجويف فارغ.. يرهن نبضه طوعاً لإرادتها حينما تسرَّبت كالنهر العذب في ثنايا كهوفه وتبوأته ملكة ظل عرشها خاوياً سنين طويلة حتى غابت في زحام الحياة.. وفي غيابها احتلت زوجته «هند» ذلك العرش وكانت أقرب الناس إلى قلبه بعد «ثريا» فبعد أن أعياه الانتظار المر.. تزوجت «ثريا» يئس من دنياه.. وأقفل على قلبه، غادر وطنه مجروحاً واستقر في باريس طالباً في السوربون.. توالت الأحداث وتعاقبت السنون، وطن نفسه على تقبُّل الواقع.. كانت وحدها حلمه الذي جسد شغفه الذكوري، حالته الخاصة، وميله المميز لنوعية نادرة من النساء انهالت على قبر محبتها الأحداث، تأتي الأشياء العارضة في المواقف المتفرقة في حياته

تذكي في نفسه مشهدها المغيب توقاً يستبد به ويقف مشغوفاً إلى أخبارها، آثارها، صوتها، يترقبها عن بعد، كالنار يكتفي بدفئها، يكابد شوقه... وينغمس في الكفاح والعمل حتى امتصت الأيام حرارة ذلك الحب الطاغي..

بقي في ليلته يتقلب على وقد الحيرة يفكر قلقاً، غائب البال يناجي نفسه الملتاعة بعد سبات طويل «ما هي حكمة هذا اللقاء؟»، الآن تعود الأمنية لتحيا من جديد؟!. لكنه سعيد جداً، هذا الانتعاش المفعم بالأمل يجدد روحه ونشوة طافت في محيّاه فشعشعت هالة عذبة يستشفها كل من خفق قلبه بحب.. تباغته هند وهو واقف في الشرفة المطلة على الحديقة.. وليلة ظلماء بقي فيها للقمر بعضاً من الملامح المستيقظة.

تنقر بسبابتها على ظهره هامسة:

«ما بك؟ منذ أن عدنا وأنت ساهم»

أسعف نفسه بتبرير لائق:

«أفكر بفؤاد وزوجته الغائبة، أتدرين أنها حامل!»

ندت عنها صرخة:

«حامل وبهذه الظروف؟»

افتعل ضحكة:

«ستصبحين جدة عجوز»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لكزته بكوعها:

«أهذا كل ما يهمك؟»

عاد يمازحها ليبدد حرجه:

«الحفيد سيفضح سرك مهما فعلتِ من شد وتجميل»

تناهى إلى سمعها وقع أقدام تهبط من أعلى السلم، وأشارت هند إلى زوجها أن اصمت.

خرجت هند لتستطلع الأمر، وإذا به «فؤاد» راقداً على كنبة الصالون سألته بدهشة:

«لماذا تركت سريرك في هذا الوقت المبكر؟»

«أشعر بتوعك»

اندهش هاشم:

«يا عريس الخيبة تهجر عروسك من الليلة الأولى»

«لم أنم الليل بطوله، قلقت على جـميلة، إنهـا حـامل في شهورها الأولى، أريد أن أسافر لأطمئن على صحتها»

صمت الوالدان وهما يتجاذبان النظر بانشداه.

حاول الوالد أن يهدأ من روعه:

«حتماً ستسافر ربما تعود وعروسك من شهر العسل»

تمتم ساخراً:

«العروس لا تحب السفر إلى جنيف، خططت منذ الآن إلى رحلة جنونية إلى «شرم الشيخ» مع طاقم صديقاتها، أنا لا أحب مناخ السواحل والمنتجعات المزدحمة، مزاجي في تضاد مستمر مع مزاجها، اختلفنا على هذه القضية حتى قررت أن ألغي فكرة شهر العسل»

الأم بامتعاض:

«بدأت هذه الحمقاء تملي عليك شروطها وإرادتها»

صمت الأب دون أن ينبس بحرف.

ومضى فؤاد يسترسل في مرارة:

«وأوصتني أن أتناول فطوري معها في غرفة النوم كل صباح»

غضبت هند:

«كنت قد أعددت لصباح هذا اليوم فطوراً شهياً من أرقى الفنادق وفرصة لنجلس معاً ونتعرف على بعضنا عن قرب»

وبدت علامات الضيق واضحة على وجه فؤاد:

«المهم إنني سأسافر خلال يومين.. دعيها وشأنها، هذه الفتاة لا تبالي بأي شيء يمسني، وتلج في العناد والتحدي دون مبرر»

ربت الأب على كتف فؤاد بحنان:

«اصبر عليها يا ولدي، فهي مدللة وصغيرة، ستتغير عندما تتكيف مع طباعك مازلت حديث العهد بها لا يمكن أن تحكم عليها حكماً قاطعاً في ظرف ساعات»

ترتفع نبرة فؤاد فبدا حاداً وغضوباً:

«لا أدري مرمى هذا الارتباط طالما كنا نافرين من بعض، خلال حديثي معها اكتشفت كم هي بليدة الإحساس.. أشعر أن هذه الزيجة لها جسر نحو مآرب أخرى».

بانت الخيبة والاستياء على وجه هند:

«أيعقل هذا؟!»

حاول الأب تهدئة الموقف:

«أنت تبالغ يا فؤاد، ربما تبحث عن تبرير كي تسافر للأخرى، المهم اذهب لزوجتك وستأخذ الخادمة فطوركما إلى فوق»

شدته هند من ذراعه:

«بل دعه يفطر معنا، هذه الحمقاء جاءت لتسيره في نظامها الخاص»

واستجاب فؤاد لرغبة أمه قائلاً:

«وهواي أن أتناول الفطور معكما»

الفصل (١٢)

الجذور

بدت «جميلة» موزعة البال، مشتتة، فاترة، حاولت كتابة بحثها المميز عن حقوق الإنسان في الإسلام ومقارنته في القانون الفرنسي، بيد أن السطور تهرب من عينيها كلما لاح في أفق تفكيرها «فؤاد» وعودة السراب مما ضاعف من غثيانها ووحدتها، فأفكاره بدت مضطربة تنم عن باطن مهزوز ونفس مشوشة، ولهذا حدست بفطنتها أن ثمة أمراً خطيراً يعتمل في داخله ويجاهد كيما يتسرب إليها، ووجدت أن رفقته في السفرة القادمة بات ضرورياً كي لا تترك نفسها نهباً للوساوس والشكوك، فهي في أمسِّ الحاجة إلى راحة البال والاطمئنان كي تواصل مشوارها العلمي ورسالتها الجهادية، حسم هذا القلق هو ما تخطط إليه الآن فهو كان يختصر المكالمة منتحلاً شتى الأعذار كلما تمادت في أسئلتها المريبة، ستنتظره وفي خلوة الشوق سيبسط قلبه مطواعاً ليكشف عن خباياه وأسراره.

انكبت ثانية على كتابها لتقرأ وتدوّن في كراستها بعض الملاحظات، لكن هاتفاً مفاجئاً تركها منزعجة، أمها الملتاعة:

«جانيت أنا منهارة جداً، المستشفى تطلب مبلغاً كبيرا للعلاج ولا أملك النقود..».

ألقت «جميلة» السماعة مذعورة، مشفقة على أمها تذكرت معاناتها بعد انتحار شقيقتها الصغرى.. فمنذ وفاتها وهي تكابد الوحدة المريرة.. كانت «سالي» معلمة روضة تنفق على أمها وتتحمل أعباء البيت وقد اضطربت حياتها بعد وفاة الابنة إذ حدثت مشادة عنيفة بين شقيقها «جاك» وخطيب «سالي» وتقاتلا في محطة المترو وأدخل على أثرها «جاك» السجن، وبقيت الأم بعد هذه الأحداث ترزح تحت وطأة الضغط النفسي وعوز الحاجة، أصيبت «بسرطان الدم» ومصاريف العلاج الباهظة التي استنزفت آخر قرش لها.

بعد مقاطعتهم لجانيت اضطرت الأم مواصلة الابنة، في خفاء، متعالية على المقاطعة كقرار أجمعت عليه كل العائلة وتذكرت أمراً واحداً أن جانيت ابنتها.

وفي طريقها إلى المستشفى لزيارة أمها، تذكرت «جميلة/ جانيت» شقيقتها «سالي» والوحدة النفسية التي استوطنتها زمناً إذ تلاحقت عليها هزائم نفسية وانكسارات عاطفية بددت من أعماقها كل دافع إلي الحياة، حاولت معها تجديد طاقتها وترميم كيانها المعطوب وإذا بها تخفق، فهوة الاكتئاب سحيقة

تحتاج إلي يد ماهرة للتطبيب وهكذا شخص جارهم الطبيب النفسي «جورج» حالتها الحرجة.. وعندما أسلمت جانيت أحست بتصدع العلاقة ونأي الأخت الوحيدة عنها، فانكمشت مشاعرها بعد أن كانت لها خير ملاذ خصوصاً بعد تفشي الإشاعات واللغط حول جانيت والصور السلبية المشوهة في واهمة الأخت الصغرى جعلتها تبني أحكاماً جائرة على جانيت فتعمقت الهوة بين الأختين وفترت المشاعر... ابتعدت جانيت أثر التهديدات المخيفة التي حوّلت حياتها إلي كابوس، فانشغلت بنفسها وبحياتها الجديدة ووضعها المرعب إذ حوصرت بجدار لا تستطيع اختراقه وبذلك تمزق آخر خيط يربطها بأختها، مضت فترة طويلة مغيبة عن أهلها وتود لو تواصل «سالي» خصوصاً عندما علمت عبر ثرثرة الصديقات أنها تعاني من خطيبها فيليب.

بقي قلبها يقظاً، يتقصى أخبار «سالي» بشيء من الحنين، لكنهم خشوا أن تدنسها بدينها الجديد فغسلوا دماغها بافتراءات لتتخذ الحيطة والحذر خشية جانيت «الإرهابية»، الآن وبعد سنوات ينتفض الأمل من قبر العدم على صوت الأم مستغيثاً تتساقط كل التهم والادعاءات ليصدح أنين العاطفة من جذور لم تجتث من باطن أم ثكلى نهشتها الحاجة والإفلاس، مسحت جميلة طرفها الندي وبخفة الريح اتجهت إلى المستشفى.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

رقدت أمها على فراش المرض كومة لحم مهترئة، ناحلة، شاحبة، ارتمت عليها الابنة ملتاعة تتفحصها بولَه:

«ذبلتِ كثيراً يا أمي»

وتشدها الأم كمن تتشبث بالحياة:

«سامحيني جانيت أخوك كان قاسياً عليّ، فقد هددني بالقتل إن حاولت الاتصال بكِ..»

هدأت جميلة من روع أمها «أنا أتفهم تماماً، سأساعدك يا أمي، ستشفين بإذن الله، سآخذك إلي بيتي لن تظلي وحيدة بعد اليوم».

أطرقت الأم في حزن باكية:

«فات الأوان يا جانيت، فلن أعيش سوى أيام قلائل»

وعادت جميلة تضمها بأقصى طاقتها وتصرخ:

«لا. ستعيشين بإذن الله، سأعوضك عن كل أيام الحرمان»

وتابعت الأم بيأس:

«لقد تداعت أركان بيتي، فأنتِ هجرتيني، أخوك في السجن، وسالي قد ماتت، لم أعد أقوى على هذه الحالة الصعبة، فقدت المورد والمعيل أنفقت كل ما تبقى لي على العلاج»

تسألها جميلة مبهورة:

«ماذا حدث لكِ بالضبط؟».

«ظهرت بقع داكنة على جلدي ونزف في أنفي وضعف في جسدي كله بعد الفحص تبين لي أنه «اللوكيميا»

صاحت جميلة بذعر:

«يا لأمي المسكينة»

حاولت الأم أن تبدد أجواء الحزن بينهما فانبرت تسأل بابتسامه فاترة:

«وما هي أخبارك؟»

«أنا حامل وأترقب عودة زوجي خلال يومين»

مسحت الأم على بطن ابنتها قائلة في محبة:

«كم تمنيت أن يكون لي حفيد»

وتراخت على الفراش تسحب نفسا عميقا متمتمة:

«ربما لن أرى هذا الحفيد»

شدت جميلة على يد أمها قائلة بعزم:

«ستعيشين يا أماه، وتذكري أن الإرادة القوية والروح المتفائلة تبعث على الحياة، قولي لنفسك دائماً سأعيش، سأتحدى المرض، وأصري على هذه النيَّة ولا تنهاري ولا تثبط عزمك هذه الحوادث..اصمدي من أجلي أنا، من أجل حفيدك القادم»

تربت على كتف ابنتها في إعجاب:

«كم هو جميل كلامك، مذ كنت صغيرة وأنت طليقة اللسان، عذبة الكلام مهذبة»

ثم نكست رأسها لتقول بشيء من الأسف والانكسار:

«ما الذي دفعك للانخراط مع هؤلاء المجرمين»

تبتسم جميلة:

«إنهم ليسوا مجرمين يا أمي، بل مسلمون لهم دين كديننا»

«ولكنهم يفعلون أشياء ضد الإنسانية، ألم تشاهدي على شاشة التلفزيون ليلة أمس تفجيرات ناطحات السحاب، اخترقت طائراتهم أعظم دولة في العالم إنهم أخطر من القنابل الذرية، فكل يوم نسمع عن رجال ملغمين، مفخخين وسفك دماء في كل أنحاء العالم»

«إن ما فعله هؤلاء لا يتحمل تبعاته الآخرون من المسلمين الذين فهموا الدين على حقيقته، صدقيني يا أمي لقد بحثت طويلا في هذا الأمر وتعمقت في دراستي حتى استوعبت الفكر الإسلامي الصحيح فلم أهجر ديني عن اندفاع وعاطفة لرجل»

«لقد أحببت فؤاد ومن أجله دخلت دينه»

«قد يكون هو البوابة التي أدخلتني إلي عالم جديد ولكني لم ألق بنفسي هكذا عشوائيا دون دراسة وتمحيص»

دخل الطبيب ليجري الفحوصات وتحدث إلي الابنة بلهجة مقتضبة يائسة:

«إنها تتعرض لنوبات ضيق تنفس حتى أن بعض من الماء قد تجمع في رئتيها نضطر إلي استفراغهما بين فترة وأخرى»

دخلت الممرضتان الغرفة وقد تبادلتا نظرات الاستنكار وهما تشيران بطرف خفي إلي حجاب «جميلة» وبتخابث توجه إحداهما سؤالا لجميلة:

«هل ثمة مكروه حدث لرأسك سيدتي؟»

بسخرية تجيبها جميلة دون أن تكترث لهذا التهكم:

«نعم.. أعاني من الصلع وأدعو كل فرنسية أن ترتديه عن جدارة»

وتشفق الأم على ابنتها قائلة:

«اخلعي يا ابنتي هذا الغطاء، تخفين شعرك الذهبي بتموجاته الفاتنة وتأسرين جمالك الخلاب بهذه العباءة لست أدري لما يفعلون ذلك بنسائهم، هذا القيد اللعين كابح لحرية المرأة»

انقبضت أسارير جميلة فردت على الفور بلهجة غاضبة:

«أليس هو الغطاء نفسه الذي ترتديه الراهبات في الدير»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أشاحت الأم بوجهها معترضة على هذه الأفكار، فلزمت الصمت.

دنت «جميلة» من أمها وانكبت عليها تقبلها قائلة قبل انصرافها.

«سأزورك يا أمي على الدوام، لا تقلقي، سأتحمل نفقات علاجك ومصاريف المستشفى»

التفت الأم إلى ابنتها قائلة على غير عادتها:

«اعتني بزوجك فهو غني ومصدر نافع لنا»

اندهشت جميلة، ولّت هاربة، فقد تعكر مزاجها في هذه الوقفات القليلة وفي طريقها تذكرت أن عليها أن تزور المركز الثقافي الإسلامي كي تستعير بعض المصادر في العدالة والحقوق باللغة الفرنسية كوثائق تسند بها رسالتها فعرجت ناحية حي راقٍ في وسط العاصمة باريس مشيرة للسائق أن يركن السيارة عند بوابة البناية الكبيرة التي تتوسط الشارع العريض بشموخ، دخلت المبنى استقبلت بحفاوة منذ اللحظة الأولى، الجميع يعرفها، فقد بدا أنها تتردد على هذا المكان باستمرار، أدخلها أحد الواقفين عند البوابة عبر بهو طويل مفروش بالسجاد الإيراني الفاخر إلى مكتب رئيس المركز الذي نهض من فوره يستقبلها بوجه طلق وأجلسها باحترام على أحد المقاعد وهو يقول:

«حضرت لك بعض المحاضرات في المركز الثقافي الإسلامي، وقد أعجبني طرحك المميز وحواراتك الهادفة»

ابتسمت قائلة:

«رغم أن بعضهم أتى ليجادل من أجل الفتنة وإثارة المشاكل، أحاول في رسالتي التقريب بين المذاهب والأديان وأصنفها بشكل يسهل على الباحث العودة لها، وقد عانيت في البحث عن المصادر المناسبة، دخلت في بعض المواقع لأستجمع الآراء في هذا الشأن والبعض من الأفكار كان نتاج لقاءاتي مع أساتذة مسلمين أتوا للمشاركة في مؤتمر «حوار الحضارات»، أعتقد أن لي حصيلة كافية من المعلومات لتوثيق رسالتي ومناقشتها»

«وأنا قد أعددت لك مجموعة من الكتب الإسلامية المترجمة وسأكون سعيداً بقراءة بحثك أولاً بأول، وعليك برسالة الحقوق للإمام السجاد زين العابدين عليه السلام، حتما ستجدين فيها خلاصة الحقوق وزبدتها ويمكنك تفنيدها ومناقشتها عبر دراستك»

«والآن هل لي أن أعرف محاور هذه الدراسة التي أثارت حماسك بهذا الشكل؟»

استطردت بعد تفكير:

«تعرف أن الوثيقة التي أقرها «الملك جون» تحت إكراه النبلاء الإنجليز عام ١٢١٥م والتي اعتبرت فيما بعد ضمانا

أساسيا للحقوق وانتهاءً بما يسمى بـ «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» عام ١٩٤٨ ما هي إلا شعارات خرقاء ضالة مضلة فارغة من أي محتوى هادف، إنها مجرد حبر على ورق أينما التفت في العالم وعلى الأخص في مجتمعنا الأوربي حالة الاضطهاد والانتهاك لأبسط حقوق الإنسان، العالم تحول إلي غابة ينقض فيها القوي على الضعيف بشراسة، تهان كرامة الإنسان وأولها هنا في فرنسا منعت الطالبات المحجبات المسلمات من الدخول إلي المدارس إلا إذا خلعن حجابهن، وأظن أن الحرية تقتضي أن يحترم دين الإنسان ومعتقداته مهما كانت جذوره وانتماءاته، فلسطين شاهد على التناقض والمزاعم الدولية التي تنادي بحقوق الإنسان وهو في هذه البقعة يهان ويقتل ويشرد بعيداً عن وطنه، ناهيك عن الدول الكبرى كيف تسيطر على العالم وتسعى لانتزاع ثرواتها وخيراتها عنوة»

كان الرجل يصغي بإعجاب لكلماتها الصاعقة وهي تهدر بهذا الحماس صمتت تلتقط أنفاسها ثم استأنفت:

«الحقوق تولد مع الإنسان بالفطرة ولا تؤخذ عنوة، ولكن لفرط الأساليب القهرية والاستبداد والعنف والسلطات الجائرة جعل الإنسان يقاتل من أجلها كي يسترد حريته، كرامته، ودينه ولهذا كان رد الفعل المجازر والسجون، المعتقلات التي تئن بأنين المناضلين على مر التاريخ، واختلطت المفاهيم والتصنيفات، إذ أطلق على هؤلاء الثائرين الذين يكافحون من أجل استرداد حقوقهم بالإرهابيين وانطلت على العالم هذه الخدعة»

سرح الرجل عبر النافذة هنيهة كالمفكر، ثم دلف إلي حجرة المكتبة ليلتقط منها إحدى الكتب، ثم قدمها إلي جميلة قائلاً:

«السيرة النبوية المطهرة، ومواقف الأئمة المعصومين عليهم السلام وكل الأصحاب الميامين، أسسوا دعائم الحقوق والحرية بما يتناسب مع فطرة الانسان، والتشريع الاسلامي جاء ليهذب هذه الحقوق ويبرمجها بصورة تحفظ توازن المجتمع لأن تقرير الحقوق وتوضيحها بصورة سليمة من الخالق ومسبب الأسباب يجعل المجتمع متماسكا في ظل عدالة حقيقية تغمر المجتمع بسعادة وافرة».

«هذه يا سيدتي رسالة الحقوق لحفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الامام علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام» وثيقة قانونية لا يمكن أن تجدي من بينها ثغرة أو نقصاً إلا وتداركته، فقد أسس الامام فيها أدق الحقوق وهي بحق تستحق أن تدرس في المناهج التربوية والتعليمية وتجدر أن تكون منطلقاً إلي الدعوة الإسلامية لكل شعوب العالم لأنها تخلص الانسان من الذل والهوان، وأظنها طريقاً معبداً للسلام العالمي والاستقرار الإنساني والرخاء المعيشي.

قالت بعد فراغه من حديثه:

«أنا جداً شاكرة لك يا استاذ، ويسرني أن تطلع على كل جزئية في الرسالة، إننا جميعا نعمل من أجل هدف نبيل، نقارع العالم في كل مكان وأنا سأبذل كل طاقتي من أجل أن أقدم

وثيقة للأوروبيين أوضح فيها أن الإسلام دين الحرية والعدالة والمساواة وكل القوانين الوضعية التي لم تستطع أن تسعد الانسان بل قذفته في لجة الصراع والشقاء.

انبسطت أسارير الأستاذ وهو مأخوذ بسحر فكرها النيِّر.

لملمت جميلة كتبها وأوراقها استعداداً للرحيل..

هنأها قائلاً:

«انكِ مفخرة للمسلمين في كل العالم».

أحنت رأسها شاكرة ثم ودعته:

«نلتقي على خير بإذن الله».

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (١٣)

بلا حياة

خرج «شاهين» من السجن، جال طوال النهار في الطرقات بحثاً عن مأوى فقد وجد صعوبة في استئناف حياته، فمازالت «ثريا» ترتاب من أفاعيله رغم كل محاولاته في استجلاء نواياه الغائرة كي تظن به حسناً، أجال طرفه في الحشود المارة عبر الطرقات وتذكر أنه بلا بيت، بلا امرأة، بلا حنان، كهولة كئيبة غمرته حتى الوحدة، استغرق في حيرته ومصيره الغامض، عاود الاتصال بثريا لكنها تداركت الموقف بلباقة:

«سيخصص لك عماد شقة صغيرة في إحدى المباني السكنية التابعة للشركة»

لكنه يتحرق على نار ويود لو تعود ثريا سيرتها الأولى.

رثت لحاله:

«الحمد لله أن عدت سالما»

«أرجوكِ لا تقفلي الخط»

«اتركنا لنعيش بسلام»

«تذكريني، أنا شاهين، حبك الأول، أبو أولادك»

تولاها اشمئزاز فردت مكرهة:

«لست مستعدة أن أدفع ثمناً آخر، خصوصاً بعد أن نجح أولادي في حياتهم وشبحك القاتم سيعتم على سعادتهم، لذا أرجوك اختفِ من حياتنا»

أقفلت راجعة بعد أن أنهت المكالمة المزعجة، استرعى انتباهها رنة رسالة في هاتفها الخاص رغم تكتمها على رقم هاتفها، فقرأت الرسالة:

«سأكون في غاية السعادة لو اتصلتِ على هذا الرقم... هاشم».

صمتت مبهوته، أغضت من هذا التصرف الأحمق، تتساءل في حيرة:

ماذا يريد منها الآن؟ بعد هذه السنين هل يزعم أنه يحبني» ، ذهبت أفكارها كل مذهب وقررت أن تصد محاولاته، فمهما كان احتياجها وضعفها لن تفتح باباً أمام إعصار من المشاكل والتصادمات، أقفلت الخط متجاهلة، غشيها الهم فجأة تذكرت علياء وحبها العاثر، لا زالت مغرمة به نافرة من زوجها مخلص، كل يوم تعود متبرمة تجاهر بنفورها دون خجل، عازمة على

تركه، هذه المعتوهة تعيش حالة نزوية سرعان ما تلقيها في هاوية الضياع.

و«فداء» الصامتة، عالية المطامح ترتقي سلم المجد بخطو واثق وعزم متقد، كتبت فوق صفحاتها أحرفاً من دم، وعماد بشبابه الزاهر ينضح ألقاً، لن تحدث نفسها أبداً بهفوة عارضة تردم كل هذا البنيان، لم تشعر بالميل إلى مواصلة ما انقطع من خيوط الماضي.

رنت بطرفها إلى النافذة الندية ونقشت بإصبعها زخارف عبرت بها عن هواجسها المتضاربة تناجي نفسها في صمت «الآن أحصد ثمار عمري، أولادي منعمون بصبري وقوتي»

أصاخت وهي في عزلتها لصوت «علياء» يصدح من بعيد وهي تترجل من السيارة قائلة بتذمر لزوجها:

«سأنفجر منك غيظاً يا مخلص»

أجفلت ثريا مستنكرة فظاظة ابنتها ونفورها الواضح من زوجها ولهذا تحاول رأب الصدع الذي تشقه ابنتها برعونتها عبر هذا الدعوات الحميمية.

تثرثر بصوتها الحاد وهي تستطرق السلم وكان يجيبها متلعثما مرتعشا.

فتحت ثريا الباب وفي غضب تعنف ابنتها:

«أقسم لو أنني زوجك لقطعت لسانك»

أردفت «علياء» بعد أن استعادت رباطة جأشها:

«تركني أنتظره لفترة طويلة»

قال مدافعاً عن نفسه:

«العيادة كانت مزدحمة بشكل كبير، وقد اتصلت بها أعتذر عن التأخير»

فرَّت علياء متبرمة، يستحوذ عليها الملل والزهق، راعها هذا المشهد الكئيب من حياتها، حاولت أن تحبه، أن تدنيه منها بيد أن قلبها نافر، فقد قبلت به على مضض واستنفرت كل طاقتها من أجل التكيف في حالتهما الزواجية وهي تعتقد أن زوجها سيضج يوماً ويسرحها سراحاً جميلاً بعد أن يبلغ ضجره الذروة، كانت تصدف عن محادثته وتبتعد عن ملاطفته رغم أنه يتكلم معها بلسان خاضع وصوت لطيف وراقبها عن كثب وسبر أغوارها واكتشف أنها طفلة متنمرة ستروضها الأيام.

ألتم الشمل على مائدة الطعام.

أبدى«عماد» رغبته في التوحد بنفسه لمراجعة بعض الأعمال الخاصة بالشركة، حاولت «علياء» التسلل إلي الكهل عبر منافذ الحديث وكانت أمها تدرك بواطن الأسئلة الملقاة عن قصد وعمد، هو من تحوم عليه بفؤادها، هو من شاغلها عن حياتها الزوجية، ثم انبرت تتأفف:

«متى تنتهي الإجازة لأعود إلي عملي»

يتهكم مخلص:

«لا أدري كيف يتحمل الموظفون طغيانك؟»

حدجته بنظرة غاضبه:

«إنهم يحبونني ويعرفون الخضوع جيداً»

تململت الأم متحرجة:

«ما نفع العمل وبيتك فارغ من الحب»

بدت «فداء» منهمكة في سبر غور أختها، تصمت ملتاعة متفهمة وضع «علياء» الحرج، خطيئة تفرض نفسها الآن كواقع مرير، علياء مهووسة برجل آخر ذراتها مشبعة به تحتاج إلى تنويم مغناطيسي لاستفراغه من ذاتها.

قالت لها فداء بصوت رصين:

«مـا رأيك لو تمكثين معنا هذه الليلة، أظنك متوترة بعض الشيء»

أبدت «علياء» موافقة وانشراحاً لهذا الخاطر فإذا بلسانها يطيب بناعم الكلمات إلي مخلص:

«أعرف كم أنت صبور معي، تكافح من أجلي، دعني ليومين كي استرد عافيتي فانا منهكة بعض الشيء»

قال باستياء:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«حسن، امكثي في بيت أهلك ما شاء لك ذلك ومتى شعرت بالزهق والملل عودي على الفور»

نهض من فوره وهو يرتب هندامه ويرسم الهدوء على أمائره المتشنجة.

قال بانفعال واضح:

«مضطر للعودة إلي العيادة».

صمتوا مرتابين، اكتفت الأم حالة من القلق فانبرت تقول بحنان.

«ستعود لك خلال يومين لا تنزعج، ستنال عقابها الذي تستحقه»

يضيع «مخلص» بينهم فقد جمعته الأقدار بعلياء في مفارقة عجيبة فلوعتها الممضة تكمن في هشاشة موقفه وليونة نسيجه، متراخياً بين كفيها تصنع به ما تشاء، انطوائي، منكفئ على نفسه.. بينما تبدي علياء، حيوية متدفقة تنتفض من خلف ثيابها، يأتيها كل مساء في مزاج منهك عاجزاً عن التفاعل النفسي والمجاذبة الكيميائية كثنائية.. ينهار على الفراش يسمع ثرثرتها الصاخبة بفكر غائب وشرود ساذج، بعد أن تستفرغ «علياء» حمم غيظها تنتظر منه الموافقة والدعم، فإذا به غارق في سبات عميق تتلوى في فراشها محبطة كبلها صقيع المخدع،

هذا الرجل لم تكن له نظرة بارعة في أي قيمة بالحياة أو رأي تستطيع أن تلج به إلي غوره... مقفل على ذات صافية كطفل ساذج، أتعبها فكرها فعولت على وضع حد لهذه الزيجة، هزمها ببلادة طبعه وخور عزيمته، فهو لا يعرف كيف يختار أو يقرر، تارة تحنو عليه وتارة تسخط عليه، ولعل ذلك كان نتاج الفارق في المزاج بين توقدها وبروده... تشعر كما لو كانت سفينة تائهة وقفت على شاطئ مهجور عجز ربانها على قيادها مداً وجزراً بمجاذبة فتية.

وطّنت نفسها على الانصهار بذراته مهما كانت خابية، عليها الضخ في منابتها كي تبقى في مداره حية.. تأتيه في بعض الأمسيات ملاطفة يبقى انسحابياً متردداً في سذاجة فيبتر موجتها المباغتة فتستدير محبطة وتود لو تصفعه وتنسف كل زواجها، هي من تقبل الآخر اقتحامياً مبادراً، يبارزها حتى يشل قواها فتخضع صريعة لهيمنته.

أجفلت الأم مما رأت في عيني ابنتها من نفور:

«المهم أن تكون لك أسرة مستقرة، زوج محترم وأولاد، أنت تعيشين في نعيم لا تقدرين قيمته»

انهمرت دموع «علياء» أسىً ولوعة إذ كيف يمكن لطبيعتين متناقضتين أن تتحدا في تناغم مريح، كل شيء ممكن افتعاله إلا المشاعر هو لايدرك معاناتها جيداً، يظنها انفعالات امرأة

مشاكسة تتمرت على طيبته وذاقت من التدليل ما دفعها الي التبطر على النعيم، وإن غادرها العقل اليوم فإنه سيعود ثانية بعد أن تكتشف حجم الفراغ الذي سيتركه غيابه، ناء كاهلها بهذا العبء ويرمت برماً شديداً من يومياتها الرتيبة.. كلما حاولت تغييره وترويضه بالشاكلة التي ترتضيها يسدل الستار على الحديث ويفر هارباً متذرعاً بالانشغال.

صرخت بأمها معنفة:

«أنتِ السبب، أنتِ من فرضتِ عليّ هذا الرجل الباهت».

احتضنتها «فداء»:

«هدئي من روعك يا عزيزتي»

الأم مبررة:

«السبب حبك لهذا الكهل، لو كان قلبك خالياً ما عافت نفسك مخلصاً»

«صدقيني يا أمي حاولت أن أحبه، أن أذوب نفسي فيه، إلا أنني كلما اقتربت أجفلت، يخيل لي أن في عينيه سداً من الصقيع يقصيني عنه»

تزجرها أمها زجرة قاسية:

«ولكنه محب لك، مولع بشخصك لا تنكري ذلك»

«هل تعرفين أنني أحيانا أتجرع المورفين لأخلص من هذا الشعور القاتل»

اقشعر بدن «فداء» وتولاها خوف على أختها فهبت صارخة:

«اتركيه يا علياء لست ملزمة بالعيش معه»

الأم مؤنبة «فداء»:

«دعك من هذا الهراء، ستعود لزوجها ولا تخيب خيبة أمها، فالمرأة القوية هي التي تصمد كقلعة محصنة ضد كل الأعاصير وتعرف كيف تلملم أشلاءها المبعثرة من جديد»

قاطعتها «علياء» صارخة:

«لكني لا أحبه، لا أطيقه، أشفق عليه فقط»

اغتاظت الأم:

«لأنه يحبك ويشتري رضاك؟! أظنه لو كان جافياً، قاسياً للهثت وراءه كالحمقاء»

تدخل «فداء» في معرض الحديث محاولة إقناع أمها:

«هناك تنافر في المزاج والطباع والذوق، للوهلة الأولى يخيل للرائي أنه نقيض علياء، وأظن انفصالهما الآن أفضل قبل أن تسوء العاقبة»

ترد الأم بحزم:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«مستحيل أن يكون هذا هو خيارها الأوحد، ستتغير الأمور لاحقاً عندما تحمل وتنجب ستتوثق عرى العلاقة بينهما»

خاب أمل علياء ففرت لائذة بحجرتها تبكي.

خرج «عماد» مطرقاً وقد بان الحزن على تقاطيعه:

«سمعت كل شيء»

رنا إلى أمه بطرف حزين:

«أرثى لحالك أمي، فلم تعد لك القدرة على احتمال المزيد من المشاكل»

ومن ثم شخصت عينه ناحية الدار والباب مقفل على أخته المنكوبة.

وهم قاصدا إثارتها:

«يا للمرأة الداهية، كيف تعبث بقلب الرجل المسكين وكيف تسحق عواطفه، استحوذت عليها الأنانية فأرادت أن تحول كل شيء في الحياة طوع أمرها وعندما استعصى عليها الأمر تعذرت بأسباب واهية للانفصال، لا أدري ماذا تريد بالضبط وقد تزوجت طبيباً ناجحاً من عائلة عريقة وبيت أصيل»

فجأة، استرعى انتباههم باب الحجرة يدفع بقوة لتخرج علياء ثائرة:

«ما أعانيه كمد وحزن، فقد انجلت أواصرنا وعم الارتباك

في علاقتنا، تفيض مشاعري فأبددها في الفضاء، في العتمة، في الظلام، في شيء مجهول، أحدث الجدران كل يوم وإذا بها تتأوه معي وتتنفس بحرارة أعماقي وهو مقفل الثغر يغمض عينه ويحلق في ذاته المنكفئة منطوياً على نفسه، ويعود عماد يلومها ثانية:

«أنتِ السبب، صراخك، عنفك، عدوانيتك التي ظلت عالقة بك ولم تتغير»

تقترب منها أمها تمسِّد شعرها:

«اطمئني يا حبيبتي سيتلاشى الخصام وتزول القطيعة»

تقف «فداء» مغلولة اليدين، تتقلب على رمضاء الفكر، تفهم ما يختلج في أعماق أختها، مدركة لعنائها، يفتقد الزوجان تلك اللحمة النفسية التي توثق روحيهما وتصهرهما في كيان واحد، إنها الأقدر على استيعاب أختها فرغم الخلاف في بعض الفترات تبقى لهما في لحظات الصفو تلك الثرثرة الأنثوية المفعمة بخلجات خافتة وهمس خلف الأبواب تسره إحداهما للأخرى.. نبض الربيع الأخضر يتصاعد مع لهاثها في نجوى العذارى الحالمات.

قالت «فداء» متأثرة:

«اتركيها يا أمي معنا ليومين، فهي منهكة، متوترة.. تحتاج إلى استفراغ ثقلها، لتطهر قلبها من هذه التراكمات السلبية»

اعترض عماد:

«دعك من العواطف السخيفة واتبعي مشورة ذهنك، فالطلاق قرار قاتل مدمر لك ولنا جميعا»

أجفلت علياء في صمت.

ثم عاد ليقول في حديث آخر لأمه:

«اليوم اتفقت مع والدي كي يباشر السكن في شقته الجديدة، رتبت كل شيء والاستلام هذا المساء، وسأذهب لتنفيذ الإجراءات»

وقبيل انصرافه التفت محدثاً أمه:

«بالمناسبة سأدعو فؤاد وزوجته على العشاء في بيتنا»

«على الرحب والسعة يا ولدي»

رن الهاتف «رنة رسالة»

قرأت «ثريا» الرسالة «كم أنت متصلبة وقاسية!»

ارتبكت في بغتة ملفتة للبنتين، صاحت فداء على الفور:

«من بعث لك هذه الرسالة؟»

بالتفاتة مريبة بررت:

«بنك الدم يطلب من المواطنين ممن كانت فصيلتهم (O) التبرع»

قضت «علياء» نهارها مع فداء، تثرثران معاً، حدثتها عن خبيئة حزنها ومعاناتها اليومية مع زوجها ودخائلها الممضة وإذا بها تتحدر الي رواسبها الماضية وتجارب سلبية خلقت داخلها إحباطات نازفة، إنها تفتقد الأمان منذ سنين طويلة، غياب الأب، طفولتها المحرومة، عدوانية انغرست في منبتها منذ زمن، إحساسها بالغبن، الروح المضطهدة، نقائض من المشاعر اختزلتها في بوحها المريح لشقيقتها الصغرى ثم اتجهت في حديثها ناحية أخرى قائلة:

«أتحسر على الأيام السعيدة مذ كنت حرة، رغدة لا يلزمني زوج بولاية أو قوامة، أرقد وأنام ما شاء لي ذلك أخرج منطلقة الي العالم دون قيد أو إلزام»

بحنان تجاذبها «فداء» البوح:

«لا أقرك على هذا النهج، فالزواج استقرار يا علياء، كونك فشلت مع هذا الرجل لا يعني أن الزواج قيدٌ، أنتِ الآن حرة تعملين بانضباط وتمارسين حياتك بصورة طبيعية، الضغوط النفسية العارضة هي التي لوثت آراءك بهذا الشكل، وأظن أن الأيام كفيلة بتقويم رؤيتك بطريقة أفضل.

دلفت الأم الي حجرة البنتين موجهة حديثها إلى فداء:

«أعددت لك المبلغ لشراء كتب الجامعة»

قفزت فداء من سريرها برشاقة قطة واحتضنت أمها تقبّلها:

«كم أنا فخورة بكِ يا أمي»

بينما تركت «علياء» سريرها متجهة الي الحمام، وفي طريقها عبر الصالون سمعت رنة الرسالة خامرها شيء من الفضول والريبة، هاتف أمها كان على المنضدة، تلفتت حولها مستطلعة، أشياء الأم الخاصة أمر مباح في عرف الناس! قرأت الرسالة «طال الزمن أو قصر لا بد لنا من لقاء».

ارتعدت في مكانها، بهتت، رجلاها ترتعشان من هول الصدمة.

«هذا الرقم أعرفه، إنه.. إنه.. إنه رقم السيد هاشم!!»

أقفلت الهاتف بأصابع مرتعشة، وبصوت مختلج وأنفاس مبهورة عادت لحجرتها تلملم ثيابها في الحقيبة.

في دهشة تسألها فداء:

«ما بكِ؟»

حدجت أمها بنظرة ساخطة:

والأم في غرابة تستدرك:

«ما الذي حدث؟».

الأم وفداء، تستقرآن الحقيقة على وجه علياء».

وإذا بها تمزق أستار صمتها بتهيدة حرقى مبللة بدموع خرساء..

«اشتقت لمخلص!»

الفصل (١٤)

طوفان الشك

هذا المساء كان مشحوناً بالغضب، تستفزها المثيرات العارضة فتزجر هذه وتنهر تلك، العاملات في الصالون يتدافعن في إرباك لاسترضائها، متوترة، غضوبة، ثمة ما يزعجها ويوغر صدرها، العاملتان ميادة وشروق تسترقان النظر إليها تحاولان استكشاف طوية نفسها، في وجهها المنفعل ثم تنقل طرفها إلى «شروق» مستعلمة خبيئة صدرها وتقر الأخرى أن السيدة تطوي همّاً مقلقاً.

دخلت هند إلي حجرتها الخاصة بعد أن شملتها حالة من الإعياء، أشعلت سيجارتها وطلبت فنجان قهوة، حدثتها نفسها أن زوجها «خائن» وهاجسها ليس من دواعي الشك أو التخمين، بل يقين قاطع استدلت عليه في الأيام الأخيرة حينما لمست توثبه لشيء غامض، شروده وهو مسربل بحالة من الاسترخاء المنعش، اشراقة تضيء على محيّاه وبريق ينفذ من عينيه

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الشاردتين في غياب، ترقبه لرنين الهاتف، سكونه العذب بعد حالة قلق ظلت تنهش صحته، نشوة رطبة استشرت في عروقه الجافة فأيقظت فيه نبضا فتياً.. لاحظت اضطراب نومه فقد جفاه النعاس بعد أن كان يلقي جسده المنهك في الفراش مغيب الوعي وشخيره المزعج يطحن أعصابها.. يتهالك على فراشه متعباً يتلاشى إحساسه بالمرئيات حينما ينغمر في العتمة، والذاكرة تستكين في العدم، ما باله اليوم وقد استأنس الليل كعاشق وتلفع بدفء القمر ملتذاً، تتشق عن صدره تأوهات حارة مزقت سكون الدار، يخيل له أن زوجته غارقة في النوم وهي تذعن في إيهامه أنها في سبات رغم أنها تترمض على جمر الشك ووقد الحيرة، إذ أيقنت أن في حياته أخرى استطاعت أن تسلب قوته وتؤثر على نفسه الصلبة فترهفها.. هل تكذب ظنها؟! عيناه تحومان حول شيء ما، سرٌّ مكنون لم يتمخض عنه الغيب بعد، يقظته الباكرة بنشاط وعزم..

نفثت حزنها في الهواء وبترت ذاكرتها الموجعة فجأة وهمت لتخرج من عزلتها لتستطلع وضع صالونها.. قالت موجهة حديثها لمعاونتها:

«هل أقفلت الأدراج؟»

«نعم».

«وكيف كان النشاط اليوم»

«حصيلة اليوم قليلة جداً، زبوناتنا اعتدن على «سهام» فمنذ أن سافرت وهن يترددن في الحضور معربات عن أسفهن لغيابها، وقد زكيت لهن «ميادة» ومهارتها في تصفيف الشعر لكنهن محجمات عن الحضور.

انقبضت «هند» دون أدنى تعليق.

وعادت المعاونة تسألها:

«هل من خدمة أقدمها لك سيدتي؟»

«شكراً كاترين.. اذهبي»

يضيق صدر «هند» ويشتتها الحزن، الغيرة أيقظت شيطانها الذي ما انفك ينسج المزيد من الشكوك والظنون، حبها الأوحد يتبدد من بين يديها وهي أعجز ما تكون عن احتوائه وحمايته، نار تلتهب في جوفها ولا تعرف كيف تنأى بنفسها عن هذا الكرب؟ اتصلت بصديقتها الحميمة «إيمان»، دعتها على العشاء في مقهى الشيراتون تستغيثها بصوت حزين:

«ليس لي رغبة في العودة إلى البيت، أحتاج إلى من يسمعني»

ركنت سيارتها قرب الفندق ودلفت من الباب الكبير والتقت إيمان في المقهى الإنجليزي، اتخذتا ركنا منعزلاً عن الناس، لفتت إليها الأنظار بأناقتها الباذخة واختيال مشيتها.

بادرتها إيمان:

«لم أعـهدكِ بهذا الضعف يا هند، لا تدعي نفسك نهباً للوساوس»

انبرت تقول بتأثر:

«كيف لي أن أهدأ وقد لمست فيه ما يقوض أواصرنا ويفكك لحمتنا، الرجل عاشق، يصحو دائماً وابتسامة شاردة فوق شفتيه، مزاجه المنشرح على غير عادته، هل أكذب نفسي؟! إنه أمر ينهك أعصابي ويحطم معنوياتي»

«أنت لا تمتلكين أي دليل على ذلك، مازال الأمر ضرباً من الظنون»

ارتجفت هند وشحب لونها وهي تستطرد:

«أشعر بشيء يقف في حلقي حتى يكاد يكتم أنفاسي، هل أصارحه وكبريائي يردعني عن البوح، إنه اعتراف بنقصي، بعدم ثقتي بنفسي، هل أتجاهل الأمر يا إيمان؟ أسدي لي معروفا أكاد أجن!»

في قلب «إيمان» لسعة غيرة تختبئ في ثنايا دقيقة لم تستطع هند أن تلتقطها يوماً، تتراوح نواياها المتناقضة ما بين التعاطف والتشفي، لِمَ تقف «هند» دوماً موقف السيدة المتبطرة تمتلك كل أسباب النعيم دوناً عن غيرها، فلتذق مرارة الحرمان وقسوة الحياة وحمم الغيرة، إن في باطن إيمان خبثاً وشراً مستطيراً لا تكاد الأخرى المنكوبة أن تتحسسه لفرط انغمارها

في المعاناة، وألسنة الشيطان الحمراء تشتعل في رأس «هند» وتضللها عن رؤية الحقائق، جزعت أشد الجزع ونهشها القلق وها هي تركن إلي رأي صاحبتها معتقدة أن طريقتها مأمونة وحكمها سديد.

قالت لها إيمان:

«اطلبي الطلاق إن وثقت بخيانته»

تراجعت هند مجفلة تحدق في صاحبتها دهشة:

«الطلاق؟! هل أتنازل عن حب حياتي بهذه السهولة؟!

ببرود ترد إيمان:

«إذن ابتسمي في وجه الخطوب، هكذا يفعل الأقوياء»

سألت هند وهي متشككة في نفسها:

«هل تعتقدين أنني بدأت أفقد رونقي؟! ربما الأخرى أصبا وأجمل!»

«هكذا نحن النساء بمجرد أن تلسعنا نار الخيانة، نتشكك في أنفسنا وتتزعزع ثقتنا في أنفسنا»

تتساءل هند والحيرة تسيطر عليها:

«إذن لِمَ فعل ذلك بي؟ كنت أظن أن له قلباً كالصخر لا يمكن لأي امرأة في العالم أن تخترقه»

«إنها الثقة الغبية»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«إذن أنت تؤكدين أن هناك أخرى»

«لا أدري ما أقول»

انبرت تقول وهي تنتصب واقفة:

«أقسم لو اكتشفت حقيقة الخيانة لفعلت بالمثل»

أشفقت عليها إيمان:

«أنت مضطربة، اهدئي وعالجي الأمر بحكمة وترو»

«أنا مصرّة على عملية التجميل، سأسافر إلى باريس وأشد وجهي وأتصابى ثم أنفصل عنه وأتزوج من هو أصغر سناً منه»

تقهقه إيمان:

«دعكِ من هذا الجنون»

«الآن عرفت وجهتي»

وافترقتا عند البوابة، فتعود «هند» إلي بيتها مثقلة، متعبة، أنهكتها الهواجس، صعدت السلم دون أن تلتفت إلي أحد، انكبت على خزانة الثياب تفتش في ثياب زوجها ومخابئه، الأدراج، الأكياس، الطرود البريدية المقفلة، دليل يستحق أن تبني عليه ظنونها، أوصالها ترتعش فرقاً وانسياقاً لمجهول آخره عتمة وضلال، تزدرد ريقها في لهاث محموم تهمهم في اختلاجات مسعورة كذئبة مجروحة نكأها جرح قاتل لكنها عندما تستحضر مهابته تستكين في ضراعه وجبن، إنها صريعة

لمشاعر متناقضة، تخشاه وتحبه.. تستعبر مقلتيها فتتهالك على الفراش، يباغتها هاشم بوقفته مستطلعاً عند الباب:

«كنتِ في المكتب لم تمري كعادتك»

انكمشت وهي تجفف دموعها:

«انه شيء روتيني أكرهه»

«ما بك تبكين؟»

«وهل يعنيك بكائي؟»

«تردين بعدوانية غريبة»

أجابت متلعثمة والغصّة في حلقها:

«لأني أصبحت نكرة في هذا البيت، أنت مشغول بأعمالك وفؤاد بزوجته الجديدة وأنا أقف على شفير جهنم أتحرق على نار الوحشة وجمر الوحدة لا أجد من يسمعني أو يحس بي»

تأوه هاشم مشفقاً ودنا منها يحتضنها ثم قبّلها على رأسها حانياً:

لكنها استطردت وقد طاشت كلماتها دون رحمة:

«حتى أنت تغيرت، لم أعد أراك، في غياب ورحيل، بدأت أشك إن كانت لك علاقة بأخرى، تصرفاتك مؤخراً وشت بسر تداريه، تجفل كلما اقتربت منك، متوحداً بنفسك، ربما كان لك في الماضي هامش من الوقت، تلقيه لي كفتات أتزود به في

غيابك المر، أما اليوم فبتَّ لا تشعر بحجم الألم الذي تسببه لي في شرودك المستمر حتى وأنت حاضر الجسد قربي.

كان هاشم يصدف عن المحادثة في هذا الأمر ويظهر استهجاناً لشكوكها فأردف بصوت هادئ رصين:

«أجمل النساء أكثرهن غباءً، أو تعرفين أن رأسك الجميل هذا يحتاج إلى مطرقة؟»

صرخت معنفة:

«هذا هو أسلوبك على الدوام، تحول خصمك من بريء إلى متهم»

بدا متماسكاً:

احتقن وجهها وانبرت تهاجم:

«أعرفها من هي؟!.. تلك التي تختلي بها في المكتب»

باستنكار يتساءل:

«علياء؟!»

أشاحت بوجهها صامتة ثم واصل:

«لكنها تزوجت وهي في إجازة زوجية»

استأنفت هند:

«وهل هذا يمنع؟»

هز رأسه مستنكراً، ثم عادت تقول بلهجة مهددة:

«سأعرفها هي أو غيرها وسأقلب الدنيا رأساً على عقب».

قوّض المسافة بينهما إمعاناً في تبديد غيظها، وراح يتمعن في وجهها مستهاماً وشرر الغيرة ينقدح من عينيها المتمرتين، فوجئت به وقد تدفق شيء داخله، إذ بدا ملهوفاً على غير عادته دل على ذلك خضوع عينيه وفتور نبرته، ظل يحدّق في محيّاها المتضرج بحمرة الانفعال ساهماً، لفهما سكون مباغت، طافت عيناه في مقلتيها المتوثبتين اقتحاماً تحفزانه لمبادرة شوق همس مبهوراً وكأنه في اكتشاف جديد:

«إن من ينصرف عن حسنك الأخّاذ هو مؤكد أحمق»

رنت إليه بطرف دامع بعد أن سكنت أعصابها فبدت غضة، وادعة جاذبها ملاطفاً وقد مزّق أستار هيبته.

فانخفضت جوانحه واستنفرت جوارحه بمزيج ثنائي فيه من الانسيابية الكيميائية المتجاذبة الخواص، إذ لا يمكن مداراة النوايا عندما تتمزق الأقنعة وتتبلج الحقيقة، عرفت أنها مولعة به تتراءى لها المرئيات بشكل آخر.

اختلست إليه نظرة خاضعة فيها حيرة وتساؤل:

«أما زلت تحبني؟»

بادرها وقد أعياه الإنهاك:

«تبحثين عن طريق مختصر لجهنم»

بكت:

«بل أعيش الجحيم ذاته، أتمنى لو لم أحبك لكان أهون علي الانفصال كنت أتمنى لو كنت حرة من هذا القيد أمارس حياتي بآلية وروتين لكني ما زلت في حبك غضة، لم تجف مشاعري أبداً بل تزداد مع السنين اشتعالاً»

أشفق عليها وود لو يملك قلبه كله فكيف به وقد استحوذت عليه تلك النائية، المتجافية في كبرياء وعاد ليتأمل زوجته فرأي في عينيها هزيمة وانكساراً لم يكن يشعر بهما من قبل، وراح ضميره يسوطه بشدة لمَ بالغ في إهمالها، ومندهش لتكوينها الخاص وشذوذ عاطفتها حينما تلتهب في كل مرة وكأن الحرمان جمرة تذكي مشاعرها، تناقضات يقف أمامها حائراً، لكنه مدرك لأبعاد شخصيتها المرهفة التي تجتذبه بسطوحها الملساء الناعمة إلي متاهات غائرة وكأنها لوحة ضائعة الملامح تائهة الخطوط تستثير بغموضها فناناً مصقول الإحساس يعرف كيف يفك رموزها، كم من المرات تشاغله في بوحها الفوضوي.. عباراتها المتقطعة دون نهايات مقفلة.. تدهشه فيجفل ليست تلك الدهشة الجاذبة لرجولته إنه يتحرك وفق منطق الأشياء والتصاقهما معاً ينبت فيه مضادات دفاعية تحميه من فورتها النفسية ورهافتها الحادة، أدرك في تكوينها عقداً وبؤراً مسكونة بالوجع.. رسم لهذه الرابطة مسافات تعزز وشائج أنوثتها

وذكورته بمقدار الحاجة.. الملامح الأخرى في الشراكة النفسية تحمل لهما الكثير من التضاد والتنافر وحتى يبقى في طوره هادئاً، منعماً، مستكيناً آثر أن يقف على المرافئ بعيداً عن العمق فهي تستغرق في كل شيء وهو بمزاجه مختلف الشاكلة والذوق، كانت ترهقه في خلطة مشاعرها المرتبكة، بكل ما تحمله المواسم من أنواء بفصولها الأربعة المتبدلة... بتعاقباتها المتباينة وسبيله خطان لا يدرك في حياته غيرهما الأسود والأبيض وبمقتضى هذين اللونين يتفاعل مع الناس والأشياء، عاشت تغوص في أعماقه بكل ما تحمل من نزق واندفاع واتخذ الصمت لحافاً خشية التورط في مجاهيلها... كان يبعد ليحتفظ بحرارة المسافة ويصون ذلك التوقد المتوازن، لكنها تغتاظ من امتداد غيبته وتطمع بالتلاقي المستديم، إنه لا يملك ليعطي إلا ذلك المقدار القدر من عصارة قلبه وذوب روحه تركها على سجيتها في جنونها تسرج لذاتها شرنقة خاصة تمارس فيها كل طقوسها الفنية ووقف عن بعد يترقبها مبتهجا بجمالها المتلون الأطوار.

شاع الحزن في قلبه كلما تذكر ثريا، المرأة التي كان يحلم أن تكون له زوجة إذ حدس منذ صباها أنها صنف مسكون بالصبر لها تلك القوة المتوازنة والضعف المريح.. تمشي في الحياة بخطوات مدروسة ورؤيا واضحة.. معجونة بلونين لا ثالث لهما الأسود والأبيض، منذ وقفتها أمام الدكان وإشعاعها الداخلي

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يسري متدفقاً إلي قلبه، أشبه بقديسة خرجت من المحراب إلي الطرقات المدنسة بالخطايا، جاءت لتطهر بقدميها البضتين آثار الذنوب تركتها أقدام الضائعين في هذه الحياة...

هي القيمة بكل تألقها على مر السنين..

انتبه إلي هند قائلة:

«سأسافر الشهر القادم إلي باريس لأجري عملية تجميل»

صدف عنها مشمئزاً دون أن ينبس بحرف ثم ارتدى ثيابه وخرج بينما اندفعت بحمية وعزم لتتصل بفؤاد قائلة تحسم موقفها:

«لقد عزمت على إجراء العملية يا فؤاد»

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (١٥)

انعتــــاق

كان المطر يسقط رذاذاً والريح تزأر في الخارج، تتكاثف الغيوم كغرابيب سود فبدت سماء باريس ملبَّدة بعتمة خانقة، تلفعت «جميلة» بثوب أحمر وجلست في ركن هادئ أمام موقد من الفحم تقرأ رواية «الحب في زمن الكوليرا» تتلفت بقلق مصغية لأدنى حس، ويخيل إليها كلما حرك الريح باباً أن «فؤاداً» قد وصل، يتصاعد لهاثها في ارتباك محموم ، تمرُّ بها اللحظات بطيئة، تتضح شوقاً ولهفة.

ثمة حركة قرب الباب، أصغت بتأهب فاتجهت إلى مصدر الصوت وما كاد «فؤاد» يخطو نحوها حتى ذابت في وجوده وصوتها الناعس يغفو مسترخياً مع أنفاسها الحرقى، ثم انهارت قرب المدفأة والدموع تنساب لوعة:

«تركتني أموت والحسرة تنهش قلبي، أكاد لا أصدق يا فؤاد ما تفعله بي»

ذاب قلبه شفقة فجثا بقربها وانحنى برأسه حتى لامست شفتاه جبينها هامساً:

«اعذريني فما حصل قد حصل»

«كنت أظن أن حبك قد نضب وما بقيت معي في الآونة الأخيرة إلا إشفاقاً ومجاملة، تركتني غائمة في فكر قاتم، وقلب شاك»

تفرَّس في وجهها ملياً مستعذباً تلك الهالة الساطعة تجللها بكل مظاهر الرواء والحسن، وإذا به يتحرق على نار كلما تذكر زواجه من ماجدة والحقيقة المرة الجاثمة على صدره وود لو يكشف لها سرَّ هذه الزيجة بيد أنه تراجع خشية أن يفسد عذوبة لقاء كان يتوق له منذ زمن.

نظرت جميلة في عينيه باحثة عن شيء، عن ذلك الحلم الذي أضاء قلبها بنور العاطفة وأوقد في حياتها أملاً يشدها بحنان إلى شواطئ السعادة والأمان، تقطف من بيادر هذا الحب في كل موسم زهرة عشق يتضوع أريجها في وحشة أيامها.. فدفق الحب كان سر نجاحها وانغمارها في درب الشوك استعذبته فكان هناءً. ذابت أحشاؤها من الشوق، فتمتمت متلوعة:

«لا تتركني ثانية يا فؤاد، خصوصا وأني حامل وأحتاج إلى وجودك الدائم»

ندت من صدره آهة فأقبل عليها يتحسس وجهها قائلاً بشيء من التبرير:

«لا أدري ماذا يحدث لي أحياناً، لكن أرجوك أن تصدقيني أنني ما عدت إلى باريس إلا بحافز شوقي إليك»

قالت بإغراء وتوسل:

«لا أقوى على بعدك، فأنا أحبك وكنت أتمنى أن تبقى لي سنداً في الحياة»

ولم يدعها تتم بل سارع يقول:

«ربما كنت أنانياً بعض الشيء، لكني مازلت محباً لكِ خشيت في وقت ما أن تطمس صورتي في قلبك بسبب أفاعيلي الرعناء»

بصوت يذوب رقة هتفت:

«لم كل هذا الشك يا حبيبي وأنا أتفانى في خدمتك وأحرص على مرضاتك متمسكة بكل ما تصبو إليه نفسك»

ثم شرعت تسأله عن حاله وأعماله وتجاذبا في شتى المواضيع وأمضيا ساعات الليل وهما يحلقان في سماء الهناء يرتشفان ذوب بعضهما وإذا بمغاليق قلبيهما تنفتح ليلتحما في انسجام ووئام، فأيقن فؤاد أن محبوبته مازالت على عهد توقدها وهذا التغير الذي شاب طباعها في الآونة الأخيرة ما كان إلا عرضاً طارئاً.

كانت جميلة قد اتفقت مع فؤاد هذا الصباح على زيارة الشيخ «عز الدين» فقد آلت على نفسها أن تساهم في تبرع مالي لإحدى الجمعيات الخيرية التي ترعى أيتام الشهداء فانتحلت شتى الأعذار كي تقنع فؤاد أن هذا العمل هو الطريق الأسلم لسعادتنا ولسلامة ابننا القادم.

تهيب فؤاد الموقف وآثر الانتظار.

فقالت مستاءة:

«لهذا الرجل كل الفضل في عودتنا إلى بعض، ناهيك عن الدروس العظيمة التي ينظمها الشيخ في العرفان والحب الإلهي، لا تتصور كم ستشعر بالاطمئنان إن داومت على هذه المحاضرات»

وما أن ارتاح فؤاد من عناء السفر حتى قصد منزل الشيخ «عز الدين، وسُرّ الشيخ كثيراً عندما رأى فؤاد وهتف به مرحباً وجاذبه أحاديث عامة تخص مشاكل الإنسان ومعاناته، ثم تأنى كثيراً قبل أن يلج في الموضوع الأساسي، وشعر فؤاد أن الشيخ بعيد النظر، ذكي، ضليع في قضايا العالم السياسية والاجتماعية، واستطاع أن يسري عنه ويخفف عنه وطأة أحزانه، له أسلوب مريح يتسلل بدفء إلى الروح فيطيبها.

تأمّل الشيخ في وجه فؤاد ملياً وقال:

«أنت كريم المحتد يا فؤاد، ولن يضيرك لو صبرت على زوجتك الطيبة المجاهدة التي تكافح من أجل علم هادف»

فلما توقف عن الكلام بادره فؤاد وهو يتلفت إلى الإعلانات والبوسترات المعلّقة على الجدران يشير مستحضراً نشاط زوجته في هذا المضمار:

«يبدو أنها تخص إحدى المؤسسات الخيرية»

بشيء من الحرج أومأ الشيخ بالإيجاب.

«مركزنا هذا يرعى أنشطة خيرية وثقافية ويقدم خدمات كلها تصب في خدمة الناس، ونطمح أن تتكرم علينا أياديكم البيضاء لإنجاح هذه المشاريع»

استوضح فؤاد من الشيخ عما يجب أن يفعل كمساهم.

أجاب الشيخ واثقا:

«قبل كل شيء كنت أنوي دعوتك إلى أمسيتنا الثقافية لتشهد الحوارات الهادفة التي ترفع الإنسان إلى أرقى درجات الوعي»

تراجع «فؤاد» كالمرتاب واستعرض في مخيلته الأحداث المأساوية التي تحدث في العالم باسم الإسلام، وخشي أن تنطلي عليه هذه الحيل فهؤلاء قد يبيتون أغراضهم تحت ألف ساتر.

فطن الشيخ لما يدور في ذهن فؤاد:

«الأمر متروك لك، وأمامك صناديق التبرعات، معك رقم هاتفي وبابي مفتوح لك»

تأمّل فؤاد ملياً في وجه الشيخ مستعذباً فيه ذلك اللطف الرائق ينضح في مبسمه بالرغم من كبر سنه، في عينيه تلك النظرة الاقتحامية التي تسبر غور المجهول وتخترق المستحيل.

نهض فؤاد من مكانه وصافح الشيخ مودعاً وعند الباب دس في كفه مبلغاً من المال وبحرج قال:

«سأحاول بين فترة وأخرى أن أقدم بعضا من المساعدة»

فانبرى الشيخ قائلا:

«صدقني لولا ما ألمسه فيك من الإخلاص ومخافة الله لما تجاسرت على مفاتحتك بقضية التبرعات»

عاد «فؤاد» إلى بيته مشغول الفكر، غارق في التحليل وربط أحداث حياته ببعضها، كلمات الشيخ مست في نفسه شيئاً خابياً وأيقظت فيه حساً جديداً ظل يرزح تحت ثقل قيم اعتنقها سنين طويلة تقف كقوة طاردة أمام أي أفكار جديدة، يبسطها الشيخ جلية واضحة فيفر فؤاد منها كما يفر من خطر مريع، ما هو الشيء الذي ينقصه؟ لم يضطرب صدره حتى يبلغ به الضيق إلى حالة من التمرد.. قطع مسافات الطريق وهو يحدق في الأفق المترامي كالمأخوذ يتساءل لم يشعر بالانطفاء كلما ارتوى من النبع بعد لهفة طائشة واندفاع محموم ونهايات

مقفلة؟ ويلتهم المورد حتى إذا ما شبع لفظ الزاد مغموماً محبطاً، ها هي «جميلة» تنطفئ بفتنتها بعد أن لهفت عليها نفسه وشرب من مناهل أنوثتها أطواراً من اللذة، وعند سكونه تنكفئ أحاسيسه وتخبو دوافعه فإذا به رماد.

تنهد متبرماً، متسكعاً بين الطرقات، يشعر بفراغ حياته ونضوبها يرى كل شيء حوله باهتاً، ذاوياً، المعاني تذوب وتتلاشى من ذهنه وخيّل له أن الراحة والنعيم نهجان ينتهيان بسعادة لا حدود لها، وقعد عن كل نشاط مرهق واغترف من دنياه ما تظنه المخيله هو الكمال، حتى انقلب كل شيء إلى خواء وعذاب.

أمضى ساعات ذلك النهار شارداً، ساهماً لا يعمل، لا يتكلم، تفترسه أحزان سحيقة وآلام مريرة، فدنياه ظلمات حالكة تعتم عليه الرؤيا الأبعد، وتضيّق عليه منافذ الانعتاق.

لمّا اختلى بزوجته جميلة أفضى لها بما خامر صدره، فاندهشت لهذا التبدل وأحست بقلق داخلي يضطرم في أعماقه، اغتمت لأمره وشعرت أن الموقف تعقد بعد لقاء الشيخ، لاحت منها التفاتة فاتنة:

«ما رأيك لو نقضي الليلة في إحدى المقاهي الشاعريه، آه دعني أسترجع سحر الليالي والذكريات العذبة يوم كنا عاشقين نتنزه على الشواطئ حفاة نناجي بعضنا تحت ضوء القمر.. هل تتذكر يا فؤاد؟»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

حملق فيها وأجفل صامتا.

فوقفت تختلس إليه نظرات مرتابة متشككة، صاحت بغضب بعد أن نفذ صبرها:

«ما بك مكتئب؟»

جال طرفه في كل مكان، لا تسعفه الكلمات، فأي تبرير سيتلاشى أمام جموحها العاطفي، يحدث نفسه مغتاظا:

«عاطفته اللعينة متذبذبة لا يستطيع ترويضها وفق طبيعة الموقف»، إنها أشبه بحصان طائش يندفع بقوة سارحة ثم ينتهي لهاثه عند نقطة الانهيار.. والمؤثرات التي تشعل وقدتها أحيانا تخمد وتتحول إلى ثلج يتراكم على قلبه، لقد تضاءلت «جميلة» في عينيه وانطفأ وهجها في لحظة، عاد يبرر لنفسه «حتما ستعود إلى رونقها ثانية وأسترد ذلك الشغف الجميل»

جمدت جميلة في مكانها مبهوتة، تذكرت حالته السابقة، والهجر القاتل والبعد المؤلم، صعد لهاثها وارتجفت أوصالها، وداخلها روع من فتوره ثانية..

«فؤاد حبيبي هل أنت متعب؟ تشكو من شيء؟ تكلم، إني قلقة عليك لمَ أنت صاد بهذا الشكل؟»

لوح بيده في وجهها يأمرها بالسكوت.

ولم يثن عزمها صمته، بل تمادت في حشريتها بواعز من قلق الهجر:

«إنني أرغب في مباحثتك بشأن ولادتي ووضع طفلنا القادم، قررت أن أسافر معك هذه المرة ولن أعود لباريس إلا لمراجعة الرسالة»

تبادلا نظرات ذات معنى، كان لابد أن يفجر الموقف ويعلن عن ذلك السر بعد أن استجمع عزمه:

«أنا متزوج من أخرى ويصعب عليّ أن أجمعكما في مكان واحد»

ارتعدت كمن أصابها مس، مذهولة، غير مصدقة، قالت بكلمات متذبذبة ولسانها يتعثر في حلقها، منهارة كما لو صعقتها صاعقة:

«لم أكن أتوقع أنك ستأخذ هذه الهفوة ذريعة لتنتقم مني وتتزوج من أخرى شفاءً لغليلك»

«يا الهي أكاد أكذب سمعي يا فؤاد، هل فعلت ذلك حقاً؟!»

«لم أكن أرتاب في نواياك مطلقاً»

«تستغل طيبتي وصفحي لتفعل كل هذا بي»

أحنى فؤاد هامته صامتاً، بينما واصلت هذيانها الحانق:

«لقد نكأت في قلبي جرحا لا يندمل»

تنهد فؤاد وكأن كل جزء فيه يحترق ويشتعل..

وذرفت جميلة الدمع السخين.. تركها متجهاً إلى غرفة

المكتب فتعقبته وهي تشج وتثرثر صارخة، معنفة بأقصى طاقتها:

«لمَ تذلني وتقهرني يا فؤاد، ماذا فعلت لك لأحصد كل هذه الجروح؟»

انزوت بعد أن انهارت على المقعد، مطرقة، باكية، تنهمر دموعها أسى، مازالت غير مصدقة، كيف طعنها في مهجتها وسحقها بهذا العنف.

أطرقت لبرهة ثم انتبهت إليه وهو يخطو إليها منكس الرأس، مشفقاً عليها، دنا منها بتردد، لا تسعفه الكلمات ليصيغ لها تبريراً واحداً يشفي غلها، جلس قربها يسرد على مسامعها ما جرى له، بينما لبثت في مكانها كالجثة الهامدة، لا حراك لها، قد قوضت الصدمة إحساسها وتركتها أشلاء روح.. وكلما اقترب انكمشت متباعدة، رفع رأسها بغتة ورأى دموعها تلمع من وراء أهدابها وتقاطيعها الغارقة في اليأس وبصوت متحشرج غيب البكاء نعومته:

«ضاع كل شيء يا فؤاد، ضاع الحب وغابت الفرحة، كنت أنتظرك أيام طويلة، مهملة، منسية، أواصل الليل بالنهار جادة، كادة في دأب كي أدرس وأحقق أهدافي وأستقر معك، يشحذني الصبر والعزيمة أنهلهما من معين محبتك رغم حدسي أنك قد نضبت ما عدت تحبني كالسابق وتنتحل الأعذار كي تطلقني»

زارت الريح بقوة كأنها تتواطأ مع محنتها وانفعالها الشجي لتسقط دفعه كبيرة من الثلج.

ثم استطردت وهي تقاوم حزناً ينشب في داخلها كمعركة طاحنة:

«أرجوك، أتوسل إليك طلقني، لم أعد أرى ضرورة لبقائي في حياتك»

قال برباطة جأش:

«جئت لألازمك ريثما تلدين، أنسيت أنكِ حامل؟!»

أجابت وهي تتحنى باستسلام:

«لقد سبق السيف العذل، ما عاد هناك أي مبرر لاستمرارنا معاً، تستطيع أن ترى ابنك بعد الولادة»

حدجها لائماً:

«لو كنت تحبيني حقاً ما نطقت بهذا الكلام»

انطلق لسانها بسيل لا ينقطع من الاتهام والتجريح:

«أبعد هذه الطعنة النكراء تأتيني ملاماً، من نكأ جرحي غيرك من أهان كرامتي سواك؟ تحملت مشقة البعد لفترة طويلة لا أطالبك بأي شيء، صابرة على نوازعك وتقلباتك وأبرر لك في كل مرة على أمل أن تثوب إلى رشدك».

توقفت عن الكلام يتصاعد لهاثها المحموم تحاول أن تتماسك فقد ارتعدت فرائصها بشكل مخيف جعلها تصرخ كالمرعوبة:

«طلقني، طلقني»

ابتهل إليها وتوسل أن تهدأ، أن تسكن، وفي صوته نبرة استعطاف مخنوقة:

«جميلة، جميلة..اهدئي أرجوك»

انقلبت بشكل أدخل الذعر إلى قلبه، باغتتها رعدة قوية وهياج أشبه بالبركان يلفظ حممه.. تتعثر الكلمات على لسانها..

«لا أريدك.. طلقني.. كرهتك»

وعندما استبد به الخوف صرخ بصوت جهير وهو يهزها بعنف:

«ما بكِ هل جننت؟»

سكنت بعد عاصفة الغضب واستردت طاقتها، كأن غيظها تسرب منه شرر محرق إلى نفسه فبدا مكفهراً، يجلله الحزن الكسيف، حاول الكلام لكن ذهنه المشتت وعقله الشارد ترك الذاكرة مشلولة، عاجزة عن استجماع الكلمات فماذا يقول وكيف يبرر وكل الحيل أعيته ونفذت من رأسه؟

تفرّس في وجهها الشاحب وقد ولفظ ذلك الرواء.. تلاشت قواها وأحست بشيء من الخور فسقطت على الأرض، ضعيفة، معتلة، مصفرة الوجه، ارتعش فؤاد رهبة، وشعر كأنه مذنب اجترح من الإثم ما يلام عليه جلس قربها يمسّد شعرها مشفقاً، رنت إليه بطرف حزين ثم أسبلت جفنيها هاتفة:

«فؤاد.سأختفي من حياتك، صدقني»

سالت الرقة دمعا في عينيها ومضت بصوت متهدج:

«لقد وطنت نفسي على المعاناة واحتمال البلاءات وليس هذا الأمر بالشيء الجديد فالكل تخلى عني وجئت في الختام لتقضي على الأمل الأخير في حياتي سأرهق نفسي في العمل، كي أنساك وأهرب من نفسي ومن التفكير فيك، فكان حبي لك سماً زعافاً قضى على حياتي، أحسست منذ فترة أن الحب قد تلاشى من قلبك وتبدد بفعل هذه الهزات التى أفقدتني الثقة فيك»

أطرقت تلتقط أنفاسها ثم تابعت وهي تستحضر ذكرى ولّت

«لقد طفت معك في آفاق السعادة لنصل إلى أوج الهناء ثم انحدرنا مع البعد وليالي الفراق الطويلة إلى درك الجحيم بعد أن تملكك الضجر والملل»

ثم رنت إليه بعينين منكسرتين قائلة في صوت ذائب:

«فكر ملياً بالأمر لتتخذ قرارك النهائي»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ثم نهضت من مكانها بتثاقل وهي تشيعه بنظرة لائمة:

« أنا ذاهبة لأنام فراسي متعب وأحتاج بعضاً من الهدوء لأواصل عملي ونشاطي غداً»

رفض فؤاد رجاء زوجته، فمشاعره الآن تنهض من كبوة الرتابة وصقيع الملل حبها ذلك الطاغوت المستبد يحرّك قلبه في كل اتجاه فلا يعرف له قرار تضاءل في عيني ذاته فأهون عليه لو فقد حياته وبقى رجلاً صلباً صاحب قرار ثابت من أن يفقد كرامته فتبقى له صورة مستهجنة متزعزعة في قلب زوجته.

استلقى على مقعد مريح أمام المدفأة يراقب ندف الثلج المتساقط على النافذة أرقاً لا يجد سبيلاً للراحة، يلسعه ضميره بعذاب لا يرحم، يقلّب صفحات الذاكرة ويستدرج الماضي بروح منهكة ويتساءل منتحباً «أي حياة تلك تهددني دوماً بلعنة أبدية تطل بوجهها المكفهر فتغرقني بالتعاسة، هذه جميلة هل يستطيع أن يجد فيها أكثر مما أعطت، كلهن سواء «ماجدة» المتمردة، المتجبرة، تصرعني برعونتها، بتجاهلها، تقمع كبريائي وتدوس عنفواني غير آبهة بما تلقيه في نفسي من آلام وأظنها سوط القدر الذي ما برح يعاقبني على خطيئتي التي اقترفتها بحق هذه المسكينة.

سالت مدامعه على خديه عندما لاحت صورة جميلة في خياله.. لقد تدلهت بهواه وأحبته حباً جارفاً..

دهش لتناقضه وتضارب نوازعه، ظلت هواجسه تمور بصخب في جوفه، اعتلت الكآبة صدره وخفق قلبه بشدة وود لو يكبح جماح اضطرابه وهواجسه التي تخلط عليه الأمور وتوقعه في متاهات، فيضيع مشتتاً بين أهواء لا يعرف لها قرار.

نهض لساعته وقصد بيت الشيخ (عز الدين) هو من يملك مفاتيح القلوب التاعسة سيصغي لآرائي ويوافقني على ما أنا عليه، لن أترك نفسي تحت وطأة الهموم فأموت كمداً.

أنصتت جميلة في الداخل إلى وقع خطواته المدبرة، كانت تتقلب في ضجعتها قلقة، ما أن غادر الدار حتى تركت فراشها متجهة الى الصالون، ارتمت على الكنبة، انكمشت في جلستها، تفكر وهي تكتوي بنار الخذلان والوجيعة ثم أطرقت بمذلة وانكسار تبكي فدعائم بيتها تتهاوى وتنهار، كم كانت صادقة معه وودت لو أهلكت نفسها من أجله وباتت مستعدة لأسوأ النتائج إذا ما رفضت بين أهله وقومه، ولطالما تشبثت بحبه بكل حماقة ضاربة عرض الحائط قيمها وتقاليدها، لكن يبدو أن الحال لا تدوم على ما هي عليه وتذكرت زوجته الثانية، تلك التي تماثله في لغته وقومه وتقاليده فنهشتها غيرة عاصفة اتقدت نيرانها واضطرب أوارها، أتت امرأة أخرى لتستولي عليه وتقرض في رابط زواجها الوثيق لتحل عراه وتقطع وصله، ما أعسره على الفهم لقد عذبها واسترقها.

بكت بحرقة وهي تناجي طيفه «لقد ظننت أن روحينا

منصهرة في إناء يقاوم معاول الزمن وحياتنا لحمة لن تمزقها خناجر الأيام، الآن اتضح لي أن ما بيننا كان أشبه بمنهل لذة حينما ارتوى منه صاحبه عافه الى أخرى»

«يجب أن أفيق من نشوة الحب الكاذبة وأثب الى نفسي وأخطط لحياتي من جديد»

وهكذا تناهت جميلة في التفكير والتحليل حتى انبلاج الفجر ثم عادت إلى سريرها وتمددت لاهثة من النصب والتعب، تعلل النفس بخيط أمل يبزغ بين طيات الظلام قد ينتشلها من وهدة الآلام.

بينما مشى فؤاد في الطرقات ومازال يضرب في الدرب على غير هدى منصرفاً بذهنه عن العالم، يفكر بحياته كيف تكون دون «جميلة» ويستعر اللظى في قلبه الموله، يتذكر أيامه التعيسة وهو فاقد القوة والإرادة، كل شيء يأتيه بتخطيط وإرادة أخرى، متى شعر برجولته؟! عاد بمخيلته الى الوراء مذ كان طفلا دون السابعة من عمره، تبقيه الأم في أحضان المربية الفاتنة كانت تحبسه في حجرة مظلمة وتقفل عليه الباب ثم تنصرف الى خليلها في الحجرة المقابلة، يصغي مشدوهاً الى همسها الفاتر، وضحكاتها المجنونة تتبدل إيقاعاتها ما بين الخفوت والصراخ المجموج تتصاعد موجات صوتها كوخز مؤلم في صدره هكذا كانت «فوزية» شابة مغناج تستبيح عواطفها بفجور، ضمته إلى صدرها منذ طراوته وحسبته ساذجاً،

سذاجة الطفولة التي تجهل مدلول الأشياء، بيد أنه فطن الى اللعبة حينما تُشترى له أماً بديلة تسقيه لبناً زائفاً فتوطدت بينه وبين الوحدة حالة من المشاكلة يألفها كلما كابد الألم وأحس أن هناك عشرات من الأفواه في أصابعه تثرثر، تصرخ، تتكلم بمختلف الألوان تختزل عذابات مزاجه المتقلب طوال سنين، وأمه ذات طراز غريب بين أمهات رفاقه تعشق جسدها الى حد امتنعت عن الإنجاب بعد طفلها الأول، تمردت على هذا الاكتناز الطارئ في جسدها إبان فترة الحمل وعرف مع سنين الوعي نرجسيتها الأنوثية وحسنها الظالم وفتنتها الطاغية التي بطشت واستبدت حتى خيل لها أن كل شيء في الحياة أشكال هندسية ظلت تعكس الأذرع المشوقة والسيقان المخروطة في لوحاتها المجنونة، وما بقى في عمق الذات أشبه بذبالة أخذت تتلاشى مع السنين حتى انطفأت فعمت في روحها وحشة هجر زوجها الذي أحبته بهذه الروعة العاصفة التي لا تبقى للرجل باقية إن انغمر فيها حتى الذوبان.. مفارقة عجيبة جعلت لهذه المرأة إبهاراً في عيون الآخرين وصداعاً غير مستحباً لزوجها، زهرة ندية تناثرت أوراقها قبل أوان القطف، أشفق عليها فؤاد عندما أدركه الوعي في طلوع شبابه لمس تباعد أبيه عن أمه ونأيه عنها بمشاعره وأفكاره فلا يصله بها إلا رابطة الزوجية، أما الحب فليس له في قلبه وجود اتخذها تحفة آدمية تجسد مظاهر الحسن الراقي المتجدد، وهي مدركة تماماً أن الزوج صاد، بارد، يتعلل بالعمل والانشغال فبقيا كخطين متوازيين يسيران معا ثم

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يفترقان طوعاً واختياراً، لكل منهما عالمه الخاص ومساحته الذاتية، حاول فؤاد أن يذيب مساحات الجليد ويقوض المسافة ليوثق وشائج الود، باءت كل محاولاته بالفشل فقد بقى الزواج مظهراً صلباً وعمقاً هشاً وقد حذره والده من مغبة إهمال أمه فهي موسوسة، مضطربة، قابلة للانهيار... فبات يخشى أن تتحقق نبوءة أبيه يوماً.

ولبث يثرثر لنفسه كمن به مس، مشتت، يمشي خفيفاً لا يلتفت ولا تطرق له عين حتى خيل له أن هذه الأفكار الملحة لن تهدأ، وقهره المكبوت لن ينصرف، وألمه الدفين بات يزعزع صبره ويهدر كبرياءه، يحتاج أن يتكلم، أن يفضي بهذه الخلجات الهادرة، أن يسمعه إنسان، أصابه شيء أشبه بدوار، غامت عيناه، شل رأسه عن التفكير ووقف متعباً على مفرق طريقين إما أن يعود إلى البيت ويغض النظر عن المشكلة ويغفر فيعود تائباً أو يذهب لإنسان يطيب ألمه ويشفي جرحه ويبثه لواعج قلبه، تلفت حوله فما وجد الصديق الذي يأتمنه على سر ويشركه في هم، لكنه تذكر الشيخ عزالدين وعزمه على لقياه قبل ساعات استحضر كلماته صباح أمس وحدسه قلبه أن أسلك هذا الطريق.. انعطف عند ناصية الشارع واستقل سيارة أجرة قاصداً منزل الشيخ، رنا الى ساعة يده وناجى نفسه «القلوب الحية تستيقظ باكراً وتسبح مع عصافير الصباح» استنشق العبير الصافي وعب في صدره جرعة أمل أحس أنها ستجدد في عروقه دفقاً من الحياة.

الفصل (١٦)

نــزوة

سافر عماد إلى «اسطانبول» ليمثل الشركة في مؤتمر الاقتصاد العالمي الذي جمع رجال الأعمال في العالم، ولأول مرة في حياته يغامر مغامرة بهذا الحجم ويعد لها العدة بإتقان وحذر، كان مرتبكاً من المجهول قلقاً من غموض التجربة، لأنه سيحلق في أجواء بعيدة، وسينضم إلى عصبة من الأثرياء، اشترى الثياب الأنيقة وبالغ في الإنفاق على مظهره ليتناغم ومشاهد الفخامة المتوقعة هناك.

تذكر طفولته حينما كان يشاهد الطائرة تمخر عباب السماء محدثة دوياً مرعباً وتساءل «هل سيأتي ذلك اليوم الذي أركب في طائرة؟!» وتحقق الحلم والأخيلة المستحيلة تتجسد أمامه الآن كواقع ملموس وحقيقة معاشة.

إجراءات السفر كانت مضنية وبطيئة، صادفته عقبات كثيرة إذ كان مقرر أن يسافر هاشم إلى هذا المؤتمر لكنه انسحب في

اللحظة الأخيرة ورشح بدلاً عنه «عماداً» ربما إلهامه كمسؤول دفعه إلى هذا الاختيار، فالشاب بحاجة إلى تنمية وصقل وهذه الرحلة كفيلة بإثراء تجربته في الحياة.. كان «عماد» مغتبطاً فهي الرحلة الأولى في حياته جاءته هبة من السماء، لأنه سيكتشف عالماً جديداً ذا طراز مختلف.

أخذته سيارة الليموزين إلى فندق «سويس هوتيل» صعقته المشاهد الغريبة، كانت الطرقات تزدان بمظاهر جغرافية مختلفة يصعب عليه استيعابها دفعة واحدة، أجال طرفه في الناس وهو مستغرق الفكر ندت عن صدره آهة وهو يستحضر مشاهد حياته البائسة ويقارنها بالوضع الراهن، انتشى ظافراً فقد حقق ما اشتهت نفسه، استراح على مقعده بعد أن طرد من رأسه الصور القاتمة..

دخل ردهة الفندق الفخم، أركن متاعه قرب منصة الاستقبال، وعلى الفور حياه العامل بانحناءة خاضعة واستأذنه لنقل حقائبه إلى الحجرة المخصصة له. وبعد أن تمت الإجراءات انتقل إلى حجرته وإذا به يقف أمام نافذة واسعة تطل على مضيق البسفور والبحر الشاسع الأصم وقد غيب مغيب الشمس شواطئه البعيدة، وألقى عليها عباءة سوداء كست البحر بمهابة عجيبة، الجبال الشامخة استرخت على المرافئ كأطياف قاتمة، استغرق في النظر حتى الأفق الممتد وإذا بأضواء المصابيح تفترش المساحات المظلمة المتاخمة للمدن

فتكنس العتمة عن بعض الطرقات، يحمل هذا المشهد بوح الطبيعة ما بين غموضها وانبلاجها في إيقاعاتها المتقلبة.. أخذ نفساً عميقاً وهو يغمض عينيه منتشياً، سايره شيء من القلق، فهذا المساء سيعقد الاجتماع، ويحتاج أن يستجمع قواه الذهنية، فهو لا يمتلك الخبرة الكافية لمقارعتهم بالحجج والبراهين، سيتحدث بمقدار ما يراه مناسباً...

شعر بالجوع، انتبه إلى صحن الفاكهة يتوسط المنضدة، تناول بعضاً من حبات الكرز وجلس يشاهد التلفاز، حاول أن يشتت عنه القلق ويصرف هذا الإرباك، يحدث نفسه بانزعاج «كن واثقاً من نفسك يا عماد ما بك مبلبل الفكر، أنت من استطعت إدارة شركة عملاقة عاجز عن الحوار في هذا الاجتماع؟»

تذكر في لحظة مباغتة وجه أمه وكأنه يستمد منها شجاعة ودعم، إنها تنتظر منه مكالمة لتطمئن على وصوله، برّر عن تكاسله «ودعماً أنا مشغول الآن سأطمئنها لاحقاً».

قرع الباب أرجع إليه نفسه الشاردة، باغتته إحدى عاملات الفندق، تقف منتظرة، حيته بابتسامة رقيقة ثم دلفت إلى الداخل تحمل بيدها علبة المحارم وعدة الحمام، بهتت عيناه مما رآه، وجه مشبع نضارة وجسد ريان، كأن جاذباً ممغنطاً قيده لحظة، تفرّسها عن قرب، لم ينتبه يوماً لأية امرأة في حياته، الأنثى الوحيدة التي سمح لنفسه النظر إليها بعين الذكورة،

كانت «خديجة» تبعث له قصاصات صغيرة تعبِّر فيها عبر قصائد شعر عن مشاعر حبها وتتذرع بصداقة علياء كي تجيء إلى البيت لتراه لكنها لفتت انتباهه بشكل نافر.. لم تكن تثير في نفسه إلا الشفقة كان لا يحب صوتها يشعره بالتبرم، نبرة حادة وغلظة عندما تغضب، يئست منه خديجة فتزوجت، وتذكر طالبات الجامعة كن يتهافتن عليه كالفراشات المنجذبات إلى عامود ضوء يتناوبن في استثارة ميله.

لم يلتقط إحداهن في مخيلته، المذاكرة استحوذت على تفكيره ولم يكن يسمح لنفسه أن تنزلق في أية تجربة، وكانت أمه تقف له عيناً رقيبة ترغمه أن يسير الدرب الجاف بكفاف وعفة، الحاجه أغضت عنه هذه الأحاسيس فانطلق عقله الباطن يوحى له أنك خلقت لتشقى وأي انفتاح عن عالمك المحدود يعتبر ضرباً من ضروب البطر والضياع.

ارتجت أعصابه غضباً وانتبه للعاملة وقد أقفلت راجعة دون أن تنبس بحرف، فطفق يحدث نفسه «يبدو أننا كنا أمواتاً في وقت يعيش فيه الآخرون بصخب غير عادي، نتناول الغصص مع وجبات الطعام ونظن أن الدنيا تقف على أعتاب الذل»

طرقت سمعه ضحكة خافتة في الخارج، آه صوتها يحرِّك فيه إحساساً خابياً، بفضول فتح الباب وبشكل موارب تطفل على صاحبة الصوت وكانت العاملة تناجي أحدهم فنبرتها مشبعة أنوثة تتناغم مع ضحكة ممغنطة بذرات حنان، لم

يستطع السيطرة على انفعاله، داخلته مشاعر غضب واستياء، بلغت طاقة التذمر إلى حد جعله مبعثر الفكر، ربما هي الوحدة تنهش مخالبها في النفس فتمزق لجامها دون رحمة، حاول أن يتجرد من هذه الوسوسة ويكبح جماحه، ويوجه شوارده إلى المهمة التي أتى من أجلها، تراجع مزعوجاً، أقفل الباب وتهالك على المقعد الوثير ليعيد ترتيب أفكاره من جديد سيتولى رسم أيامه القادمة دون تردد وخوف فالقيم المزروعة في أعماقه لا تسعفه في لحظات الغواية إنها تتطلب أسلحة من نوع آخر، سيقرر بدءاً من هذه الرحلة برمجة حياته بواقعية أكثر، ولن يقف على حافة الانهيار مستنداً على عكاز هش سرعان ما يكتشف أنه أحوج ما يكون إلى درع واقٍ يتلقى الضربات الماحقه دون أن يمس داخله بأدنى خدش..

فالأقدار تعبِّد له طريق الأحلام وما هو إلا كادح سلم قياده للزمن الذي يعتقد أنه سينصفه في نهاية المطاف.

انتفض من خواطره، تأمل قبضة كفه ورعشة تحدِ تدب في عروقه، يحملق مبهوتاً في الجدران وقطع الأثاث ولأول مرة أحس أن لهذه الجمادات لغه تنقش نوعاً من الإحساس داخله، في الماضي كان يمر عليها مروراً عابراً أما اليوم فهذه القطع الخرساء ترتعش معه، وتتنفس معه وتختنق معه مثل كائن حي، تأمل ذراعيه بعد أن فردهما «حتى جلدي قد تغير، لوني، نسيجي»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كان يرتعد لمجرد التفكير أن ما يحياه الآن أشبه بحلم، بغفوة عذبة في صيف قائظ ويرتجف فرقاً لبشاعة العطش الذي يسحق رجولته ذلاً وامتهاناً.

تذكر صفرة وجهه ذات يوم، وضمور جسده بعد أن داهمته نوبة إسهال وقيء شتت أمه الخائفة وهي لا تملك نفقات العلاج وتبتهل إلى الطبيب بنبرة استعطاف ذليلة أن يستبقيه ليومين ريثما تتدبر مصاريف العلاج، ونضارة أمه وانكفائها على ماكينة الخياطة، تتوحد بأنوثة مذبوحة دون رجل، لمحها ذات مساء ومن خلف الباب الموارب تقف أمام المرآة بثوبها الزهري البسيط مسترسل بليونة على جسدها الغض، تضع المساحيق برغبة دفينة تستمرئ حسنها المخبوء، تتلوى كبتاً وحرماناً، وفهم عندما كبر نوباتها العصبية وانفعالها الجامح في استثارات عادية، امرأة شقية، خائرة، والجميع كان يلهج بذكر قصتها يلوكون اسمها بكل ذميم القول، ينعتونها بألوان من الوصف البذيء، لم تكن عابثة أو مستهترة، بل صمتها المهيب وكبرياؤها الأشم أشعل قلوب النساء غيرة فسلقنها بألسنة حادة وغرسن رماح بغضهن في صميم كرامتها هي من كانت للفتيان مطمح، إذ خطب ودها القاصي والداني وروضت نفسها على الصبر وعظت على نواجذها جلداً وعزماً حتى تقتحم الدرب الشائك بصلابة.. وتذكر أنه تميز عن أترابه، فذهنه اجتاز سنه وفهمه

سبق علمه، كبر وشب عن الطوق وله من القدرة ما لفت إليه الأنظار إذ عرف كيف يمسك خيوط البيت ويضرب خيمة تحتويهم بحنان منذ طفولته كان له عبوس الكبار وصرامة الرجال مما أضاف على عمره سنين، طلته المترفعة جللته بمهابة قائد فالتف حوله الطلبة إذ كان لكلمته الوقع والتأثير أنشأ لهم دكاناً صغيراً لوجبات الفطور في المدرسة بعدما جمع الدنانير الزهيدة واستثمرها استثماراً مربحاً فأشاعوا عنه الساحر إذ حولت أصابعه التراب ذهباً وانطلت عليه هذه السمة وكبرت معه يغذيها عقله الباطن ويستشعرها كحقيقة أثبت مصداقيتها عندما عمل في هذه الشركه العملاقة.

أفاق على طرق الباب..

نهض متثاقلا..

حياه موظف الفندق.

هز رأسه مستعلماً.

قال الآخر: (الاجتماع في القاعة الكبرى بعد نصف ساعة).

وعلى فوره استبدل ثيابه، ونظر في مرآة كبيرة إلى هندامه ليستوثق من اكتمال أناقته ثم صعد في درج عريض فرش بالسجاد الأحمر الوثير ولمّا وصل قاعة استقبال فخمة حيته غادة حسناء، وبلباقة أشارت إليه بالدخول، ضم المكان حشداً كبيراً من الناس، مختلفو الانتماءات والمشارب والأعمار،

كاميرات التصوير تتصدر القاعة، همهمة وضوضاء، الأضواء سطعت على الوجوه فكستها نضارة وألقاً غير عادي، رأى أناساً على جانب كبير من اللياقة والدماثة يتحركون بحسبان، ويميلون بدقة وبتؤدة، جلس في المكان المخصص له وراح يقلّب ناظريه في الحشد مندهشاً لهذا التفاوت الطبقي بين البشر، وكأن الله حدد لكل طبقة طقوسها الخاصة، تقاطيعها المميزة، اعتلته غربة وانقباض فلا يعرف أحد في هذا الجمع، يحس بالضآلة والحرج، تذكر أول زيارة لبيت فؤاد إذ داخله نفس الشعور، صعد نظره بالنساء المرصعات بجواهر الفتنة والإغراء، لهن ضوء باهر، نادرات الحسن، براقات المحيا، يتمايلن بقدود فارهة، لم ير لهن مثيلات إلا في عروض الأفلام، يرنو إلى الجانب الآخر من المقاعد وقد استقر عليها رجال مهندمون عجز الزمن أن يمتص رواءهم، فاضت فيهم حيوية نابضة بالتفاؤل، واحتقنت سحنتهم بوفرة الدم يضخها ذلك النعيم المنساب دون حساب، هالة من المهابة كست أبدانهم المترفة عبرت عن حضور طاغ، ذعر كلما تذكر الماضي وود لو تخلص من تبعاته المذلة، لِمَ كانت أمه تتجمل وتعمل على تلميع حياتهم عبر كلمات جوفاء ومُثُل سحقتها عجلة الزمن حينما ذوب العالم كله في أناء واحد ليبتلعه غول العولمة النهم عبر ماكنة الرأسمالية، ها هي القوة ممثلة بأرباب المال والاقتصاد وبطش الجمال الذي يزيغ الأبصار فيجعلها غارقة في حلم مستحيل.

ظلت الأيام السوداء تنحت في قلبه جرحاً غائراً حتى حسب أنه نكرة في هذا العالم، وتوقه للتميز دفعه إلى المثابرة بكل قوة وعزم، ولولا ضربة الحظ، وشرارة الأمل حينما انقدحت وسط عتمة حياته لبقي مذبوحاً بطموحه المشتعل، لكنه سئم التبجح بهذه القيم التي ما عادت تجدي في زمن الأقوياء حينما شربوا الثراء من منهل لا ينضب.

أما القيم فكانت أشبه بجرعة أفيون تحقنها أمه في دمه كي ينسى فقره ويستمرئ مأساته ويخلق حوله خندقاً من الوهم، وقد عرف الحياة الآن حق المعرفة وخبرها عبر معايشة مع فئات عديدة من الناس، أحس أنه من طبقة نكرة غير معترف بها دولياً.

وبينما هو موغل في فكر حزين، فطن إلى الجمهور وقد لزموا أماكنهم استعداداً للاجتماع، عيناه المبهورتان تختلسان النظر إلى الحسان وهن يخطرن بقسوة فتاكة كأنهن الرماح تبرق في ليل بهيم، ثم يتحول بناظريه إلى الرجال يصغي إلى ثرثرتهم الخافتة، عبرت تقاطيعه عن رعب كامن وارتباك ينتهبه إلى حد التململ، كأن هناك قوة ماحقة شلت إرادته وسلبت توازنه فراح يردد في صمت «كنا أمواتاً ... لم نفهم أن في هذه الحياة تلك المتع القاهرة والمسرات المثيرة»، همس في سره والغصة تخنقه «لست أدري هل هن من الإنس أو الجن، ما أروع حسنهن؟»

مضت لحظات الافتتاح ثقيلة كأنها الساعات المضنية ثم دُعُوا إلى مائدة حفت بالأطايب، هبت الحشود وهم يتناثرون فرادى وجماعات يتناجون فيما بينهم وبدا واضحاً أن بعضهم يعرف الآخر حق المعرفة، انتابت عماد مشاعر مختلفة شيء أشبه بالذعر، وإحساس مبهم يستدرجه إلى اكتشاف المجهول، وسرور يغمره بنشوة، فقد تميز اليوم بهوية نادرة، اقترب منه أحدهم وهو شاب في العقد الرابع من عمره، منذ أن دخل القاعة وهو لا يكف عن ملاحقة عماد بنظرات فيها شيء من الاهتمام ولم يكن عماد مستعداً للمباحثة في هذا الشأن فالدهشة في هذا الحضور الفخم غيَّب وعيه.

بإيقاع بطيء ونبرة باردة حدثه الشاب:

«أنا تحسين من المغرب»

«أنا عماد من.....»

بعد حديث طويل ومكاشفة صريحة وشجت بينهما لحمة بسيطة، ربما الغربة تمعن في توحيد النفوس عندما لا تجد هناك بديلاً للتنفيس.

قدم له «تحسين» كأساً من البيرة وهو يقول بشيء من الاعتياد:

«إنها من النوع الفاخر»

أجفل عماد:

«لا ... لا أشربها»

بدا الآخر مزعوجاً:

«لا تحرم نفسك من لذتها»

«إنها تضر بصحتي»

ولكن هذا الأمر يحتمه الواجب، ومنظرك مستهجن أمام الناس، صمت عماد وتعذب وحاول أن يبدد عنه الحرج.

ويعيد «تحسين» عليه الكرة:

«جرعة قليلة ثم دعني آخذك إلى سهرة رائعة»

ارتعدت فرائص عماد وود لو يفر هارباً، شابته حالة من الغثيان، لفت فيه الدنيا.

«تحسين» يتجرع الكأس تلو الآخر ويستمرئ نشوة الخمر وهو يُردد في سره «أحمق، مخبول».

لزم «عماد» الصمت وراح يتناول بعض الشطائر وود لو ينزوي في مكان بعيد عن الحشد.

ثم قال «تحسين» بصوت هادئ مشوب بتهكم «من أي صنف أنت؟»

كتم «عماد» غيظه فلم ينبس بحرف، وأجال نظره في الحضور فوجد نفسه شاذاً غريباً، مرتبكاً، تملكه الغيظ وود لو يحطم رأسه ليكف هذا الصخب الموجع، غدت حالته مضحكة

بين الناس، فبرنامج الرحلة مع تلك النخبة يقتضي مشاركتهم في الطعام ومسايرتهم في المذاق والمزاج، تعكر صفوه، وضاق صدره وود لو يصرخ ويحطم هذه الكؤوس التي تبرق كعيون الشياطين.

ازدرد ريقه ولهثت أنفاسه، الصخب اشتد حتى بان على تقاطيعه المحتقنة، ويغمز تحسين بطرف عينه وهو يلوح بالكأس أمامه:

«أنت الآن في دنيا أخرى، تمتع واطرب وانتش واغرف ما شاء لك من بحور اللذات، فعالمنا العربي يفرض عليك أن تعيش مزدوجاً، درويشاً أمام العالم وماجناً في سرك، فدعك يا صاحبي من هذا الرياء واسق فؤادك من هذا الكأس ومتع ناظريك بهذه الفتنة التي لا تجد لها مثيلاً إلا في الأساطير».

حاول عماد أن يتغاضى عن هذه الغواية وقلبه يتفطر ألماً وحسرة، وجاهد أن يستلب ذاته من هذه الأبخرة المتصاعدة كضباب يعدم عليه رؤيا الأشياء على حقيقتها.. ويخدر طاقته بسحر يأخذ لبه.. صور ومشاهد تتناوب في مخيلته.. الماضي يبهت ويخفت رنينه، حوله الأجساد النابضة بالحرارة والعيون المتوقدة بالشباب رائحة أشبه بالمخدر تتغلغل إلى عروقه المنتفضة فتستفز فيها التحدي، وها هو يلقي على الجميع نظرة سريعة يبرر استعداده للاستسلام، المحرض بمؤثر شديد، المدعم ببراهين واقعية، ها هم يشربون ويتلذذون بكل مباهج

الحياة ما الذي ينقصهم، السعادة لا تفارقهم إنها كقطر الندى تنضح طراوة على وجوههم النضرة، كأن الشقاء وسم أبدي على جبين الفقراء أمثالنا. وما علينا إلا التصبر بخبز القيم.

تجسمت حالة الإصرار على وجهه المتورد واستنفرت تقاطيعه المترددة وبفرائص ترتعد جذب كأس الخمر وارتشفها حتى يقضي على آخر معقل للصمود كي يخرس هذا الضجيج المزعج ويهرب من حلبة الصراع.. قرر أن يعيش الحالة مهما كانت مرارتها، فانهال على الكأس الثاني والثالث، مسه طائف من الشيطان، يقهقه «تحسين» وبزهو المنتصر جعل يدفعه بقوة:

«دع ضميرك يأخذ إجازة فرجل الأعمال الناجح يحتاج إلى إرادة صلبة وقوة قرار، وأنا أردت أن أحررك من هذا التردد، مازلت شاباً غضاً تخشى التجارب الجديدة، بقي عليك أن تخوض التجربة الأخرى كي تكون في مستوى لائق!»

نظر عماد إلى تحسين مرتاباً:

تابع الآخر:

«سآخذك إلى حفلة راقصة قبل أن تفيق من نشوتك وحلاوة الأشياء لا تتجلى إلا بتمامها، فهنا كل شيء مباح، أطلق العنان لشبابك المحروم، فغداً تشيخ قواك وتذوب رجولتك وتفقد أروع متعة في الوجود»

تجهم وجه عماد، وتقبضت سحنته فرد بحدة:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«أنت مصرٌ على موقفك، تبدو كالشيطان توسوس في رأسي»

قهقه مستخفاً بعماد ومضى غير آبه:

«ألا تريد أن تتشكل بهوية مميزة تجعلك مصنفاً بامتياز، الدرب هذا هو بداية المشوار، أن تقتحم كل مجهول تخافه لتعود إلى وطنك أكثر قوة وثقة.. كيف يمكنك أن تكون منيعاً طالما تخشى الإبحار في هذا التيار؟»

زجره عماد:

«تريد أن تورطني في هذه المباذل؟»

نهض الرجلان من مكانهما، بقي عماد موسوساً، لم تهدأ هواجسه، أنبأه حسه أنه ماضٍ في طريق مبهم لا يعرف له قرار.

ربت تحسين على كتفه:

«أنا ذاهب إلى الملهى ما رأيك لو ترافقني؟»

«أنا متعب الآن، دعنا نغادر المكان»

«لا تتشبث بحمقك»

«وماذا تراني أقول وأنا في حالة من الإنهاك»

«رافقني فقط، لا تفعل أي شيء، مجرد مصاحبة»

تردد عماد، الخمرة عصفت برأسه وأردته في هاوية سحيقة، مازالت فورته تنهش أعصابه، صاح تحسين:

«ها... ماذا قررت؟»

ولهفت نفس عماد، وخفق قلبه، تجذبه الرغبة ويكبح جماحه الحرام، تجربة قد تضيعه وتعذبه.

دهش تحسين لتناقضه وتضارب نوازعه:

«ما بك متردد؟ لا تسيء فهمي ما أقصده هو مجرد رفقتي»

شرهت نفس عماد إلى اللذة، ورغبة تستعر أوارها وتنهض بعاطفة كامنة لا يستطيع لها دفعاً، تظهر أمه بسكونها المذب تملي عليه المحرمات منذ أن تفجرت رجولته، وضعته في مناخ خاص، فكبح صخبه في زحمة العمل وضنك الحياة، فالقهر المكبوت لن يظل مستتراً إنه يندلع تواقاً للحظة اقتحام تسفر عن حاجة مستديمة تنهش في النفس، سيتخلص من هذا القيد ويمزق أغلال الضعف.

استقّل الشابان سيارة الفندق متجهين إلى الملهى..

مازال صراعه ينشب كمعركة حادة في رأسه وفورة تشتعل في عروقه، ظل تحسين يسامره كي يقطع عليه طريق الرجعة وليشاغله عن التفكير في التوبة.

دخلت السيارة طرق وعرة ثم توقفت في الآخر أمام ملهى تشع منه أضواء حمراء كألسنة النار الملتهبة... دلفا إلى الداخل.

مازال عماد يناجي نفسه:

«إنهـا الأولى والأخيـرة، لن أفـعل ذلك ثانيـة، كل الشـبـاب يخوضون التجربة الأولى سأكتشف ذاتي وأعرف قدراتي، لن أبقى كالفتاة العذراء، شده تحسين من ذراعه ليفاجئه بقاعة ذات أضواء خافتة تناثرت عليها طاولات خشبية، صفت عليها الأقداح باستدعاء وحفاوة، تصدح في العتمة موسيقى صاخبة تستفز الأبدان الساكنة لتنفض كل ما فيها من عذاب، روائح مخلوطة النكهات تستثير المشاعر وتلهب الخيال، الشياطين تعربد في كل زاوية وركن، نساء تتلوى كالأفاعي، أحس فجأة بالضعة والهوان فكيف يلقي نفسه في هذه الموارد، فليتراجع، اندفع كالملدوغ خارجاً وهو يتعثر حتى اصطدم بإحداهن، كأنها شيطان قاهر، جذبته بروعتها المبطشة، وقفت تتأمله كتمثال منحوت بإلهام غيبي، أدهشه حسنها الآسر فارتعد خائفاً، حدثته العربية بصوت منفعل وضحكة رنانة:

«أنا نسيمة»

حاول أن يكذب سمعه، ومضت المرأة:

«تفضل وشاركني المائدة»

كان تحسين يراقبه ساخراً:

«وأخيراً وقعت في الشرك»

هذه المرأة لم تبق لعقله باقية، شعاع لحاظها ينفذ إلى قلبه فيصرعه قال لها ولبه شارد وقلبه موزع:

«تتحدثين العربية»

«نعم أنا مغربية أعيش في اسطانبول»

افتر عن ثغرها ابتسامة أضرمت النار في صدره، وشعر بأعماقه تتلظى وبفطنتها أدركت تأثيرها على الشاب.

تعذر على عماد أن يركز أفكاره في حديثه المتقطع.

رنت إليه بنظرة مغناج محدثة:

«أنا يتيمة الأبوين، الفقر دفعني إلى هذه الحياة القاسية، كل الرجال الذين صادفتهم في حياتي امتصوا رونق أنوثتي ورموا لي دولارات زهيدة، تخيل كيف عشت مطعونة الكرامة، شريدة، ضائعة، أبحث عن الاستقرار والأمان في كنف رجل، منذ أن دخلت، توسمت فيك شهامة مميزة، رجولة آسرة، وأصل طيب».

كان يصغي إليها وعيناه الموزعتان تطوفان في وجهها إبهاراً.

فاستأنفت تقول:

«أنا بخدمتك، سأرضيك، سألبي حاجتك»

تلاشى عزمه، وخارت قواه فاستسلم لطوفان أنوثتها وحسنها المخيف.

وقف يحدث نفسه متوجساً:

«أخشى أن يكون هذا نوع من الشرك يستهدف جيبي»

زعمت أنها لن تبدد وقته، فالأمر متروك لذوقه وإرادته لكنه

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بدد عن فكره هذه الهواجس وسخر من نفسه، فقد ثمل بخمرة السعادة وهو يغرق في رونق لحاظها، التهم طعم الغواية خاضعاً بعد أن تجرد من كل مقاومة، جذبته إلى ركن خاص تناجيه محلقة وإياه في فضاء النشوة.

التفت إليه تحسين مستطلعاً ثم أشار إليه بطرف خفي أن أسرع في قطف المنى... تبادلت النظر مع تحسين ويتجاوب غامض، هتفت بغنج ذوب أحشاءه:

«أنا أسعى يا سيدي إلى تسرية همك في الغربة»

نظر عماد إليها وأنفاسه تلهث، وفي عينيه دعوة استجداء وترقب حتى أدركت أن الفريسة قد سلمت قيادها تماماً فعجلا بالنهوض من مكانهما.!

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (١٧)

صراع

عادت «علياء» إلى بيتها ممزقة النفس، مضطربة الحال، متوحدة بنفسها، تحدث نفسها مدهوشة «علاقة غريبة لم تطرأ على ذهن أحد، كيف عرفت أمي هاشم؟! هل هناك ثمة رابط بينهما؟! إنه لم يرها إلا في حفل زفاف فؤاد» هل هي السبب في صد هاشم لها؟ أيعقل أن تقترف أمي هذه الخطيئة البشعة؟!

استثار غيظها، نقر على الباب قطع حبل أفكارها، صاحت متأففة:

«دعني لوحدي»

اقتحم مخلص عليها الحجرة:

«ما بكِ؟ هل أنتِ متوعكة؟ فمنذ عودتك والحزن لا يبارحك، أشعر بكربك وضيقك»

تنهدت، شعرت بالغصة تقف في حلقها، هل تسره بإثم أمها، ولأول مرة أحست بالحاجة إليه، بكيان آدمي يلامس روحها المتوترة ويبدد هذا الألم المزروع فيها.

تابع وهو يحملق في وجهها طويلاً:

«الاحظ عليك شيئاً يمور داخلك وكمداً وحزناً»

انهمرت دموعها حتى ارتمت على صدره منتحبة:

«أنا سيئة الحظ يا مخلص»

كان رأسها يزدحم بالأفكار وودت لو تفضي بها إلى زوجها لكنها مترددة.. خائفة.

قلق مخلص وتولاه الخوف، فانشأ يقول:

«مؤكد أن الأمر خطير»

«كم أنت طيب يا مخلص، أنت الوحيد في هذه الدنيا من يحبني بصدق، أما الباقون فهم مراؤون، منافقون»

وبدهشة يسأل:

«من هم؟»

«كل الناس، العالم الذي نظنه حقل حب أجده حقل ألغام ينسف كل مشاعر المحبة والثقة، لم تعد لي الطاقة على فعل أي شيء يا مخلص تعبت، أنهكتني الحياة»

لم يقاطعها مخلص إنما بقي يصغي إليها بقلبه، وفطن إلى

انفعالها وتأثرها الحاد، فهي تراوغ في استجلاء الحقيقة وكأن شيئاً مؤلماً تخشى تعريته، وحدسه أرشده أن المشكلة تكمن في بيت أهلها وإلا ما حدث كل هذا الانقلاب المفاجئ.

فلما توقفت عن الكلام، قال بنبرة لينة:

«أي خلاف أو سوء تفاهم ستبدده الأيام ويذوبه النسيان، اتركي عنك هذه الأوهام وعودي لحيويتك ونشاطك»

فجأة خطر لها ذلك الخاطر فقالت بنبرة حزن منكسرة:

«سأغير وظيفتي، ابحث لي عن مكان آخر لأعمل فيه»

تأملت وجهه وقد تولاه العبوس.

«ما بك تجهمت؟»

ازدرد ريقه وهو مازال مبهوتاً:

«لا شيء.. أظن أن وظيفتك جيدة وعملك يحسدك عليه كثير من الناس، ثم لا تنسي أن راتبك يفوق رواتب موظفي الوزارات، كنت أخطط لبناء بيت مستقبلاً معتمداً على راتبينا معاً»

بحدة تصرخ:

«لا يهمني الراتب، راحتي النفسية أهم شيء في حياتي»

«إذن المشكلة في العمل»

وتساءل:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«هل اتصل بك أحد بما ينغص عليك، أنت في إجازة الآن، ولا أظن أن هناك نزاعاً نشب بينك وبين أحدهم»

أعرضت عنه صامتة.

نهض مبتعداً وهو يتأمل الساعة:

«أنا ذاهب إلى العيادة الآن»

أحست «علياء» بقلق في نفسها وتبدل كبير في أفكارها، فما رأته كان أشبه بالحلم المفزع يضغط بثقل على كاهلها ويربك قيمها، كانت تحب هاشم وتلوذ بحبه كلما أثقل على رأسها فكر قاتم أما وأنه قد انصرف بكل عواطفه عنها فما لها حيلة سوى أن تتغلب على يأسها وذلك بصرف فكرها عنه، فودت لو تكف عن التفكير به والعدول عن الذهاب إلى الشركة وإلا طحنتها الوساوس والهموم فلا تبقى لها باقية.

انكفأت بوجهها على ركبتيها وهي تتشج «ماذا فعلت يا رباه كي أبتلي بهذه الهموم؟ ما هي جريرتي حتى تعاقبني بهذا العقوبة؟

تتذكر أمها وتقفز بعض الصور على سطح الذاكرة وتذعن حالتها المزرية في تشويه قداستها، فما كانت في حياتها سوى رقيب قاس، وجلاد شديد فحنانها وعاطفتها نبع في مصب واحد، «فداء» الصغرى المدللة وأنا النكرة.

الساعات متأوهة «آه من لظى الغيرة، إذن أمي من حظيت بقلب هاشم»

أيقظها صوت الهاتف من شرودها فرفعت رأسها مصغية لرنينه، ترددت فمزاجها السيء لا يفتأ يحبس عنها الرغبة في مخاطبة الناس، صمت الرنين ثم عاد الكرة في هاتفها الخاص، تأملت الرقم نافرة «إنها هي».

ويستمر الرنين وهي تتقلب على وقد الحيرة، تحدث نفسها بقطيعة أمها ومشاعرها مضطربة ما بين الإدبار والإقبال، والرنين المتواصل ينبئ عن قلق الأم واستيائها، فلتحلم، وتصفح فربما لم يكن لأمها ذنب، ردت بصوت يختلج حزناً.

تسألها الأم بقلب ملهوف:

«ما بكِ يا ابنتي؟ قلقت عليك»

باقتضاب ترد:

«لقد ألمت بي وعكة طارئة»

«سآتي حالاً لرؤيتك»

«لا تقلقي فالأمر عادي جداً»

«يؤلمني يا ابنتي أن تخرجي من بيتي منهارة»

«أصبحت الآن أحسن حالاً»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«رغبت في مباحثتك بشأن عشاء الليلة، إذ سيزورنا فؤاد وزوجته ماجدة، فلا أحد في البيت سواي وفداء»

«ألم يتصل عماد بعد؟»

تنهدت الأم بحسرة:

«اتصالاته نادرة»

واستأنفت الأم:

«لا تنسي أن تبلغي مخلص أيضاً»

قطعت عليها خط الرجعة، لن تركن إلى الراحة طالما كانت الحقيقة غامضة، فكرت ملياً في الأمر ورأت أن تستعلم من «هاشم» فقد نفذ صبرها وضاق صدرها عن احتمال هذا الصراع، فاتصلت به بادرها الرجل التحية والترحاب.

وبصوت مرتعش وكلمات مرتبكة سألته عن طبيعة علاقته بأمها رد عليها ملاطفاً يحاول أن يبدد حسرتها ويسكن روعها، لكنها بفضول وحرقة تسأل مستطلعة الحقيقة، وينكر بهدوء وظرف مدعياً أن ما تشعر به هو ضرب من ضروب الوهم، خفق قلبها وناجته دامعة «نكأت جرحاً كان قد اندمل، كنت أظنك مجفلاً عن كل امرأة في العالم وإذا بك تحوم حول أمي ربما كنتما على علاقة قديمة ولهذا سعيتما معاً لتنحيتي عن هذا الطريق»

«صدقيني لم أشعر ناحية أمك إلا بعاطفة ود واحترام، فهي

سيدة عظيمة، كافحت وجاهدت حتى وضعت أقدامكم على الطريق السليم»

«قرأت رسالتك الهاتفية كانت تنم عن عاطفة فوارة وتوق عظيم»

اغتاظ من حصارها فهتف غاضباً:

«لقد غدوت لا تطاقين يا علياء، دعينا نبقى تحت مظلة الأبوة السامية وليس لك شأن بخصوصية الآخرين، فأنت زوجة مستقرة لا فائدة من التخبط في هذه الأمور»

«أنت تهرب وفي ذلك إقرار الحقيقة»

أقفل هاتفه وكأنه صفعها بقسوة، فاندلعت نيران غيظها تود لو تحطم رأسه، البائس، المنافق، الأحمق، نظرت حولها وهمت مدامعها ولهفت نفسها إلى مخلص الطيب، ليته الآن قربها، يسمعها، يجفف دمعها، يسرب همها، يطفئ حرقة قلبها خيل لها أن عدوها أمها، هي من خططت للاستيلاء على هاشم، ادلهمت أفكارها «سأنتقم منه، لن أصبر على هذا الضيم بعد أن قدمت له حبي على طبق من ذهب يركلني بحقارة، الجبان، لن أدع نفسي ترزح تحت وطأة الشك، سأقلب الدنيا ولا أقعدها»

ارتجفت فرقاً وهي تخطط لفضحه، الشرر يتطاير من عينيها غلاً وحقداً سأضعه في مأزق مع زوجته لتعلم أنه خائن،

هو من قلب حياتي إلى جحيم، عجيب أمرك أيها الكهل تتنصل من حبي وتزعم أنك رجل قوي، لن أرضى لنفسي تلك المذلة والانكسار، سأحاصرك أيها العجوز البائس، همت بالهاتف لتتصل بزوجته، حاولت أن تتحدث ولكن الكلمات عصية عليها، انعقد لسانها فأحجمت رمت السماعة وهي ترتعش قلقاً وخوفاً.

وبررت لنفسها:

«يجب أن أوقف هذه العلاقة عند حدها»

هزت رأسها بانفعال وغضب ثم ألقت السماعة من يدها صارخة بأعلى صوتها:

«ستدفع الثمن غالياً يا هاشم»

الفصل (١٨)

تجـــاذب

جلسوا على أرائك من خشب الأبنوس صفت بشكل هلالي في شرفة المنزل، السيدة ثريا تحمل صينية الشاي محتفية بالحضور:

«أتمنى أن يكون العشاء قد أعجبكم»

كان «فؤاد» يطل من شاهق إلى الشوارع الساكنة وقد افترشت أعمدة النور ضوءها على الأرصفة، ثم استدار بعينيه إلى «ثريا» وهي تقبل عليه باشة، أعرب عن ارتياحه واحترامه:

«لقد كان عشاءاً فاخراً، ولقاءً ممتعاً».

فوقعت عيناه على زوجته «ماجدة» وقد استبد به الحرج وود لو تستجيب بكياسة وأدب بما يليق في مقام المرأة الوقور، فصمتها المتغطرس أغاظه بشدة ولهذا بقي طوال الدعوة يجاذبهم شتى الأحاديث في معزل عنها، كانوا جميعاً وقلوبهم

www.mlazna.com-RAYAHEEN

شتى، انتحى كل منهم ناحية ولاذ بالصمت خشية أن يتعثر اللسان ويكشف الخبايا، هذه علياء تلتصق بمخلص وتشده من ذراعه كما لو كانت تحتمي به من خطر محدق، تختلس النظر إلى «ماجدة» محدثة نفسها في حسرة «إنها مطعمة بالمال حتى لتحسب أن رائحة الدنانير تفوح منها» كانت ماجدة متململة، تثقل عليها تركيبتهم المناقضة لطبيعتها، إنها تتعمد فرض خطوط حمراء رادعة باستعلاء طبقي وتعيب زوجها المتمدد في كيانات لا تروق لها.

وجه فؤاد سؤاله لفداء:

«ما نتيجة القصة التي اشتركت بها في المسابقة»

قالت بأسارير منبسطة:

«في المركز الأول»

واستأنف ثانية:

«ألم تفكري في طباعتها ونشرها؟»

«نعم قدمتها إلى مجلة الآداب والفنون وقد حظيت باهتمام الكثير من أساتذة الأدب واللغة»

أصاخت الأم لابنتها معجبة، منشرحة، ثم قالت بعد فراغهما من الحديث «الحمد لله أن رزقني ابنة تنتهج هذا النهج، هي من جسدت حلمي وأمنيتي».

أشاحت علياء بتبرم، وبدت في مشاعر سالبة، استشعرها كل الأطراف فردودها كانت باردة، مقتضبة، جافة، ارتسم اليأس على أمائرها، راح فؤاد يسبر غورها عبر أحاديث مختلفة لعله يفجر كبتها لكن الأمر استعصى عليه فقد انكمشت بشكل نافر، رمقتها أمها بإشفاق وقد استبد بها فضول وقلق إذ خيل إليها أن في عيني ابنتها تيه وحيرة هل هو مخلص داؤها وسبب أزمتها؟ ماذا فعل بها هذا الرجل كي تتبدل في كل حين طوراً منشرحة وطوراً منقبضة، ما سبب نفورها المفاجئ، بدت منكفئة، تنتحل الأعذار لتهرب من المواجهة كلما اختلت بها لتفضي إليها، كلتاهما حائرتان غارقتان في الوهم، الأم موغلة في ظن خاطئ، تخضع نفسها للتأنيب والتقريع وحدها من تتحمل تبعات فشل هذه الزيجة، وعلياء هادرة في فكر مشوه، يطعمه ولع محرم وبغض دفين للزوج، حالة مضنية تعيشها الاثنتان.

فجأة وجه فؤاد حديثه إلى مخلص:

«تستحق جائزة نوبل فأنت الوحيد الذي استطعت أن تغير عقلية هذه المرأة الجبارة»

ودون أن تبدو على مخلص أي علامات انفعال واضحة قال:

«إنها فعلاً شخصية عميقة لا يمكن التعامل معها إلا بحذر ودقة»

ثم تابع فؤاد مازحاً:

«إذن أنت في حالة استنفار لأي طارئ في مزاجها»

حدجته علياء بنظرة لائمة، لكنها أغضت من تهكمه فسارعت تقول:

«الحمد لله لم تنبت لي بعد أنياب ومخالب»

وبدم بارد يرد فؤاد كمن يصفعها:

«إن لعينيك ما هو أفتك من المخالب والأنياب»

نهضت علياء كالملدوغة موجهة حديثها إلى زوجها:

«مخلص، أنا متعبة، فلنرحل»

شاع التوتر في الحضور، وغشيهم الحزن وعم الارتباك، فلم تكن النفوس مؤتلفة غاصت الأم في مكانها من شدة الحرج، وحاولت أن تلطف الأجواء وتسري على النفوس كعادتها دوماً، لكن لا طائل من محاولاتها، فعلياء صعبة المراس، حادة يغلي الشر في صدرها دون أن يعرف له منبت.

وبعد أن خرجت راح فؤاد يحدث ثريا:

«لا أظنها في حالة جيدة»

صاحت ماجدة وهي تقطع عليه الحديث:

«سنظل نعيد في هذه السيرة حتى الصباح، دعنا نرحل فقد تصدع رأسي»

حدجها بنظرة، فغضت بطرفها محاولة منها الظهور بمظهر النادم المتأسف، ولعل سخطها كان الحافز إليه غيرتها إذ أحست بزوجها شغوف بهذه الأسرة، يخصها بعناية واهتمام تفتقدهما في حياتها.

قال لها بحدة:

«إذن اذهبي واتركيني لوحدي»

أجابت متلعثمة، محرجة:

«قلت إنه مجرد صداع»

وبلسان متضرع تهتف فداء:

«حري بك أن تمكثي ريثما أعد القهوة»

كانت ثريا تطوي في داخلها هماً تود الإفضاء به لفؤاد لكنها أحجمت خشية زوجته المتسلطة فقد ظلت طوال العشاء منكمشة، متأففة تترقب هفواته، أشفقت «ثريا»على حال فؤاد فقررت تأجيل حديثها لوقت آخر.

عادت فداء بصينية القهوة ووجهها يفيض حناناً وجلست تقلّب في إحدى الروايات وهي تحدث فؤاد:

«كنت أتمنى لو تقرأ هذه الرواية يا فؤاد»

ما عنوانها؟

المريض الإنجليزي.

«أوه، إني رأيتها فلماً»

لاحت من زوجته التفاتة فابصر فيها النفور والامتعاض.. لكنه أقبل على فداء مبتهجاً، وقد شرهت نفسه للحديث في الأدب والفن، مستهاماً بطيفها المقدس، وقد شمخت في هداة الليل كنجمة أساطير، يخفت صوتها العذب وكأنها ملاكٌ ينشد شعراً على مسرح الكون، وبنبرة خافتة تنضح رقة ودماثة تهتف: «سأدخل التاريخ من أوسع أبوابه وأحقق رقماً قياسياً في الأدب»

فجأة، استرعى انتباههم حركة غير عادية.

«ماجدة» تنسحب غاضبة موجهة حديثها إلى فؤاد:

«أنا مرهقة، سأذهب للبيت»

تداركت فداء الموقف باعتذار لبق:

«آسفة لقد نسيت نفسي»

انصرفت ماجدة وهي تشيعهم بنظرة ساخطة، بينما لبث فؤاد في مكانه لا يحرك ساكناً، أدركت ثريا بحدسها أن ابنتها وقعت في قلب فؤاد، فمنذ العشاء وهو يختلس إليها النظر يبحث في شخصها عن شيء ضيّعه زمناً، وفداء مقبلة عليه بحيوية حافزها إعجاب دفين.

خشيت ثريا من عاقبة لا تحمد عقباها فهي تربأ بابنتها أن تهان من زوجته الفظة وهي تطلق حراب حقدها دون مراعاة لحدود الأدب والكياسة.

انتبهت إلى فؤاد وقد زالت هيبته، يتكلم بلسان خاضع وصوت لطيف يشف عن ميل دفين:

«سأصمم لكِ غلاف الرواية التي ستكتبينها»

تضرج وجه فداء حياءً وقالت بوجه طلق:

«حقاً؟ كم أنا سعيدة»

تابع:

«يمكنني مساعدتك في طباعتها إن شئتِ»

داخل ثريا شيء كبير من الخوف والرهبة فسارعت تؤنبه بغلظة:

«زوجتك خرجت غاضبة يا فؤاد وحري بك أن تلحق بها، فقد شعرت بالحرج لأنها فرت من بيتي مستاءة»

قال دون اكتراث:

«لست مسؤولاً عن حماقتها»

ثم استأنف حديثه مع الفتاة:

«لم تخبريني بعد عن فكرة الرواية الجديدة»

أجابت بصوت تحكمه رعشة واضطراب:

«قصة عاطفية، اثنان يمشيان في طريق ملغوم»

أصغى بمجامع قلبه، مبهوراً بشفافيتها النادرة.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

سكنت الفتاة وتملكها اضطراب حاولت أن تشتته في الالتفات حولها، بدت ثريا منفعلة، انحنت تلملم الأطباق بتوتر وكأنها بركان ملغوم بالغضب.. وعاد فؤاد يحدد طرفه ثانية في محيا فداء، وقد أغضت طرفها خجلاً.

صاحت الأم بنبرة حازمة وقد ثقل عليها الأمر:

«يبدو أنكِ نسيت كي الملابس»

تراجعت فداء والتقطت أنفاسها الشاردة، فخرجت مترنحة غائبة الوعي تركت في قلب الرجل حضوراً ملهماً.

قالت ثريا بصلابة

«ألمس فيك دوماً الأمانة والإخلاص فأنت ولدي الثاني بعد عماد»

ثم ندت عن صدرها آهة:

«عماد... لقد تأخر، كم أفتقده، أعاده الله لنا بالسلامة»

ثم استتلت:

«أنت الأخ المخلص لأبنائي أعتمد عليك في المهمات ولهذا أتوسم فيك الحرص على كرامتنا»

نكس فؤاد طرفه وهو يهمس بلسان متعثر:

«بالتأكيد هذا ما سأفعله دوماً»

تأملت في وجهه العابس وقد غابت بشاشته وحدست أنها أصابت المرمى.

وقف ليودعها والحرج يقطر من تقاطيعه الغائمة، يقرع نفسه المرهفة بقسوة «كان ينبغي أن ألجم طائر فكري فلا أتركه يسبح في فضاء الخيال دون كابح» «كم أنا ضئيل وحقير».

صفق الباب وراءه وهو مطرق.

هبت ثريا إلى حجرة فداء والشرر يتطاير من عينيها.

الفصل (١٩)

بلا رجل

«مهما كانت العواقب فلن أتراجع عن موقفي، فقد قررت إجراء العملية ولن أحيد عن هذا الأمر». هكذا صرحت «هند» وهي تحزم حقائبها استعداداً للسفر.

ثم استأنفت بصراخ:

«عندما تخون ثقتي بك وتستهين بمشاعري فلا محل لك في قلبي»

استجمع هاشم قواه وصرخ بصوت جهوري:

«اذهبي إلى الجحيم فلست نادماً على شيء في حياتي ندمي على ارتباطي بك»

جففت مدامعها كأنها تحدث نفسها في صوت خافت:

«لا يليق بي أن أعيش معك بعد أن طعنتني في كرامتي»

هدأ قليلاً:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«كان ينبغي أن تضعي حداً للمشاجرة خصوصاً وأنت على وشك السفر، لكنك ظمئت إلى النزاع وارتضيت تبادل التهم وإيقاظ نار الخصام»

حدجته غاضبة:

«لقد اتسعت الشقة بيننا إلى درجة عظيمة ولن تعود المياه إلى مجاريها، وها أنا راحلة لأعيد شبابي الذي نضب، فقد ضيعت عمري سدى في رضاك ظناً مني أن قلبك كان يخفق لي وحدي وإذا بأخرى تشاركني قلبك»

لان بعض الشيء واقترب منها:

«أتعلمين أني أكثر منك رغبة في أن يستمر رباطنا للأبد، هل من المعقول أخونك بعد هذه السنين؟»

وبلوعة هتفت:

«الحب الذي مات لن ينبعث في قلبي مرة أخرى»

«لا تضطهديني بهذا الشكل أرجوك، فأنا أحبك ولا أقوى على بعدك»

نكست رأسها قائلة بتأثر:

«إنني تاعسة، عاثرة الحظ»

ثم تركته وهي تمسح طرفها مستاءة، فقد رتب فؤاد الحقائب في السيارة التي ستقلهما إلى المطار.

استعاد هاشم رباطة جأشه واقترب منها يجفف دمعها ملاطفاً:

«تأكدي أنك المرأة الأجمل في حياتي، ولن أقرك على ما تفعلين لأن هذا لن يغير من عاطفتي شيئاً، ستظلين نابضة بالحياة رغم تجاعيد الزمن»

ودعته بإيماءة صامتة وفرت منه ثم أقبل فؤاد يودع والده وقد بدا قلقاً يحدثه بخوف:

«أمك حمقاء، أرجو أن تعتني بها»

«لابد أن ترافقها يا والدي على الأقل وقت إجراء العملية»

صرخ محتداً:

«إنها ترفض أن تسمعني، بل ترفضني تماماً، ولا أجد الوسيلة الكفيلة بوضع الأمور في نصابها»

«ربما تخطط لمفاجأتك بعد العملية»

«مؤكد أنها ستتحدث إليك عن كل شيء»

وما كادت زوجته تغادره حتى استبد به حزن عميق لم يقوَ على كتمانه فانهمرت دموعه.

عاوده الحنين إلى ماضيه بحافز من الملل قد شاب حياته إنه يحرص على أن يتكتم هذه المشاعر كي لا تخلق له المشاكل لكن

أمره قد افتضح وسكون حياته قد تقوض وأن الحظ وليَّ إلى غير رجعة، فثورة«هند» الجامحة أكدت له أنها تسعى لحياة جديدة وبنمط مختلف ونهج آخر حسمته هذه المرة بكل قوة، لكنه لن ييأس سيعمل على رأب الصدع بكل حزم وقوة ثم عاد وتذكر محبوبة صباه العنيدة، هي لا تستجيب لدعوته وتساءل إن كان يليق به أن يؤم دارها بعد كل هذا الصدود، سيحاول، فقلبها كبير يستوعب كل شيء ويدرك هذه الأحاسيس فهي امرأة نادرة المثال، أيقونة الوفاء مصلوبة في محراب قلبه، مخضبة بعاطفة كحمم بركان إن مست سطوح الجليد أذابتها توقاً وحناناً، سيكابد ويسعى وراء هذه الغاية حتى يبلغ مرماه ويقنعها أن تكون له، هي الجوهرة الفريدة صنيعتها دروب الشتات وآن لها أن تستقر في صدره، استحضر صورة علياء والحماقة التي ارتكبتها مع زوجته حينما أفشت هذا السر الذي بقي مبهماً تحجبه أستار الغيب بهالة من الغموض، استقل سيارته وجال بين ضواحي المدينة حتى استوقفه محل بيع الزهور، اشترى باقة منها في لفافة من الدانتيل الأبيض ثم انطلق بخفة الريح إلى منزل ثريا فعماد مازال غائباً والأجواء تستدعيه بإغراء محبب، مؤكد أن الوحدة تغذي ذلك التوق النابت في الروح عبر سنين العطش وسيعمل بمقتضى هذه الحالة، سيفاجئها دون موعد، يعرف أنها ستصده، لكنه سيحاصرها، ارتبك حتى بان الارتباك في قيادته المضطربة، هل يظنها بتلك الليونة، مازالت تداري غموضها بشيء من

التعالي الجميل، وتعود تلك الصبية الفرعاء بقامة كرمح فارس همام تطلق إشعاعها الداخلي عبر عينين مختالتين، لن ينسى وقفتها الشامخة وأنفها الأشم تعرض عن الدنيا بلفتة أبيَّة ، ظل هذا الهاجس يطارده في صحوه ونومه حتى عثر على نسختها السقيمة زوجته هند مثار رجولته، حسه الغريزي الذي انطفأ مع السنين، لأنها تفتقد خواص ثريا، المرأة التي استحوذت عليه كاملاً، وفي غيابها شعر بالعدم وكأن روحه تتشطر بألم مستديم ظل يعانيه زمناً طويلاً، وكان لظهورها المباغت انقلاباً كبيراً في حياته أعاد ترتيب المعادلة من جديد فهي توأمه صنعتها الغربة وفي غيابها اختبأ قلبه في كهوف الذكرى منسياً وظل يمارس طقوس حياته برتابة وآليّة حتى استفزته صورتها حاضرة بدمها ولحمها كائناً حيّاً يغري هذا القلب المهجور أن يخرج من مخبئه ويجاهر بصرخة الحياة ثائراً.

لا يدري لِمَ حدث له كل هذا؟ عندما يئس منها أسلم زمام أمره للقدر يائساً، محبطاً وبقي الماضي يلوح له من بعيد كترانيم شجية يستحضرها في ليالي وحدته.

هذه المرأة استثناها عن كل النساء في حياته كأنهن نثار لشخصيتها الموحدة أو أن ثريا قد تحولت إلى فتات كوّن نساء العالم.

تفاجأت به واقفاً عند الباب يقدم لها باقة الورد، أجفلت، لكنه بادرها وهو يقدم الباقة:

«لو استطعت أن أجد ما هو أرق من الورد لما ترددت في إهدائه لكِ»

تسمَّرت في مكانها.

«هاشم»

تنهد:

«لأول مرة أسمعها بهذا السحر»

صمتت، تتلفت في حرج:

«آسفة لا أستطيع استقبالك والبيت خالٍ»

بتوسل:

«لن أطيل المكوث، أريد أن أحدثك بأمر هام»

«لا تحرجني أرجوك أنا امرأة مطلقة، وحيدة، حضورك يسبب لي إزعاجاً كبيراً»

ويتضرع إليها ثانية:

«تتجاهلين رسائلي، نافرة، دعيني أحدثك لمرة مرة واحدة»

ارتبكت بشدة وغاصت في الحرج مضى هاشم يلح في طلبه:

«دعيني أحدثك رجاءً»

بتبرم أنهت اللقاء وهي تغلق الباب صادة:

«حسن تفضل مع السلامة، سنلتقي في أقرب فرصة»

«عديني»

«أرجوك تفضل مع السلامة»

زال عنها الحرج بعد رحيله، واشتد عزمها على صده بكل قوة فما فعله الآن هو نوع من الحماقة، تأملت في قرارة نفسها وانكفأت في مقعدها تذرف الدموع، وتستعيد ماضيها وحاضرها في حسرة، هل تظن نفسها قد استراحت من عناء الحياة والرجال يحومون حول بيتها بطمع دفين يُطلى بأعذار منمقة، لقد شيدت هذا البيت بدموعها ودمها وعزمها، بالأمس كان فؤاد يحوم حول ابنتها فداء ونهم إلى المزيد من ذلك السمر المريح الذي يبحث عنه الرجال المحبطون، وها هو أبوه اليوم يقتحم وحدتها دون اعتبار لخصوصيتها، بل ويملي عليها رغبته كحق مشروع.

ضاق صدرها، فاندفعت ناحية الشرفة تلتقط أنفاسها والعبرات تترقرق في عينيها، غيبة عماد أججت لوعتها إذ شعرت أنها بلا رجل، بلا سند، ترك عماد فراغاً كبيراً في حياتها أطرقت تفكر «تصلبي يا ثريا، لن تستطيع الأيام أن تصرعك مازلتِ رمزاً للنبالة، لا تدعي هؤلاء الرجال ينخرون عزلتك، لا تحترمي رجلاً يقتحم وحدة امرأة عزلاء»، ثم تذكرت «شاهين» حينما جاءها قبل يومين منتحلاً شتى الأعذار للقياها يسحب شيخوخة بائسة هدها الإحباط والكبر، تولاه الجزع من تلك الوحدة الخانقة واستدرجها بعاطفة منكسرة أن تعود

www.mlazna.com-RAYAHEEN

خصوصاً بعد أن هشم جسده مرض السكر فغامت عيناه وشلت طاقته فوقف متعباً على مفترق طريقين إما الهجر المؤبد منبوذاً عن زوجته وعياله أو الذوبان بهم ثانية تحت مظلة الزواج، بيد أن ثريا لفظته من حياتها وكأنه جزء عاجز، مشلول لا نفع منه ولا فائدة، بل عبء كبير يثقل كاهلها، إنها لم تتردد في مساعدته متعالية على جروحها وقدمت له بيتاً نظيفاً وخادماً يلبي احتياجاته، أما أن تعود له بقلبها وكيانها فذلك هو المستحيل، مازال ماضيه مشبعاً بالأكاذيب والحيل، سنون وهي تتخبط في الضياع، تركها نهباً للصراع والمعاناة، فرصيده صفر، خالي الوفاض، لا يمتلك أدنى مقومات الاستثمار، فحياتها سلسلة من الخسارات، وستمنى بالمزيد منها إن عادت إليه ثانية، لأنه مجرد من القيم، ملوث التاريخ، سيكون وبالاً على أولادها، لهذا ردعته البارحة بكل قوة وهي تصفق الباب بتذمر.

«أرجوك عد من حيث أتيت»

لقد فصم زواجها بالطلاق، والزجاج متى ما انصدع لا يرأ وعلاقتهما أضحت هشيماً تذروه الرياح فحسمت معه انفصالاً لا رجعة فيه.

زفرت زفرة حارقة ودفنت رأسها بين كفيها ثم رنت إلى الأفق البعيد تستشرف الباقي من الزمن، تترقبها العيون الحاسدة مذ كانت محط الأماني وقبلة الأنظار ينبض قلبها

لفتى أحلامها «شاهين»، كان يقف في دكان والدها ببنيته القوية ونظراته المتوثبة، فيه من الرواء والبهاء ما استأثر نفسها بخصوصية ميزته عن كل شاب، قاومت من أجله وحفرت بمخالب الإصرار كي تحظى به زوجاً، لكنه خيّب آمالها باستظهار نوايا مريبة، ففي كل منعطف كان يدق مسماراً في نعش حبها ويحفر قبراً لأمانيها، كتب لها شعراً مزيفاً كان قد جمعه من قصاصات مبعثرة وسرج لها من ضوء القمر ظفائر عذراء، فخلف تلك العينين الساخنتين يختبئ بحر من ثلج، رجل تجرد من قيم الشهامة والعطاء.

فجأة انقبض قلبها وكأن غمامة طافت في روحها تنهدت بتثاقل، أفاقت على صوت سيارة مقبلة بقوة، ودوي أشبه بانفجار استفاقت من شواردها، ضجة في الشارع، رجال تهرول، صرخة رجل شقت عباب السماء، الكل يهتف بذعر «حادث دهس»، ألقت بنظرها من فوق الشرفة المطّلة على الشارع، أجفلت مرعوبة، صراخ النساء وهمهمات ذعر، أمر غير عادي، رجعت أدراجها، غمرها فضول، هاجس يشدها إلى هذه البؤرة، حسمت أمرها وخفت إلى الشارع لتستعلم حقيقة الحادث، خشيت أن يكون الضحية أحد سكان العمارة، وتناهى إلى سمعها صوت الإسعاف ودوريات الشرطة وثرثرة نمت عن فزع «يا له من حادث مريع، المنظر مرعب»

«يا للمسكين»

الجموع محتشدة ويتسابق المارة في فضول لمشاهدة الحادث... يضيق صدرها وتثقل قدماها عن الحركة، عبرت تقاطيعها المقلقة عن خوف غامض، سمعت أحدهم يتمتم بتعاطف «حادث دهس لكهل»

جف حلقها، لا تدري لما كل هذا الاضطراب، شعور غامض يدفعها إلى مكان الحادث، وتشق لها طريقاً بين الحشود، نقالة الإسعاف تحمل هذا الرجل المضرج بالدم تقترب أكثر مرعوبة، ندت عنها صرخة لفتت إليها الأنظار.

«شاهين، شاهين»

التفت إليها الناس متسائلين بدهشة.

وبلفتات هستيرية وعينين هالعتين:

«إنه شاهين... زوجي»

اقتربت منه وهو يصارع الألم بجزع وخوف وقد بدد الموت بلحظة عذاب حياته.

«شاهين»

التفت إليها بعينين غاب شعاعهما وغرب بريقهما، لحظ مودع جف فيه الأمل... اغتصب من جوفه الكلمات:

«سامحيني ثريا، كنت آتياً للقياك هذا الصباح، غلبني شوق هادر لم أستطع له دفعاً... لكني حظيت منك بنظرة أخيرة

واستكان فيها شموخك وكبرياؤك بلحظة استعطاف صادقة كنت استدرها منك، إني راحل عن دنياك وقد أهديتك روحي عربون حب ووفاء، فاقبليها هدية»

انفجرت باكية تضرعت إليه:

«أرجوك اصمت... لا تعذبني في رحيلك بعد أن عذبتني في حياتك»

خارت قواه بعد أن لفظ الروح في شهقة حسرة.

تجمدت في مكانها مرعوبة، تشدها إحدى الجارات بعد أن غطى الممرض جسد الرجل المسجى بملاءة بيضاء.

هتفت بنبرة آسفة وهي تلقي عليه نظرة أخيرة:

«اغفر لي يا شاهين»

انفض الحشد، وهدأ الشارع وتفرقت الجموع، وظل مكان الحادث محجاً لعيني ثريا، تتأمله كل صباح من شاهق الشرفة وتقرأ لشاهين سورة الفاتحة وتستحضر طيفه وتلازم صورته وهو يودع.

القصة (١٠)

رسالة الحقوق

شقت «جميلة» الصفوف المحتشدة متجهة إلى المنصة، لا تلتفت إلى أحد ولا تطرف لها عين، تمشي حثيثاً بقامتها الدقيقة وقد بان على وجهها الاعتلال والتعب، جلست إلى جانب الأستاذ «مصطفى» مقدم المحاضرة التي ستلقيها على جموع الفرنسيين المسلمين، فقد خصص المركز الثقافي الإسلامي في باريس قاعة خاصة لتوعية جموع المسلمين حول المفاهيم الحضارية التي يدعو إليها الإسلام، وقد كانت جميلة عضوة ناشطة في هذا المركز تتبنى هذه القضايا بالشرح والتدريس وآلت على نفسها أن تطرح قضية حقوق الإنسان في الإسلام ومزاعم الثقافة الحديثة التي خلقت شرخاً كبيراً بين النظرية والتطبيق، وكانت مناسبة يحتفل بها العالم وهو يرزح تحت ثقل الإرهاب والتطرف والمفاهيم المزدوجة للعدالة والحقوق والحرية والاطروحات الوضعية الناقصة التي هي أبعد ما تكون عن الواقع المعاش، فالشعوب مازالت تئنّ من سياط

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الظالمين الذين مارسوا كل أساليب العدوان والاضطهاد على الإنسان، فبعد محاولات عدة في البحث والتنقيب عن المصادر والمراجع استطاعت أن تكتب بحثها بقناعات صادقة، وقرأت بشغف رسالة الحقوق للإمام زين العابدين ابن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، عاشت الغصص لحظة بلحظة ولعل الظلم الواقع عليها وهي وحيدة تكابد مرارة الاضطهاد أعطى لأفكارها المصداقية وأيقظ دوافعها للبحث والتعمق في حياة الأئمة ومعاناتهم واضطهادهم والصراع الذي يعانيه العقائدي وهو يصدر رسالة الإنسانية إلى الآخرين، فتفاعلت مع كل حرف وبكت في كل كلمة خطها يراعها الصادق، وثقت الحقائق بدمع العين وكادت أن تتلاشى في حبهم وتذوب في نورهم، ثروة عظيمة وقعت عليها وخزائن جمة أشبه بالخرافة اقتنتها وهي مبهورة فازدانت مكتبتها الخصبة بجواهر مصقولة بالحقيقة السرمدية التي لا يستطيع المرء إلا أن يقف أمامها عابداً متبتلاً، فبعد أن تحدثت جميلة عن سيرة الإمام زين العابدين وقصة حياته تناولت مسألة الحقوق كما في قول الإمام عليه السلام:

(اعلم رحمك الله، إن لله عز وجل عليك حقوقاً محيطة بك في كل حركة تحركتها أو سكنة سكنتها، أو منزلة نزلتها، أو جارحة قلتها أو آلة تصرفت بها، بعضها أكبر من بعض، وأكبر حقوق الله عليك ما أوجبه لنفسك تبارك وتعالى من حقه الذي

هو أصل الحقوق ومنه تتفرع ثم ما أوجبه عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك فجعل لبصرك عليك حقاً، ولسمعك عليك حقاً، وللسانك عليك حقاً، وليدك عليك حقا، ولرجلك عليك حقاً، ولبطنك عليك حقاً، ولفرجك عليك حقاً، فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال، ثم جعل عز وجل لأفعالك عليك حقوقاً فجعل لصلاتك عليك حقاً، ولصومك عليك حقاً، ولصدقتك عليك حقاً، ولهديك عليك حقاً، ولأفعالك عليك حقاً)

ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك وأوجبها عليك حق أئمتك، ثم حقوق رعيتك، ثم حقوق رحمك، فهذه الحقوق يتشعب منها حقوق.

اشرأبت أعناق الحاضرين دهشة وتسمروا في أماكنهم مشدوهين يستزيدونها بأبصارهم أن أكملي فالحديث شيق والمضمون رائع والفكر ينضح جمالاً وصدقاً، حدست جميلة أن الحضور منسجم معها في نسق واحد، وحق لها أن تنطلق في رحاب الفكرة غير هيابة ولا وجلة فاستطردت:

أول الحقوق حق «الله» أن تعبده ولا تشرك به شيئاً، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة ويحفظ لك ما تحب.

١) حق النفس:

وأما حق النفس عليك أن تستوفيها طاعة الله فتؤدي إلى

لسانك حقه وإلى سمعك حقه وإلى بصرك حقه وإلى يدك حقها وإلى رجلك حقها وإلى بطنك حقها وإلى فرجك حقه وتستعين بالله على ذلك.

واستئلت بتفاصيل هذا الحق قائلة عن لسان الإمام زين العابدين عليه السلام:

ب) حق اللسان:

فإكرامه عن الفحش من الكلام، وتعويده على الخير، وحمله على الأدب، وإجماعه لموضوع الحاجة، والمنفعة للدين والدنيا، وإعفاؤه عن الفضول والشنعة القليلة التي لا يؤمن ضررها مع قلة عائدتها ويعد شاهد العقل والدليل عليه، وتزيد العاقل بعقله حسن سيرته في لسانه ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ج) حق السمع:

فتنزيهه عن أن تجعله طريقا إلى قلبك إلا لفوهة كريمة تحدث في قلبك خيرا أو تكسبك خلقا كريما، فانه باب الكلام إلى القلب يؤدي إليه ضروب المعاني على ما فيها من خير أو شر ولا قوة إلا بالله.

د) حق البصر:

وأما حق البصر فغضه عما لا يحل لك وترك ابتذاله إلا لموضع عبرة تستقبل بها بصرا أو تستفيد بها علما فان البصر باب الاعتبار.

هـ) حق اليد:

وأما حق يدك فأن لا تبسطها إلا لما يحل لك، فتنال بما تبسطها إليه من الله العقوبة في الآجل ومن الناس اللائمة في العاجل ولا تقبضها عما افترض عليها ولكن توقرها بقبضها عن كثير مما لا يحل لها ويبسطها إلى كثير مما ليس عليها، فإذا هي قد عقلت شرفت في العاجل ووجب لها حسن الثواب من الآجل.

و) حق الرجل:

وأما حق رجليك فأن لا تمشي بهما إلى ما لا يحل لك ولا تجعلها مطيتك في الطريق المستخف بأهلها فيها، فإنها حاملتك وسالكة بك مسلك الدين والسبق لك ولا قوة إلا بالله.

ر) حق البطن:

وأما حق بطنك فأن لا تجعله وعاء لقليل من الحرام ولا لكثير وأن تقصد له في الحلال ولا تخرجه من حد التقوية إلى حد التهوين وذهاب المروة وضبطه إذا هم بالجوع والظمأ، فإن الشبع المنتهي بصاحبه إلى التخم مكسلة ومثبطة ومقطعة عن كل بر وكرم وإن الري المنتهي بصاحبه إلى السكر مسخفة ومجهلة ومذهبة للمروءة.

ز) حق الفرج:

وأما حق فرجك فحفظه مما لا يحل لك، والإستعانة عليه

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بغض البصر فإنه من أعون الأعوان، وكثرة ذكر الموت والتهدد لنفسك بالله والتخويف لها به وبالله العصمة والتأييد ولا حول ولا قوة إلا بالله.

توقفت (جميلة) هنيهة عن القراءة لتشرب قليلاً من الماء، ثم وجهت حديثاً مباشراً للجمهور قائلة:

الرسالة طويلة جداً وقد لا يسعفني الوقت لقراءتها عليكم وشرحها بالتفصيل وتطبيقها على واقع حياتنا عبر طرح الأمثلة، لهذا اتفقت مع إدارة المركز على جمع التبرعات لطباعة آلاف النسخ منها وتوزيعها عليكم بعد أن تتم ترجمتها وتبسيطها إلى الفرنسية وذلك تعميماً للفائدة، وسأتناول طرح الحقوق بصورة مختصرة على أن أدخل في تفاصيلها وشرحها في الحلقات القادمة، ولعلني أسهبت في حق النفس لأنه المدخل الحقيقي لواقع حياتنا نحتاج أن نتفهمه جيداً كي نعرف الواجبات ونتحاشى المحاذير، فدعوني الآن أكمل باقي الحقوق ولو بمجرد العناوين:

الحق الثالث هو حق الأفعال ويتناول مجموعة منها:

أ - حق الصلاة ب - حق الحج ج - حق الصوم و - حق الصدقه هـ - حق الهدي

الحق الرابع «حقوق الأئمة» وتتفرع كالتالي:

أ - حق السلطان ب - حق المعلم ج - حق المالك

الحق الخامس (حقوق الرعية) منها:

ا - الرعية بالسلطان ب - الرعية بالعلم ج - الرعية بملك النكاح د - الرعية بملك اليمين

الحق السادس (حق الرحم) وهم:

ا - حق الأم ب - حق الأب ج - حق الولد د - حق الأخ

نأتي إلى حق الناس وهو الحق السابع والناس هم:

١- حق المنعم بالولاء ٢- حق العبد ٣- حق الصاحب ٤- حق الغريم ٥- حق ذي المعروف ٦- حق المؤذن ٧- حق الإمام ٨- حق الشريك ٩- حق الخليط ١٠ - حق الجليس ١١- حق الجار ١٢- حق المال

ننتقل الآن إلى الحق الثامن وهو حق الخصم مع:

(أ) المدعي (ب) المدعى عليه

والحق التاسع حق المشاورة والنصيحة فمن هم المقصودون:

١- حق المستشير ٢- حق المشير ٣- حق المستنصح ٤- حق الناصح.

استوقفت جميلة أمام النقطة التالية وتنهدت بأسى قبل أن تستأنفها واتخذت نبرتها بعضا من الفتور والسكينة وقد بان العناء على محياها:

الحق العاشر (حق المسن) ويقصد هنا معرفة حقوق كل من:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

١) حق الكبير في السن   ب) وحق الصغير في السن

الحق الحادي عشر «السائل والمسؤول»:

١- حق السائل ٢- حق المسؤول ٣- حق من سرك ٤- حق القضاء.

وأخيرا نأتي إلى حق (أهل الله) وهنا فاضت في شرح هذا الأمر.

انظروا إلى عظمة الإسلام كيف يحفظ حقوق أهل الذمة كما ورد في النص وضرورة معاملتهم برحمة ومحبة واحترام حتى وإن كانوا على غير شاكلتك هنا تأتي سماحة الاسلام الحقيقي الذي يرعى الإنسان في كل الملل والطوائف.

فقد قرأت للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قولا عظيما مفاده:

«الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»، للأسف المسلمون هنا لا يعاملون بالمستوى اللائق وإلا ما طردت أخواتنا الفرنسيات المسلمات المحجبات من المدارس دون احترام لكرامتهن الإنسانية وعقيدتهن الحرة رغم أنهن مواطنات في بلد يعتنق مبادئ الحرية والعدالة، وتعرضن إلى ضغط نفسي وقانوني واجتماعي كي يخلعن الحجاب ويعصين الله، المفارقة هنا أعزائي الحضور دعوة الإسلام صريحة في حفظ كرامة المسيحي واليهودي وتأمين حياته الكريمة، دعوني أقرأ لكم ما يقوله الإمام السجاد في حق أهل الذمة:

وأما حق أهل الذمة فالحكم فيهم أن تقبل منهم ما قبل الله، وتفي بما جعل الله من ذمته وعهده وتكلهم إليه فيما طلبوا من أنفسهم وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك فيما جرى بينك وبينهم من معاملة وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله صلى الله عليه وآله حائل، فإنه بلغنا أنه قال «من ظلم معاهداً كنت خصمه فاتق الله ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ب) حق أهل الله

وأما حق أهل ملتك عامة فإضمار السلامة ونشر جناح الرحمة والرفق بمسيئهم وتألفهم واستصلاحهم وشكر محسنهم إلى نفسه وإليك، فإن إحسانه إلى نفسه إذا كف عنك أذاه وكفاك مؤنته وحبس عنك نفسه فعمهم جميعا بدعوتك وانصرهم جميعا بنصرتك وأنزلهم جميعا منك منازلهم، كبيرهم بمنزلة الوالد وصغيرهم بمنزلة الولد وأوسطهم بمنزلة الأخ، فمن أتاك تعاهدته بلطف ورحمة وصل أخاك بما يجب للأخ على أخيه.

هذه خمسون حقا محيطا بك، لا تخرج منها في حال من الأحوال يجب عليك رعايتها والعمل في تأديتها والاستعانة بالله جل ثناؤه على ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله والحمد لله رب العالمين.

استقرأت «جميلة» لتستجلي بواطنهم لمست فيهم تجاوبا

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عميقا ورغبة في الاستطراد بيد أنها أوجزت لصعوبة الترجمة الحرفية ولمحاولاتها الكبيرة في تبسيط المفاهيم رغم أنهم من طبقه مثقفة وعلى مستوى أكاديمي راق.

بعد أن ختم عريف الندوة بتعقيبه الأخير واستعد الحضور للمغادرة خاطبتهم جميلة قبل الانصراف قائلة:

«سنقدم مذكرة احتجاج على منع الطالبات المحجبات دخول المدارس إلى الصحافة أرجو مشاركتكم بتوقيع كل واحد منكم.

سأل أحدهم:

«يسرنا ذلك ولكن كيف نوقف هذه المهزلة رغم الاعتصام والمظاهرة السلمية المطالبة بحظر هذا القانون إلا أن الأمر نافذ».

أجابت بروح واثقة:

«سنطرق كل الأبواب، فنحن في بلد الحرية، إمضاؤك على هذه المذكرة استثارة للرأي العام».

تجمهر حول جميلة نفر من الفتيات يسألنها عن قضايا خاصة، فهي تعد لهن حلقات تربوية خاصة بمشاكلهن العاطفية في مرحلة المراهقة وتوجههن الوجهة السليمة حتى انجذبن لحنانها ورقتها وظرف سلوكها، يبعثن لها في الأعياد والمناسبات بطاقات شكر ومحبة وعرفان مطرزة برسمهن الجميل.

وفي غمرة حديثها رن هاتفها، استأذنتهن.

صاحت باندهاش.

«فؤاد؟»

يعلمها أنه قد وصل مع والدته وهما بانتظارها في الشقة»

قالت وهي تقاوم معركة نشبت داخلها

«بت أخشاك لدرجة مخيفة»

«أرجوك أضرع إليكِ أن تنسى ما قلته لك»

«حسن سآتي حالا»

انصرفت وهي مثقلة، فقد عزمت على الانفصال بشكل حاسم، لم تعد تقوى على مزاجيته وتردده، هزت رأسها بانفعال وغضب وألقت ملفها على الطاولة متأففة، لن تسمح لنفسها أن تشغل به ثانية، ستظل في حياد ترعى حقوقه الزوجية من منطلق الواجب الشرعي، أما ذلك الهيام والخضوع فهي مشاعر ولت بعد أن عرضها إلى المهانة ولن تسمح له ثانية أن يغامر بقلبها وفقاً لهواه، فقد عاشت معه ردحاً من الزمن تبذل كل وسعها في إسعاده لكنه أخذ يجنح إلى الكذب والمراوغة حتى تأكدت أن وشائج الروح والعقل أمران لا يستسيغهما عقله، بل يأتيها دوما مدفوعا بنزق طفولي عابث فما عادت تشتاق له بل مزقها الخوف والشك وهي ترجو أن لا تنكأ المقابلة المرتقبة جرحاً قد طيبته الأحداث وأوردته في هاوية النسيان.

عند اقترابها من البيت، ثقلت قدماها، رجفة تمخضت عن

قلق دفين ومهـابة من الحـدث آثرت الانتظار ريثـمـا تلتـقط أنفاسها وتستجمع قواها وبخطوات وئيدة تنم عن خوف وتردد همت بطرق الباب لكنها أصخت ودون قصد إلى صوتهما في الداخل الأم تقول:

«احسم أمرك وطلقها بعد أن تلد لك الطفل»

ابتلعت جميلة مرارة الغصة، وباشمئزاز ونفور حدثت نفسها:

«أعوذ بالله من شر هذه المرأة»

صمتا فور أن دخلت جميلة، حيت فؤاد بإيماءة باردة وأقبلت على والدته تصافحها بوجه مقتضب وروح نافرة أحجمت الأم عن إظهار الود والبشاشة بعد أن لامست إعراض المرأة، لم تنبس جميلة بحرف دخلت حجرتها لترتاح استوت الأم جالسة وراحت تتساءل والحيرة مستحوذة على مشاعرها:

«ما بها تبدو منزعجة؟»

يبرر فؤاد:

«إنها متعبة من الحمل»

وخف فؤاد لحجرتها وقد اضطرم الشوق في نفسه وبعينين ملهوفتين ونبرة خافتة:

«جميله هل أنت متعبة؟»

صعدت فيه بصراً شارداً شفَّ عن نفس مثلومة:

«بالضبط إنه التعب، أحتاج إلى قسط من الراحة»

أجفل مما رآه في عينيها، عاد أدراجه خائباً.

واستلقت «جميلة» على فراشها تئن تحت وطأة الضغوط فما زالت عبارة الأم تطرق مسامعها كأنها مقطوعة مشروخة مزعجة للسمع وتحاول أن تبددها من ذهنها ربما هناك لغط وسوء فهم، حدسها ينبئها أن أم فؤاد امرأة رقيقة، ربما هي الأحداث والبعد جعلني مبهمة الصورة، لم تستطع أن تشخصني جيداً، أحسست أن في أعماق هند وجعاً دفيناً، كانت تنظر إليها بعينين ضائعتين، لمست فيها هشاشة عجيبة وفوضوية واضحة جعلت منها شتاتاً.

وكان فؤاد يعد القهوة لأمه المنشغلة بالمرآة تتفحص تقاطيعها ورقبتها استعداداً للعملية وتحدث نفسها بين الفينة والأخرى:

«أخشى أن تحدث لي مشاكل بعد العملية»

وبفكر مشغول تحدث نفسها في المرآة وقد راق لها النظر:

إنني جميلة أحتاج فقط إلى شد بعض الأجزاء.

عاد فؤاد يحدثها بشأن زوجته جميلة:

«أماه أرجوك خذي أمري بجدية أكثر، أعرف أنكِ الآن مشغولة البال تترقبين حدثاً هاماً في حياتك، لكن يهمني أن أسمع رأيك بزوجتي»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وضعت المرآة جانبا قائلة بتذمر:

«لا أستطيع أن أحدد لها صورة واضحة تبدو إنسانة جادة ومتعبة»

والتقطت المرآة ثانية لتحدق في وجهها لكنه اختطف المرآة من يدها قائلا بدعابة:

«أنتِ رائعة يا أمي، لكن دعينى أسألك لم هذا النفور بينكما فقد شعرت بذلك منذ اللحظة الأولى»

صمتت دون أن تنبس بحرف بينما استطرد في الثناء على زوجته ووصف شمائلها والأم تسمع شاردة دون تعليق، مكرهة على تحمل حديثه في وقت انهماكها بغاية عمرها «عملية التجميل» فقد تولاها قلق شديد شل رغبتها في الإصغاء أو فعل أي شيء آخر، الوساوس تنهش رأسها فانبرت تسأل ولدها وهي تشاهد عقرب الساعة اللاهث مع أنفاسها المضطربة:

«لقد أزف الوقت فلنذهب للعيادة الآن»

شعر فؤاد بالخيبة فكل أحاديثه تبددت شططا، وما كان يعول عليه من لقاء أهم شخصين في حياته قد ذرته رياح الإهمال والتجاهل فأجاب وهو ينهض استعداداً للموعد:

«لا تقلقي فما زال في الوقت بقية»

الفصل (٤١)

المرأة الغامضة

منذ عودة «عماد» من رحلته والحيرة تنهب فكر أمه وتأخذها في كل مأخذ، فقد شابت طباعه تغييرات واضحة دلت أن وراءه سراً يطويه ويداريه على مضض، غضبه الهادر، وحدته الكئيبة فلم يطرأ عليه مثل هذه النوبات من قبل وما كانت تتطفل على حياته بهذا الفضول إلا بحافز من حبها له وقلقها عليه، يثور فيترك المائدة معنفاً إياها بقسوة فتفر منه مجروحة الخاطر، فمنذ أن عاد لم يحتف بها احتفاءً صادقاً وحميماً ولم تلتمس فيه نبرة الحنان التى اعتادت عليها سابقاً، صرعها الحزن والقلق إذ تلاشت كلمات الودّ التي تشبعها ثقةً واطمئناناً، انقلب عماد بعد هذه الرحلة إلى إنسان جاحد غارق في ظلمات وكدر.

أقبل عليها يحدثها فور خروجه من الحمام:

«لا تنتظريني اليوم على الغداء لأني سأكون مشغولاً في بعض الأعمال»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وتصنعت الانكباب على قميص كانت تخيطه في يدها حتى لا يفطن إلى كمدها الدفين.

هزّت رأسها موافقة:

«إن شاء الله بني»

وفور أن دخل سيارته اتصل «بنسيمة»:

«اصبري ريثما أجهز السكن المناسب وأوفر المال وحتما سأراك»

وأدار دفّة الموضوع إلى ناحيه أخرى:

«اشتقت لك، لا أطيق البعد عنك»

هذه المرأة الطاغية استحوذت على مشاعر الشاب واستأثرت بعاطفته وفكره بحكم خبرتها وفنونها الأنثوية ثم احتالت بلباقة ودهاء كي تقنعه في الزواج منها وفعل تحت سطوة الرغبة فلم يعد يحسب حساباً لماضيها الغامض وحاضرها المريب وأنها امرأة سيئة السمعة لا يعرف من جذور نشأتها أثراً يمكنه من رسم الحاضر معها بوضوح، فقد صرعه جمالها الساحق، وفتنتها الثائرة، امرأة غامضة نسجت لها الأقدار ظروفاً محبكة بدقه لتلقيها في درب هذا الشاب الغض الذي تنقصه الخبرة والدراية بالنساء وصادفته يتضور برغبة مجنونة كانت الوحدة باعثاً على تمردها العاصف، حالة أسرجت له خيوط العنكبوت بيتاً من اللذة فسقط في حبائلها مشحوناً بعاطفة جياشة،

مبهوراً بمحاسن باذخة بتصنع، فمنذ أن فارقها والغيرة تلسع أعصابه، عصفت به حالة مزرية من الوسوسة فما زالت الإجراءات القانونية وتأشيرة الدخول مضنية تسترخي في وقت اندفاعه في حماة الرغبة، واتصالاته اليومية عن بعد تلهب إحساسه، فتارة تدبر متفننة في استثارة غيرته كي تذكي عاطفة حبه متى ما خمدت واستكانت، وتارة تستدرجه بلسان طليٍّ يقطر عذوبة ويستعطف قلبه في غواية ودهاء فيجن جنونه وتلهف نفسه ويود لو جمع الدنيا بين يديه وقدمها لها عربوناً على محبته ووفائه، وتتأوه كأفعى كسول متذرعة بمعاناة فراقه وتذرف مدامعها رياءً كي تستجلب قلبه ثائراً، ذابت أحشاؤه لوعة وتدلّها فلمّا تركها في تركيا شعر أنه ترك مهجته، روحه، غادرها وهو يجرّ الحسرات والأماني وقلب يتلظى بنار مستعرة لا تهدأ.

وها هو مستعد أن يركب الأهوال في حبها ويتجشم الأخطار وودّ لو فدى عمره الثمين من أجل عينيها، هذه المرأة لا تعرف النضوب والجدب كانت تتجدد معه في كل لحظة وتتلون في كل حين، تشرق في شمس نهاره بوجه يتألق سحراً ونضارة وفي الليل تسكن بين جنباته هادئة ناعسة يدب في حضورها خدر الأوصال واسترخاء الأعصاب فيود أن لا يفيق من رقدته، تنعّم معها بالوجد والحلم الأمل.

كل من حوله سراب، فمن يذق رحيق الشهد لن يجد في رواء

الآخرين إلا السمّ الزعاف ولن يستبدلها بأي شيء في دنياه مهما كان عزيزاً عليه أو قريباً منه.

وقبل عودته كتب لها شيكاً بمبلغ كبير بعد أن عاهدته على أن تترك عملها في الملهى، انطلت الحيلة على هذا الشاب المفتون وفقد صوابه وطاش رشده وسابق الزمن من أجل أن يأتي بها إلى دنياه وحياته زوجة، لم يعد ليومه طعم دونها، اعتاد على ذراتها تسبح في كريات دمه وكأنها أشبه بأفيون مخدر يتنازعه الألم والضياع إن فقده وقت الاحتياج.

باشر عمله بعقل شارد، كيف يمكنه أن يوفر لها بيتاً وهو لا يمتلك أدنى مقومات الرخاء، فما زالت الشركة تستقطع جزءاً كبيراً من راتبه لتسديد قرض والده، وها هو فعل وليته لم يفعل فبعد فترة مات ذلك الأب البائس شريداً طريداً بين الطرقات، منذ طفولته وهو يحمل أثقالاً تنوء عنها الجبال، أما آن له أن يعيش ويستمتع بحياته ويكافح مع المرأة التى اختارها قلبه، وهذه أمه تحدثه عن الزواج بعد أن لمست مزاجه السئ وثورته الجامحة لأمور تافهة وأوعزت الحالة إلى حاجته إلى امرأة، وطفقت تحدّث النساء والجارات بحثا عن شابة مناسبة لابنها وفكرت بشخصيته المستهترة التي تغيرت بشكل كبير ومفزع، وراحت في فكر عميق الغور تستقرئ أحداث حياته حتى ظنت أن المسؤوليات الثقيلة أنهكت قواه وشقت أعصابه فعفت وغفرت حتى أدركها في ذلك اليوم قائلاً:

«أنا متزوج من مغربية وسآتي بها خلال أسبوع»

تجمدت في مكانها متسمّرة كأنّ على رأسها الطير..

وتابع:

«أرجو أن تغفري لي يا أمي فأنا قد أحببتها ولا أملك طاقة على دفع هذا الحب»

لم يتسنّ للأم أن تردّ حتى استأنف:

«امرأة طيبة وحنون»

مازالت الأم صامتة بينما استطرد:

«إنها مفاجأة، لكنه قدري وأنا سلمت نفسي لقدري»

تلفت عماد حوله محتاراً يحاول أن يشتت من قلبه الروع وأثر الصدمة..

«ما بك صامتة. دعيني أسمع رأيك»

هزت رأسها برعدة قوية ولوحت بيدها:

«أغرب عن وجهي»

ثم نكست رأسها منزعجة تجر أنفاساً ثقيلة يلفظها كبد محرور ولاذت بحجرتها منكفئة وقد نكأ ولدها جرحاً عميقاً لم يبرأ بعد، فمازال حدث وفاة شاهين طرياً ساخناً يلهب النفس بعاصفة من الذكريات الأليمة وظلت تبدّد هذا الألم بحاضر مشرق سلوة روحها، عزاؤها ومنية فؤادها «عماد» وإذا به يأتي

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بخنجر مسموم ليطعن حلمها.. مفارقة تدمي القلب أن تخسر الاثنين في حادثتين مؤلمتين ذاك بالموت المقدَّر وهذا بالضياع المخيَّر، شعرت والغصة تقف في حلقها أنّ ما عولت عليه من آمال قد كان وهماً ذرته الرّياح فيصرخ في داخلها لسان لاهب في الرفض لفعلته الرعناء فعزمت على صدّه فجفا. حاول مراراً ملاطفتها واستبقاء أوهن خيوط الودّ بيد أنّ قلبها قد انفطر وتعمق ذلك الشرخ حتى اتسعت بينهما الهوة فما عاد عماد هو ذلك الحلم الجميل الذي كبر مع السنين تسقيه دمها ودموعها، تركته يتحرق على وقد العذاب حتى أتى ذات مرة يقدم رجلاً ويؤخر أخرى وجدها في حجرتها مطرقة في انكسار يحاول أن يسترضيها فأبت وتصلبت ولم يلبث أن قال بعد أن استنفذ كل حيله في رأب الصدع:

«لست طفلاً لتعاقبيني بهذا الشكل المهين، فلي حق الاختيار والزواج بمن يهواها قلبي»

ندت عنها صرخة فجرت مكامن صمتها:

«أنا لست ضد زواجك، بل مجروحة لأنك استهنت بي، لا أعرف لم تجرأت وفعلت تلك الفعلة الشنيعة في غيابي كنت قد قررت أن أخطب لك بنتاً طيبة من عائلة محافظة، تأتيني بخبر زواجك من مغربية لا أعرف من تكون ومن هي؟ وما هو الإطار الذي يمكن أن أحدد به هذه الزيجة السريعة وملابساتها الغامضة لكنّى فهمت من طباعك القاسية وثوبك الجديد أنها

امرأة سيئة قلبت كل موازينك وحولتك إلى إنسان مشتت، ضائع، غضوب»

أعرض عنها قائلاً:

«أنتِ في مزاج سئ اليوم»

عنفته:

«لم تفتح مغاليق قلبك لي، دائماً صامت، لا أعرف ما تضمره طويتك كي أتصرف على ضوء الحاجة»

دخلت عليهما «فداء» فأنقذت بمجيئها الموقف المتوتر.

فقال عماد وهو يتحفز للذهاب

«فلنكف عن كلام لا طائل منه»

جثت فداء قرب أمها متسائلة:

فاضت أمها في شرح تفاصيل الموضوع وأعربت عن مخاوفها من هذه الزيجة فهتفت وهي تجر آهاتها لوعة:

«لقد ضاع عماد مني يا فداء»

كانت «فداء» تستمع بذاكرة غائبه تخاتلها رهبة دفينة فقد حدست أن عماد وقع في براثن امرأة ماكرة عرفت كيف تتسلل إلى ضعفه إلى حد استلاب إرادته، فقبل يومين دخلت على إحدى مواقع الانترنت وقرأت تقريراً يحذر فيه الشباب المسافرين إلى بعض الدول الغنية التي تكثر فيها نوعية من

www.mlazna.com-RAYAHEEN

النساء المجندات من قبل المخابرات الإسرائيلية يدخلن عبر جوازات سفر مزورة وبأسماء عربية وديانة مسلمة، يوقعن الشباب في شباكهن حتى مرارة الخطيئة وآثارها القاتلة ليكتشف بعد السكرة أن هذه المرأة الطيبة المولهة بحبه كيان مطعم بمرض الأيدز دخل مجتمعاتنا المحافظة ليدمر شبابنا ويفشي فيه الأمراض والعلل والأسقام.

هجست الأم من صمت الابنة فنظرت إليها مستعلمة بانشداه:

«ما بك؟ هل تخفين عنّي شيئاً؟»

نفضت «فداء» عنها هذا الخاطر:

«لا تقلقي يا أمي فكل شيء مآله خير، البذرة الطيبة ستعود إلى جذورها في الآخر»

رفعت الأم كفّيها داعية:

«آمين يا رب»

الفصل (٢٢)

رحلة الغفران

لفّها صمت كئيب بعد حوادث سيئة متلاحقة، آخرها وفاة والدها، حاول مخلص تبديد هذه الغمامة دون طائل فقد استمرأت تعذيب نفسها فأحجمت عن ملاقاة الناس وأطالت المكث في دارها متورعة عن كل شيء مبهج في الحياة، لمست في نفس أخيها عماد إعراضاً غريباً وهو الذي كان بالأمس مستودعاً لأسرارها وسندها في أزمات الحياة، خنقتها العبرة وهي تقاوم شعورها بالذنب ظل يلسعها كلما تذكرت فعلتها النكراء فبقيت في مقام مجاذبة صعبة بين الأسى والندم تستحضر وجه أمها مهيضة الجناح والرجل الذي احتضن طموحها النزق بحكمة ووقار، تأتي بطاقة جحود ساحقة لتجرح هذه النفوس الطيبة، بقيت في حجرتها منكمشة، خائفة، تداري قلقها فقد انقلب كل عنفوانها إلى مذلة، بعد فورة الاندفاع المحموم ورغبة التشفي الشيطانية، هدأت وأيقنت أن الانتقام نار محرقة لابد أن يطال لسانها المنتقم نفسه ويصيبه في مقتل

وظنت أن «هاشم» سيفكر في طردها من الشركة بعد أن أوقدت في قلب زوجته جمرة الشك ولهذا لن تجد في نفسها القدرة على العودة ثانية فقد بلغ حقدها إلى حد الإفراط والانفلات، طعنت كبرياء الرجل ولوثت بيته، لا تفتا تتذكر صوت زوجته المضطربة وهي تردد بعد أن كاشفتها بخيانته «من أنت؟»

غيرتها أوقعتها في حالة من الهستيريا، وفي غمرة غلوائها تقفل الهاتف، كل شيء الآن يسوغ لها الفرار من المواجهة والهروب من الناس، إنها تهب من رقدتها الساكنة فزعة كلما رن الهاتف فتظنه إدانة وقرار بحكم الإعدام لحياتها، انثنت برأسها المثقل فأبصرت أمامها مخلص:

«ألم تصلي إلى قرار بعد؟»

تمسح طرفاً باكياً:

«اذهب إلى الشركة نيابة عني وتعلل بمرضي، فقد حسمت أمري فلن أعود للشركة، سأبحث عن عمل آخر»

«تريثي قليلاً»:

تحاملت على نفسها فنظرت إليه صامتة، تستحثه أن يستطرد لعلّه يخفف شيئاً من عبئها.

وتابع يقول:

«لم أعد أعرف ما هو سر انقلابك المفاجئ»

تمالكت أعصابها ورأت أن تبدد شكه بابتسامة تطمئنه:

«العمل في الشركة مرهق بعض الشيء، وأنا احتاج أن أعطي للبيت حقه»

أحست أن في هذا خلاصاً من شراك الظنون التي داهمت زوجها فجعل يلحّ عليها بالأسئلة.

قال لها متوجساً:

«سأسعى لترتيب أوراقك، وآمل أن تكوني مقتنعة بهذا القرار»

وبقيت لأيام تبحث في الصحف عن وظائف شاغرة وتبعث إلى بعض العناوين المختارة أوراقها الخاصة، فقد تعذر عليها أن تعود لوظيفتها بالشركة وأن تركز في أدائها، الضربات الموجعة التي تلقتها من كف هذا الكهل خلق لها ذعراً مستديماً فقد يئست من حبه وبقى في صدرها رغبة جياشة تلهب قلبها فما نفع العودة ولقائه يضرم نار حبها ويوقد جحيم شوقها؟ إنه يختبئ في صوتها، في قلبها، في دمها، رجل رصين، صارم لا يستسلم لنزوة ولا يذوب في نظرة أرقها وسهدها وأوقفها على مفترق طريقين، أما البقاء على الهامش مولعة معذبة دون هدف وغاية أو النسيان والانخراط في حياة جديدة، وعايشت مرارة الأمرين ووجدت أن الزواج مغامرة غير مأمونة العواقب ولكنها ستحاول أن تحفر لها وطناً في هذه العلاقة الحتمية وتسعى جهدها لتكون زوجة وفق المنطق المعقول.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ما إن ابتعد زوجها واطمأنت لخروجه حتى انبسطت متوحدة بنفسها.

عاودت الاتصال بالشركات ومراكز الأعمال التي تعرض أنشطتها في الصحف تدفعها رغبة الهروب من هذا المستنقع والدائرة الضيقة أن تبدأ حياة جديدة ومشواراً مختلفاً تبنيه منذ الصغر.

استوقفها مقال بتوقيع «شمس الحقيقة»

حدثت نفسها بحسرة:

لقد ظفرت «فداء» بغايتها وأمسكت بخيوط حلمها فلم تتعجل المستقبل وترمح كخيل سائبة وراء السراب، فمثلي يلهث خلف الوهم يطوي المسافات ينهب الطرقات عطشاً لكنه يصطدم بجدار الحقيقة فيقف عاجزاً عن اختراقه لقد استسلمت مذعنة لحماقتي وجهلي، أريد أن أكون سعيدة فقط، والرجل الذي ظننته حلمي جفاني، استوقفني عند أعتابه ذليلة، استنفذ مني كل طاقة فرح، وإشراقة طموح وحولني إلى امرأة مهزومة جفّت فيها كل روافد الحياة وانطفأت منها جذوة الحماسة، ربما لم أكتشف نفسي إلا بعد أن صقلتني هذه التجربة وإذا بي إنسانة مجرده من القوة، معطلة الهدف، ما أروع «فداء» وهي تعلمني درساً في مواجهة الذات، ها هي شعلة حياة أينما حلت تنضح نوراً، تدرس في الجامعة وتنشط في عمل تحقيقات صحافية، تكتب قصصاً، وأراها سعيدة

ومبتهجة، إنها تنمو في فكرها وقلبها وحسها المرهف، كنت أظن نفسي الأقوى والأفضل وأحدثها باستعلاء وغرور، كنت مخطئة في تشخيصي لها فما كانت أنثى سلبية أو انسحابية، بل مهذبة ومتعالية على سخافاتي وحماقاتي، ها هي تشق لها درباً في معترك الحياة وواجهت المصاعب بقوة وثبات استقطبت الأنظار وأيقظت الحب في القلوب وصارت «شمس الحقيقة» اسماً تردده الألسنة في كل مكان إنها تنجح باقتدار وثقة.

طوت علياء الصحيفة وألقتها جانباً وانتحت بفكرها ناحية أمها التي قررت الحج هذا العام، فالحملة اتخذت من زوجها مخلص طبيباً مرافقاً للحجاج، وحاول أن يقنع علياء لتؤدي فريضة الحج، «فرصة أن تحجي قبل أن يولد لنا طفل»

وتحاول «علياء» أن تهرب من أمها، من تلك المواجهة المخجلة، لكن لابد من مبادرة لكسر الحاجز، إنها تقر بذنبها كلما لاح وجه أمها الحزين في فكرها، تستحضر تلك الابتسامة المقهورة وحدث الوفاة يختالها كابوساً مفزعاً، استهجنت فعلتها النكراء وما طوته في أعماقها من صور قاتمة حول أمها المسكينة وإصرارها على قطع أواصر المحبة بينهما، الأم غارقة في عزلتها تكابد حزنها في صمت حتى أشفقت علياء في الآخر إشفاق المذنب الآثم، فهي تحارب إحساساً غامضاً ظل يصرفها عن أمها صرفاً شديداً وباتت شبه ممزقة، منهوكة، تتراجع صحتها، تفقد توازنها بشكل ملحوظ لهذا استجمعت

قواها لتقرر مرافقة زوجها في هذه الرحلة علها تعيد الاستقرار والطمأنينة إلى روحها كي تبدو صافية مستقرة، وهي فرصة سانحة كي تسترد أمها وتقر بذنبها أمام الله وأمامها بعد أن ظنت بها ظن السوء ونسجت في مخيلتها قصصاً وهمية كانت السبب في قسوتها وعقوقها.

نهضت متباطئة وهمت بالهاتف واتصلت بمخلص:

«فكرت كثيراً في مسألة الحج وأظن من المناسب مرافقتك ومداراة أمي هناك»

أقفلت الهاتف وهي شاردة، كأن لسانها قرر أمراً في غفلة من رغبتها لماذا تشعر أنها ممزقة إلى أجزاء مبعثرة كل جزء له طقس خاص تعطلت فيها كل أجهزة التحكم والسيطرة فلم تعد تعرف وجهتها الهادفة.

إنها مذنبة اجترحت من الإثم ما تؤاخذ عليه، ألقت الشك في قلب الزوجة ولم تستعلم بعد آثار فعلتها الشنيعة، فكرت الاتصال بهاشم وترددت كثيراً، يخفق قلبها كلما لاحت صورته في قلبها، رعشة أصابعها وهي تضغط أزرار الهاتف، كم أنت حاكم مستبد أيها القلب، أهكذا يطغى سلطانك على النفس فتسلب منها كل طاقة وإرادة، وألقت نفسها في الحدث مغمضة العينين، بعد أن جردت نفسها من كل تفكير، لا تهاب العواقب مهما كانت مساوئها فهو في النهاية ميت بالنسبة لها، تعلم أن طريقها مسدود وأملها مستبعد، رن هاتفه رنات رجعها الصدى،

كررت المحاولة في أوقات متفاوتة، خابت كل محاولاتها وفشلت فشلاً ذريعاً وباتت تمني نفسها برجاء قائلة «سأسوي هذه المسألة كي تهدأ أعصابي وتخمد رقدة عذابي»

وظل فكرها يتخبط في الضياع، وتعود الرغبة تستحثها مجدداً، فلتكلمه للمرة الأخيرة، فلتسمع صوته، جن جنونها، وبرّح بها داء الحب حتى خيل لها أن صدوده جمرات تستعر في قلبها فالتاعت من جديد وإذا بها ترزح تحت ثقل اليأس فتخالجها أنات محرقة تمزق نياط القلب.

كتبت له رسالة هاتفية «آسفة على ما فعلت، فلتعلم أنك مزقت قلبي إرباً إرباً»

انتظرت طويلاً لعلّه يستجب لكن بدا واضحاً أنه كان يهيم في واد بعيداً عنها، بكت كما لم تبك في حياتها وكل التناقضات النفسية تشتتها من جديد تحبه وتكرهه، تريده وترفضه، تحترمه وتزدريه، كانت تحترق وتفكر في كل اتجاه، وكابدت بشدة كي تسيطر على نوازعها، فعادت تكتب له رسالة أخرى «أرجوك رد عليّ للمرة الأخيرة ثم أتركك وشأنك، لا تخف، لا تفزع فلن أقول لك إلا الحقيقة»

انقضى النهار وهي في حالة من الانتظار والقلق حتى سئمت وضاق صدرها فحاولت الاتصال به من هاتف جارتها، وفي الآخر رد، وما أن سمع صوتها حتى أقفل الهاتف دون اكتراث، حنقت أشد الحنق من هذا التجاهل ومن ذلك الخذلان، لكنها غفرت فور أن تذكرت فعلتها وصده المبرر.

كان مخلص يقاسي من فكر زوجته المضطرب وشخصيتها العدوانية وقد وجد في العمل ضالته كي ينسى تلك التعاسة التي جثمت على حياته حاول أن يتمالك زمام نفسه كي يعبر معها هذا النفق القاتم فقد أحس بفتورها، وتوترها المخيف، فكل يوم يطرأ جديد على حالتها النفسية الممزقة، تارة يشفق عليها بما عرف عنه من رحمة وطيبة وتارة أخرى يحتويها بمداراة ولين علّها تفق إلى رشدها وتنتبه إلى الهاوية التي تردت فيها دون رحمة.

قرر أن يصبر على مرارة طباعها الفظة وعوّل على الأيام فهي كفيلة بامتصاص هذه النكبات واختزالها كتجارب تحتوي المسافات بينهما وتوثق وشائج رباطهما، وقد حسبته علياء رجلاً ساذجاً وما هو بساذج بل رجل فطن، حكيم يتعاطى مع الشخصية وفقاً لتكوينها الخاص ونمط زوجته معقد يقتضي منه الصبر والتروي، فها هو مازال يتودد لها رغم إعراضها ويختلق الأسباب كي يشاغلها عن هذا التفكير الغائم الذي لم يعرف بعد مصدره... إنما هو مرغم على تلقي نوباتها فحبها المستعر أعمى بصيرتها فما عادت ترى غير هذا الشبح السراب الذي أبقى روحها تئن تحت سطوة إحساس مدمر.

وارتضت أن ترافق زوجها وأمها إلى رحلة الحج علّها تبدد قلقها ومخاوفها فتلقي أعباءها على رصيف الإيمان وتحلّق في الفضاء بروح جديدة.

الفصل (٢٣)

في عينيها صقيع

«لن أمكث معك بعد الذي حدث»

مازال صوت «هند» المكسور يمس شغاف قلبه فيئنّ وجعاً، وتساءل عما يخلق به أن يفعل في مثل هذه الظروف المتشابكة، ترقد هند في المستشفى تحت رحمة المشارط والجراحين، لهفت نفسه إليها فلا تكاد تستقر على أمر أو تهدأ على حال، لوعة غيابها فجّر مكامن قلقه وخوفه، ثم اتجه بفكره إلى المرأة الأخرى حلم عمره تلك التي رفضت لقاءه وردت عليه بعد إلحاح شديد أن خيارها الأوحد في الحياة أولادها ورجته مراراً أن يكف عن ملاحقتها، وتذكر علياء وحبها المحموم ونفسها الوالهة فابتسم بمرارة لهذه المفارقات المعاكسة التي يضعها الدهر في حياة الإنسان، مرت الأيام وهو يرزح تحت ثقل هذه المعاناة وبقيت المرأة المحبوبة عصية المنال مصلوبة على جدران قلبه يناجي طيفها كحلم مستحيل.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

انتبه إلى صوت «عبدالرحمن» ووجهه المتغضن ينطق خبثاً تتلكأ الكلمات على لسانه.

استنطقه هاشم:

«تحدث ما بك؟»

«عماد!»

انتصب هاشم واقفاً ثم انبرى يسأل:

«ما به؟»

اقترب منه عبدالرحمن بفحيحه البغيض:

«الولد وضعه مريب هذه الأيام»

صمت هاشم واحتمل أنها وشاية حاسد لمدير شاب شق دربه بنجاح.

«لا أظن أنه قد شاب عمله أي قصور»

وبابتسامة لزجة تنم عن نيّة سيئة:

«ألم تسمع اللغط والكلام المثار حوله»

رد هاشم كمن يبعد عن الشاب تهمة:

«إذن هي وشاية»

«دعني أسدي لك خدمة سيدي»

تأفف هاشم ضجراً:

«اختصر».

«أظن أن هناك تلاعباً في حسابات الشركة»

لفهما صمت مريب فانسحب عبدالرحمن وقد اطمأن أنه قد دس الشك في قلب الرجل، لم يكن هاشم صافي الذهن فلبّه شارد في المشاكل، خوفه على هند، سفرها في ظروف بائسة، لهذا لابد من محاولة لتنقية الأجواء فحسم أمره، نادى السكرتيرة:

«هيام، اقطعي لي تذكرة لباريس في أقرب رحلة»

مضى على رحيلهما أيام طويلة ولابد من عودة ابنه إلى زوجته ماجدة بعد أن برحت بها آثار الحمل فوهنت ونحلت وهي في شهورها الأولى.

فقد عانت الأمرّين، مرارة غيابه، ومرارة الحمل ولدى عودته ظهر هذا اليوم استقبلته «ماجدة» حانقة، غاضبة بانت علامات الذبول على أمائرها، جلست على الكنبة تتذمر:

«لقد زهقت يا عمي من أفاعيل ابنك، لم أعد أطيق غيابه وبعده، اتصل به لا يرد، أبعث له رسائل يتجاهل».

وبتخابث:

«أظنه يخطط للانفصال»:

طمأنها هاشم:

«سأسافر خلال يومين لأحل محله في رعاية أمه ليعود لك بأقرب فرصة لا تقلقي، المهم مراعاة صحتك»

وسألت في حيرة:

«هل هو متزوج من فرنسية؟ سمعت أن له علاقة مذ كان طالباً وأغضيت حينما لمّح لي أبي أنها علاقة عابرة وانتهت»

صمتت وهي تستقرئ رد فعل الكهل ثم تابعت:

«لكن يبدو أنها لم تخرج من حياته»

نفى هاشم باستنكار مفتعل:

«أكيد أنها علاقة عابرة، المهم دعيني أسافر وأنا مطمئن عليكِ بودي لو تلازمك أمك طيلة غيابنا»

ابتسمت بمرارة:

«أمي؟ إنها مشغولة بحملة شرسة تقودها سيدات المجتمع المخملي للمطالبة بحقوقهن السياسية، فقد زوجتني وسلمتني أمانة بيد زوجي فلن تجد ضرورة في مداراتي، أظن بقائي هنا أفضل»

سنكون على اتصال دائم بك لنطمئن عليكِ.

«سافر أنت بالسلامة ولا تقلق فالمربيات والخدم سيلبون كل احتياجاتي»

تحوّل عنها مقهوراً، تأخذه الظنون كل مأخذ فماذا لو عرفت

أنه متزوج وزوجته حامل على وشك الولادة فعلاً سيكون الأمر جد عسيراً.

لم تكن «ماجدة» من السذاجة حتى تتقبل هذا الواقع الممض، زوجة مهجورة يسحقها الإهمال والتجاهل، إنها مقايضة محسومة مقدماً ومخطط لها وفق تدبير مسبق، ذلك النقص في العلاقة يتم إشباعه عبر تعويض كبير يرضي غرورها، كيف لا وهي «الكنّة» الأثيرة في نفس عمها هاشم يسعى دوماً إلى خلق حالة التراضي بين الزوجين ويلبي مشتهياتها بسرعة فوالدها شريك لعمها في أكثر الصفقات وهي تعلم أنها الطُعم الذي يصطاد به والدها وافر النعم، فالمال يصب في مجرى واحد وينبع من منهل هذه الزيجة التي وحدت العائلتين، دفعتها أمها للحمل السريع لضمان الانصهار الأكيد فوريثها المدلل يستحق هذه المغامرة ولها من الدهاء ما يمكّنها من الاستحواذ على الزوج بالرغم من بعده وبروده.

ملكت قلبها وحمته بقشرة صلبة بمعزل عن جنون زوجها ونزواته تدفعها الرغبة إلى امتلاكه والسيطرة عليه، وقد ضاق فؤاد بهذا الأسر الخانق فأطلقت سراحه وجنّدت حوله العيون تتابعه وتلاحقه وكان لأمها السطوة في رسم ملامح حياتها بطريقة محبكة، وعمها مدرك لأهمية السمعة والوجاهة لهذه الزيجة المتكافئة، فأنشأ يدللها ويهيب فيها هذا الذكاء والحرص على تطويق زوجها بالرعاية المكثفة وعرف نهمها إلى المال

فاشترى لها المجوهرات ووهبها المنح والعطايا وآخرها سيارة (جاكوار) هدية حملها.

حاول فؤاد أن ينفخ الحياة في موات قلبها وكل محاولاته باءت شططاً وهددها لأكثر من مرة بالويل والقطيعة إن لم تكف عن محاسبته وملاحقته فلم تبالِ حتى أنه اشتكى بلادة حسها لأمه وظن أنها مخلوق من الثلج لا يجد في عينيها حرارة الحب، فعشرتها تسقمه، عنيدة متغطرسة، إنها منفرة يبغض كل صفاتها ويغتاظ من جفافها، يمقت وجهها المحنط تحت ثقل المساحيق في غضبتها يبدو مدلهماً مثيراً للاشمئزاز، وقد فتر عن ملازمتها الحجرة في الفترة الأخيرة بعد أن أبدت من الغيرة الشديدة إثر زياراته لبيت ثريا وحذرته من مغبة هذا الاندفاع الذي قد يوقعه في مشاكل، فحدسها أنبأها أن ثمة ميل واستلطاف متبادل بينه وبين «فداء» والفتاة جذّابة الكلمة، ريّانة القد، ينضح الحسن من محيّاها وجسدها ويبدو أنها قد تدلهت بهواه وبادلته المشاعر، تذكرت كيف كان يصغي لها بكل حواسه ويستعذب كلامها ويستحسن كل ما كانت تثرثر به، حتى لفتاتها الهارية كانت لها موقع حسن في قلبه، اتقدت نيران غيرتها فقررت أن تلجم اندفاعه وتحاسبه حساباً عسيراً كي لا يطلق لأهوائه العنان، فصوته عندما يحدثها يفضح سأمه ومله منها، فهل يستطيع أن يجد فيها أكثر مما وجد، لن يدعها تتحكم فيه فهو حر طليق أسير قناعاته الخاصة حينما يحب أو يكره وسيحل وثاق الزوجية إن تمادت في غيها.

دخل عليها قبل سفره بأيام وعيناه تبرقان حنقاً فأوجست خيفة اشتد ذعرها صاحت:

«ما بك؟»

ندت عنه صرخة عنيفة:

«لا تعبثي بأوراقي مرة أخرى فالتجسس حالة أمقتها في زوجتي»

ارتبكت تحاول أن تبرر:

«كنت أبحث عن عقد زواجنا»

قاطعها:

«كاذبة.. كاذبة»

ولم تظن يوماً أنه سيأخذ من هذه الهفوة ذريعة لانتقامه وشفاء لغليله، صاحت به وهي ترتعد:

«أحمق مخبول»

عنّفها:

«كل يوم اكتشف عيوبك المختبئة»

قالت ولسانها يتعثّر في حلقها:

«لقد صبرت على نزواتك وتفاهتك»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

مشت صوب الباب مدبرة خائفة، اعترض سبيلها وشدها من ذراعها:

«اسمعيني لآخر كلمة ولا تنصرفي أثناء حديثي معك».

هزت كتفيها محاولة إثارة غيظه باستخفافها بيد أنه قبض بشدة على ذراعها صارخاً:

«معتوهة، غبية»

صرخت متأوهة، ثم دفعها فانهارت على الكنبة وهي تتلوى وتتشنج وحدجها وهو مائل فوقها بنظرة مقت واحتقار:

«بت مرتاباً من نواياك، لا أعرف ماذا تقولين لأبي كي يدافع عنك دفاعاً مستميتاً»

ظلت في مكانها تتشنج وتنتحب وهي مطرقة مخذولة.

وبقيا لأيام متباعدين عن بعض يلفهما الصمت والنفور حتى سافر وهو معرض عنها، حاولت أن تستميله بشتى الحيل لكنه متصلب عنيد لا يرحمها رغم حملها وضعفها، تردعه تلك العينان القاسيتان ومسحة جافة لامرأة لا يتوسم فيها سوى الشر والحقد سدت على قلبه كل منافذ الشفقة والعطف.

الفصل (٢٤)

أيام الحزن والألم

أفاقت «هند» من المخدر منهكة، تتقلب على مضض واللفائف البيضاء تلتف حول رأسها فبدت شبه محنطة اللهم إلا إيماءات خفيفة تتجاذب بها مع الجالسة قربها وقد انكبت على قراءة القرآن الكريم، تترقبها بقلب شفيق تمسح على شعر المريضة وتطمئنها بسلامة العاقبة وتود لو تفتح لها ذراعين ملؤهما الحنان والدفء لتحتضنها وتخفف عنها وطأة الألم.

دخل الطبيب ليحدّث جميلة الفرنسية بعد أن لمس قلقها على المريضة:

«الأمر طبيعي جداً، جروح وحقن وترقيع شيء، لا يحتمله الجلد الرقيق» تنهدت جميلة بجزع وهي تمسح فوق رأس هند:

«إنها تتألم يا دكتور»

«سنحقنها مرة أخرى بالمورفين»

«أخشى أن الآثار تدوم طويلاً»

«وهل تظنين أن العملية سهلة، لا تنسي أن طبيعة جلدها رقيقة وهشة واحتمال شفائها يدوم أشهراً طويلة وقد شرحت لها كل هذه الأمور مسبقاً لكنها أصرت»

نادت هند بصوت خابٍ:

«ماء.. ماء»

جثت جميلة قربها ترفع رأسها ببطء وتسقيها شربة ماء.

وعادت هند تصيح:

«فؤاد، فؤاد، أين فؤاد»

«استريحي سيدتي سأتصل به حالاً»

لم يستطع «فؤاد» احتمال الموقف المريع، فقد انطوى على نفسه في حجرة بعيدة عن الأنظار يترقب أمه الراقدة كجثة مسجاة فوق السرير متلفعة بالبياض مدبرة عن الحياة وكأنها تستقبل أول قطار للموت، مكث يستحضر وجهها الحنون ينضح أسى، ما كان يسمح لها أن تفعل ذلك لولا الإحباط واليأس وتراكمات السنين الجحاف وهستيريا الخيانة التي تدفع المرأة إلى هذا الانتحار، خرج هائماً على وجهه يجوب الطرقات المطرة في نهار كئيب غيّبت الشمس بسمته الصافية، انشق صدره ضيقاً فحالة أمه تنذر بالشؤم، وجه الطبيب المستاء عبّر عن شيء مخيف، ما كانت وعود الجمال إلا أحلاما زائفة مطلية

ببريق مبهر، أخذ يسير بعيون مستعبرة يدعو ربه أن تعود أمه، لفته الوحشة، سوّطه البرد بسياط الوحدة، ولأول مرة ترعده السماء الملبدة فيرتجف مذعوراً، مشتتاً يتنازعه الخوف والرهبة يسحقه المجهول صرخ «يارب، أنقذ أمي، يارب ارحم وحدتي» ارتعش حتى تجمدت أطرافه فبحث عن ملجأ حصين وملاذ دافئ، فكيانه يرتعد فرقاً كلما تذكّر هلاك أمه، فكّر في حياته وذلك التيه اللامتناهي في شتات وضياع فليصنع لأجلها المستحيل كي تفيق من رقدتها، حزم أمره فشق وسط هذا الصقيع درب النجاة متجهاً إلى الشيخ عز الدين علّه يدعو لأمه دعاءً خاصاً، ساقته قدماه المرتعشتان برداً إلى ذلك الحي الهادئ أقبل باكياً نحو الشيخ:

«سأعطيك كل ما تريد، سأتبرع بكل ما أملك فقط إن دعوت لأمي بالشفاء»

قال الشيخ مبهوتاً:

«اجلس يا ولدي، اهدأ قليلاً»

وتابع وعيناه غائمتان:

«إن أمي ضعيفة، معتلة، ذابلة، بدأت تدعو على نفسها بالموت، ساءت حالتها أكثر بعد العملية، أرجوك سيدي ادع لها، إنها بحاجة إلى ذلك»

وخر باكياً كالطفل المنكوب.

وبصوت رصين أردف الشيخ:

«إن الله لا يحتاج إلى وساطة، هذه أمك قف أمام الله وادع لها فدعاؤك حتماً مستجاب، ومن جانبي سأفعل، لن أتردد ولكن حرقة قلبك ستذلل العقبة وتطلق خباياك بصدق نحو الله»

ثم ربت على كتفه:

«قم وصلِّ لربك ركعتين طلب حاجة وادع لأمك وأنا واثق أن الله لن يخذلك»

أطرق فؤاد خجلاً:

«لكني لا أعرف كيف أصلي وأظن أن الله لن يقبل دعائي»

«لا تكن مسرفاً في التشاؤم، سأعلّمك الصلاة وحاول أن تستمر فيها».

صمت فؤاد وبان الخضوع في تقاطيعه فقد استكانت نفسه وهدأت وكأن فيوضات الشيخ الجليل غدقت عليه بوفرة فاطمأن بعض الشيء واستغرق معه في شتى الأحاديث ثم نهض ليصلي ركعتين وأفاض بعد ذلك بالبوح الخافت وكأن السماء تشهد اغتسال روحه من الأدران ثم أخرج من جيبه شيكاً وقدمه للشيخ:

«وزع هذا المبلغ على الفقراء»

«الصدقة تطهر النفس يا ولدي»

«إني على استعداد لفعل أي شيء فيه خير للناس»

«أنا أقدّر شعورك المرهف وإحساسك الصادق»

وما أن هم بالذهاب حتى استوقفه الشيخ قائلاً:

«بإمكانك أن تحضر محاضرات المركز الثقافي وتشهد الحوارات المختلفة بين أساتذة وفلاسفة وأعلام في الفكر الإسلامي يأتون من الشرق والغرب يتلاقحون فكرياً في مشهد رائع»

«سأفعل إن شاء الله»

صافح «فؤاد» الشيخ فاستبقى راحته في يده وضغط عليها قليلاً وهو يقول:

«أنا واثق أن والدتك ستتعافى بإذن الله»

خرج فؤاد وقد هدأ سيل المطر في الخارج فلفحه نسيم بارد وترك لنفسه العنان كي تنطلق في رحاب الكون تعبئ من هذا الصفاء فقد أدرك الآن أبعاد هذه الروح وانطلاقها إلى غاية أبعد من حدود المادة وأسرها الذليل، تأمل في عذاباته الماضية ورحل في غياب يستقرئ تلك المنعطفات القهرية وانكساراته المتلاحقة، كثيراً ما أخطأ التشخيص وأضاع الدرب وركن لرغبات آدمية يحرضها جسد نهم، ما ألذ شعوره الآن وهو يمس بأطرافه وجعه ويستكشف معالم ذاته المشتتة، يختزل

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الحزن بتنهيدة صادقة ترحل في مساماته نوراً تستضيء به منابت أعماقه، ناجى نفسه وعيناه منتشيتان بوهدة الليل المطرز بنجوم الهداية قد صاغت له الدرب القادم مضيئاً، رائقاً، بعد زوبعة البرد والوحشة والسحب المهتاجة عنفاً تتفرق مطرودة إلى الفناء، حدّث نفسه وهو يتابع الفضاء المزدهر بعرس فضي يسرجه وهج النجوم الفضية، ربما تستطع إحداها أن ترسم له قدراً آخر.

واستل من صدره تلك العينين الموسومتين بحزن خرافي يظل فيه منغمراً رغم هزائمه وإحباطاته كان في بحرهما يسبح مركب إنقاذ ينتشله من قيعان الضياع والخوف، انعتاقهما المبهج كانا في حضرة الليل المبتهج بالقمر تجلس قربه ترتشف الشاي وعيناها شاخصتان نحو البعيد أسرّته في اتصالها الأخير «إنها أدرجت شخصيته في روايتها الجديدة تكتبها كتجربة حيَّة تستمد من واقعها أجمل الملامح تذكّر عينيها كانتا عصفورتين هاربتين إلى المستحيل تشعّان في ليل لقائهما الأخير عنفوان قديسة اعتقلت رغبتها حتى الشهادة، وحضرت ألوانها البكر أطياف حياة، خصبة بكل المباهج والأفراح.

جلس في مقهى هادئ ليشرب القهوة، وقد فكر أن يبعث لها رسالة عبر الهاتف:

«صدقيني منذ هذه الليلة وخيالك لم يبارحني»

انتظر طويلاً وعيناه مصوبتان نحو شاشة الهاتف وأذنه

ترهف للرنة لعلها تستجب، ارتشف القهوة ضجراً يحدق بالمارة ربما الحدث كان فورة انفعالية واستهلكت، لمَ بقت في وجدانه حاضرة حتى هذه اللحظة، عالقة كالوشم في صفحة صدره، تلك الصغيرة كانت يوماً تنشد قصائد شعر على استحياء، هل تراها ربيبة أختها الكبرى «علياء»؟

أخذت من كيدها شيئاً، نفذ صبره فعاد يكتب رسالة أخرى:

«أرجو أن تكوني بخير»

بعد لحظات ردت عليه:

«لقد أتعبني الاستغراق فيك، منذ تلك الليلة وأنا أعاني، أرجوك اغرب عن حياتي»

ارتجت أعصابه وشابه اضطراب، وجنح خياله إلى ما هو أبعد من المستحيل، تارة يشعر بالفرح وتارة بالألم، فربما استوقفته «فداء» على مشارف قلبها خائفة أن يتوغل إلى الأعماق، استعرض في مخيلته ما جرى بينهما، أحس أن في صوتها لهفة وفي إدبارها خوف، لمَ تعرض عنه بهذا الإصرار؟ ويحق لها أن ترسم لوضعهما هامشاً صغيراً، قد عرض عليها أن يصمم لها غلاف روايتها الأولى، تدخله في جحيم المحرمات وأشواك الممنوعات، إنها أول أنثى في حياته تستعصي عليه وتجاهد كي تسد عليه المنافذ، تختبئ في قوقعة صلبة فتثير أعصابه، حتى أنه عرج عليها ذات مساء في الجامعة ليقلها إلى

البيت رفضت واستدارت غاضبة وسددت إليه نظرة جارحة، أرغمته أن ينعطف قهراً ويكابد إحباطاً قاسياً.. نسي زوجتيه، نسي ما هو مقبل عليه، هذه الصغيرة المتشامخة، المتواطئة مع همه وحزنه تسقيه جرعات الإذلال والمهانة فيتقلب في كل ليلة على جمر هواها ملتاعاً.

إنها تتفنن في إثارة غيظه، متذرعة بالالتزام وهو كالتائه المأخوذ لا يعرف كيف السبيل إليها؟، يجري متخبطاً بحثاً عن ذاته ويحس أن ما فيها موطناً لضياعه، وقد هذبت نفسها على العمل معه في حدود الرواية وأسدلت الستار على محاولاته النزوية فظل يصارع بمرارة لعلّه يفيق من هذا الوهم، تنفس الصعداء وهو يستحضر كلمات الشيخ الجليل «عد إلى الله سبحانه، اطلب منه ما تحتاج»، حدّثه بحميمية مطلقة «عبّر عن خلجاتك المدفونة ما تستحي البوح به أمام الناس، تمرّغ على أرض جرداء واصرخ يارب، وتقلّب في صقيع الليل وهداة الكون واستغث «واغوثاه واغوثاه» لن يغيثك غيره سبحانه، ارجع إلى فطرتك الملوثة بغبار الأوهام ومزق عن ذاتك أغلال الشهوة، ارم جراحك في البحر، فوق أعشاش الأرض وابكِ وتباكى، هذه الروح الأسيرة في سجن دنيا عقيمة تترنح سكرى بنشوة حب امرأة»، وأطرق فؤاد يحدث نفسه:

«حبها يارب أشبه بعواء ذئب يضج في صدري ولا يسكت، ظالم، مستبد، قاهر، تراوغني، تقاومني وأريد أن أنتزعها من

قلبي، أجتث جذورها من أعماقي لكني كلما حاولت أحس بها تعود كأقوى ما تكون»

نهض لساعته وقد دفع الحساب للنادل وولى هارباً من قلقه، من أسر دنياه العقيمة، منكمشاً، مطرقاً، يأخذ طريقه إلى المستشفى أيقن أن هذا الشيخ صادق في دعوته ولن يتركه غارقاً في محنته بعد أن قدم هذا المبلغ الكبير للفقراء، وفي المستشفى صادف والده وبلهفة من روّعته المصادفة:

«هل حدث مكروه لأمي؟»

شد الوالد نفساً محروراً قائلاً دون أن يبدي أي ترحيب بولده:

«مازالت على حالها»

وجلس غائماً ووجهه يقطر أسفاً وقنوطاً ثم استأنف هاشم:

«حالتها غير مستقرة»

تسمّر فؤاد في مكانه مرعوباً ثم اندفع بجنون إلى الطبيب، اقتحم مكتبه:

«دكتور يبدو أن صحة والدتي منهارة»

ارتعب الدكتور فرد على الفور:

«اطمئن فالأمر يحتاج فقط إلى صبر، إنها ضعيفة وستتعافى ببطء»

«إنك تخفي عني الحقيقة، كانت مجرد عملية تجميل»

«نعم ولكن حـصلت بعض المضـاعـفـات أثناء العـمليـة وسنتفاداها مع الوقت»

عاد فؤاد إلى حجرة أمه وقد سمعها تهتف باسمه مستغيثة:

«فؤاد، حبيبي»

انكب عليها يقبلها:

«سلامتك يا أمي، انهضي فلن أحتمل رقدتك الطويلة»

«أشعر بالتعب والوهن يا بني كأن طاقتي مسلوبة تماماً وألم في جميع أنحاء جسدي»

بعد لحظات دخلت جميلة وحيّتهم ثم قالت:

«الأسبـوع القـادم سـتـزال هذه الأربطة المزعجـة وحـتـمـاً ستتحسن حالتها وأظنه أمر طبيعي، آثار المخدر والعملية تحتاج إلى صبر»

التفت هاشم إلى ابنه فؤاد قائلاً وهو يرى جميلة لأول مرة:

«زوجتك رائعة يا فؤاد»

وردت هند من وراء الضباب بنبرة متهدجة:

«المسكينة لم تفارقني لحظة، بقيت ترعاني طوال الوقت»

والتقت عينا جميلة بعيني فؤاد وإذا بهما قد جمدتا فمعبد حبهما قد انهار وكل ما فيه قد تلاشى.

أطرقت في أسى وهي تبتسم بسمة شاردة، متكلفة، تاهت في ملامحها المنقبضة.

سألها هاشم بعد أن لمس حرجها:

«كيف حال والدتك الآن؟»

ردت بوجه غائم، حزين:

«إنها تحتضر وقد ودعتها إلى غير رجعة»

ثم انهارت على المقعد باكية، ولا تدري لِمَ تبكي؟ هل تبكي فقد أمها أم حظها العاثر؟ أم حلمها الذي تبدد، هل تبكي رجلاً سلّمته قلباً كالذهب فأرداه في هاوية الإهمال والنكران؟ شاء الله أن يمتحن إيمانها فكانت تتلقى الصفعات بصبر واحتساب.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الفصل (٢٥)

أحرف من دمي

منذ أن عملت «فداء» في صحيفة الأمة وهي لا تترك بؤرة فاسدة إلا وسلّطت عليها كاميرا الحقيقة وألهبتها بحرارة شمسها الحارقة، فكتبت بضراوة الفرسان وبأسلوب شديد اللهجة كان له الوقع الفعّال في نفوس الناس، إذ لمع اسمها في زاوية «شمس الحقيقة» وتناقل الناس اسمها بكثير من الاهتمام والإعجاب، كتبت عن ضياع هوية الشباب المسلم في موجة العولمة الظالمة، وعزوف الشعوب العربية عن القراءة، الإنترنت ومخاوفه، وهجرة العقول إلى الغرب، وأثارت كارثة استوقفت الناس بكثير من الحيرة والتساؤل وتلك هي المجندات العربيات ذات الانتماء اليهودي يتلبسن لباس بنات الهوى ليستدرجن الشباب المسلم إلى علاقات محرّمة محرّضة بغواية لا تقهر فينقلن إليهم مرض الإيدز وقد غرسهن العدو في أزقة اللذة والحانات وفي الفنادق الكبرى كنادلات وسائحات يتفنن في

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

استشارتهم وإيقاعهم في شباك الهوى والفتنة وأغلبهن دخلن بجوازات سفر مزورة، أحدثت هذه القضية ضجة في أوساط المجتمع وتلقت الكثير من الردود والاستفسارات، وعندما ضيّق عليها رئيس التحرير الخناق وأحجم اندفاعها وحماستها انتقلت إلى صحيفة أخرى لتجد نفسها تدور في حلقة مفرغة وكأن هناك هيمنة فكرية على جميع الصحف تشترط حداً من الحرية وسقفاً لا يتجاوز الأقصر قامة كي تتحرك تحته بسلام، فالكلمة المشروطة تختنق حتى الموت والكمام، على الأقلام قتلٌ بطيء للمبدع وهي من تركت نفسها للعمل الصحافي مجندة بهدف رسالي تتدفق في فضائه بلا قيد أو شرط وأحست أن قلمها المنساب مع مجرى الأحداث قد انكسر لفرط ما اختنق فتعذر عليها أن تركز في المعاني والمواقف وتحفرها في وجدان الناس حقيقة، ضاق بها الحال وانطوت في شرنقة الفكر القاتم والناس تنتظر شمس الحقيقة، أن تمدهم بذلك الشعاع اللاهب يوقظهم من سباتهم الطويل ورقدتهم البليدة، سرجوا حول مدارها الوهّاج جدراناً من المخاوف والمحاذير لحجب نورها الفيّاض.. واللهيب ينطفئ ويخفت حتى بقايا ذبالة وفرتها لأيام الأمل تجئ إليها رغم العذاب، رغم الصعاب لكن ثمة أمل يجعل من الجذوة ناراً ومن الذبالة نوراً. عادت إلى بيتها الصامت وقد خلا من أمها العظيمة وهي تحج بيت الله الحرام وأخيها الذي حزم حقائبه بشكل نهائي تسأله مدهوشة عن قراراته المتضاربة وهدفه المبهم وباقتضاب يعلمها أنه سيسكن شقة والده المتوفى.

وهنا نمت البذرة وتظافرت أحاسيس الوحدة والحاجة لتتصل بفؤاد في أوقات متباعدة وتحت مظلة العمل، وبرياء متعمد تداري توقها له وتكابد كي تقمع مشاعرها، حدثته عن معاناتها في الكتابة الصحافية وعقبة النشر وكان يجاذبها الحديث باهتمام إذ أخذ يسرد على مسامعها معاناته في الرسم أول مرة، ويدفعها أن تتجاوز مسوغات الفرار والإحباط وأن تظل كعهده بها قوية شامخة، إنها تعيش في مناخها الخاص وأحلامها المبعثرة، فقلمها الذي نما بين أصابعها الحازمة يدفعها أن تطرق كل الأبواب وكان في اندفاعها لفؤاد أشبه بالصادي الذي برقت أمامه ومضة سراب، ظنت به ظناً حسناً فأسرته بكل لواعجها «يتآمرون عليّ جميعهم، صرت كالثمرة الجريحة أتقلّب على جمر الألم»، وهكذا ينزف جرحها في العراء فلا مغيث وطموحها الإنساني يغلي بإصرار ويدفعها بشوق عارم إلى اقتحام الصعاب وقهر المستحيل، فشمس الحقيقة لا تنطفئ إنهم عرفوها بهذا الاسم وعمل الحسّاد على ذر التراب كي يتبدد الاسم فينساه الناس صرخت في حديثها معه «لن أسمح لهم بذلك» وسعى إلى تسرية همها، تحدّث إلى أحد الأصدقاء وتوسط لها أن تعمل محررة في باب «الشباب» وأبدت نشاطاً مميزاً إذ كان لعينيها الواعيتين كاميرا دقيقة تلتقط أدق الخيوط التي لا تُرى بالعين المجردة لكنها عكفت بعد ذلك على كتابة رواياتها التي أخذت منها جهداً كبيراً وشعرت بكلماتها الهادرة أن شخصية فؤاد هو القلب النابض الذي يمنح

لسطورها حساً وحرارة فإذا بها أحرف تتدفق في دمها تنقشها بتناقضاتها في محطات الزمن حبر من دم ودمع تغامر به صمتاً بعاطفة غامضة نشأت كما الحشائش العفوية المنشأ، مقدرة منذ بدء التكوين، شعرت بصوتها الأعمق يتوارى خلف السطور، مرتعباً، وقفة أمها المتوعدة مازالت منحوتة في الذاكرة تحذرها مغبة التهاون في الذنوب الصغيرة لأنها تتعملق مع غذاء الفكر اليومي لتصبح غولاً يبتلع ذاتنا ويوهن فينا الإرادة فيسلبنا الخيار، وظنت أنها قادرة لتفعل، فلفّها الصمت الطويل والحيرة الكئيبة تقاوم لقاءاته كأنها صخرة الشاطئ العملاقة تتآكل يوماً بيوم يحفر فيها المد المتكرر قدراً غلاباً لا تقاومه وإذا بها تمد له كفين متعبين بدعوة استعطاف «أن أقبل» وتذرعت بالحاجة والمشورة تحيك خيوطها حتى يشتد التلاقي وتتقوض المسافة رغم ذعرها من غموض الحالة، ويدهشها «فؤاد» عندما يطلق سراح أهوائه بجنون فنان رحال ينساب مع الألوان بمزاج ثوري هائج، ملّاح طائش ترك السفينة نهباً للموج يتمايل بمغامرة مثيرة بحثاً عن الشاطئ هي من كانت إلهامه الهادر عبر تمازج انفعالي عفوي فجرت فيه حساً فنياً خصباً فأقبل عليها كإعصار نزق يجتث في طريقه كل صخور الصد وتغلغل عبر متاريس الاختباء ليطوقها بذراعيه كأمنية مستحيلة تستثير هيامه، وتهرب من بين أصابعه وتتسرب عبر المسامات منتفضة صادة:

«رجل متزوج من اثنتين يعيش في فوضى وغموض ماذا يستطيع أن يقدم لها وهو في غمرة هذا العبث؟ غذّت في نفسها هذا الإحساس المرير فلم تشعر بالميل إلى مواصلة العلاقة، لكنه يدك في هذا الصرح الشامخ، يحاول أن يذيب فيها الإصرار دون أن يدرك حجم الألم المكبوت في قلبها وهي تغالب رغبتها، دعته أن يتبع مشورة ذهنه ويفكر ملياً بوضعهما المهزوز قائلة له: «إنها تجتنب خوض أية علاقة من هذا النوع خشية أن تبدد نفسها في جحيم من الانفعالات» ويجيبها بصوته المرتعش وقلبه يخفق:

«أنا سعيد بحضورك الجميل في حياتي، ما شعرت بإنسان شعوري بك»

وتحاول أن تخمد نار كربها قائلة:

«أنت واهم يا فؤاد لأنك فنان يستثيرك الغموض»

يجيبها متضرعاً:

«نتكتم على علاقتنا، نداريها فأنا في حاجة لكِ»

ارتعدت من الخوف، تذكرت أمها وإلهامها الفطري، وحدسها الأمومي الفطن «لا أمل من هذه العلاقة فلنقف عند هذا الحد»

تحولت هذه اليوميات مداداً صافياً يصرفها عن الدنيا ويرغمها على عزلة تصب فيها على الورق سيل معاناتها فتتحدث إليه عبر اختلاجات منثورة، تصيغ بها كلماتها:

«منذ أن رحلت وقلمي ينزف ألماً وحروفي المنطفئة تسكن جرحي، لست أدري كيف أقاومك وقد تركت أنفاسك ترحل عبر شراييني خفقات ألم تنمو في أجزائي حكايات غريبة، مذ كنت صغيرة تأتي إلى بيتنا الصغير مترعاً بالأمل مطيباً بعطر الحياة، مشبعاً، متألقاً بالمهابة، وأظل أرسم طيفك فوق دفاتري مبتهجة تسامرني كطفلة كبرت تحت ضوء الشمس واغتسلت بنور أشعتها راهبة في محراب الكلمة، أدرج عناويني على صفحات الذكرى، أيها البعيد، قف معي متشامخاً نكسر طوق جمودنا ونشب من وهن الحب لنرحل في سماء الله عصافير شوق تنثر بذار الأمل فوق روابي الحب، انهض من كبوتك فالحب الذي كبّلني بقيدك استفرغ عقلي وأنهك قلبي، لست فتاة ضائعة أبحث عن مرفأ، فالشطآن الساكنة لا تستهويني، أنا من شكلتني الأقدار قنديل نور أسرج من ضوئي مصابيح هداية، لا تعجبني هشاشة روحك وترددك في قمع نزواتك، جئت لتقتل إبداعي وتجتث جذور حياتي وتقطع أغصان نضارتي أريدك بطلاً يلهم قلمي شعراً، أحبك خنجراً في خاصرة عدوي، أحبك أن تنهض من رقدة الغفلة وأن تكبر قسماتك الطفولية لتتضج فارساً تحطم معاقل الصمت حول حدائق خوفي، اهزم جنونك الموبوء بجراثيم الأنا والرغبة، اتركه منسياً في حاوية النسيان، سأحبك بعزمك تتعاظم على صغائر الأشياء، وتكوّن من هزائمك النفسية عبوة تنسف خطاياك وذنوبك.

«فتذكّر دوماً أنني شمس الحقيقة ولن أقول سواها»

تركت الأوراق جانباً وهي مستغرقة في فكر عميق، شدت جذعها في ثقة وكأنها استطالت بانتصارها، ذلك النصر المختبئ في الأعماق والأشد وطأة على النفس حينما تصارع وتكابد من أجل الحقيقة وإن كانت ضد أهوائنا ورغباتنا الدفينة، أحست أنها تنتصر لأمها، لقيمها، هذه الأم وطنت نفسها على ذبح أناها الشرهة حينما تطمع في ابتلاع كل شيء في نهمها اليومي تستعذب الجزيئات الصغيرة ثم الأكبر فالأكبر، فمهما كان للحب مذاقٌ كالشهد فلمر الحقيقة لذة تستمرئها النفوس العظيمة على مر الزمان.

ستنشر هذا الفصل في مجلة الآداب وسيعلم فؤاد أنها رسائل حب مخضبة بدخان تغتال الكذب وتقتل الزيف.

صولة شامخة

كانت حالة «علياء» تثير المخاوف، فقد عادت من رحلة الحج والحُمَّى تلازمها، اتخذت ثريا كل التدابير والحيل كي تشفي ابنتها من هذا الفيروس الذي ألم برئتيها فأمست ناحلة العود شاحبة، مصفرة أجرى عليها طبيب مختص بعض الفحوصات الدقيقة وصرف لها المضادات الحيوية وبعض المقويات لتقاوم المرض.

ارتبك الجميع وشاعت الفوضى بينهم مترقبين وضع علياء الحرج وأخذ الطبيب يوضح للزوج أن الفيروس يحتاج إلى فترة طويلة لاستكمال دورته وقد اطمأن مخلص لتشخيصه وعوّل على الدواء أن يأخذ مفعوله مع الأيام.

وما أن انصرف الطبيب حتى اقتربت ثريا من سرير علياء، جثت قربها تبادلها الكلام وتمسّد جبينها المحتقن وفحيح أنفاسها اللاهب بحرارة الحُمَّى يملؤها بالذعر:

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

«تصبري يا ابنتي فأملنا بالله كبير»

اغتصبت علياء من جوفها المنهك ابتسامة واهية متمتمة:

«سامحيني يا أمي فقد أسأت لك وها أنا أنال عقابي»

استعبرت ثريا وشدت على كف ابنتها مشفقة:

«إن ما حدث كان أشبه بمفارقات وأحداث رتبها القدر كي يعرف كل منا موقعه من نفس الآخر فهذا الرجل لم يُخلق لنا يا ابنتي»

أقبلت «فداء» على أختها تحدثها حديث الأخت الحنون مستعلمة بإشفاق عن حالتها:

«تشجعي يا علياء فأنت قوية، صلبة، والحمد لله كان مرضك غفراناً وعطفاً من الله، ستتعافين بإذنه سبحانه.

كانت ثريا مطرقة تهيم في فكر شارد، ثمة خاطر يستحوذ على اهتمامها رفعت رأسها في تؤوده متنهدة وإذا بفداء تترقبها في صمت ولما التقى بصرها الغائم بلحاظ فداء، تراءى لها أنها حدست ما يختلج في أعماقها وان ابنتها استقرات باطنها وسبرت حقيقة العلة التي تقلقها.

بصوت يفيض حنانا تطمئنها فداء:

«لا تحزني يا أمي سيعود، حتما سيعود إنها مجرد نزوة»

بيد أن الأم شابها شيء من الحدة والغضب فانطلق لسانها بسيل من الاتهامات والتجريح:

«يتركنا في أمس حاجتنا له، لقد تغير عماد منذ تلك الرحلة المشؤومة لقد جفاه قلبي، لم يعد له مكان فيه خصوصا بعد أن أتى بهذه الساقطة».

توقفت عن الكلام لكن دموعها المنهمرة عبرت عن حزنها الدفين.

طوقتها فداء بذراعيها:

«لكم أذوب شفقة عليك يا أمي، اغفري لعماد فقد ضل طريقه»

صرخت ثريا محتجة:

«لا أطيق أن يذكر أحد اسمه أمامي، يا الهي كيف لا ينتبه هذا الأحمق إلى الخديعة التي أوقعته بها هذه المرأة»

واستتلت:

«امرأة تكبره بعشرة أعوام صاحبة تجارب، مجهولة الهوية والانتماء كيف يستسلم بهذا الجنون لحبائلها، ماذا دهاه؟ ماذا فعل بنفسه؟»

ثم التفتت بغتة إلى علياء ووجهها ينقبض:

«الحمد لله أنك تركت هذه الشركة النحس، ليت عماد يفعل مثلك ويبدأ البحث عن عمل جديد»

لم تجبها علياء إلا بهمهمات متقطعة غير مفهومة.

قالت فداء بشيء من التأكيد:

«قلبي يحدثني أن عماد ضحية مؤامرة، لا أظن هذه المرأة تحبه أعتقد أنها طعم فاسد سيرديه موارد الهاوية»

هدأت ثائرة الأم فور دخول مخلص انبرى يسأل في جزع:

«كيف حالها الآن؟»

اقترب من زوجته يتحسس جبينها قلقاً:

«ما زالت الحرارة شديدة، يستحسن تخفيضها ببعض الكمادات الباردة»

نهضت فداء لفورها:

«سأفعل ذلك»

تركت فداء الغرفة ثم تبعتها الأم وقد اتخذت لها ركنا منعزلا لتقرأ القرآن الكريم.

تسألها فداء:

«ماذا تفعلين يا أمي؟»

زفرت بحرارة وأسى:

أستخير الله وأسأله عن حالة ولدي.

«ما رأيك لو تجلسين معه في حوار هادئ لمباحثة الأمر أما وموقفك المتصلب فلن تجنين من ورائه سوى النفور»

«اعلمي أنني زرعت فيه كل قيم الشهامة والرجولة منذ صغره ولا أظن أني قادرة على تقويمه ثانية، سأتركه في غيه ليذوق مرارة الخطيئة كي تلقنه الأيام درسا لن ينساه أبداً».

أجفلت فداء مذعورة والدهشة تعقد لسانها عن التبرير فكيف تنقلب هذه الأم الحنون إلى أخرى قاسية بهذا الشكل المخيف وانتهت بخواطرها إلى حاضرها المبهم وهمسها الخافت تداري خفقاتها الخرساء بخوف وقلق فلأمها رادار حساس يخترق نسيجها حتى المنابت فتنتبه إلى شواردها الهاربة وخواطرها السارحة بانعتاق وهيام.

عادت بإناء الثلج ولفائف الشاش لمخلص ثم خرجت وهي تغلق عليهما الباب ولازمت أمها الغاضبة تحاول تسرية همها، وبذكاء أدارت دفة الحديث لناحية أخرى متوجسة أن تنتزع أمها ما في داخلها من مشاعر:

«أوشكتُ على إنهاء الفصول الأخيرة من الرواية»

وضعت ثريا القرآن جانبا واعتدلت في جلستها مصغية لحديث فداء فبادرتها:

«كم أنا فخورة بكِ يا فداء فأنتِ المتميزة عن أولادي، حددتِ

هدفك في الحياة وآمنت برسالتك ككاتبة، هكذا غرست فيكم طوال رحلة كفاحي في الحياة أن ينمو الإنسان باستمرار فالنمو سعادة عظيمة لا تنضب بنضوب الماديات من مال ومركز وقوة.. في أسوأ الظروف ممكن أن يعيش الانسان متناغماً مع نفسه طالما يعمل وينجز وينمي ذاته ويحقق أهدافه كنت أوجهكم وفق نهج سليم إذ خشيت عليكم من الضياع فتجربتي مع والدكم كانت مريرة، عاثرة ولم أنحن أو أنكسر توسمت أن يكون لدموعي ودمي وعرق كفاحي حوافز تدفعكم للنجاح في الحياة، لكن اتضح أنها تبددت في الهواء وذرتها رياح الجحود والنكران»

«دموعك غالية يا أمي أرجوك لا تندبي حظك هكذا وكأن الدنيا انقلبت ضدك، عليك بالدعاء لعماد أعرف أنه نكأ جرحك بلا رحمة، لكن..»

قاطعت فداء غاضبة:

«لكن ماذا؟ تبررين فعلته الدنيئة»

بصوت يشوبه شيء من الخجل:

«لقد تزوج»

عظت على نواجذها بحدة:

«من ساقطة! ترك البيت في وقت حاجتي له، لعن الله المال الذي يغيِّر الإنسان بهذا الشكل السافل»

ثم أجالت النظر في أركان الحجرة وهي تنطق بآثاره يترك في قلبها الحسرة والأسى، أدواته المبعثرة، المذياع، منشف الشعر، علبة المحارم، عبوة العصير التي غالبا ما يتناول الجزء الأقل منها ويدفع بالباقي لأمه التي اعتادت ممازحته قائلة تشرب النصف الأقل والجزء الأكبر تتركه لي يا لإيثار الأبناء، فواتير، قصاصات ورق، يبعثر أشياءه الحيوية في كل مكان وبلوعة الذكرى تترمض في غيابه فكل شيء مقفر، منطفئ، تمالكت نفسها كي لا تبدي إلحافها عليه، وتصلبت حتى ترغمه على الانحناء والاستغفار.

فجأة افتر عن ثغرها ابتسامة متكلفة واستطردت وهي تبلع ريقها:

«قرأنا في إحدى الصحف السعودية تعليقاً على مقال لكِ صدفة ونحن جالسون في ردهة الفندق، التقطت علياء الصحيفة وقرأت على مسامعنا».

بترقُّب وانشداه جميل تسأل فداء:

«ماذا كتبوا؟»

«قالوا إن قلم شمس الحقيقة سيظل شامخاً يكشف الحقيقة المستترة عن الناس، ورائع في هذا العصر أن تناضل شابة بقلمها في عصر غيب القيم والمبادئ»

ومضت تسأل باهتمام:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«عن أي مقال كان التعليق؟»

صمتت الأم تقلّب صفحات الذاكرة حتى عثرت على الفكرة:

«أظن ثقافة الهمبرجر»

تأكدت أن هذا المقال قد تداولته المنتديات الثقافية عبر الانترنت.

ران الصمت على الاثنين فإذا بالأم تنسف هذا السكون عبر مفاجأة ساحقة كانت قد ادخرتها لظروف أفضل:

«لقد خطبك «مراد» ابن خالة مخلص، دار هذا الحديث بيننا عندما كنا في الحج، يبدو أن مخلص قد أسر لعلياء وأفضت لي بذلك، فرحت كثيرا يا فداء أعرف أنهم عائلة طيبة شبابها كادحون، مثقفون، متدينون، ومراد محام خريج السوربون»

تسمرت فداء في مكانها، شابها فتور واعترتها دهشة

صاحت الأم:

«ما بكِ؟ ظننتك ستفرحين»

طافت في رأسها الخيالات وشرد الفكر ناحية فؤاد وبلسان متعثر:

«لست مهيأة نفسيا للزواج الآن»

لم يكن لثريا طاقة كي تتجاذب معها في هذا الحديث فاختصرت الأمر قائلة:

«فلتعافي أختك ثم نتحدث لاحقاً»

وفي ساعة متأخرة أقبل عماد وقد بدا منحنياً مطأطأ الرأس حدجته أمه بنظرة فاحصة دون أن تنبس بأدنى حرف، دنا منها محاولا تقبيل رأسها لوحت بذراعها معترضة وسحنتها تنقبض بانزعاج.

أجفل مذعوراً:

«هل أصبحت ممقوتاً الى هذه الدرجة؟»

وبإصرار:

«وأكثر من هذا»

وبصوت مخذول ونبرة كسيرة قال:

«على العموم بذلت كل وسعي لإرضائك»

استجمعت قواها الخائرة واستطردت كمن يطلق حكم الإعدام:

«تذكرني بأبيك، يوم جاءني بقرار الزواج من أخرى فتركني من أجل شهوة المال، والآن تفعل الشيء ذاته شهوة الرغبة الذليلة، حب امرأة ساقطة لم أعد أقيم لك وزنا وقيمة في قاموس حياتي، أطردك حتى لو كنت ابناً عزيزاً»

ارتعدت فرائصه واغتاظ وأوشك أن يرد عليها لكنه أمسك عن الكلام حدجها بنظرة غاضبة وفر منها هارباً يزبد ويرعد

ثم صفق الباب بشدة تشامخت ثريا في جلستها وكأنها تتعالى على جرحها ونكبتها واستلت من أعماقها المضطربة ذلك العناد المكوَّن في نسيجها، الصوت الهادر منذ سنين وهم يترقبون سقطاتها وتواجه بمنعة وجلد لم تزدها الأيام إلا قوة وصبراً، تركت أهواءها مسحوقة تحت أقدامها واستظلت بمظلة الرحمة الإلهية والقدرة الربانية التي تستمد من فيوضاتها إلهامها الكاشف لغموض الأشياء.

تقف «فداء» عن بعد تختلس النظر بترقب قلق، ترهف السمع من وراء الباب الموارب تشهد صولة أمها الشامخة وهي تطأ الموقف بحوافز عزمها وثباتها فلا تراوغ أو تهاون حتى وإن كان الخصم فلذة كبدها العزيز، أطرقت تفكر، انكسارات أمها المتلاحقة كيف تخلق منها شخصية فذة وبطولة ذات تقاسيم صارمة، هي من تجعل للأحرف صوتاً وحرارة.. سأكتبها معلَّقة على جدران المدينة الهزيلة فالعولمة جسدت الأنثى في شكل صنم جميل قد تحول صلصاله الى نفايات وعدم.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

القصة (٣٧)

قرار منع الحجاب

أخذت «هند» تتعافى ووطأة الألم تخف بالتدريج وتمسك عن الأنين بفعل جرعات المورفين التي ساعدتها على النوم ليلاً، لكنها غارقة في الحزن والصمت، تجفل من زائريها وتؤثر الوحدة والانطواء، يئس زوجها من تهوين خلافهما واحتواء المسافة بينهما، إذ بدت جارحة، عصبية تجتاحها نوبات من الهستيريا المنفرة إذ يتفرق عنها الزائرون متجسرين على أسطورة الجمال والأناقة وقد شوهت مخالب الزمن المر محاسنها، ويبرر الطبيب أنها حالة طارئة قد تزول بعد فترة طالما أحيطت بالحب والحنان... وكان يعلل أنها ربما لم تقنع بشكلها الجديد وتحتاج إلى فترة طويلة كي تتناغم قناعاتها الداخلية مع وجهها الجديد.

تجلس لوحدها في انزواء مشحونة بعدوانية مكبوتة، هذه الفنانة المرهفة شوهت السنين ملامحها الداخلية وظنت أن

استعارة الصبا المتكلف قادر أن يعيد لها توازنها، انطفأت داخلها تلك الحيوية النابضة بالأمل، تشاجرت هذا الصباح مع الممرضة وهي تقترب منها لتقيس حالة الضغط، زجرتها بحدة جعلت من طبيبها المعالج يتناول وضعها باهتمام بالغ فهذا الانقلاب المريع في سلوكها أرغمه أن يحتجزها في حجرة خاصة، لأنها شذّت عن الأخريات ممن أجرين نفس العملية، هذه المرأة حالة معقدة أدرانها الضاربة في خلاياها تحتاج إلى جرّاح من نوع آخر، تحيّر فؤاد في أمره وهو يقاوم ضغوطاً من كل جانب وبذلت (جميلة) وسعها في احتواء أزمة «هند» بل أظهرت إخلاصاً ونبلاً ما جعل فؤاد يغوص في الحرج، فقد لام نفسه كثيراً ولا يملك زمام قلبه الذي نفر دون أن يعلم أسباب هذا النفور، فالنائية التي تكتب فصول روايتها توقظ فيه ذلك الشغف المثير، يتابع الصحيفة الأسبوعية مستغرقاً في حلقات الرواية، يحدثها في أوقات متباعدة عن همه الأزلي ويطعم قلمها المدرار شوقاً إلى الاستكشاف والرحيل في الأبعاد حتى النهايات فتكتب مستعلية على مشاعر تكابدها صامتة لكنها أترعت بقيم رائعة، هذا الرجل تسيّد بطلاً لقلمها الهادر، مازالت آلام المخاض تنهك قوته وتشحذ فيه صراعاً شرساً، فيحاول أن يغالب ضعفه، ويظهر مقاومة باسلة وهي تترقبه عن بعد.. كلماته تفضح خباياه، قراءاته لذاته وهي توقظ فيه أملاً جديداً إنه يبحث فيها عن كماله المنشود، ظنها أنثى مستحيلة يبقى يتعبد في مدار قرصها المتوهج لأجل غير مسمى، فتطهره

بعاطفة مقدسة، تخرجه من شرنقة الضعف والانهزام النفسي إلى عنفوان الرجولة والتشامخ على الملذات فأوشك أن ينتفض ويتهيأ لعهد مشرق، استأنف زياراته للشيخ عز الدين الذي وقد كشف له آفاقاً واسعة في الحياة وزرع في ذهنه فكرة جهاد النفس والاستعلاء العقلاني على الشهوات، قدم له الكثير من البرامج التربوية والتعبدية وإذا بحواسه غير تلك الحواس، وإذا بالشبق يتورّع استحياء، فكل ما في قلبه مستنقعات رديئة أخذ الطمي الملوث يجف من قنواتها لترفد فيه تلك المياه الصافية بانهمار عذب، تغتسل من تجاويفه القروح والسموم.

كان مستعداً هذا المساء لحضور ندوة فكرية في مسجد الدعوة في باريس عن «الانفتاح الحضاري» فيما مضى كان متردداً بعض الشيء قانعاً أن ما يحدث سوى الغام بشرية تنثر الأبرياء شظايا على الأرصفة والطرقات تخط بالدم المسفوك صكوك الجنة المزعومة لتدخلها الأفواج بالمجان، ولهذا ترك ما لله لله وما لقيصر لقيصر، عاش حياته من منطلق ذاتية محضة معزولاً عن البشرية لا يفتأ يتحدث عن معتقدات الدين إلا بمقدار ما يثيره الحدث في اللحظة الآنية، وقد سلك الدرب الآن بحثاً عن ذاته الممزقة، بدافع من فطرة عطشى ضاعت في دروب الشتات بحثاً عن ضالتها وإذا بكل ما تمنته سراب، وعند اكتمال الدورة ونضج النفس اللوامة ركع لخالقه متضرعاً، محتاجاً، تسرب إلى جنباته ذلك النور الهادئ، ومضة تلد ومضة

تغرس له في كل حدث درجة من درجات الصعود، فإذا بريشته العاجزة تدب فيها الروح بعد طهارة مصل تغلغل في المنابت فازدهرت بألوانها تغمر الكون بعذب الأحاسيس.

وتخاتله في لحظات الانعتاق هجمة تمرد صارخة تبقيه أرقاً موزع البال، مضطرباً، يحاول أن يفك رموزه مستثنياً وضعه كفنان مرهف يجد مشقة في تجزئة هذين الكيانين الإنسان والفنان يتعاقبان عليه كليل ونهار، فهذا التكوين الانتقائي يجعل للإبداع فلسفة لا تدرك إلا بالتجربة الصعبة، تعب في هذا المشوار ووهن الفكر، يسأل مرشده الشيخ:

«أتعبني حب هذه الفتاة لا أعرف كيف أتخلص منها، حاولت أن أنساها، أواري صورتها الثرى بيد أنها تلك الشمس التي لا تُقهر، مستبدة في اشتعالها الحارق»

قال له الشيخ وهو يرافقه إلى قاعة المحاضرة:

«لكنني شعرت أنك تستضيء بها، ألمح في خطواتك حزماً وثباتاً، يا بني البلاء نعمة وحرمانك منها يصبغ شخصيتك بشكل أقوى وأفضل»

«بت لا أفهم ما تقصد، تارة تقترب وأخرى تبتعد، حتى ظننت أنها تتلاعب بمشاعري»

ربت الشيخ على كتفه وهو يقول ممتعظاً بعض الشيء:

«نسيت المسكينة زوجتك جميلة، أمسكت عن البوح بعد أن

شهدت صرح زواجها يتهاوى أمام عينيها وهي عاجزة، وحيدة، محبطة، فكر في مصيرها، في ابنك القادم، إنها تتردد عليّ باستمرار تسألني عن وضعها بعد الطلاق»

«أنا لا أفكر في طلاقها، لقد صنتها وحفظت حقوقها كاملة، لكني لا ملك أن أهب لها قلبي كالسابق»

عند مدخل القاعة استقبلهم شاب يافع يحمل مجموعة من البروشورات رحبّ بهما، وما أن استقرا في مكانيهما حتى أقبل جمع من الرجال حول الشيخ يتجاذبون معه أحاديث شتى بعضها أسئلة فقهية وبعضها استفسارات مختلفة في قضايا اجتماعية وشؤون ثقافية، افتتح المحاضر الجلسة وهو يندد بهذه الهجمة الشرسة على الإسلام والمغالطات الكبيرة التي استفرغته من حقيقته، العالم الآن يتخوف من المسلمين بعد أن برزت جماعات متطرفة غامضة المصدر، سطحية التفكير توغل في القتل والإرهاب حتى سلطت فكرة الخوف في القلوب، بات العالم يعيش الآن على فوهة بركان ينتظر المجهول بشيء من الرعب والذعر، سيارات مفخخة، أشلاء بشرية تتناثر في كل بقاع الأرض، عقائد تذعن في سلب حق الآخر في ممارسة طقوسه وفكره، منطق متوحش يلغي الإنسان من خارطة الكون ويجرده من حقوقه، وقد اجتمعنا هنا كتّاب وأدباء ومثقفين من جميع أقطار العالم لنوثق الفكر الإسلامي الأصيل الذي يعتبر الناس صنفين كما يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه

السلام، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، نحمل على عاتقنا مسؤولية تصدير الفكر المحمدي المصقول الذي لم تشوهه جارحة أو شائبة، أدخلت عليه التيارات الفاسدة الفكر حالة عدوانية صارخة حتى بتنا لا نفهم هذا التحول الجديد في عقائد بعض المسلمين وسعيهم الحثيث على تدمير البنى الإنمائية في الإنسان وحرق الأخضر واليابس تحت مظلة الجهاد وتسويق هذه الفكرة بطرق مشوهة تشذ عن الطبيعة الإنسانية الداعية إلى السلام، اليوم نتحدث أيها الأخوة الأفاضل من حنجرة واحدة رغم اختلاف الطوائف والانتماءات المتعددة محاولين أن نلتحم بشريان الإنسانية الواحد كي نلتقي على مرفأ سلام ونتحاور بانفتاح لننسج معاً ثوباً جديداً لجسد الإنسانية المرتعش فرقاً نحميه من برد الضياع، من وحشة الدرب المظلم، دعونا عبر هذا الفكر الحضاري نخرج العالم من غياهب العتمة والظلام إلى نور الحقيقة والسلام، يكفينا دماراً واستنزافاً للطاقات والثروات والجهود لابد أن نعمق فكرة السلام لأن كل الأديان الإلهية تدعو إلى «الدخول في السلم كافة» والتركيز على نظرة الإسلام للإنسان باعتباره الموجود الذي كرمه الله وصان عزته وجعله خليفة على الأرض، لا يمكن للحضارات أن تتقدم في ظل هذه الصراعات التي تمزق المجتمعات إلى كيانات ذاتية وعنصرية وعرقية وطائفية وتشغل البشرية عن همها الأوحد «البناء والإعمار» ولو سألنا ما هو سبب انهزامنا الحضاري وخوائنا الفكري لأدركنا على الفور

هذا السبب، التناحر الذي يسوغ البعض له مبررات غير منطقية، ناهيك عن تجردنا من «العزة» واندثار مفهوم الكبرياء كقوة ديناميكية وطاقة حرارية تدفع الشعوب إلى الأمام وتصعّد دائماً من حالة الشغف إلى اقتحام المصاعب والتحديات وسبر الأغوار والمجاهيل، فالعزة في الفرد والجماعة تدفع دائماً باتجاه تصاعدي طموح رافضاً الرضوخ لواقع رتيب أو راضياً بأقل القليل، دائماً هناك ثمة حركة دؤوبة، صراع من أجل التقدم، عمل، كفاح، ابتكار، اكتشاف، تجديد إنتاج كما يقول الله سبحانه «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه» هو ذلك التألق الجميل الذي يجعلك مختالاً بإنجازاتك لتناطح بها العمالقة مفتخراً بما تصنعه قريحتك من ثقافة وفكر وعلوم، السعي للتكامل على حساب الراحة الشخصية والعكس تماماً إذا تسربلنا بثياب الذل ستتشل فينا الطاقة وتنعدم الكفاءة ويتوقف التطوير سنبقى تابعاً ذنباً، مطأطئ الرأس، مهزوزو الثقة لأننا نستهلك، نتلقى الفتات، ننشغل بتفكيك قوانا وتبديد ثرواتنا وقتل روح السلام فينا عبر تسييد قيم بائدة تذكرنا بقانون الغاب، القتل وتكفير الآخر وإهانة الإنسان وإثارة الفتن وتوجيه العقل البشري نحو دمار الإنسانية وهو الذي خلق للبناء والتمية والتآخي، لابد أن ننتزع فتيل الفتنة ونمد يد المصافحة الحميمة للجميع لنتعايش بمحبة وسلام تحت ظلال الإنسانية التي فطرت على الحب، هذا العقل خلق ليفكر من أجل أن يحمل مشعل البناء الحضاري كراية هدى نحو آفاق البشرية

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الأبعـد، كل المفكرين على مـر التـاريخ دعـوا إلى هذا المبـدأ وناضلوا من أجل أن تبقى الشعـوب طليقـة الفكر واليـدين كي تنتج وتشق لها طريقاً في العالم الكبير، دعونا نخلّص البشرية من آفات الظلم والاستكبار والقتل والفقر والجهل عبر تعاون إنسـاني كـبيـر وتلاقح ثقـافي يثـمر بعطاءات زاخـرة المعـاني تستثمرها الشعوب الفقيرة والغنية كي تعيش في اكتفاء شـاكرة نعم الله عليها.

والحمد لله رب العالمين.

ووسط ضجيج التصفيق الحار وذبذبات الانفعال والتشنج تشق الصفـوف هذه المرأة تمشي على وهن، صـعـدت المنصـة بلهاثها الثقيل حتى اتخذت مكانها، اضطرب فؤاد راح يتملى في وجـه الشيخ مدهوشاً يستنطقه إن كان استدراج مخطط له مسبقاً أو مصادفة لا تحمل أية دلالات، أشار له الشيخ أن اصمت، اشرأبت الأعناق في شغف بانت علامـاته في تحديق عيونهم، هذه المرأة المناضلة تركت أحزانها تدبر دون انحناء قد شكلتها في انقلاب عقائدي متين وصاغتها صياغة قوية حتى تعذر على الهم أن يستوطنها، شدت نفساً عميقـاً وهي تقلب صفحاتها وتستحضر في الذاكرة تلك المنعطفات التي تجعل الإنسان أقوى من الهزائم والخيبات، عندمـا قبلها في خدها الأيمن لانت عـريكتها واستعذبت خورها حتى خيّل لها أنها مدخـرة في الزمن لأجله فقط سرعـان مـا انجلت بعنفوانها

الأنثوي تستجلب هواء بفنونها العذبة فتنعمت بفيضانه زمناً حتى الصفعة في خدها الأيسر وإذا بداخلها نمرة شرسة تشحذ مخالبها تحفزاً لكل الانهيارات النفسية، لن تتراجع ستطالبه بحقها المشروع وبأثر رجعي وستمضي رحلتها معه مستنفرة كل ما فيها من طاقة صبر.

التقطته من بعيد عبر عينين غائمتين فوجدته منكمشاً في محله لا يكاد يستقر له طرف، فلأول مرة يجمعهما وسط اجتماعي مفعم بالصخب، لها هيبة تحبس الأنفاس، هل جاء بها القدر خارج إطاره الخاص ليذعن في إيلام ضميره؟ أم هي محاولة أخيرة لاستثارة قلب خمد نبضه، ترك نفسه تنساب في كلماتها وهي تستطرد في مسألة الحجاب:

أنا فرنسية مسلمة، ويؤلمني جداً أن تم حظر ارتداء الحجاب في المدارس الفرنسية وللأسف ندعو للعدالة والانفتاح في بلد كان السبّاق في العالم حول هذا المبدأ.

تصوروا ٧٠٪ أيدوا قـرار المنع واتسع هذا القـرار ليـشـمل القلنسوات اليهودية والعمامات التي يرتديها السيخ والصلبان، هذا معناه أن هناك توجساً فرنسياً عاماً من الحجـاب وهذه أكبر دعاية ضد دعاة الحضارة من حيث لا يشعرون، ففي هذا الأمـر قمع للنسـاء المسلمات ورفض لهوية المسلمين، ففـرنسا تسـتـوعب أكبـر عـدد من المسلمين، في أوروبا حـيث تشـيـر الإحصاءات إلى أن أعـداد المسلمـين في فرنسا تتراوح ما بين

٥ و٦ ملايين، المسألة مازالت قيد البحث والإثارة، والحديث لم يكتمل بعد حول تداعيات هذا القانون، والملابسات المحيطة بإصداره وتطبيقه، عندما ندعو إلى الحوار الحضاري لابد أن ينفض الجميع عنه كل شبهات التضليل ويبرئ نفسه من الاتهام حتى لا ندينه بأفعاله.

إننا مسلمون هنا من حقنا أن نمارس حياتنا وشعائرنا كما يفعل المسيح في بلاد المسلمين، في الماضي كان الإسلام ممثلاً في المغتربين أما الجيل الجديد فهو مسلم ديناً وفرنسي وطناً وقد مر الوجود الإسلامي في فرنسا بمراحل، بدأت بالاغتراب للعمل بعدها يعود كل إلى وطنه ومنذ عشرين عاماً تقريباً بدأت الأوضاع تتغير وأخذ المسلمون يميلون إلى الاستقرار ولله الحمد، فإن المسلمين منذ وجدوا في فرنسا [1] لم ينسلخوا عن دينهم، لكن الفرق يتمثل في أن الفترة الأخيرة شهدت بعض المظاهر الدالة على استقرار المسلمين، مثل الأماكن التي يجتمع فيها المسلمون للصلاة والتفكير في فتح مدارس مازالت في بدايتها لتعليم الجيل الجديد مبادئ اللغة العربية ومبادئ الإسلام، فرنسا كلها ربما لا نجد فيها إلا مدرسة ثانوية واحدة افتتحت منذ عامين، عدا عن مظاهر اللباس إذ بدأت المرأة المسلمة تعبر عن هويتها من خلال زيّها الإسلامي.

---

(١) مقابلة مع الشيخ العربي «كشاط» عميد مسجد الدعوة في باريس/ حول قرار منع الحجاب - مجلة زهرة الخليج - العدد ١٣٤١ والتاريخ ٢٠٠٤/١٢/٤ زاوية حوار.

هذه المظاهر للاستقرار الإسلامي في فرنسا هي التي لفتت انتباه أصدقائنا وإخواننا الفرنسيين من غير المسلمين فبدأوا يتساءلون والبداية كانت في أواخر الثمانينات عندما قرر عدد من الفتيات ارتداء الزي الإسلامي فثارت ضجة خفتت بعد حين لكن شيئاً فشيئاً ومع انتشار الوعي الإسلامي بدأت بعض أخواتنا يرتدين الحجاب، وأصبحت هذه ظاهرة لافتة للانتباه بالنسبة إلى مجتمع علماني، حتى قررت الدولة منع الفتيات المحجبات من دخول المدارس.

تعرفون أن الغرب كان منذ مدة ضحية لصراعات أيديولوجية بين الدين والدولة وشهدت أوروبا عامة وفرنسا خاصة صراعاً عنيفاً بين سلطتين هما السلطة الدينية المتمثلة بالكنيسة والسلطة المتحررة المتمثلة بالعلمانية، والعلمانية هي التي حررت فرنسا من ضغوط كثيرة ولهذا يخشى الفرنسيون أي شيء له علاقة بالدين ويفترضه نوعاً من التخلف والتقهقر، يضاف إلى ذلك عامل الجهل بالإسلام، فالغرب لا يعرف شيئاً عن الإسلام إلا ما تقدمه وسائل الإعلام ونعرف ما تعرضه الفضائيات من إرهاب وقتل وتخويف وتضليل وما إلى ذلك، يحدث هذا في غياب سياسة إعلامية رشيدة تساعد الناس على فهم الثقافات، علاوة على أننا نحن المسلمين مقصرون في التعريف بديننا فكراً وسلوكاً، إذ ينبغي للمسلم الذي يعيش في الغرب سنوات أن لا ينكمش أو ينعزل، بل يجب عليه أن يخالط

www.mlazna.com-RAYAHEEN

المجتمع الذي يعيش فيه وأن يتعرف إليه ويعرفه بنفسه، هذه إحدى ملابسات رفض الحجاب ولعلّ هناك ثمة تحضيرات كانت لها اليد الطولى في تسريب هذه الفكرة فمنذ فترة كثر الحديث عن قضية الحجاب وبدأ التحضير بما يعرف في علم النفس بإدخال القضية حيز الشعور إذ أصبح شعور المواطن الفرنسي مسكوناً بهذا الأمر وكانت التفاسير الأولى التي قدمت له عن الحجاب بأنه شعار نضالي وهو بالتالي يدرج في إطار ما يُسمى بالتطرف والإرهاب، وقيل أن المسلمين بصدد اكتساح فرنسا واجتثاث أثرها والقضاء على هويتها وما إلى ذلك في ما يمكن أن نطلق عليه حملات تخويفية، وفي غياب معرفة واضحة لدى الرأي العام حول ديننا ومقومات ثقافتنا أصبح الرأي العام يردد ما تطلي عليه الإشاعات، وأجري استطلاع للرأي كشف وجود معارضة واسعة للحجاب وأن هناك نسبة ضخمة تؤيد إصدار قرار بمنع الحجاب، وبناء على ذلك أمر رئيس الجمهورية بتشكيل لجنة خاصة من المثقفين ضمت مسلماً واحداً فقط للنظر في الموضوع وشهادة للحق والتاريخ فإن عدداً من الشخصيات الفرنسية استقالت من تلك اللجنة وهي شخصيات لها وزنها الثقافي وذات تأثير في الرأي العام من بينهم أستاذ للدراسات العليا في السوربون وباحثة في المركز العلمي لأبحاث الدراسات القومية قالت إنها ليست مع الحجاب لكنها ترفض أن يصدر قرار بمنع البنات المسلمات من ارتداء الحجاب، ومع الأسف صدرت القرارات السياسية قبل أن تقدم

اللجنة قرارها النهائي وهذا أمر معروف والصحافة كتبت عنه وبعض أعضاء اللجنة غضبوا واستنكروا ظهور مسؤولين كبار يعلنون أعمال اللجنة في التلفزيون قبل أن ترفع اللجنة قرارها إلى الرئاسة.

اعترضت حديث جميلة صحافية فرنسية وسألت باستنكار لماذا الحجاب وهو رداء يحجب المرأة ويشوّه جمالها؟

مازالت جميلة ترشح ندى أفكار عبقة ولم تشاغلها الأسئلة المباغتة عن الإتيان بالحقيقة الجليّة، فأجابت:

ثقافتنا الإسلامية ترى في الحجاب ما لا تراه الثقافات الأخرى فنظرتنا إلى الجمال تختلف عن نظرتكم إليه فالفكر المادي لا يرى في الجمال إلا بإبراز مفاتن الجسم في حين لدينا آية في القرآن الكريم تبين لنا جميع أبعاد اللباس «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير» وأول هذه الأبعاد هو البعد الوظيفي إذ يقي اللباس الجسم من البرد والحر، ثانياً البعد الجمالي وريش بمعنى الجمال، ثالثاً وهو الأهم بعد التقوى، فالمرأة المسلمة ترتدي الحجاب طاعة لله عز وجل.

نهض أحد الشباب المسلمين المغتربين العرب يسأل وما هو دورنا في مثل هذه الظروف؟

نحتاج إلى مساعدة ودعم من قبل المسلمين جميعاً وقد سرتنا ردود فعل المجتمعين الإسلامي والعربي حتى المسلمات اللاتي لا يرتدين الحجاب أبدين حزماً شديداً في التضامن معنا، كانت هناك مظاهرات سلمية في دول عديدة تحمل مشاعر استنكار ضد هذا القانون الذي لا يتسم بالذوق ولا التحضّر ونستنكر بشدة الانزلاق في هوة العنف، فعندما تم اختطاف الضحيتين الفرنسيتين وقف المسلمون في فرنسا موقفاً جماعياً إيجابياً، لهذا نرجوكم جميعاً أن تتبنوا قضية الدفاع عن حظر الحجاب بطريقة سلمية وإنسانية بعيداً عن العنف والتطرف وإيلام الغير.

نحن الآن أمام أمر واقع علينا أن نسلك السبل القانونية لأننا في بلد قانون وبموجب القانون يمكننا كمواطنين أن نؤدي واجباتنا ونحصل على حقوقنا ومن جملة هذه الواجبات الاشتراك في الانتخابات للمساهمة في توجيه قرار البرلمان.

أخلص من هذا كله أن المنطلق الذي تنطلق منه هذه القضية ونحن بصدد الحوار الثقافي الحضاري مع الأديان الأخرى، علينا أن نعرف ثقافتنا من روافدها الصافية فالأديان الأخرى والغرب لا تعرف ثقافتنا، علينا أن نجلس مع بعضنا البعض ونشترك في حوار منفتح لأن الكلمة الأخيرة ستكون إن شاء الله للعقل والمنطق وتنمية التعددية الثقافية، فالمجتمع المدني في فرنسا مجتمع حي ومتفاعل وإذا سلك المسلمون هذا المسلك

فإنهم بإذن الله سيجدون شريحة تتنامى في المجتمع الفرنسي تسير معهم في هذا الاتجاه. وهذه النظرة المليئة بالأمل تتطلب منا نحن المسلمين أن نغيّر ما بأنفسنا حتى يغيّر الله ما بنا، لذلك علينا أن نرتب أوضاعنا الداخلية وأن نبلور طريقة فاعلة لعرض ديننا، وأعتقد أنه على الرغم من أن الخوف من الإسلام يزداد يوماً بعد آخر وبعض مظاهر النبذ والإقصاء والعنصرية التي تتفاقم يوماً بعد يوم مع ذلك ينبغي علينا أن نكون موقنين تماماً بأن في جميع شعوب العالم شرائح تريد أن تعرف الحقيقة ولديها استعداد للانفتاح على الغير والتفاعل معه بشكل إيجابي بنّاء.

أشكر إصغاءكم وأشكر الله على تجاوبكم وحضوركم المفعم.

تركت جميلة المنصة وسط تصفيق عاصف دوى في المكان وسمع فؤاد الشيخ يردد بإعجاب «إنها سلوة المسلمات تناضل من أجلهن وتنازع بقدراتها الفتية أشد الصعاب»

ويرمقه فؤاد بحرج كأن كلماتها طلق ناري يدين ضعفه ويقهر وهنه، صبت له الحقيقة التي تهرّب منها زمناً فكراً يستعذبه العقل السليم والمنطق السوي، تحاشى مواجهتها في تلك اللحظة تفادى اصطدام عينيها بعينيه، كلماتها تنخر في روحه فترديه نكرة وقبل أن تقترب منه سحب كرسيّه على عجل مردداً بصوت خافت:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«عذراً سيدي سأخرج لأشم الهواء»

أومأ الشيخ برأسه مستجيباً، فقد تيقّن أن القدر قد سدد السهم في المرمى.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (٢٨)

انتفاضة روح

الحياة مع أنثى ملغومة بالخبث والجمال منهكة، مذ أدرك "عماد" شراهتها المستبدة إلى المال وجوفها المعطوب، تلكأ في تلبية حاجاته إلا بثمن مدفوع، تراوغه في ظرافة مفتعلة تبسط له جناحين مسترخيين يحتويانه ملء اللوعة والحرمان فيغرف ما شاء له من صنوف اللذة حتى الخدر وتستبقيه منفصم الروح ينهار على سفوحها مسترخيا ثم تتقلب إلى النقيض مذعنة في استذلاله، يود لو يغرس مخالبه فى صدرها المقفل بالغموض فقد دفعته إلى التخبط فى ميوله المرضية يتمرغ في وحل شطآنها معربداً دون لجام.

طوقته بشلة فاسدة ذات وسط اجتماعي هابط، يتسامرون فى ليال حمراء، مشتعلة بالخطايا، لاعبته الورق، أسكنته فى دائرة ممغنطة منجذباً إلى حدودها بدافع غريزي، تتركه مسحوراً بفتنتها، تستهويه برقصاتها المجنونة وفنونها المتمردة،

بطشت إلى حد التمادي والنزق الذي يعري العظام من اللحم، مشاعرهما المتوقدة تسرج توقهما المهتاج فى أنشودة شيطان، ويضج بعد أن تتبدد السكرة باحثا عن أشلائه وإذا به مبعثر، مجرد، جزأته إلى أشياء موسومة بوسم بصمتها المعربدة، عشاؤه كل ليله ملح وسكر تلاطفه بمهارة حتى يهوى محض جسد فوق بلاط حارق، يسكنه الشغف المدمن، سامرته فى ورق القمار على منضدة من خشب الآبنوس كانت تحتوى قدميها البضتين تتلوى بكل تضاريسها، بفحيحها المسموم «هذه تسليتي الوحيدة يا عماد، تتركني طوال اليوم لوحدي فلا أجد سلوتي إلا في هذه اللعبة، اجلس بجانبي لأعلمك فنونها الشيقة» انغمر معها مسترخياً مستمرئاً أغصانها الملتوية على سطوح إحساسه، تدغدغ ضجره، تمتص منه قلق التفكير فتصعد به إلى شاهق المتعة، بإيماءاتها المغناج ومواثها المتدثر بدفء سناجب الشتاء، فوجد نفسه مستعذبا هذه الملهاة تشده إليها بحبائل من حرير مدفوعا بشوق مضطرم وإذا بالقمار إثارة تمور داخله في صخب حميم، تغتال فيه العقل ليتعاطاها بأثمان كده وعنائه، بمزاجه الشره يتدافع مع الخصوم حتى كسب الجولة، وإذا بها خسارات متلاحقه ونكبة صرعته حتى اشتعل رأسه شيباً، تولته حالة من التوتر الشديد وخوف يطارده كشبح مرعب، فى لحظة قرر فيها تعويض خساراته فى الميسر سحب مبلغا ضخماً من الشركة باحتيال منمق رهنا لوعد الربح العاجل دون أن يدرك أنه قد وقع فى فخ الادمان وإذا بهزائمه مطارق ساحقة تطحن

كل آماله والمرأة المثيرة تشهد هذا النزف مستعذبة ذبح كرامته تحت ضغط الحاجة فتسكن آلمه بأفيون غوايتها يسرد على مسامعها عذاباته مطمئنا لصدق عواطفها لكنها تأخذه في لحظة غيبوية تستهلك كل ما تبقى له من آدمية.

ورقصاتها على طبول أنينه أشبه بألسنة النار تلتهم خصوبة شبابه ثم تنفيه إلى مناطق نائية يتعذر عليه العودة إلا بشق الأنفس فحاد عن الطريق، مزقته الوحدة والخوف يبحث عن مخارج أخرى لورطته، خشي أن يفطن هاشم صاحب الشركة لجرائمه المتكررة وقد ألبسته سرابيل لصوص.

انقلب تشامخه إلى مذلة وطفق يتجاذب مع ذاته المطعونة بخنجر غدر، مشبعاً حيرة وأسى، غارقاً في الحزن والدمار. استيقظ هذه الليلة بعد أن حاصرته أشباح الشرطة، مكبل اليدين وصرخة أمه الثكلى تدينه حتى العظم.. وزنزانة باردة يفترشها ماء آسن وزوايا عتيقة يأكلها العفن، رجال غلاظ أشداء كزبانية جهنم يقفون له بالمرصاد وقد صرخ متألماً بعد أن أشبعه الرجل الأصفر الأسنان جلداً وركله في مؤخرته حتى هوى على الأرض انتفض فى رعدة شديدة، وأفاق مذعورا، هذا الرجل يعرف أنه أشبه بعبد الرحيم بل إنه هو.. نعم هو من كان يركله ويجلده.. تمدد على السرير ولاحت منه التفاتة فأبصر «نسيمة» تغط في شخيرها وتنخر كحيوان صلف وتهمهم ببلاهة مقرفة، حملق فيها فأجفل ونكص قلبه مرتدا، شغله فكر كئيب،

وتذكر أن هيامها كان سمّاً قضى على حياته فخلفه أشلاءاً، جال طرفه فيما حوله ثم استقر على صفحة وجهها أخذ يتحسسه ويتمتم لا يعرف لعاطفته قراراً، إنه أسير هذا الإدمان أمسى حملاً ثقيلاً على عاتقه، كابوساً شديداً يضغط على صدره، تذكر موقفه المهزوم وضآلته، فقد لفظه المجتمع وأصبح مقصياً منبوذاً وفرت منه الأسرة بكاملها بعدما شاع خبره بين الناس، بصق بحدة في الهواء حانقاً على هذا المجتمع الزائف الذي ينهش فى الأعراض مدعيا الشرف والنبالة وكل مقومات الصلاح وهو بعيد عنها، حاول أن يقنع أهله بتقبل «نسيمة» لكنهم غضبوا ونقموا عليه، تذكر من ضمن ما تذكر « فؤاد» صاحب الفضل عليه وإذا به يجترئ على خون الأمانة فيسرق من أموالهم ما شاء له ذلك، افترقا لزمن وتعثر كل منهما بهمومه الخاصة أخذتهما الحياة في منعطفات متفرقة، يقف الآن على شفا حفرة يتلفت حوله مستوحشاً فما وجد الصديق الذي يأتمنه على سر ويشركه فى هم.

خالسها النظر فرأى فى وجهها النائم ذبولا وملامح محنطة، ناضبة، بدت بقع المساحيق متناثرة كبقايا طعام فى إناء، مشوها، متكلس الانفعال، هذا التدفق المزعوم رهين رائحة الدولار، انقضى منه الشوق كرضيع يلفظ لبناً مسموماً، يتقيؤه بعدما تضرر تخمة، أحنى رأسه في كدر شديد وأوغل في فكر عميق يستعرض مشاهد حياته، فقد تعقد موقفه وتراكمت

همومه فانهمرت المحن على رأسه كالسيل الجارف، استسلم للضربات الماحقة لا يقوى على صدها فكل متاريس القوة فيه تصدعت وشلت مقاومته، الآن عندما انكشفت الحقيقة عن عتمتها الدامسة وانبلج شق نور صغير أشبه ببريق عينيها عندما تشاطره مرح الصباح المشرق على مائدة الفطور تهدهده كطفل صغير تدفع إليه خبز حنانها اليومي «كل يا ولدي لا تخرج خاوي البطن»

هي كل حقيقة الكون الجميل بتجلياتها «أمي» وحدها وسادة العطف المقدس ورائحة الحب الأصيل..

اعتراه قلق داخلي من استئصاله مديراً وإعادته نكرة إلى واقع الحياة.

انتهى به الأمر إلى الشعور بالملل الشديد من حياة بهيمية ألقته فى هاوية الشيطان مذهولا لهذا التوقد كيف تخبو جذوته فإذا بأوصاله المضناة تترنح تعباً وإرهاقاً وبنيته الفتية يفترسها العطب والوهن. انتبه إلى شخير المسخ جانبه، حدجها بعينين نضب منهما وهج الدهشة وأخذ يتساءل ممتعضا وود لو يصفعها بكفه مغتاظا.

«أتستحق هذه المرأة أن أركب الأهوال وأتجشم الأخطار من أجلها، ممددة كعود قصب بائد اجتثه الزراع علفا لماشيتهم، خسارة جسيمة فى كل أشيائه الأثمن».

انهمرت منه العبرات، تترقرق في عينيه وتزحف كنهر منساب بقدر حتمي على حياته، سُحبٌ شتوية ماطرة محمّلة بأنين وندم، زفرات الجوف المعذب بسياط التأنيب والتقريع جفف مدامعه على عجل عندما لمح التواءها اليقظ وهي تفتسل النعاس من عينيها، وفي رقدته انتظار حازم إذ كان يريد أن يحسم الأمر، تنبهت من فورها إلى عينيه المحمومتين تغرسان في إشعاعهما المتطاير خناجر إدانة تولاها الذعر، فاتخذت لنبرتها ليناً وعطفاً ثم التصقت به تمرغ صدره بأناملها الدافئة:

«حبيبي ما بك؟»

شدها من ذراعها ودفعها فى الهواء صارخاً:

«لملمي حاجاتك لترحلي من هنا»

استوت في جلستها مصعوقة:

«ماذا دهاك؟»

استجمع قوته وحسم دون تراجع:

«مثلما سمعت، لا أستطيع أن أستمر معك بعد اليوم»

عظت على نواجذها مزمجرة وقد تملكها الغضب:

«هل تظنني صيداً سهلاً لترميني هكذا في الشارع دون ثمن، أنا زوجتك ولي حقوق عليك»

«انتهى كل شيء بيننا وأظنك قد قبضت الثمن مقدماً»

لانت بعد غيظ وتمسحت بأقدامه كقطة مستنفرة كل أسلحة الغواية، لكنه داهمها بصرخة وهو يركلها بعيداً:

«سئمتك لم أعد أطيقك»

وجدت نفسها مرمية على أرض الغرفة، مبعثرة الشعر، مهانة، ذليلة لم تعد تقوى على كظم غيظها فهمت بمنفضة السجائر وقذفته بها صارخة:

«حقير، نذل، جبان»

تراجع من جانبه ليدرأ عنه الضربة وقد احمرت مدامعه فانطلقت حممه كالبركان، انقض عليها بكل ما أوتي من قسوة وعذاب يضربها، يشد شعرها، يبصق عليها، صرخات نارية تنطلق من سخونة جوفه يلعن قدره، دنياه، حياته، اختلطت عليه المشاهد والأسماء واشتبك ماضيه بحاضره ووجه أمه المنكس أسى وهي تعرض عنه فى حسرة «يا خسارتي فيك»

صوتها كرباج حام يلسع ضميره المنهار تحت سطوة الشهوة فعفر كرامته على أديم الأرض ذلاً، انتفاضته الجنونية تركته نهباً للضياع، للخواء، تبددت من أمامه الحقائق فكان كل ما يراه خلف غلالة ضبابية، تم كل شيء على وجه السرعة ولم يترك لنفسه منفذاً للهروب، سيسلم قياده للأقدار عل محكمة الزمن تنصفه فى هذه المأساة، انسحبت نسيمة من بين يديه ممزقة، عاثرة، مدماة فتحت الباب وهربت، انكفأ بوجهه على المنضدة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يلهث مرتعد الفرائص ينشج فى غلوائه حتى يكاد يلفظ روحه من جوفه، اندفع نحو النافذة بعدما أحس باختناق وأخذ يستنشق الهواء ملء رئتيه المتشنجتين ويطوف فكره في بيداء حياته القاسية مرتعباً بما سيلحقه من تبعات فعلته النكراء، ووطن نفسه لأشد العقاب فقد تطاول على حقوق أسياده مع سبق الإصرار والترصد.

اختفت نسيمة ولم تترك لها أثراً، بقيت فى حياته بؤرة معتمة تستدرجه فى كل يوم إلى مشكلة، حبلى بهموم، فواتير غير مدفوعة، حسابات مسحوبة، مشتروات باهظة الثمن تركته غارقاً في الديون، وكان مستعداً لأي طارئ يفترش له زنزانة النهاية بحرير اللذة المنقضية.

قُبض عليه بتهمة الاختلاس وزج فى سجن مظلم يتمرغ على جمر الندم والخطيئة.

حدثه السيد هاشم بوجه أسيف مخذول:

«كنت أفكر بالحلم والصفح من أجل والدتك الطيبة لكن جريمتك لا تغتفر يا عماد، خنت الأمانة وأرديت الشركة موارد الضياع والخسارة»

نكس عماد رأسه خجلاً ثم تابع هاشم وهو يتحفز للذهاب:

«مؤسف أن تكون ابن هذه السيدة العظيمة»

وعند منتصف الطريق التقته «ثريا» رابطة الجأش أنهكها الزمن وامتص حيويتها لكنه استبقى على ذلك العنفوان المميز.

جاءته بوجه تغضنت ملامحه الجميلة وأدهشته بقولها المستبعد:

«أظنه قد دفع الثمن باهظا لكنني أربأ بقلبك الحنون أن يتركه عرضة للضياع».

بلباقة وتهذيب استدعاها إلى أقرب مقهى اتخذ لها ركنا هادئاً بعيداً عن الأنظار وجلس يحدثها بقلب يقطر هماً:

«تألمت أكثر منكِ يا ثريا، خسارتي الفادحة تمثلت في ذلك التلاعب الذي قصم ظهري عبر مؤامرة دنيئة اشترك فيها عماد وأنا أمد له يد العون والثقة الكبيرة، تصوري أنه كان يختلس من حساب الشركة باسم وهمي وبتغطية متحفظة من قبل أشخاص شكلوا معه عصبة لصوص، خسارتي عظيمة لا يمكن تعويضها بسهولة وقد وضعت الشركة على شفير الإفلاس»

بدت ثريا محرجة أشد الحرج، مطرقة إذ ليس هناك ثمة منفذ للخروج من ذلك المأزق تهدت صامتة عاجزة عن التبرير، مرغمة على تقبل الواقع.

استجمعت شجاعتها:

«صدقني لا أملك أن أقول شيئا فى هذه الحالة المزرية، فأنا

لا أقل عنك هماً وكمداً، ابني الوحيد خسر سمعته وكرامته وابنتي علياء تحولت إلى كائن شبه معدم».

استوقفها مندهشاً:

«ما بها علياء؟»

«داهم رئتيها فيروس منذ فترة وهي طريحة الفراش، ذابلة، معتلة، لا أدري ما حل بها؟»

وفجأة انهمرت دموعها، تلاشت قوتها على مرمى عينيه فاندفع يهذر بحرارة ليقتحم نفسه في قدرها مسؤولاً:

«مازلتِ تلك المرأة التي شكلت تاريخ حياتي، حبك له طعم القدر النابت في العظم، يعزّ عليَّ أن أقف عاجزاً عن نجدتك، أتعاطف مع ولدك وهو من سرقني لأنه جزء منك، لفرط حبي لكِ صمت وابتلع الغصة على مضض، هكذا حبك يا ثريا يسمو بي على الضغائن والأحقاد، ويختزل الغضب، لم تترك لي منفذاً للوصول إليك، لاحتوائك من جديد، أنا الرجل الذي أستحقك يا ثريا منذ صباك وأنا أفهم خطوك المتعقل وقد بعثرك رجل في كل اتجاه، كنت الأثيرة في نفس والدك حينما كان يعدد صفاتك، كنت أجلس مصغيا بإعجاب لهذه المعاني فأسرج لك صورة تخاتلني في الأطياف قديسة متبتلة في حضرة النور الأبدي، ووجدتك في عيني ظبية شمّاء بمشية مختالة، تلمع عينيها ضراوة، فتّاكة الأثر ترمح بانطلاق غير هياب، ترهن

كبرياءها للزمن الآتِ فبقيت باسقة، شاهقة، كم أنت عظيمة يا ثريا ما زال فيّ توق لم يهدأ ولن أتخذ خط الرجعة أبداً»

زفرت ثريا زفرة محرقة ودفنت رأسها بين كفيها، أصابها دوار، غامت عيناها، تدله بها أكثر وزاد شغفه.

«دعيني أحميك، أنا حصادك الأخير وحتمية صبرك لن أقف مكتوف اليدين عاجزاً وأنت تتضورين من الألم، سأساعدك سآخذ علياء إلى لندن كي تعالج، سأعيد ترتيب حياتك من جديد»

فجأة انهارت من الإعياء، حملها بتؤودة مستنفراً كل قواه الدفاعيه وأرقدها في المقعد الخلفي من السيارة وجلس قربها لينطلق بهما السائق إلى اقرب مستشفى.

لهفت نفسه عليها فتولاه خوف وجزع وراح يناجيها بعطف:

«ثريا هل أنت بخير؟»

كانت تتهافت من السقم، منهارة القوى.

زمجر بالسائق هلعاً:

«أسرع أرجوك إنها متعبة»

وعند المستشفى أتى إليها بنقالة ليتم حملها إلى غرفة الطوارئ وهناك تم إجراء الفحوصات السريعة لتفادي انهيارها فقد كان ضغط الدم في أدنى حالاته، أسقتها الممرضة جرعة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

من الدواء لتسترد عافيتها فاقت من غيبوبتها متأوهة، تتلوى بوهن وتمتمت وهي تبصر هاشم يقف عند سريرها هالعاً:

«يبدو أن وعكة شديدة ألمت بي وانحلت من وطأتها قواي».

أشفق عليها بحنان:

«ربما أرهقت نفسك كثيراً»

انتبهت وهي تتلفت حولها مستعلمة:

«من الذي أتى بي إلى هنا؟»

«أرجوك اهدئي»

نشطت ذاكرتها فهتفت بقلب كسير:

«عماد، عماد»

ثم انفجرت في نوبة بكاء، جثى قربها وقد استبدت به رحمة أبوية فقال كمن يقطع الحقيقه باليقين:

«غداً سيخرج عماد من السجن، لن أدعك منهارة وأقف صامتاً متفرجاً، لن أترك قلبي يتمزق وأنا امتلك الدواء، أرجوك اهدئي فداك مال الدنيا كله».

التفتت إليه متشككة:

«أخشى أن يكون قرارك في لحظة ضعف».

قال جازماً:

«لا أندم على قرار وطدت العزم عليه وقد وجدت في قربي منك ملاذاً وحمى تستردين به أنفاس السنين المنهكة»

«حقاً سأكون ممتنة لك»

مسح طرفه وهو يتجه ببصره نحو النافذة في استطراق بعيد الأغوار ندت منها آهة اختزلت كل مشاهد هذه العلاقة المستترة:

«لقد كنت مفرطة في قساوتي عليك»

«ما أسمى قلبك وأرق شعورك»

رنا إليها متودداً:

«أرجو منك أن تحيطيني علماً برغباتك حتى أستطيع أن أنيلك ما تصبو إليه نفسك»

أطرقت تفكر هنيهة ثم أردفت:

«لقد نذرت زيارة الإمام الرضا عليه السلام إن خرج عماد من السجن والحمد لله لم يخذلني الإمام الغريب، سأسافر خلال يومين لزيارته ولطلب الشفاء لابنتي علياء»

ثم تفرست في محياه تستنطق سره المكنون في سنين الصمت يطوي أمنيته بين الضلوع يحمل كل هذا الحب المقدس وقد تمكن في أعماقه حتى التحم في نسيجه، تابعت بصوتها المرهق:

«أنا مدينة لك بحياتي ومستعدة لإرضائك بكل ما أملك»

قال وهو يتعثر بلسانه خشية صدودها المحتملة:

«أرجو أن لا تعتبريها مساومة، فقد جاءت الفرصة المناسبة كي أقدم عرضى ثانية، وأظن هذا من أبسط حقوقك فى الحياة، لقد شبعت من مال الدنيا ونعيمها حد الاكتفاء وأحتاج الآن واحة استقرار ألقي عليها سنوات عمري الباقية»

تلكأت :

«أمري محرج جداً»

واستعطفها:

«وحدتي قاسية لا تجاريها فى قسوتها ملالة رجل، أحتاجك كثيراً، أنت سلوتي الوحيدة في الحياة»

وانتهت معه إلى مخرج يوازن رغبتيهما معاً:

«دعني أسافر لزيارة الإمام الرضا وأجتهد فى الدعاء وطلب الحاجه والاستخارة ثم أنبئك بقراري»

«وأنا سأبر بوعدي»

«كم أنا فخورة بك وهذا دين لك فى عنقي لن أنساه أبداً فأنت الرجل الشهم الذي ضيعته على مفترق الطرق»

الفصل (٢٩)

اسألي قلبك

كان قلقاً، يسحب أنفاساً ثقيلة وهو يتابع «جميلة» تصرخ من الألم يتلوى جسدها ثم يتقلص متخذاً وضعاً متشنجاً، تتتابها مرّات الطلق كلما اقتربت لحظة الولادة، هذيانها المشبع بكلمات فرنسية لا يستدل في مضمونه سوى خيبتها الحاضرة تجهض فرحة مرتقبة كانت فيما مضى حلمها الأوحد، ما معنى ولادتها في جحيم هزائمها النفسية المتكررة وزواجها يقف على شفير الهاوية، منذ أيام كان وضعها الصحي ينذر بولادة عاثرة.

تتأوه ملتاعة من شدة الألم، يترقب انجلاء الغمة، يفقد صبره، فيطرق الباب الموارب ويمد عنقه مستطلعاً.

«تفضل» يدعوه الطبيب بأدب جم.

انفطر قلبه لمرآها البائس، تتقبض سحنتها وتتبسط مع تواتر الألم في نوبات متقطعة، قد غرقت في العرق والإنهاك،

تشد نفساً عميقاً وتطلق طاقة مختزلة كل عذاباتها المتلاحقة، كأن الروح تنسل منها وتتركها خرقة بالية.

شدها من ذراعها مؤازراً:

«تذرعي بالصبر حبيبتي»

كان وضع الطبيب فيه شيء من الحذر.

وجّه حديثه إلى الممرّضة:

«أرجو إعداد غرفة العمليات»

«الحبل السري ملتف حول عنق الطفل سنضطر إلى إجراء عملية لإنقاذهما معاً» وعلى وجه السرعة تم تخديرها بجرعة مخدر وإدخالها غرفة العمليات.

انحنى فؤاد مكروباً منكسراً، وغربة لم يعرف مثلها من قبل، ضاقت أنفاسه فبحث عن ركن هادئ ليستريح، استطرق الردهات المزدحمة بحثاً عن مخرج يأوي إليه حتى دخل غرفة صغيرة يؤمها الخدم لتناول طعامهم استأذنهم وسط دهشة علقت على وجوههم، ثم وقف أمام النافذة المطلّة على حديقة المستشفى الساكنة في كآبة، ضاق صدره بوحشة غمرته بالخوف، تلفت حوله تستنطقه عيون الجالسين، فقرر ترك المكان حتى همّ بباب المستشفى فخرج، جال في الطرقات مهموماً يتحدث إلى نفسه الجزعة وكأنه خاضع لتأثير قاهر، قادته قدماه إلى ضفاف نهر السين الذي تحوّل مع مرور الأيام

إلى غول شهم يبتلع كل معاناته صابراً، هدأت ثورته بعض الشيء وراح يستفرغ أنفاسه الملوثة ويعبّ من هذا النسيم الصافي دفق جديد، أقبل على مقعد خشبي وجلس عليه مستظلاً شجرة مثمرة استطالت أغصانها وتشابكت، سكنت روحه الصاخبة وهي تلفظ قروحها الدامية في الفضاء الرحيب وأحس أن وراء الطبيعة أبعاداً غائية، فما كانت الأشياء تتوالى في حياته عبثاً إنه يقترب من اللحظة الحاسمة، آلام المخاض المريرة تشبه ضجعتها تماماً، ثمّة نور يقترب يكاد لا يعرف تفاصيله تماماً، لكنّه يلقي بذراته على سطوحه المعتمة.. يستحضر صرختها وهي على السرير تحفر جرحاً في قلبه ويفيض بألم فاق قدرته، وجهها المغيّب في زخّات عرق وهمٍّ، عيناها تشهران فضيحته على مرأى الكون، لحظات المخاض الأخيرة فيها ذلك السقم الموبوء بالقلق والترقب للآتِ بالأمس كانت تناجيه بعاطفة فائرة غمرته حتى الغرق قالت له «إن كل خلية في جسد هذا الجنين يحمل بصمة حبك، اكتب فوق ورق القدر الذي لا يذبل أبداً، أن حبي لك نهر عطاء لا ينضب سيتردد في ذاكرة القلب طالما فيّ روح»

مشهد احتضار الحب يعزز استياءه من نفسه وعجزه عن فهم ذاته، رنا إلى النهر الحاضر يبادله ثرثرة صامتة كلما أوغل في النظر استنزف ذاكرته التي دفنت في طياتها الكثير من أخطائه، لو أنه يغوص الآن في قاع هذا النهر وفتّش عن انتمائه لوجد أن له منطقاً أزلياً فاق منطقه كإنسان فهو يعرف وجهته،

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يشق دربه منساباً بتلقائية قدرية، يجتاز عثراته بصبر وأناة، لو أنه فتش في أسراره لوجد في قاعه قصصاً وحكايات عشق وملاحم أبطال تركها الزمن، وثائق من دم أمّا أنت فتذعن في الهروب دائماً، مخلوق هلامي، تائه، ضائع، بصمتك باهتة، تترك قصصك عند منتصف الطريق دون نهايات، كن شجاعاً كهذا النهر حينما خطّ له التاريخ قدراً ببداية ونهاية واضحة وأنت جالس مهمش لا تعرف وجهتك، نساؤك مبعثرات كفراشات حلم يصطادهن طفل عابث، تنثر بذارك وترحل هائماً ليس لك أرض أو سماء وهن مشتتات دون رجل، تأسرك «شمس الحقيقة» بعنفوانها تمارس عليك طقوس الكتابة لتحرّرك من سجن نفسك، يخيّل لك أنها عقابك المرهون بكف القدر، قصاصك العادل في دنيا نسائك الحائرات.

انسابت الدموع على خديه ورمق السماء بطرف ذابل وقلب هالع يتضرع إلى الله «يارب أنا مهموم وعاجز عن التصرف، ليس لي حيلة ولا ناصر، آتيك اليوم نادماً، مستغفراً، تائباً عن كل ما اقترفته يداي، فمنذ أن دخل نور الإيمان قلبي وأنا أقرّ بذنوبي وأعترف بخطاياي وقد تحولت إلى شوك جارح في جسدي، عاهدتك يارب أني سأكفر عنها، سأقفل أبواب الخطايا باباً بعد باب حتى ترمقني بعين الرحمة، فما أوحش هذا الطريق وأنا أسير فيه لوحدي لا أنيس ولا رفيق غيرك، وهذه أمي المنكوبة صرعتها الدنيا بغرورها نزيلة مستشفى نفسية، وهذا أبي هائمٌ في كل واد لا يعرف له قرار، شغلتنا

الأموال والأسفار ومتاع الدنيا الزائل حتى تهنا في بيداء الحياة نبحث عن رشفة ماء تقينا قيظ الأحزان وجفاف الأيام، يارب اغفر لي ظلم هذه المسكينة فقد خذلتها في صميم أزمتها، أسألك يارب الفرج وشفاء الهم، فرضاك عندي هو المبتغى والمرتجى، ظلمت نفسي وظلمتها، تركت نفسي المغلولة بالأهواء والشهوات تقذفني في طريق العثرات والزلات حتى تكالبت عليّ الهموم من كل حدب وصوب، أنت النور يارب أستدل به درب سعادتي، لن أبقى رقماً بائساً، ميتاً على مسرح الحياة، سأعيد لنفسي هويتها وأرسم من جديد طريق حياتي بما يرضيك، سأهزم أهوائي، سأصارع رغباتي لأنتصر على ضعفي، هبني يارب الصبر والقوة فحياتي بائسة ودنياي مريرة لا أجد من يعينني غيرك، بيدي ضيعت جميع أحبتي، أرجوك يارب وأستغيث بك أن تقبلني تائباً فغفرانك يسع كل الكائنات وأنا عبدك الضعيف، الذليل، الحقير، المسكين، المستكين»

أجهش في البكاء مستحضراً صورة جميلة تكابد ألم الطلق، ترقد في هذه اللحظات العصيبة بين المشارط والخراطيم، خامدة الأنفاس، فاقدة الوعي يفصلها عن النهاية الحتمية شعرة، مؤلم أن يرى محبوبته ممددة بغلالة بيضاء وقد لفظت الروح، كان السبب في قتلها، لكنه يعلم أنه يملك أسباب حياتها، أما وقد سلم قياده لله فعليه أن يتذلل بخشوع لربه كي تعود القتيلة إلى الحياة وتنبعث فيها الروح من جديد.

نهض من مكانه مترنحاً، مثقلاً، جلله سكون مهيب، اتخذ طريق المستشفى عائداً مشياً على الأقدام كي يتسنى له قتل الانتظار المرير حينما يتربص به ويوهمه بأسوأ النتائج، دخل مطرقاً أشبه بمحارب خسر المعركة، مستسلماً للموت لأنه لا يملك خياراً آخر، هوى بجسده المنهك على أقرب كنبة في قاعة الانتظار، طلب كوباً من النسكافيه، اندهش من الحاضرين وعيونهم مشدودة إلى الفيلم المعروض في تلفاز القاعة.. انتبه إلى أحد المشاهد واسترجع ذاكرته، شدته القصة، لم تمر عليه الأحداث مروراً عابراً، ومشهد الخريف كان علامة فارقة في هذا الفيلم تذكر يوماً أنها قالت له وهما يشاهدان بشغف قصة الفيلم «ما أروع المشاهد يا فؤاد، انظر إلى الطبيعة المتقلبة كيف تعبر عن أحاسيسنا وانفعالاتنا المتبدلة، اللون الأرجواني المتماوج مع الأصفر يذكي الحنين ويعيد الذكرى»

ثبت نظره بالفيلم وتأكد ظنه، اسمه «"The Way We Were" الطريق الذي كنا» أعجبت جميلة بالقصة تماماً حتى أنها استأجرته كشريط فيديو وكتبت متأثرة بأحداثه قصيدة شعر عنوانها «لا نفترق أبداً»

يحكى أنهما كانا يحبان بعضهما، هو كاتب وهي مناضلة سياسية كانا كثيري النقار والشجار رغم عمق الحب فلكل منهما مزاجيته الخاصة وتكوينه المختلف، تزوجا ثم افترقا بعد زمن عادت هي إلى نضالها وتزوج هو من أخرى أكثر نعومة

ووداعة، ثم التقيا صدفة على ناصية الشارع بعد سنين تبادلا النظر واسترجاع الذكريات التي تركت لكليهما أثراً واضحاً.

لا يدري لِمَ تأثرت جميلة بهذه القصة وحرّضته على رسم لوحة تعبّر عن خصوبة هذه الأحاسيس، تذكر حياته ووجد أنها لا تقل إثارة عن أحداث الفيلم، الشريط يعبر المخيلة كطيف متماوج الألوان، يلاحق الزمن الهارب حتى توقفت الذاكرة على رصيفها الآمن والأمنية المستحيلة بإدبارها المحبب وإقبالها المرتجف، الأحلام، تقلبات الزمن التي تفاجئنا بأشياء غير متوقعة، آن الأوان كي يرصف طريقه المتعرج ويفترش بساط العدالة لكل من تجرع سمّه فيأخذوا منه القصاص.

تنهد مستريحاً، وكأن زفرة حارة شقت صدره ونفثت كل أحزانه ومضات مريحة حفرت في باطنه أملاً واستحوذت عليه راحة لم يشعر مثلها من قبل، قد أغدق عليه القدر كل النعم وغرف حتى الثمالة، ألوان جميلة وزاهية تترى في حياته كعرائس أحلام تتمايل بشبق أمامه فتستدعيه بغواية أن يقترب وإذا بهذا الشغف المحموم يتمخض عن حنين متأصل في الفطرة لغاية مبهمة لا يعرف لها سرّاً ظلت تؤرقه بسوطها اللاسع، أسكت جوعها بالمال وأخرس نداءها بالنساء، بالسفر، بكل ملذات الحواس، وإذا بها كعروس مدللة تدبر في غنج لا يعجبها هذا البذخ الوافر ينساب تحت قدميها طالما قلبها غير مشبع، في دخيلتها سرّ رهيب حتى عثر على الكنز المفقود

والفردوس الغائب عندما وقف في هذا المعترك أعزلاً دون ناصر، تصرعه الدنيا الخوّانة بوجهها المكفهر فيلوذ بالسماء عبر هذا الشق الصغير الذي انبلج من بين ركام الأحداث فأخذ هذا الشق بالاتساع عندما اشتد عليه الاحتقان فإذا به باب مفتوح إلى الله سبحانه اجتذبه ليمارس طقوساً خاصة تمثلت بأدعية استغاثة وتأمل وانكشفت أمامه الأستار، فتسرب إلى قلبه ذلك النور المفعم بالانشراح والسكون والذي عجزت كل موارد الدنيا عن صنع مكنوناته، يبقى راسخاً في النفس بفطرة تبقيك متيقظاً في حذر، هادئاً في مستقر، جرعات الحب الإلهي لا تجوع بعدها ولا تعرى.

«مسيو فؤاد»

التفت إلى الممرضة الباشة تنبئه:

«تفضل فزوجتك والطفل كلاهما بخير»

نهض كمن به مس وفزعة الفرح لهي أنكى وأشد من فزعة الخوف، اندفع بسيل أشواقه، مهتاجاً بعاطفة جديدة، يردد بصوت مسموع «شكراً لك يارب، فهذا من جميل لطفك ونعمك عليّ»

قادته الممرضة إلى الداخل.

اقترب من زوجته كالمجنون يتعثر بقدميه وقد غيبها إجهاد الولادة، مفاجأة الفرح هوت على رأسه كصاعقة ذرّته مشتتاً لا يعرف كيف يتصرف.

يهمس:

«حمداً لله على سلامتك حبيبتي»

قال له الطبيب يطمئنه:

«الطفل سليم وهو الآن في الحاضنة، فقد أرهقته آلام الولادة»

ثم أشار إلى الزوجة.

«إنها بخير أيضاً وستفيق بعد دقائق من تأثير المخدر».

هبّ مسرعاً إلى حاضنة الطفل وتأمله من وراء القاطع الشفاف، كان صغير الحجم، أشقراً، مرهقاً، اغتبط لمرآه وراح يحدثه من وراء الزجاج وينثر له عبر الأثير قبلاته:

«آه ما أجملك، ما أروعك»

غمرته سعادة شتتت ذهنه، لم يعد يعرف وجهته فكر أن يبشر والدته ثم الشيخ «عز الدين» الذي شهد فصول عذاباته الأخيرة وأمه التي ربما تفيق من غيبوبة الحزن، فرحته تضيق بصدره، وود لو يقتسمها على العالم.

أقفل راجعاً إلى جميلة بعد أن اطمأن على ابنه وبشوق من كان جمرة تحت رماد سرعان ما أوقدتها هبة ريح ليشتعل أوارها من جديد.

قال لها وهو يحتضن كفيها بكفيه وقد ظهرت عليها بوادر الصحو:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«اطلبي ما تحبين، دعيني أكفّر عن ذنبي حبيبتي، لقد أخطأت بحقك وها أنا جئتك تائباً»

وخرّت مدامعها بسرعة.

وانصهر عتابها المحبوب بتوبته.

احتضنها بلهفة.

همست بصوت متعب:

«أرأيته؟»

قبّلها وكأن أحاسيسه نبتت من جديد.

«المهم أنكِ بصحة وخير حبيبتي»

رفعت جميلة كفيها إلى السماء شاكرة.

«الحمد لله يارب لم تضيّع صبري ودعائي، فقد عاد لي زوجي بعد ضياع»

وبين تمتماتها المرهقة وهمسها المتهجد غفت ثانية.

ضمها إلى صدره:

شعرت بالاحتواء الحنونِ الذي افتقدته زمناً، استسلمت لدفء صدره، لذراعيه في إغفاءة مريحة.

قالت الممرضة بابتسامة تداري خجلاً:

«إنها مرهقة أجهدتها الولادة، لو تتركها قليلاً كي تنال قسطاً من الراحة ثم تعود لها لاحقاً»

أرقد فؤاد رأسها على الوسادة ومسّد شعرها بتؤودة ثم سحب عليها الغطاء ووقف في مكانه يتأملها بقلب مشفق، قبّلها على وجنتيها دون أن تحرك ساكناً، فكّر في هذه اللحظة بزيارة أمه، يأمل أن يكون وقع المفاجأة مبهجاً لها وراح طوال الطريق يتصل بوالده وبأحبته ليزف لهم الخبر السعيد.

دلف باب مستشفى الأمراض النفسية، صدفة التقى طبيب أمه الخاص في الردهة، استدعاه إلى المكتب وخاطبه بوجه متجهم استنزف منه كل طاقة فرح كانت تستحوذ روحه.

«حالة والدتك تزداد سوءاً يوماً بعد يوم»

«لماذا؟ ما الذي حدث؟»

«حالتها نادرة، فهي شخصية مرهفة الإحساس يسكنها هم متجذر في الأعماق يصعب استئصاله وأظنها ترفض الخروج من هذه الشرنقة باختيارها»

قال فؤاد بجزع:

«فلنخرجها إذن من المستشفى، سآخذها معي لزيارة زوجتي قد تسر بعض الشيء أرجوك يا دكتور لا تقفل هذا الباب، أنا متأكد أنها ستشفى»

«تحسنها بطيء جداً»

«دعني أراها»

والتقاها فؤاد..

كانت جالسة قرب النافذة بوجهها الشاحب وقد بانت على تقاطيعه علامات الشد وبريق باهت قد خفت عن ذي قبل، بشرتها الناضبة قد مال لونها إلى صفرة كئيبة، جلس إلى جوارها يحدثها ببشاشة.

«لقد ولدت جميلة صبياً رائعاً يا أمي»

تهلل وجهها وكأن شمس الفرحة تذيب ثلوج الحزن عن وجهها الجامد..

احتضنته غير مصدقة.

«دعني أراه يا فؤاد، خذني إليه»

«قطعاً».

«المهم كيف أحوالك، يبدو أن لا طائل من مكوثك هنا، فلنعد جميعاً عن قريب»

صمتت، كأنها تتذكر شيئاً.

«وجميلة؟»

«ستعود معنا أيضاً»

«أجل يا فؤاد، لقد أحببتها جداً، هذه المرأة الوفية، المخلصة، لن أنسى صبرها وحنانها، تركت أمها تحتضر وبقيت معي تعتني بي عناية شديدة»

أطرقت بحزن ثم سألت باقتضاب:

«والدك لم يزرني منذ فترة، هجرني بكل قسوة، فعلت المستحيل من أجله لكنه يأبى إلا أن يقطع آخر خيوط الود بيننا»

تدارك فؤاد الأمر مبرراً لوالده:

«بالعكس إنه يتصل كل يوم، يستفقدك بقلق المحب على حبيبه وكان قد رتب نفسه لزيارتك فور أن ينتهي من مشروعه الجديد»

ابتسمت ساخرة:

«لا تنطلي عليّ هذه الأكاذيب يا فؤاد، فقد راهنت على محبته بكل ما أملك حتى لو كان لحمي مقطعاً فما وجدت منه إلا الجحود والنكران»

حنق فؤاد أشد الحنق على والده وكظم غيظه، فهو يدرك أسباب عناء أمه وبواعث لواعجها الدفينة، رقتها المميزة وشعورها المرهف يحتاج من زوجها دوماً إلى رعاية واهتمام، وقد زهدها أبوه وترك لها حرية ضاغطة على أعصابها تأخذها في متاهات فارغة، حاولت بكل فنونها الأنثوية أن تتوغل إلى باطنه وإذا بها تقف على السفح منكسرة، مستسلمة، وإذا بهذا الاستسلام تحوّل إلى شرنقة كئيبة غزلت خيوطها تلك الأيام الباردة ووضعها الحرج يقتضي منه الآن إضرام عاطفتها عبر احتضانه الدافئ واحتوائه الحنين.

فجأة انقلب مزاجها إلى النقيض وإذا بها تسأل:

«هل اخترت اسماً للمولود؟»

«أنتِ من سيختار له الاسم»

استردت شيئاً من عافيتها النفسية ونضح البشر على وجهها البائس فأطرقت تفكر بابتهاج ثم أردفت:

«يوسف»

«اسم جميل وإذا عدنا سأوثق أوراقه الثبوتية بها الاسم»

«اتركني الآن لأرتدي ثيابي وأخرج معك، فأنا لهفى لرؤية طفلك»

أفاقت جميلة من رقدتها، فبذلت وسعها كي تسترد شيئاً من نشاطها، نادت الممرضة أن تأتيها بالطفل، انتبهت إلى باقة ورد زاهية من التوليب الأحمر والأبيض منسق بشكل قلب الحب التقطت البطاقة لتقرأ الإهداء، فقد كُتب «لا تسأليني بل اسألي قلبك عن صاحب هذا الورد؟»

لثمت البطاقة وهي مستهامة:

«كنت فعلاً أحتاج إلى هذا المنعطف كي استردك ثانية»

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (٣٠)

شمس الشموس

«ربما تحدث مضاعفات في الجهاز التنفسي العلوي أو السفلي بسبب فيروس الأنفلونزا، والالتهاب الرئوي يعتبر من المضاعفات الشائعة إما بسبب عدوى بكتيرية أو فيروسية ثانوية أخرى وهذا ما يؤدي إلى تفاقم أو زيادة حدة الأمراض الصدرية المزمنة»

هطلت دموع «ثريا» وهي تقف لصيقة بضريح الإمام الرضا (عليه السلام) حفيد رسول الله تستشفع لديه عند الله، تبكي متضرعة تستحضر في ذاكرتها المكدودة ابنتها المسجاة كجثة محنطة تحتضر، تقف على مشارف النهاية مغيبة عن الحياة، فبعد أن تعافت واستردت أنفاسها اكتسحتها موجة حمى سببت لها الإرهاق الشديد والكسل والتراخي لعدة أسابيع فلم تعد تقوى على ممارسة يومياتها بشكل طبيعي، ويبدو أن طبيبها قد خرج من حجرتها متجهماً وهو يصف الحالة لأمها، فما حدث

لها أشبه بمضاعفات في الجهاز التنفسي والتهابات حادة تقتضي نقلها إلى المستشفى ليتم ملاحظتها على وجه الدقة.

لكنه عاد ليطمئنها ثانية وهو يعتبر هذه الحالة ظاهرة تتكرر باستمرار فخلال موسم الحج تنتقل عدوى كثير من الأمراض من شخص لآخر نتيجة اختلاط البشر من جميع الجنسيات خلال أداء مناسك الحج، فأغلب الحجاج يعودون محملين بفيروس الأنفلونزا نتيجة رذاذ العطس والسعال، فما يحدث عند الإصابة بهذا الفيروس أن جهاز المناعة يقوم بإنتاج أجسام مضادة نوعية للفيروس الحالي ثم يتغير بتغيّر خصائص الفيروس، لا تستطيع الأجسام المضادة القديمة التعرف على الفيروس الجديد وبالتالي تحدث الإصابة الجديدة، وهذا التطور حدث لحالة علياء المرضية فلفترة قصيرة استطاعت الأجسام المضادة القديمة أن توفر مناعة جزئية ضد الفيروس وبفعل التغيير الذي يحدث للفيروس تستدعي الحالة تغيير نمط العلاج، فلا نملك إلا الصبر والدعاء.

اجترت ثريا أنفاسها المحرورة ولهثت بحسرات مزقت أستار صمتها الطويل وهي ممسكة عن الكلام، تتعاقب أحداث حياتها بمشاهد مخزية تارة ومؤلمة تارة أخرى.

خارت قواها عند أعتاب الضريح المقدس وارتعدت رعدة صاعقة هزت جوارحها المضناة فأجهشت بصوت مرتعش ونفس متهدج، مما اضطرها الاختباء بعباءتها درءاً للعيون الفضولية،

تتراءى حولها ظلال أكوام بشرية تتهالك في جزع وخشوع مندفعة بعاطفة هادرة تشكلت كموج مقتحم يفترش المكان بذبذبات ممغنطة تنجذب إلى الكيان الراقد توقاً مختلفاً فيها منذ الأزل، تشبثت بمكانها منهارة قد حفر الزمن داخلها ندوباً مزمنة، كونها الصبر الشديد بتركيبة امرأة مغلولة الرغبات تخشى التورط في المباح، استثنتها التجربة المريرة بقداسة مميزة حوّلت وجهها شطر السماء، قرّرت في تبتلها الاختياري أن تتسامى على جروحها متعالية على الآلام تسرج في ذاتها سرابيل نور تقيها هجمة الدنيا الغرورة فعاشت وإياها في معترك طويل وصراع لا ينقضي، سلكت بقرارها العقلاني درب الشوك تنهمر عليها البلاءات كالمطر وتمارس بعذوبة المشتاق إلى الله طقوسها الخاصة مستمرئة لحظات الإخفاق ترشح كل ما فيها من انفعال، ناسكة حوطت رغباتها دوماً بألغام من المحظورات قد يجد فيها المنطق شذوذاً إذ يستبيح فيها المرء موته البطيء، هي تذعن في تهميش حاجات النفس رغم حجمها الكبير وأهميتها الشديدة كي تبقى خارج دائرة الزمن، تحيّر في فهمها الناس عندما غالت في تطرفها بين الزهد والجوع، إن وقفتها في محراب القدس الإلهي منكبة على بلاط الضريح ساجدة توسمها بميسم المتعالية على الدنيا، أقدام الزائرين تطؤها بإهمال وقسوة غير مقصودة، تضيق في مختنق يستلها في غيبوبة، تدافع الأجساد العنيف يغرقها في العتمة، استعذبت الألم بلذة روحية فخيل لها أنها في حقل من تسبح

معها، تجيش الأحلام البعيدة والأمنيات المدفونة بثرثرة ألسن تلتهب ذكراً، تشحذ في باطنها ذلك الأمل المفعم بوعود مستحقة غربلت نوايا نقية أشبه بزهر البرتقال يتضوع من قداحه عبر الصلوات القدسيَّة.

التف الزائرون حول ذلك الكيان الممدد بسكون مهيب، ينضح نوراً وألقاً يشحذ فيهم طاقة موّارة تعيد لأرواحهم الهرمة ذلك التوقد الفتي فما من مهموم إلا وعاد مبتهجاً بعد أن اغتسل بدموع الغفران أدران عذاباته وما من محزون إلا وأشرق ضوء الرحمة في عتمة قلبه، ترفل روحه المخضبة بالطهر فوق الزحام كنورس هائم في رحب السماء، وسحنتهم الوضاءة ببهاء رائق حصاد فيوضات عرق التهجد ترشحها أوصال خاشعة، ما ألذ وهن الجسد الصلصال ينساب مع التراتيم والأذكار مرتعشاً في حضرة النور، منصهراً مع زخات الدموع، تعرف أن الخور أمام الله سبحانه قوة تستسقي من مزن الرحمة قوتها وابلاً مدراراً يظل ينبت فيها الخصوبة والنماء، هؤلاء يتطهرون من لوثة حضارة طمست معالم روح الإنسان وبالغت في تحريض اللذة البهيمية ، جاءوا محملين بوزر الخطايا الثقيلة حينما أوهمتهم أن السعادة في اللذة الحسية وإطعام الروح بكل ما تشتهي حتى انتهت إلى الفوضى والإرباك، ثم خواء يحفر في الباطن ألماً غائراً لا يسكت عواؤه إلا بالتطهر والتوبة، فكيف بالدعاء يستجاب وحجب الآثام تقصيهم عن الله بمراحل، قد شق الذنب لهم خطاً متعرجاً في سيرهم نحو الله، امتص فيهم

قوى الخير فسقطوا صرعى الهم والحزن يحدوهم الأمل باستغاثة كونية توقظ حسّهم الخافت وتقوّم هذا الاعوجاج فكان الإمام المعصوم شفيعاً يستوطن القلب مقصداً لكل محتاج ومكروب، يأتيه الزائر محملاً بأثقال الخطايا مستصرخاً قد لوعته غربة ووحشة، مستغيثاً من جور دنيا حولت الأوطان إلى سجون تقهر الإنسان بالحرمان والظلم والفقر.

زحفت ثريا بجسدها الخائر حتى التصقت بباب الضريح تناجي الإمام بصوت بحّ لفرط البكاء وكانت حشرجات تتناغم مع إحساسها المشبع بالرجاء والأمل.

«السلام عليك أيها الإمام الغريب، السلام عليك أيها الإمام الشهيد، السلام عليك أيها الإمام المظلوم، السلام عليك أيها الإمام المعصوم، السلام عليها أيها الإمام المسموم، السلام عليك أيها الإمام المغموم، السلام عليك أيها الإمام المهموم، السلام عليك أيها الإمام الهادي والولي المرشد، أبرأ إلى الله تعالى من أعدائك وأتقرب إلى الله تعالى بموالاتك، السلام عليك يا شمس الشموس، السلام عليك أيها المدفون بأرض طوس، السلام عليك يا مولاي وابن مولاي ورحمة الله وبركاته»

«مولاي ها أنا واقفة بين يديك وذنوبي مثل عدد النجوم وقطر الأمطار وورق الأشجار وليس لي وسيلة إلى محوها إلا رضاك، مولاي ما أحسب في صحيفتي عملاً أرجى عندي من زيارتك وقصدتك لحاجتي، لهمي، لغربتي، لشقائي، لعثرتي»

خرت ثريا ساجدة وهي تشهق من الأعماق حتى كاد لفرط حرارة أنفاسها أن ينشق صدرها وينفث كل ما فيه من لواعج.

استحضرت في ذاكرتها المكدودة حياتها، أولادها، مشوارها المعنى، سنين عذابها وتضرعت خاشعة.

«يا مولاي جئتك بقلب كسير، قد نكأت الأيام جرحه، لا أملك قوة وعزة إلا بك فأنت شفيعي تسمع شكوتي وأنيني، بحق غربتك يا إمامي أقسم عليك ألا تردني خائبة، مخذولة، تركت أولادي مستسلمة لله، لقدري، وحملت همّي إليك لعلك تنظر لي بعين الرأفة والرحمة»

ثم وجهت ناظريها المحزونين إلى السماء داعية:

«أسألك يارب بحق هذا الإمام المحزون في وحدته، تاقت له نفسي فجئت أزحف إليه بشق الأنفس راجية أن تشفى ابنتي، عجز الدواء، عجز الطبيب، عجزت كل قوى الإنسان عن شفائها فأرجوك يا من تملك مفاتيح الغيب والأسرار بحق هذا الإمام الغريب أن تعيد لها العافية والحيوية، فقد خبا ضوء قلبي مذ هوت ابنتي في لجة المرض تتقلب على وقد الألم قد امتص السقم عافيتها، فديتك روحي وعقلي وقلبي يا إمامي أن ترجو لي نجاة من الله... يا أنيس النفوس يا شمس الشموس يا معقد آمال الراجين، لا تردني خائبة مخذولة، فرّج همي وكربي»

تنهدت ملتاعة تستحضر ذلك الدفق والولاء لآل البيت وكيف تتجه إليهم دوماً بحاجاتها.

«أنتم أئمتي، عدتي ليوم فقري وحاجتي من لنا غيركم نلجأ إليه أنتم الملاذ ومعقل الهدى، ترخص لكم مهجتي ويذوب في هواكم قلبي كونوا لي شفعاء يوم يتفرق عني الأهل والولد، أشكو لكم ولدي فلذة كبدي الذي ربيته بدمع عيني وحرقة دمي حاد عن الطريق، وانحرف عن الصراط المستقيم وأنا حيرى لا أدري متى يثب إلى رشده، أطلب له الهداية والرشد والبصيرة، حمداً لله أن خرج من السجن، فقد نذرت زيارة إمامي الرضا إن فك عنه ذلك القيد»

وعادت تشبك أصابعها بشباك الضريح في وقفة خاشعة ممتنة.

«يا نور عيني، يا مولاي، كم أنا سعيدة، شاكرة أن استجبت لأنيني وأنا أجوب بصرختي آفاق السماء أستغيث بدعواتي وبكائي في الليالي الباردة الموحشة مبتهلة إلى الله، بشفاعتك وشفاعة أهل البيت، أن يفرّج عني هذه الكربة، إننا عاجزون عن الصبر في المحن وقد اصطفاني الله بأعظم الشدائد وأقتدي بكم يا مولاي حينما أتذكر مصائبكم، معاناتكم، أنتم أهل البلاء المختارون وأنا سائرة على نهجكم، صبّرني يا مولاي، صبّرني حتى ينكشف عني الضر، أسألك أن تكتب لأولادي التوفيق والنجاح والثبات على الصراط المستقيم، أرجوك يا إمامي أن تصونهم من فتن الدنيا وعثرات الزمان، أعلم أن دعاء الأم مستجاب، وأعلم أن رحمة الله الواسعة لا تدانيها في الخلائق

www.mlazna.com-RAYAHEEN

رحمة، وسينظر لي الله سبحانه بعين العطف والرحمة، ببركاتك يا مولاي، بنورك الذي يسطع في جنبات قلبي وروحي، نذر لله عليّ لأن شُفيت «علياء» من مرضها لآتي بها إليك زحفاً، فلا تردّ سعيي ولا تخذلني حاشا لله وحاشاك يا إمامي أن أعود بحسرتي وكربي فأنتم أئمتي معادن النور، وخزان العلم، ومنتهى الحلم، وأصول الكرم وقادة الأمم وأولياء النعم وسلالة النبيين وصفوة المرسلين وعترة خيرة رب العالمين، كيف تردون يدي إلى نحري، كيف أرجع مطأطأة الرأس منهارة كل أحلامي، كلي ثقة بالله وبكم أن همومي ستفرج وآلامي ستداوى، بفضل كرمكم ورحمتكم وقربكم إلى الله»

انهارت «ثريا» وتولاها شيء من الضعف إذ أحست أنها غير قادرة على حمل نفسها، جلست تتلفت حولها، ثمة شخص كانت تستفقده بين الحشود أقبلت نحوها امرأة في العقد الخامس من العمر تناديها بذعر:

«أوشكت أن أجن، أين اختفيت؟»

نهضت ثريا بتثاقل فبعد أن تخدرت أطرافها وهي غارقة في انعتاقها الروحي، تعثرت في مشيتها، تشدها أم حبيب من ذراعها.

«مهلاً مهلاً»

تتأوه ثريا وهي تشق لها درباً وسط أمواج الناس.

واصلت أم حبيب:

«فلنعد إلى الفندق لنتناول الغداء»

مازالت ثريا غارقة في الصمت وكأنها راهبة في محضر قداس تشدها الأخرى:

«ما بك، يبدو عليكِ الإنهاك»

تنهدت بعد أن استردت وعيها من الغياب:

«إن شاء الله لن يخيبني الإمام عليه السلام»

«أعرف أن مصيبتك فادحة، لكنك بمستوى هذا البلاء، عرفناك دوماً امرأة صلبة، قوية»

رمقتها بعينين خبا ضوؤهما:

«هدت المصائب قواي، ليس لي القدرة على التحمل جئت أستعين بالإمام ليسددني من جديد، ليقوّم ضعف إيماني، ليشد عزمي كنت أحتاج إلى طاقة حرارية جديدة تفيض في كياني حتى أواصل مشوار الحياة بصبر وقوة»

«تبدين منهارة، شاحبة، تعالي لتأخذي قسطاً من الراحة، أمامنا يومان يتسنى لنا قضاءهما في العبادة»

رنت ثريا إلى صديقتها بشيء من الامتنان:

«شاكرةٌ لك هذه الصحبة يا أم حبيب فقد ضاقت بي السبل ولم أعد أجد من رفيق شفيق سواك، وعذراً لانشغالك بي تركت ابنتك الوالد في وضعها الحرج»

ربتت المرأة الطيبة على كتفها بحنان قائلة:

«تعتذرين؟! وهل في هذا عمل مؤسف، فقد تبين لي أنني محظوظة إذ دعاني الإمام لزيارته، حقا أنا ممتنة لك».

تناهت إلى رأس ثريا، فكرة فهمّت لتسأل:

«ما رأيك يا أم حبيب لو نتغدى في المضيف، تاقت نفسي إلى هذا الطعام المبارك وودت لو آخذ منه كسرة خبز لابنتي كي تشفى بإذن الله».

«فكرة جيدة، فقد أوفيت نذرك ويحق لك أن تتناولي شيئا من هذه البركات».

انعطفتا ناحية البوابة الكبيرة المؤدية إلى طريق المضيف وهناك دلفتا نحو الممر الذي ينتهي إلى باب المطعم وفي وسط حشود كبيرة تجمعت بفوضوية وصخب استخرجت ثريا من كيسها بعضا من النقود وقدمتها إلى الفقراء المتجمهرين حول المكان متوسمة أن يكون في هذا الإحسان مدعاة لتخفيف وطأة آلامها.

دخلتا عبر سلم قصير يوصلهما إلى ردهة واسعة تنتهي بهما إلى مكان الضيافة الذي اكتظ بالزوار، اتخذتا لهما مائدة صغيرة بانتظار خادم المضيف أن يلقي لهما طبقين من الرز واللحم فأقبل نحوهما بثيابه الناصعة يجر عربة كبيرة محملة بالأطباق وبحركة رتيبة آلية اعتادت عليها ذراعاه سحب طبقين

ووضعهما أمام السيدتين دون أن يبدي أي انفعال واضح على وجهه الصارم فقد دأب على عمله بحزم رتيب.

سألت ثريا محرجة:

«أخشى أن أكون قد أزعجتك، فبدا عليك الذعر وأنت تبحثين عني وسط الحشود.»

رقت تقاطيع أم حبيب فقالت:

«نعم خشيت أن يصيبك مكروه، فقد بدا عليك الإعياء مذ كنا في الطائرة وقد أقحمت نفسك عنوة في هذا الموج من البشر وتوجست أن يسبب لك الضغط ألماً وضيقاً لا تحتملينه وأنت في هذا الوضع الصحي السيء»

ضغطت ثريا على يديها متوددة:

«أشكر لك رعايتك وحنانك، فأنت الصديقة الوحيدة التي تهت عنها زمنا لولا الأقدار تخدمنا أحيانا عندما ترتب لنا الظروف والأحداث كي تتواطأ مع أمنياتنا، وحدها الصدفة خدمتني يوم التقيتك في المستشفى»

صمتت حتى خنقتها العبرة فكفت عن الكلام.

بينما سعت «أم حبيب» إلى تسرية همها:

«ستشفى ابنتك بإذن الله، لن يردك الله سبحانه خائبة فقد تجشمت أعباء السفر في هذا الشتاء القارص وحملت همّك

إلى الإمام بصدق ونية صافية، صدقيني ستقطفين ثمار دعائك»

ألقت ثريا نظرة حالمة إلى أم حبيب وابتسامة تشف عن باطن طيب:

«وهالة؟! كيف تبدو الآن بعد ولادتها البكر؟»

أردفت «أم حبيب» ووجهها ينضح بشراً وعلى سبيل الدعابة:

«اتصلت بها صباحاً تشتكي خديعة مولودها فهو ينام طوال النهار ويسهر حتى ساعات الصباح الأولى بدت مرهقة فقد أنباني صوتها»

نظرت إليها ثريا باستحياء وكأنها تدفع عنها حرجا.

«كان الوقت غير مناسب أن ترافقيني وتتركي ابنتك في وضع النفاس»

وعادت تطمئنها ثانية:

«أرجوك لا تشعري بالحرج فخالتها تتردد عليها كل يوم ناهيك عن اتصالي المكثف بها حتى أنها لم تعد بحاجة لوجودي ثم أننا سنعود بعد غد فلا تحملي وزرا أنت منه براء»

«سأذهب إلى الفندق بعد الغداء لأتصل بعلياء كي أطمئن عليها، يارب أرجو أن تكون دعواتي قد أستجيبت»

وبثقة تتابع «أم حبيب»:

«صدقيني دعاؤك مستجاب، جميع العلماء أجمعوا في الشرق والغرب أن في الدعاء استجابة، إن ابني حدثني يوما عندما كنت أقرا في كتاب مفاتيح الجنان، أن هناك ذرات وشحنات تنتقل عبر الأثير إلى الشخص الذي ندعو له وتدخل في جسمه عن طريق مساماته فيتماثل إلى الشفاء قال لي إنها حقيقة علمية.

باغتتها ثريا بنظرة دهشة وكأنها تستحثها على المزيد.

واستطردت أم حبيب ثانية:

«ولا تنسي أن دعاء الأم للولد مستجاب أيضاً، وقد نذرت هذه الزيارة وأوفيت النذر، فلا تبحثي عن مسوغات القلق والخوف»

هزت رأسها موافقة، مدت يدها والتقطت كسرة الخبز ثم دستها في حقيبتها معللة:

«ربما فيها الشفاء»

وتابعت أم حبيب كنوع من التذكير:

«وأظن أن جفاءك مع عماد لم يعد له مبرر بعد اليوم»

انقبضت سحنتها وقالت بشيء من الحدة:

«لابد أن يتلقى الدرس جيدا، لن أتجاوز هذه المشكلة بهذه السهولة ففعلته نكراء وجرمه عظيم فلولا شهامة هاشم للبث

www.mlazna.com-RAYAHEEN

في السجن لأمد طويل فبلطف من الله تنازل صاحب الشركة وشريكه عن القضية»

رددت أم حبيب في إعجاب بان في عينيها المبهورتين

«فعلا إنه شهم وعظيم، فبفعلته هذه ستفرج عنه الكثير من الكربات»

تفتق فكر ثريا عبر ذلك المثير الملهم «هاشم» وتذكرت رغبته الملحة في الزواج منها، قلبت الفكرة في رأسها من عدة وجوه بعد أن استمهلته في اتخاذ قرارها الأخير، سبرت أغوار نفسها فإذا بالمنابت شاحبة والرغبات شحيحة ولا تمتلك تلك القدرة على استئناف حياة جديدة كانت قد بترت أذرعها كي لا تستطال أكثر من الحد المقدر لها.

هي تعزه وتجله وتكابر فيه روحه السخية لكنها منذ زمن بعيد تركت رغباتها تتبدد ضمن كثير من الأحلام الهاربة من حياتها وبعد أن سكنت جوارحها وانطفأ شبابها واتشح بسود الثياب لم يعد لها ذلك التوقد والاشتهاء، تكالبت عليها المحن ونخرت في جوفها القروح بعد أن كانت روحها زهرة فواحة يتضوع منها عبيرٌ يسري في القلوب فيغشها حباً، ثم إنها لا تعرف وقع زواجها على أولادها فلكل منهم أزمته الخاصة ووضعه الحرج، سترجوه أن يقف معها أخا يدعمها في الحياة، وحصنا تلوذ به في الأزمات لن تقطع حبل الوصل فموقفه الإنساني النبيل عبّر عن أعماق صادقة نقية، لن تصدف عنه بل

ستترك بينهما مساحة مريحة يلتقيان فيها عند المنحنيات الصعبة.

فالإجابة العائمة هي المخرج الوحيد من ذلك المأزق الحرج، ستدع حضوره مواسم أمل تشرق في قلبها إن تعكرت سماء حياتها وادلهمت بالغيوم، لن تقطع عليه الطريق أو تقفل عليه خط الرجعة، الحياة علمتها المداراة واجتناب الإجابات القاطعة مع نوعية من الناس يشكلون في حضورهم الدائم حالة من الأمن النفسي لا تعوض.

صاحت أم حبيب بـ «ثريا» وهما تقطعان الشارع مشياً على الأقدام متجهتين إلى الفندق القريب من الحرم:

«هيا..أسرعي»

انفصلت ثريا عن «أم حبيب» بمسافة تائهة في فكر شارد تاركة للأخرى حرية الاستطلاع في المحلات المتاخمة للحرم بيد أن رعدة السماء ودويها العنيف وهي تشق ببريق خاطف وتهمر بزخات مطر شديدة انجذبتا دفعتهما جرياً نحو الرصيف حتى التصقتا ببعضهما بحثا عن مظلة تأويهما بعيداً عن الوابل المدرار وفي هذا النهار الماطر تفتح السماء ذراعيها للناس أن أقبلوا إلى أحضاني، واغتسلوا بفيضي فأنا الأم الرؤوم، رفعت ثريا أذيال عباءتها تعدو إلى الشارع وقد غرقت بالمطر وتجاذبت أمطار عينيها بدمع السماء في تناغم شفّ عن روح ولهى غاية في الرقة والإحساس داعية «يارب بحق هذا

المطر وبركاته اشف ابنتي فقد نكأ وجعها جرحا غائراً في قلبي وحرقة في كبدي، يارب أطفئ نار كربي ولهيب حزني واغسل بغيـاثك هذا جل آلامي» افتـرشت أذيال عبـاءتهـا الطرقـات المغمـورة بالوحل وهبت تنادي في هيـامهـا المنقطع عن العـالم «يارب أغثني يارب أغثني»

تغرق في المطر وكأنها في أفق خاص بعيدا عن صاحبتها التي ظلت تناديها وهي محتمية بسقوف المحلات «عودي إلى هنا كي لا تصابي بنوبة برد»

وتبدو «ثريا» في انغمارها الذاتي أشبه بالعابدة الراهبة في محراب التبتل تشخص ببصرها إلى مشهد صرفها عن كل المرئيات المجسدة حولها ومضة انجلت في لحظة رأت بتحديقها اللامرئي أن ما كانت تصبو إليه قد تحقق، ضحكت وكأنها طفله تعانق المطر وتطارد الفراشات في الحقول الخضراء مـأخـوذة بنقطة ضـوء جـاذبة تظل تسـتقطب كل شـواردها وأعصـابهـا حـتى إذا مـا وصلنـا الفندق، انطلقت إلى هـاتف غرفتها مستبشرة واتصلت «بعلياء» رنّ الهاتف طويلاً وكاد قلبها الهالع ينفطر أسى لولا يد الرحمة تمسح عن قلبها كل ما علق من ذرات حزن وإذا بصوت «علياء» ينطلق بحفاوة وحيوية غير متوقعة:

«كيف حالك أمي، أنا بخير انخفضت الحرارة منذ البارحة سأخرج من المستشفى بعد يومين»

تعثر لسان ثريا في حلقها من شدة الفرح واضطربت كلماتها في شفتيها المرتعشتين.. وكأن حرارة البهجة سرت في عروقها كدفء أعاد لوجهها الجامد نضارته وتألقه واستنهض قلبها المنكفئ بالأنين، ودموعها المنسابة تغتسل الكآبة والحزن لاشيء يكبح هطولها ويجف نبعها، دموع الفرحة أقوى من إرادتنا، تنهمر بالرغم منا وكأننا لا نملك قيادها.

ارتعشت السماعة في يدها «شكراً لك يا رب.. شكراً لك يا رب»

انتفضت جوارحها المتشنجة قلقاً وترقباً وكأن مساً كهربائياً أشعل فيها الحياة من جديد.

صاحت علياء مندهشة فصمت مبهم في الهاتف:

«ماما ما بكِ؟»

«فرحة يا ابنتي لشفائك»

«متى ستعودين؟»

«بعد غد مساءً بإذن الله»

وجثمت ثريا على ركبتيها وسجدت لله شاكرة بدموع أطفأت لهيب كربها.

هبت واقفة تنادي أم حبيب.

هرولت المرأة بفرحة استبشرت بعلاماتها على أمائر ثريا وتعانقتا:

«لقد تعافت علياء»

وتضمها أم حبيب:

«ألم أقل لك أن الله لن يخيب مسعاك»

وأردفت ثريا بعد أن دب فيها نشاط عجيب:

«سـأذهب الآن لزيارة الإمـام وأصلي في حضـرته صـلاة الشكر فقد نلت مرادي بوقت قياسي»

استوقفتها أم حبيب:

«ارتاحي قليلاً، تريثي حتى يخف هطول المطر».

صاحت وكأن دفقاً جديداً من الطاقة أوقد في روحها الذابلة قوة جبارة:

«لن أنتظر سأذهب مشياً على الأقدام إلى حبيبي الإمام مبللة عباءتي تحت فيوضات ربي، برعشة البرد، برجفة الخوف، بفرحة الانتماء إلى دفء الإيمان»

تقدم لها الأخرى حلاً ميسراً:

«خذي عباءتي فقد تلوثت عباءتك بالوحل»

وبإصرار من قررت أمراً خارجاً عن منطق الأشياء:

«هذا الوحل سيشهد لي يوماً كم كنت متـرددة في قبول المعجزات وأحسبها أمراً قد يتأتّى محض صدفة، الآن حدثت لي معجزة استنفرت كل ما في داخلي من عشق إلهي لن أقبل على إمامي مرة أخرى إلا وأنا محمّلة بالثقة والإيمان من أن الله

وحده سبحانه من يملك أسباب الحياة وأسرار الإنسان ومقاديرنا ونهاياتنا وكل قوانين العلم والعالم تحني إجلالاً مذعنة لإرادته وهم أئمتنا شفعاؤنا عند الله.

وبسرعة من يخشى أن تتبدد الساعات دون طائل ودعتها وانصرفت.

ارتبكت أم حبيب أمام إعصار هذه الروح المشعة بالإيمان فنادتها بعد أن تذكرت:

«متى تعودين؟»

التفتت وهي راكضة تسابق الزمن وسط صفير الريح ورذاذ الثلج:

«ربما وقت النوم»

وغابت ثريا بين الطرقات تحت المطر تستظل عباءة الكون محمية بوشاح الرحمة هناك ستتخذ موقعها من جديد قرب الضريح منكبة على جدرانه في غيبوبة واعية تناجي الإمام وتغرق في أتون الوجد الإلهي.

كانت أم حبيب تقف قرب النافذة تراقب ثريا بانشداه وهي تهب الطرقات متلهفة للقاء حبيب.. وتمتمت بعد أن ذاب الشبح بين الحشود المتدافعة تستطرق باب الحرم الكبير بشوق غيب وعيها بالإشياء:

«حقاً إنها ثريا»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لاءاتك... تنعش قلبي

تأتيني رسائلك باستمرار وأشعر بك وقد اختصرت زمن ضياعك لتعود مجدداً إلى فطرتك تتضح نقاوة، قد لا تعرف سر هذا الانقلاب الجذري في أعماقك، إنه توق إلى الكمال وبلوغ أسمى النهايات كنت تظن أن منتهى آمالك حسناء جامحة العاطفة تقطر تقاطيعها إثارة، ونهلت من هذا النبع حتى الارتواء لتجد أن نيران عشقك لم تخمد وسرعان ما تحولت إلى أخرى أكثر وفرة وخصوبة وتقع في ذات المأزق، إن قلبك يا عزيزي لهف إلى الأكمل، إلى الأفضل، جبت في كل وادٍ سحيق تضرب بعصاك على القيعان الناضبة في عطش مستديم وهمت في طرقات الزمن بحثاً عن حقيقة ذاتك وفؤادك في سفر دائم، جربت كل صنوف اللذة والمتعة، المال والجاه النفوذ والسلطان، ومعشوقك الحقيقي مغيّب عن دائرة حلمك ضعت في صحارى الضلالات وتشردت في أزقة الحسرات، خلتك فراشة هائمة حول شمعة الجمال يتراءى لك بألوان قوس قزح ابتهاجاً يستفز

كل شغفك وينهكك الإرهاق والوجد إلى كمال مطلق فوجدت حبيبك أخيراً، ومعشوقك مكتوباً على صفحات قلبك في داخلك صوتٌ قد أخرسه سوط الشهوة، يناديك خلسة «أنا كعبة آمالك، ومعقل القوة والقدرة» لِمَ سرت في درب الشوك مثقلاً بخيالاتك الوهم، فكل ملذات الحياة نواقص، كلما تصل إلى هدفك يظل في داخلك توقد ملتهب لا يخمد بل يزداد ويشتد إلى حد الاضطراب.

أعرفت السر يا فؤاد؟! كنت مسرورة لهذه التحولات الجذرية في كيانك وأحسبها يقظة من نوم الغفلة، توجهت الآن بكل جوارحك إلى محبوب لا يزول، ومعشوق لا نقص فيه ولا عيب، وقدرة لا تعجز عن شيء، وحياة لها طعم ونكهة ولذة لم تشعرها من قبل، ذقت الآن رحيقاً لم تعرف له مذاقاً من قبل، هذه هي فطرة الله التي فطر الناس عليها نور الفطرة مغروسٌ كمصباح داخل قلوب كل البشر في المملكة الإنسانية سكان البوادي، الغابات، الشعوب على اختلاف مشاربها وأجناسها جميع أهل الملل والنحل، المسلم، المسيحي، اليهودي، الكافر، إنهم في النهاية إنسان معجون بفطرة الله، لكن هذا المصباح يبقى معتماً بسبب الذنوب، الشهوات، المعاصي، حب الدنيا والتهالك عليها بعضهم أدرك متأخراً وبعضهم ترك مصباحه منطفئاً، صم أذنيه عن سماع الحقيقة وكأن بهما وقراً، وبعض تدارك أمره عندما صفعته الدنيا صفعات وتغربل بالشدائد لينفض عن هذا

المصباح الغبار فيضيء من جديد ويقرر العودة إلى ذاته النقية، الآن تعرف معنى الحرية الحقيقية فمنذ زمن كنت أسيراً لملذاتك، أشبه بنهر آسن تعطش فتغرف منه وبعد التخمة تشعر بكدر قلبك وسؤال في ذهنك محتارٌ «لِمَ لا أشعر بالسعادة وأنا أملك أسبابها؟!»، كم أنا سعيدة لعبارتك الأخيرة في الرسالة الهاتفية وأنت تقول: «فداء العزيزة أشعر براحة وحيوية جعلتني أشبه بعصفور طليق»، إنني فخورة لأنك عرفت ذاتك وعثرت على صفاتك، فقد استطاع قلمي أن يصهرك بحرارة شمسي ويصيغك من جديد روحاً تنبض على ورقي حتى أنني شعرت بالمسؤولية تجاهك، لكم قرأت من القصص والروايات بحثاً عن نسيج مركب لكل هؤلاء الأبطال أختزل منهم شخصية فارس لروايتي كنت تسبقهم روعة وتألقاً وبقيت الأفضل لسد جوع القلم، وأقدرهم على اقتحام مخيلتي، من ينتصر في معركة الأهواء؟! من ينكفئ إلى الداخل بعنف ويقمع نهمه أظنه البطل، نسيت ملامحك منذ آخر لقاء كان بيننا لكن أعرف أن لك تقاطيع جديدة تغزلها أصابع عقلي في الذاكرة، أستعرضك في النهاية وحتى البداية ومشوار عذابك أشبه بحلم يقظة، في رسالتك الأخيرة أحسست أنك تحبني بمنطق جديد وتفهمني بإدراك من عرف نفسه ليعرف الآخرين من خلال نفسه، شئت أن أتصل بك لفرط فرحتي لكني تماسكت خشية أن تتبدد فرحتي بجارحة صغيرة أو هفوة غير مقصودة، وتشاغلت عن هذه الفكرة الملحة بقراءة كتاب فلسفي يعلمني كيف أتعامل مع

حواسي بمنطق وأفلسف اللذة على طريقة الحكماء، هدأت بعض الشيء، وكنت أتذكر إلحاحك زمناً في أوراقك القديمة حينما عرضت عليّ زواجاً مؤقتاً في جو من الكتمان والسرية درءاً لحرج والدتي ومراعاة لظروفك، ابتسمت وكأني أشاهد لوحة كاركتيريّة لرجل وصل متأخراً في يوم زفافه يحاول اللحاق بعروسه الهاربة، ولا أكتمك سراً أنني في أول الأمر كنت أخشى والدتي، هيبتها ترعد فرائصي، صلابتها وشدة مواقفها تهزمني من الداخل لكني أدركت سر قوتها، فالقوة أن تقول لا لنفسك، اقطع عليها طريق الانزلاق في مهاوي مفخخة بالرغبات تنسف كل بنيانك الداخلي، أنا مبهورة بأمي ما سر صهيلها الشامخ في بيداء الحياة وهي خاوية الوفاض لا تملك إلا هذه «اللا» تصدح في آفاق روحها، أنا الأقرب إلى أمي، شربت لهاثها وهي في معترك الحياة تناجي ربها في هدأة الليل الحزين، التقطت بحواسي البكر خفوت أنينها وفيوضات دموعها تسبح للكون بمسبحة الصبر المض وهي تكبت رغباتها، أدركت الآن وبعد ألم المخاض الفكري وأنا أمنطق الأشياء مجردة عن الهوى، إنني عقد ثريا صاغته زمناً حكاية كفاح، تاريخ عطاء، أنا لها المشهد الأمثل الذي يجسد قيمها امتداداً، وعار عليّ أن ألوث هذا الإرث بفتات اللذات.

هل تذكر يوماً قلت لي أنك ستصمم لي غلافاً لروايتي هذه، انتقيت لي إحدى لوحات معرضك الأخير في باريس، أحسست

وقتها أنك الأقرب لي عندما تعمل على تهذيب رابطتنا كمشروع إنساني له خطة وهدف تشحذ فينا أسمى الغايات.

صدقني يا فؤاد إن لاءات ثريا أبقتها دوماً منتصرة، فجميعهم سقطوا على سفوح هذه اللاءات صرعى ضعفهم.. قد أحببتك لأنك كنت مؤمناً بأمي منذ زمن طويل، كان لك حس داخلي عميق يستشف أن هذه المرأة مخلوقة مهجنة بين الإنس والملائكة احترت وأنا الكاتبة الحاذقة كيف أصنف أمي.

أجزم هذه المرة أن خياراتك ستكون مختلفة، إذ ستحترم رؤاها وتصون كرامتها وتقف مني موقف الأخ الشهم الذي يشهر رمح الكبرياء في وحش رغباته الكاسر، أسمع أمي تقول عنك دائماً «إن بذرتك طيبة وتتوسم فيك وثبة جديدة، فهزائم الماضي أشباح هشة ستبددها شمس الحقيقة»

لا تصدق إن قلت لك أن القوة في داخلي جعلتني أصلب من أن تطوعني إغراءات المادة أو يطربني بريق الشهرة الزائف، فبعد التحقيقات الصحافية الأخيرة التي أثارت ضجة بين الناس، بعضهم هددني وبعضهم أغواني، والبعض الآخر بصق في وجه الزيف واستخرجني ذهباً مصفى في زمن شوه كل القيم الجميلة، وعرفت أنني أملك عصى موسى السحرية، هي تقبع داخلي بمفعولها الكبير وتحوّل عذابات الزمن وطغيان الناس إلى متعة ولذة استشعرها وأنا في حمأة الصراع، الطرق وعرة تنتهي بإغلاق محكم، لهذا تركت الصحافة وجئت أعمل

www.mlazna.com-RAYAHEEN

في التدريس وكتابة الروايات، إنهم يخشون الحقيقة ويحاولون طمس معالمها عبر غبرة الإيهام والتضليل وقلب الحقائق وتهميش القضايا، وقد تغرب الشمس عن هذا الشاطئ لفترة ثم تشرق على شاطئ آخر، لا يمكنك أن تحجب ضوء الشمس بأصبع حتى أن أمي اتصلت اليوم من مدينة مشهد المقدسة لزيارة الإمام الرضا (عليه السلام) تقول أنها دعت لي كثيراً وبخشوع كي لا تنطفئ شمسي حينما شهدت معي في الآونة الأخيرة فصول الحرب النفسية التي أواجهها لوحدي وأنا شابة عزلاء لا أملك السند والناصر أحمل في داخلي إيماناً وقوة كالإعصار وروحاً خلاقة، وعقل مبدع تخشى أن أستريح إثر هذه المواجهات وأستسلم مذعنة لقدر الخانعين والجبناء، منذ طفولتي وهي تسرد علي مسامعي قصة الإمام الحسين (عليه السلام) وبطولته الفذة في كربلاء، وناعية الحسين زينب وجهادها الإعلامي حتى أنني قررت أن أهدي لك كتاباً اشتريته منذ زمن عنوانه «الحسين في الفكر المسيحي» لأنطوان بارا، لتتعرف على معالم هذه الشخصية الخرافية، لا تصدق إن قلت لك أنني خسرت الكثير من الأشياء في مقاييسهم لكني حتماً منتصرة بكرامتي، بكبريائي، بذاتي الصافية لم يدنسها الكذب والضلال والخديعة والظلم، بقلمي الشامخ، بحنجرتي الصافية أضع رأسي على وسادة ناعمة غارقة في نوم هادئ عميق لا أتحسر على دنيا أدبرت ومنصب ضاع أو أقلق لحلم قادم، كلماتي قناديل نور توقد في قلوب الناس الأمل والحب، هي الباقية لي على مر

السنين، واحرص يا فؤاد أن تنمي فنك الرفيع ضمن أهداف تخدم البشرية وبمقاييس أكبر من همّ الأنا، سألهمك مشاريعاً وأفكاراً وخيالَ أشياء ربما قد نسيتها زمناً ستعطي لحياتك طعماً جديداً وإثراءً أوسع.

بقي أن أهنئك على مولودك الجديد «يوسف» حقاً أنا سعيدة به، وسعدت أكثر برغبة العودة إلى الوطن والاستقرار مع زوجتك جميلة فكم أشتاق لرؤياها.

هذا يعني أن رسالتي هذه ستكون الأخيرة ويبقى بيني وبينك حبل ممتد بلا نهاية.

(فداء)

قرأت الخطاب مراراً وبقلب ينفطر ألماً، لا تدري لِمَ انحدرت مدامعها فوق السطور وكأنها تودع عزيزاً إلى مثواه الأخير، استعصت عليها الأوراق، أن تكفنها في ظرف لترقد قصتها في قبر الخاتمة حيث لا انبعاث للأموات، ربما يفهم أن عودته موات لكلماتها الأدبية التي يستنزفها الشوق والبعد فتهرف دماً ودمعاً فوق الصفحات... كأنها تحفر لهذه الحالة العاطفية المبدعة حفرة العدم فلن يجد القلم غذاءه المحبب وطعمه الحيوي، سيصمت، وستنتحر كلماتها جوعاً، فرسائل بعده طعام قصتها. قررت أن تصمت، أن تترك الأقدار ترسم خطوط الشوق، ملامح في الذاكرة، وتغزل من مفرداتها قدراً جديداً لبطل روايتها.

قرع جرس الباب أرجع إلى فداء فكرها الشارد.

نهضت لتفتح الباب، كان القادم «عماداً» قال بصوت مخنوق:

«أنا جائع أعدي لي عشاءً».

حملقت في وجهه طويلاً تستطلع مكمن حزنه:

«كيف رأيت علياء؟»

«بخير وستخرج من المستشفى قريباً»

«ظننتها في حال سيئة، فقد شفت تقاطيعك عن أسى غامض»، هرعت «فداء» إلى المطبخ لتجهز العشاء ثم عادت بالطبق وهي تحاول مواساته.

«حاول أن تنسى هذه الحادثة يا عماد، الغي هذه الصفحة من تاريخك.. استعبرت عيناه وكأن جسماً جاثم على صدره.

«ارحم نفسك فمنذ أن خرجت من السجن وأنت في حال كئيبة»

صعد ناظريه الدامعين في وجهها قائلاً:

«لازالت أمي غاضبة، وغضبها عاصف في كياني، ترفض اعتذاري يقتلني صدها، أصبحت عاجزاً عن فعل أي شيء، أحاول أن أكفر عن ذنبي بشتى الوسائل بيد أنها معرضة عني»

أطرقت فداء مستسلمة، تعرف أن غضب ثريا مدرسة قاسية يتعذر على الضعيف فهمها إلا بمشقة.

جالت عيناه في فضاء الحجرة ينفث جراحاته من كبد محرور ثم أتم حديثه:

«أصبحت خجلاً من فؤاد أيضاً، كيف يتسنى لي مواجهته بعد هذه الفعلة الدنيئة، كم أنا نادم وآسف على ما حصل، هذا المنعطف الخطير في حياتي قلب كل موازيني وحولني إلى نكرة في عيون الآخرين، زلة دفعت ثمنها باهظاً»

صمت يلتقط أنفاسه ثم استطرد:

«حتى أنني جبت الشوارع والطرقات بحثاً عن عمل وكأن عقاب الله امتد وأحرق كل مراكبي، أعلم أن أمي غاضبة ولو دعت لي ببركاتها تلك الدعوات الطيبة حتماً سيفرج الله عني هذه الأزمة»

دنت فداء نحوه لتربت على كتفه بحنان:

«طالما أنك تبت إلى الله فلا تخش العواقب، أمي حنون وطيبة ولن أشك في غفرانها لحظة، المهم أن لا تيأس، ابحث مرة أخرى عن وظيفة تحقق فيها ذاتك وسأسعى من جانبي»

وتابع عماد:

«اليوم عندما كنت في زيارة علياء بالمستشفى حدثني مخلص أن أخاه يمتلك محلاً لبيع الكماليات وعرض عليّ أن أعمل بائعاً فيه، شعرت بالمهانة، بالذل، فبعد أن كنت مديراً فذاً أهبط إلى أسفل المراتب»

حدقت به فداء طويلاً مستنكرة كبرياءه قائلة بصوت تشوبه حدة «المهم أنه عمل شريف يمكنك تطويره لاحقاً»

دهش من غضبتها المباغتة فآثر الصمت وبتر الحوار كي لا ينتهيا إلى الجفاء، بينما رقت تقاطيعها ثانية بعد أن سربت غيظها بملاطفته:

«تناول طعامك»

«وأنت؟»

«أنا في مزاج سيء الآن، لا رغبة لي بالطعام، سأتصل بعلياء لأطمئن عليها»

غابت في حجرتها، التقطت هاتفها النقال، انتبهت إلى رسالة هاتفية قد تناستها في غمرة انشغالها في الكتابة، كان مبعوثاً من فؤاد، كتب لها:

«سنعود غداً مساءً إلى أرض الوطن

أحمل لك في قلبي لوحة جميلة ستظل بيننا عمراً لا ينقضي»

تنهدت، بالرغم من كل أساها وأشرق وجهها من جديد فغداً سيكون يوماً حافلاً بالمفاجآت.

تذكرت الرسالة المطولة التي كانت ستبعثها له.. لا بأس أن يقرأها حينما يعود، إنها كلمات فرت من الزمن وتحررت من

جغرافية المكان طليقة في مضمونها تنبت في قلبه خضرة حتى وإن تأجل موسمها فرصيدها وافر وزخمها متجدد.

أقفلت راجعة إلى أخيها وقد نشطت طاقتها، باغتته قائلة.

«أرى أن تواجه فؤاداً بمنتهى الصراحة كي يصفي بينكما الود»

رفع رأسه من الطبق مذهولاً يحدق مدهوشاً ثم صاح مذعوراً:

«مستحيل»

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (٣٣)

ضرتان في وجه العاصفة

بلغت المعاناة بماجدة إلى حد الذروة، فكل الأحداث تتوالى عليها بقسوة وألم، أخبرها عمها هاشم منذ الصباح وهما يتناولان الفطور أنهم سيحضرون جميعاً هذه الليلة، فيما مضى كانت تكذّب ظنّها وتعوّل الأمر إلى حالة مزاجية قد طرأت على حياة زوجها سرعان ما تستهلك طاقتها الحرارية لتخبو بعد ذلك، أما وأن هناك أسرة متكاملة بأضلاعها لا تقل عن وضعها أهمية فذلك الذي لا يُحتمل المهانة التي تشعر بها امرأة مخذولة قد همشها في حياته رغم حملها وثقل مسؤوليتها إذ تركها في أحلك الساعات ومضى بأنانيته الغوغائية ينهب ما شاء له من الرغبات ترك في أعماقها جرحاً غائراً وعدوانية حولت الآخرين حولها إلى خصوم صاحت وهي تترك الفطور بعصبية موجهة حديثها إلى عمها.

«لقد أخذ فؤاد أقصى ما يستطيع أخذه حتى أصبحت الآن عديمة النفع»

الفصل ([illegible])

ضُرتان في وجه العاصفة

بلغت المعاناة بماجدة إلى حد الذروة، فكل الأحداث تتوالى عليها بقسوة وألم، أخبرها عمها هاشم منذ الصباح وهما يتناولان الفطور أنهم سيحضرون جميعاً هذه الليلة، فيما مضى كانت تكذّب ظنّها وتحوّل الأمر إلى حالة مزاجية قد طرأت على حياة زوجها سرعان ما تستهلك طاقتها الحرارية لتخبو بعد ذلك، أما وأن هناك أسرة متكاملة بأضلاعها لا تقل عن وضعها أهمية فذلك الذي لا يُحتمل المهانة التي تشعر بها امرأة مخذولة قد همشها في حياته رغم حملها وثقل مسؤوليتها إذ تركها في أحلك الساعات ومضى بأنانيته الغوغائية ينهب ما شاء له من الرغبات ترك في أعماقها جرحاً غائراً وعدوانية حولت الآخرين حولها إلى خصوم صاحت وهي تترك الفطور بعصبية موجهة حديثها إلى عمها.

«لقد أخذ فؤاد أقصى ما يستطيع أخذه حتى أصبحت الآن عديمة النفع»

حاول احتواءها:

«هي زوجته الأولى وقد كان هذا السبب في إلغاء خطوبتكما وأظنني وجدتك الزوجة الأصلح لابني ولهذا حرضته بقوة على تطليق الفرنسية والرضوخ لقراري»

زفرت زفرة محرقة ومضت في حدّتها:

«يعني كنت عبئاً على كتفيه، همّاً يريد أن يزيحه عن طريقه»

رق قلبه لها فهتف بحنان:

«أنتِ أيضاً زوجته وأم ابنه المنتظر ولك الحق الكامل والنصيب الأكبر من هذا الثراء، ستعيشين مدللة، مبجلة، منعمة في كنفي وأظنك ستعتادين على الموقف، فقد فكر في طلاقها قبل فترة لولا حملها الذي عطل هذا القرار، هي ارتضت العيش معك رغم أنها الأولى في حياته»

صاحت ملتاعة:

«لن أسمح بوجودها في حياتنا، إما أنا أو هي، لقد خدعتموني، كنت أظنها مجرد عشيقة انقضت أيامها، أتفاجأ هذا الصباح بخبر ولادتها وعودتها، كيف تريدني أن أتقبل الوضع، هذا مستحيل فليطلقها ويأخذ الولد»

أحس «هاشم» أن الحديث معها لا طائل منه فتركها لتهدأ:

«ارتاحي يا ابنتي، أنت حامل ونوبات الغضب تتعبك سنعالج الأمر لاحقاً»

احتدت وهي مازالت في غلواء غيظها:

«والدي سيأخذ حقي، أنا ماجدة بنت الحسيني أعيش مع ضرة من أرذل القوم؟»

طفقت تتنقل في الغرف حائرة، هائمة، لا تعرف وجهتها مسعورة من الغضب موزعة البال، مشتتة الإدراك، تنهشها الغيرة الفتّاكة شاردة في فكر قائظ حتى تولاها ألم في بطنها فاتكأت على إحدى الأرائك وجلست على مضض، رأتها الخادمة فأشفقت عليها.

اقتربت تسألها:

«هل تحتاجين إلى مساعدة سيدتي؟»

صرخت بأعلى صوتها:

«اغربي عن وجهي»

تأوهت ثم التقطت أنفاساً ثقيلة صاحت بها:

«هاتي الهاتف»

اتصلت بأمها وهي في ذروة الألم والاضطراب.

«ماما... هذه زواجة الندامة التي نصحتيني بها، اليوم سيحضر ومعه زوجته الفرنسية»

تحاول الأم أن تهدئ من روعها لكنها أحسست بطعنة في كرامة ابنتها:

«ينبغي أن لا تسكتي، لا تخرجي مهزومة، لست من أصل وضيع أو حثالة الشارع ليدوس كبرياءك بهذا الإصرار، سأخبر والدك سأقوم الدنيا ولا أقعدها، المهم اتركي البيت وعودي بسرعة»

«لا.. لن أغادر قبل أن أراها وأثير زوبعة في مقدمها، لتعرف أن بساط الحرير الموعودة به ما هو إلا شوكٌ وجراح»

«عمك شريك والدك في الثروة وأنت أحق بها من غيرك فلا تخرجي من حريك خاسرة»

اسودت الدنيا في عيني ماجدة وغام نظرها وسط سيل دموعها وهي تنوء بحرقتها، حدّثت نفسها بالشر:

«لن أدعك تستمر في تعذيبي وإهانتي، لن أسمح لك بالتنكيل بي يا فؤاد»

فكرت وهي في لجة الحيرة بخطة تقتضي بترك البيت بعد إثارة المشاكل كي لا ينعما بالاستقرار، فقد يأتون قبل حلول الظلام وعولت أن تنفذ خطتها في الليل وإثارة ضجة وفضيحة، هكذا تريد أن تروّع الزوجة الأخرى.

وما أن حسّت بقدومهم مساءً حتى نهضت إلى النافذة بترقب قلق، ثم اندفعت خارجة وصاحت بملء فيها تستدعي الخادمة، فلمّا هرولت إليها قالت مشيرة إلى حقائبها:

«ضعيها في السيارة»

وهبطت بعد ذلك إلى الحديقة كالموج الهادر تصرخ في وجه فؤاد:

«الآن افعل ما بدا لك أيها الخائن، عارٌ عليّ لو عشت معك لحظة واحدة ولن أسمح لك أن ترى ابنك بعد ولادته»

ذهل الجميع وتراجعوا مبهوتين، حدجته جميلة بفزع وتسأل بصمت عينيها عن سر هذا الهجوم المباغت.

شدّها فؤاد من ذراعها يدفعها إلى الداخل:

«تعالي إلى هناك لنتفاهم»

نفضت يده بقوة معنفة:

«هكذا عهدي بك، مخادع، مراوغ»

لم تتمالك هند أعصابها فهوت على خدها تصفعها قائلة:

«أنا لا أطيقك منذ اللحظة الأولى التي وطأت قدماك البيت متكبرة، قاسية، متعجرفة».

وفي ثورة هوجاء صاحت ماجدة وكأن الصفعة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.

«تصفعيني من أجل حشرة حقيرة، حثالة مرميّة على أرصفة باريس أنتم عائلة بائسة سأطأ برؤوسكم أرضاً»

وبدت وكأنها في حمأة الغياب، فاقدة الوعي، وعلى الفور

www.mlazna.com-RAYAHEEN

حضـر هاشم وانتبـه إلى الصـراخ المنبـعث من الداخل، هـرول بسرعة مفزوعاً، ولّما أحس بانفعال ماجدة وهيجان أعصابها وغرابة سلوكها خشي من العواقب احتضنها ليهدئ من سعيرها بيد أنها زمجرت بشكل هيستيري وجسدها يرتعد وسحنتها احتقنت بشكل مخيف، دفعت عمها.

«اتركني لأرحل إلى أهلي»

شاب وجه جميلة الفزع والخوف وقفت متسمرة في مكانها تضم طفلها إلى صدرها، فاستأذنت منصرفة:

«سأذهب لأرقد يوسف في الفراش»

تهجم عليها ماجدة وتقبض ذراعها وهي تصرخ:

«أيتها الساقطة»

بينما يسحبها فؤاد ويدعها ترحل إلى الغرفة الأخرى، مندهشاً مبهوراً لهذه الثورة العاتية التي لم يتوقع حدوثها واسترسلت في صراخها حتى أن صوتها بات مسموعاً لدى الجيران ففتحوا نوافذهم مبهورين يدفعهم الفضول والحسد، بعضهم يتلذذ في هذه المشاهدة والبعض كان مزعوجاً قد أيقظته الضوضاء في هذا الوقت المتأخر.

هذا البيت الصامت، الآمن، كيف بعد هذا السكون تزلزلت أركانه، صرخات أشبه بطلقات نارية في صحراء شاسعة.

صاح فؤاد وقد مسته عدوى الغضب:

«فلتذهب إلى الجحيم هي وطفلها»

حدجه الوالد بنظرة قاسية فيها كثير من الملامة والتقريع فالأمر لا يحتمل المزيد من الانفعالات، إنه سيحتوي الموقف بحكمته وحنكته.

صاحت هند بامتعاض:

«سئمت تصرفاتها الوحشية، أنا متعبة سأذهب لغرفتي»

التفتت إلى الحقائب لتستوثق من تمامها ثم استطرقت إلى المطبخ تنادي الخادمة وإذا بصرخات ماجدة تتوالى عليها كالمطارق.

«أيتها العجوز الشمطاء المتصابية»

مازال هاشم الأكثر فطنة وهدوءاً يحاول أن يمتص غيظها ويسكن غضبها بيد أنها لفرط ما صرخت أحسّت بألم في بطنها ونزف خرّ بغتة صاحبه ألم مفاجئ اتكأت على كتف عمها متمتمة في حشرجات:

«ألم... ألم فظيع... ألم ياعمي»

تحيّر في أمرها وعلى وجه السرعة صاح:

«فلنأخذها إلى المستشفى»

أدبر فؤاد مغتاظاً:

«فلتذهب إلى جهنم، هذا نتيجة سوء أفعالها»

صرخ هاشم معنفاً:

«الصدمة كانت شديدة عليها، ستهدأ بعد أن تستوعب الأمر، الوضع لا يحتمل المناورة، هيا ساعدوني لنأخذها إلى المستشفى»، اتصل بأمها وسط صرخات الألم وموائها الجريح.

وبعجالة تمّ وضعها في المقعد الخلفي من السيارة لينطلق بهما السائق إلى المستشفى.

وفي غرفة الطوارئ تم فحصها على عجل ثم تحويلها إلى قسم الولادة ثمة نزف خفيف، ليست هناك أية بوادر ولادة فمازالت في أوائل الشهر الثامن، أقبل والداها يستفقدانها مذعورين، فهذه ابنتهما الوحيدة، المدللة، تُهان بهذا الشكل، يقف الأب في محاذاتها ملتاعاً مشفقاً لمرآها الشاحب الذابل، بيد أن الأم انهالت على هاشم مؤنبة، تكيل له سيل الاتهامات.

«أين زوجها؟ لست أدري في أي موقف يثبت رجولته، يتركها لأيام بإهمال، مغيبة عن الحياة، تشتكي لي دوماً آلام وحدتها وسعير قلقها وخوفها، هذه ابنتي جوهرة قلبي وضعتها أمانة في أعناقكم تركتموها في مهب الأيام حيرى عاثرة، ذبلت لفرط البكاء والحرمان، لا أعلم ما هو موقفه بالضبط تركها معلقة بين السماء والأرض لا رأس لها ولا قدم»

شعر هاشم أنه مقيد، مكمم بوقائع لا يمكن نكرانها ولا يملك أدنى مبررات الدفاع لعلمه أنها ستكون ذرائع واهية، اختصر الموقف كمن يلقي آخر ورقة.

«إن كانت تريد الطلاق فلا مانع لديه وسأعوضها بما يرضيها»

حدجه والدها بنظرة قاسية يندلع منها الشرر والحنق فقال أشبه بالإنذار.

«إذن فقد اخترت... الطلاق! وكل ما يحمل من تبعات، نفصل شراكتنا في الشركة لأن كرامة ابنتي فوق كل اعتبار»

تماسك هاشم.

«والطفل؟»

سخر الحسيني.

«منطقة نزاع ستحسم، تلده وترميه في وجوهكم»

ران على الأم الصمت الحذر، وبدت وكأنها تفكر في منحى آخر وتعيد حساباتها بشكل مختلف، اشتغل فكرها مجدداً فاتخذت لهجتها بعضاً من اللين:

«لا نريد أن يكون الطفل هو الضحية سنسوي الأمر لاحقاً»

دخلت الممرضة قائلة باقتضاب:

«المريضة مجهدة أرجو أن تتركوا الغرفة لو سمحتم»

قبّل الوالدان ابنتهما وخرجا ليواصلا حديثهما مع هاشم في الردهة.

استطرد الحسيني متوعداً:

«إن كـان ابنك قـد بيّت النيّـة على تطليق ابنتي فـادفـعـوا جميعكم الثمن وأولهم أنت»

نفذ صبر هاشم فخرج من صمته قائلاً:

«لست أنا من أُهَدّد، هاشم لا ينحني أبداً، وقـد أخطأت في هذه الزيجة منذ البداية وكنت أظنها الوسيلة الأسلم لتلاحم صداقتنا وأموالنا، وحاولت وسعي كي أحتوي الخلافات وأداري المشاكل لكن يبدو أن كل محاولاتي باءت بالفشل ولا أملك إلا أن أدعهما يقرران لوحدهما دون تدخل مني أبداً»

ثم رمق الحسيني بطرف ينم عن تكبر وأنفة قائلاً بتخابث:

«ربما كان لك مآرب أخرى لم تتحقق؟»

فرّ الحسيني مغتاظاً وافترق الرجلان عند الباب بينما بقيت الأم تلازم ابنتها في المشفى.

وعندما التمّ شمل عائلة هاشم في الفيلا كان الوجوم مازال يخيم على الجميع، لم يبد عليهم ردود فعل اللهم إلا السخط، لاذت جميلة بغرفتها منهمكة مع وليدها تفكر شاردة في المشهد المخجل فاستحوذتها كآبة عارضة، وحزن شديد، استلقت على فراشها جزعة، أقبل عليها فؤاد يحاول إحاطتها بالحنان والرعاية ويبدد عنها الوحشة والغربة احتواها بذراعيه هامساً:

«أرجو أن تنسى الموقف، الأيام ستمتص هذه الأزمة»

هتفت بصوت متهدج وقد بان على محيّاها الإرهاق:

«لقد أشفقت عليها، مسكينة مجروحة»

استحسن موقفها:

«كم أنتِ طيبة وحنونة»

ثم انكب على طفله يلاعبه قائلاً وهو يحمله بحذر:

«سآخذه إلى والدي ليراه، فقد نسيه في خضم العاصفة الهوجاء»

خرج وهو يقول لها ثانية:

«لا تقلقي».

تمددت على السرير، تطيل النظر في السقف المصقول وكأن سطور حياتها القادمة محفورة على صفحته البيضاء.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (٣٢)

ومازال الدفق مستمراً

كانوا في ترقب لذلك الزائر العزيز وقد التم شملهم بعد محطات الشتات يتجاذبون أحداث الحياة بسخرية من يتحدى الزمن ويتقوى على الأيام، دارت بهم عجلة الزمان في دروب شتى ثم عادوا مرة أخرى إلى نقطة الاستقطاب الجاذبة حول المائدة الحميمة التي لم ينضب منها نبع الحياة فدفق «ثريا» مازال مستمراً، جهزت للضيف شورية الخضار التي ميز مذاقها في قلبه ووجدانه.

انكفأ «عماد» في ركن منعزل وقد تصنع الانكباب على القراءة حتى يشتت قلقه وليداري حيرته، لم يفطن أحد إلى عذابه كيف يمور في باطنه فيرديه ذليلاً كل منهم منشغل في همه الخاص، مازالت أمّه تتجنب الخوض في هذا الحديث وتتصلب في المعاملة، لم تلن أبداً رغم توبته وأوبته، فقرار

القطيعة اجترعته على مضض لأن ما حدث أشبه بالجرح الغائر لا يبرأ إلا بعد أن يستنزف كل ما فيه من دم وألم.

قالت له عندما أصر على الهروب من مواجهة فؤاد:

«أهكذا يفعل الرجال؟!»

وكأنها لم تيأس في بعث الحياة إلى روحه الذاوية.

تمددت «علياء» على الكنبة في استرخاء مريح بعد أن استردت عافيتها لكن علامات الإرهاق مازالت تكسو محيّاها الذابل، متلاشية في الفراغ، مستسلمة لأمنية الشفاء كأقصى طموح تستجديها من فم القدر، نفضت خاطرها من كل حلم واكتفت أن تفيض عليها الرحمة بنسمة أمل تعيد لكيانها المعطوب حيويتها المعهودة، اتكأت على ظهر الكنبة معتدلة في جلستها لتأخذ رشفات الشوربة من يد أمها الحنون وهي ترمقها بابتهال.

«كأنك استجمعت عطف السنين في مشهد حزني وألمي»

بقيت «فداء» تجهز المائدة، وتنسق أصيص الزهور وتصف الأطباق بحسها المرهف هاتفة:

«كم أتلهف لرؤية زوجته الفرنسية»

قرع الباب، فهبّوا جميعاً لملاقاة الضيف:

«ما أجملها!»

صاحت «ثريا» وهي تحتضن جميلة ثم أخذت الطفل لتقبله بلهفة مثقلة بأعباء السنين وهموم الماضي، يبقى «عماد» يختلس النظر إلى فؤاد على حذر من ردود فعله، بيد أنه خرق العادة وارتمى على صاحبه يقبله بحرارة قائلاً:

«من منّا بلا خطيئة؟!»

انفجر عماد باكياً وقد تولاه خجل دفعه إلى الحجرة فانكب مطرقاً على مكتبه يتضور من ألم الذنب ووخز الضمير.

دخل «فؤاد» وهو يرد الباب الموارب واستطرد:

«صدقني لم يكن المبلغ ضخماً بمقدار الخسارات القديمة والاختلاسات السرّية، لقد اطلعت على الأوراق والوثائق وأظنّ أنّ موقف الشركة المالي مازال قوياً، الشخصان الآخران هما من أوقعاك في هذا الشباك، انطلت عليك الحيلة وظننت أن مبرراتك قادرة على إنقاذك والنفاذ بجلدك»

مسح طرفه وهو يحدق في فضاء الغرفة وينكمش إلى داخله ويتقلص حجمه كلما تذكر هذه القضية.

«لكن نيتي كانت مبيتة على السرقة وفي وقت منحتني يا فؤاد ثقتك الكاملة، نعم كنا مجموعة نحاول تزوير الأرقام بشكل خبيث، مجرد حسابات تموه حقيقة المبالغ المختلسة، قالا لي إن العملية جداً سهلة ولن يفطن إليها أحد»

توقف عن الاستطراد وهدأ صوته اللاهث ثم عاد فاستأنف:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«كنت مفتوناً بزوجتي ألبي طلباتها بجنون»

سحب فؤاد كرسياً ثم جلس ملاصقاً به وقال:

«قد لا تعرف ملابسات الموضوع وحيثياته، فأنت كنت ضحية مؤامرة كان قد خطط لها المدير السابق منذ أن سافرت في تلك الرحلة وهذه المرأة التي تزوجتها كانت له صديقة حميمة نصبت لك فخاً من حرير، استدراج خبيث تم بطريقة متمرسة حتى يتم طردك من الشركة فأنت كنت دائماً الحلقة الأقوى والأثير عند والدي وأظن هذا مبرراً لإثارة حسدهم وغيرتهم خططوا لك مسبقاً كي تنزاح عنهم فيعودون من جديد يرتعون ويلعبون بالشركة كيفما يحلو لهم»

دهش «عماد»:

«كنت في الحقيقة أبرر لنفسي ربما أستطيع لاحقاً سد النقص في الميزانية متى ما توفر لي المبلغ المناسب، هكذا بررت فعلتي واعتقدت أن الأمر هين بمباركة «سامح وهاني» اللصان الخبيثان اللذان رسما لي الطريق معبداً»

«كانت زوجتك تهم هذه الأموال وتلعب القمار، فهي مدمنة لعب وربما تحت ضغوطها»

استشاط غيظاً:

«كانت وصمة عار على جبيني، بقيت أتجرع مرارة الفضيحة حتى هذه الساعة»

قال فؤاد وهو يتذكر:

«إن لتاريخ شركتنا نكسات من هذا النوع وخسارات فادحة وقد أرهقني الأمر فوكلت المهمة الإشرافية لك»

نكس عماد رأسه خجلاً ثم أضاف:

«صدقني سأبذل طاقتي ووسعي لتعويض الخسارة، لأكفر عن ذنبي، لن يهدأ لي بال أو يغمض لي جفن وهذا الدين في عنقي، لقد خسرت نفسي، خسرت أمي، خسرت احترامها وتقديرها»

برر له فؤاد:

«كلنا يمر في هذه المنعطفات فلا تبال، دع الزمن يبرأ هذه الجروح ويرمم المكسور»

صمتا وهما يحدقان ببعضهما وكأنهما استفزا كل ما فيهما من بوح، ثمة هاجس مازال له رنين بصدى الماضي وذكرى صداقة حميمة قد قوضتها سنون البعاد، البحث المضني في عمق كل منهما، هل أحالت هذه التراكمات تلك الحميمية النابتة في طفولتهما؟!

استطرد عماد بعد أن استفرغ كل ما في ذهنه من تساؤلات.

«كم أنت شهم وعظيم يا فؤاد، مواقفك دلت على النبالة والأخلاق فنعم الصديق أنت»

انتبها لطرق خفيف على الباب.

وصوت «فداء» يستدعيهما:

«تفضلا لتناول العشاء»

خرجا من الحجرة يترنحان بنشوة الانتصار على الزمن الذي حاول أن يقطع وصل هذه الصداقة ويسيل دماءها على أرصفة الحياة الباردة المشاعر «نخسر كل شيء، المال، الدنيا، إلا الصداقة والحب»

هكذا نطق فؤاد وهو مبتهج تغمره حفاوة دافئة لا يشعر بها إلا في عشهم المنعّم.

استأنفت «فداء» حديثها الذي انقطع بدخول الرجلين وقد بدا أنها كانت تحاور جميلة.

«كنا نخشى أن يسيء الغرب فهم موقفنا كمسلمين بعد حادثة ١١ سبتمبر فقد اختلطت الأوراق على طاولة السياسة الدولية، إذ تصدر لنا في كل موسم خططٌ ومشاريع تحت مظلة الحماية والأمن ويبدو أن هذا الحدث كان مبرراً لدخول القوى إلى مناطق محرّمة في العالم»

وترد جميلة وهي في غاية الانبساط والانسجام:

«ولهذا نحن كمسلمين ننشط باستمرار من أجل تثبيط هذه المحاولات عبر طرح نموذج إسلامي حضاري مؤثر على العالم، فما حدث في الحادي عشر من سبتمبر الماضي وتدمير برجي

التجارة في نيويورك الذي هزّ أمريكا والعالم اعتبره الذين قاموا به نصراً لهم ورفعة للإسلام، فبمعادلة بسيطة نحسبها ونوازن خسارة أمريكا بخسارتنا نحن المسلمين، أمريكا خسرت ثلاثة آلاف شخص ومبنيين، أما خسارتنا في العالم الإسلامي لا تقدر بثمن، إننا بدأنا نفقد دولاً واحدة بعد أخرى بدءاً بأفغانستان المحتلة من قبل أمريكا وخسارتنا للعراق والأرواح التي تزهق كل يوم بالعشرات بل بالمئات سوريا وإيران مهددة أيضاً وهي تحت ضغط التهديد والعقوبات ناهيك عن السودان التي أوشكت أن تنقسم بفعل الضغط الأمريكي والأوروبي، هذا هو الثمن الباهظ الذي شيّد الحمقى للدول الكبرى جسوراً كي يعبروا عليها نحو أطماعهم وصنّف المسلمون بالإرهابيين، تخيلوا الانفجار الذي حدث في مدرسة بيسلان مؤخراً والذي راح ضحيته أطفال أبرياء، لم يخدم القضية الشيشانية إطلاقاً ولكنه أكسب المحتل الروسي تأييد أمريكا والغرب وجعل شارون يقدم نفسه على أنه ضحية الإرهاب الفلسطيني مثلما هم الروس ضحايا الإرهاب الشيشاني»

صبت «ثريا» الشوربة في الأقداح وابتسامتها الدافئة تسبقها.

«فؤاد هو ملك هذه المائدة وسيحصل على نصيب الأسد»

استمرأ تبجيلها فانشرح صدره وتألق وجهه بشراً ثم حوّل ناظريه إلى «فداء» قائلاً:

«اللوحة التي رسمتها في باريس لتكون غلافاً لروايتك استوحيتها من حسّ عاطفي مغروس في كياني منذ زمن طويل، عندما كنت طالباً في الثانوية، آتي مع عماد إلى بيتكم لأتناول الغداء، دائرة في وسطها شمعة، دائماً كانت الدوائر في خيالي، إسقاطات تنبع من الأعماق تنضح بها ريشتي في برد الغربة، يأتيني صوت أمك وحياً، تقف شامخة كشمعة مضيئة في دائرة معتمة كأنها خلقت لتحتوي بدفء حنانها كل القلوب المنتفضة من برد الغربة، بحرارة صوتها حينما ينغّم الأحرف بعاطفة رحمة.

التقطت «علياء» خيط الحديث تتمتم:

«أمي إنسانة عظيمة، كانت مصدر شفائي، أمدتني بطاقة روحية عظيمة»

رنت إليها أمها بعينين مشفقتين كأنهما كفّان يحتضنان جسدها الذابل.

هتفت:

«مهجة قلبي كنت بين الحياة والموت أسيرة، فديتك روحي يا ابنتي»

ثم وجّه «فؤاد» سؤاله لعلياء:

«وماذا أنت فاعلة بعد موجة المرض العاصفة؟»

تنهدت ثم استرخت فعبّرت أمائرها عن سكون مريح أذهل الجميع:

«سأجرب مهنة التدريس، قدمت أوراقي قبل فترة وتم قبولي لولا مداهمة المرض»

«وهل تعتقدين أنه يناسب ميولك؟».

«أحتمل ذلك، كلنا في لحظة ما من حياتنا نعتقد أننا نفهم أنفسنا ونتخذ مواقف معاكسة لحقيقة بواطننا وعند المحك نكتشف أن ما فعلناه هو نقيض لميولنا، الحياة كفيلة باستبطان دخائلنا وسبر أغوارنا لتظهر على السطح فنتصرف في حينها بلياقة»

وجهت ثريا سؤالها لعلياء:

«لقد تأخر مخلص، اتصلي به لتتعجليه»

تناهى إلى سمع جميلة بكاء يوسف من الداخل فاستأذنتهم لتستفقده غابت للحظات ثم أتت به تهدهده.

كانت فداء تحلّق في خواطرها نحو سماء صافية:

«حتماً أنك ما كنت تهواني إلا رمزاً طفقت ألوانك تشربه وتمتصه حتى اختزلتني خلاصة جديدة عبرت عن ذاتك بتموجاتها، وتقلباتها، وألوانها مذ كنت بكراً وحتى نضج عودها، كل يوم تثرثر ألوانك بلوحة لم تعد تشعر أنها أخرجت كل ما فيك من صراع وعناء وآمال وأحلام فيها ذلك النقص المريع

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وعندما استوقف إلهامك الشارد لوحتي صوبت كل إحساسك فيها واستفرغت تاريخك الباذخ فشعرت معي بمنتهى الاكتمال والتداخل، أقرأ في ملامحك الآن تفاوتاً زمنياً هائلاً فقلبك الشاحب قد تضرج شباباً من فيض شمسي.»

ويطرف ناحيتها فؤاد خفية يناجيها وحياً.

«أنتِ الحقيقة الخالدة، بقيت منقوشة في الذاكرة، أحملها على خوف واستحياء، أخشى أن أتهم بأني اختلس الحب وهو حق مشروع جعل من شخصي مشروعاً إنسانيّاً عظيماً، أدركت بعد فوات الأوان أنك الأنثى النادرة التي أحببتها بعقلي وأطبقت عليها تاريخي وحملتها في أرشيفي للزمن القادم، لن أكترث بتحولاتك الطارئة، مازلت طعم النّور في مذاق ريشتي، أرسم من وحي قصصك منارات هدى يستضيء بها قلبي، اطمئني لن أنتهي منك ولم تنتهي مني كلهن فراشات جميلات مررن أسراباً في حياتي، أما أنت فشريان فؤادي يظل فيه الدفق وحياً أبدياً»

قالت علياء وهي تقطع شوط البوح يهفو في ذبذبات خافتة مع ذرات الهيام لا يسمعها إلا قلبان:

«يعتذر مخلص عن الحضور بانتظاره عملية»

قطع أذان المغرب دفء حواراتهم، استأذنهم فؤاد ليصلي، دهش الجميع وحملقوا في وجوه بعض، هتفت «ثريا» بشيء من الارتياح:

«حتى إني لم ألحظ ذقنك إلا الآن، ظننت أنه نوع من الموضة ذقون طويلة ورؤوس حاسرة»

رد بما يشبه الاعتقاد:

«تدور بنا الدوائر لنكتشف في النهاية الطريق السليم الذي تهنا عنه زمناً»

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

إشراقة في الذهن

في هذه الليلة.. اقترب هاشم من هند متودداً آملاً في رأب الصدع وترميم العلاقة، أجفل لما رآه من نظرة جامدة كأن عينيها بحيرتا صقيع انطفأ منهما ذلك الضوء الخفّاق.

«حاولي أن تستعيدي نشاطك، فالحزن الذي برّح بك قد امتص حيويتك»

تنحت عنه مجفلة دون أن تنبس بحرف.

وعاد يتودد لها ثانية وهو يضغط على كتفها:

«اشحذي عزمك ثانية مازلت شابه فتية»

استعبرت عيناها ورقت تقاطيعها ثم همست بصوت مذبوح قانط:

«لم يعد في حياتي ثمة أمل أعيش من أجله»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

انحنى قليلاً ودنا من خدها فقبلها برفق بينما أجفلت نافرة.

«أرجوك دعني وشأني ضيعت عمري هباءً وما توهمته حباً كان أشبه بخديعة جئت لتختم فصولها الأخيرة»

فجأة مدّ كفه إلى باطن سترته واستخرج من جيبه تذكرتين قائلاً:

«حجزت لنا شهراً جميلاً في ربوع فيينا، هل تذكرين تلك الفيلا الصغيرة التي استأجرناها في منتجع جبلي، أغرمت بالمكان فأبدعت ريشتك لوحة «شروق الحب»

استدارت ناحيته فرمته بنظرة خاطفة تستقرئ باطنه، ولأول مرة تشعر بعينيه تطفو على سطوحهما نداوة غامضة كأنها تغرق في الغياب، تستدرجها بانسيابية إلى الخضوع والاستسلام، وجدت فيها ذلك الفراغ الشفاف والمساحة البيضاء كحمامتين راحلتين إلى العدم، تبحر بعينيها المنكسرتين وقد تطهّرت من كل أنواع المساحيق، مندهشة لهذا العرين المستسلم وقد حطم كل متاريسه فغدا رهين الافتراس، سلّم قياده صاغراً مذعناً، لم يكن هاشم هو ذاته الذي عاشته، أسطورة طغيان سكنته كهفاً موحشاً تاهت في دروبه زمناً تبحث عن مخرج لحيرتها وإذا بها تسقط في الضياع.

ندت عنها آهة عميقة وهي تشده في احتضان:

«هاشم ما بك؟» أحس بانطفائك، بشيء داخلك يخبو، هذا الخفوت في نبرتك ينم عن روح مرهقة أنهكها الزمن ومزقتها الأيام وفك عن لسانه أغلالاً لطالما كبلت حقيقة يداريها هروباً، فإذا به يحسّ أنها مازالت حاضرة في وجدانه، ماكثة في أعماقه رغم غيابه المر، يتلاشى ذلك الجدار الثلجي بينهما وإذا ببوحها ينزف كل جروح الماضي في مكاشفة صريحة، ويمسد شعرها بحنان مصغياً لها بكل جوارحه لولا صوت الهاتف اللجوج الذي ما انفك يبتر عليهما وصل الحديث فرد هاشم مغتاظاً، يأتيه صوت مذعور وأنفاس لاهثة:

«ماجدة ولدت ولادة قيصيرية والطفل في حالة خطرة»

نهض من فوره قائلاً:

فلنذهب إلى المستشفى.

وتبعته هند تسأل:

«من المتحدث؟»

ردّ مذعوراً:

«والدة ماجدة، تقول إن وضع ابنتها حرج»

اتصلي الآن بفؤاد لابد من حضوره في هذه الساعة.

كانت أم ماجدة تجلس مطرقة إلى جانب سرير ماجدة وقد غيبها المخدر فغطت في سبات عميق، وبان الشحوب والإرهاق على وجهها.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

دخل «هاشم وهند» والسؤال يثرثر على شفتيهما.

«ماذا حدث؟»

رفعت الأم رأسها وقد بان الإحباط والحزن على وجهها.

«جاءها المخاض فجراً واشتدت عليها الآلام فلم يعد بالإمكان الانتظار اضطر الطبيب إلى إجراء عملية قيصرية.

قالت هند:

«ولكنها مازالت في شهرها الثامن»

مسحت الأم طرفها وهي تردد آسفة:

«يبدو أنّ الطفل قد توفي، فحالته كانت خطرة»

«لا.. لا.. سيعيش بإذن الله»

صرخ هاشم وهو يفرّ إلى الطبيب ليستفسر عن الأمر.

وفجأة استطردت الأم حانقة تستجمع عزمها لتلوم هند:

«السبب ابنك، الصدمات النفسية المتلاحقة وقعت على رأس ابنتي كالمطارق»

«أرجوك ليس من المناسب تقليب المواجع في هذه الظروف، دعينا أولاً نطمئن على الطفل»

دخل فؤاد وهو في حالة من الوجوم ودون أن ينبس بحرف، وقف مستنداً إلى الجدار مغموماً تلفه الحيرة.

سألته أم ماجدة بامتعاض:

«هل مررت على الطفل، أظنه في وضع سيء؟».

ازدرد رمقه ووشت ملامحه بالنبأ السيء:

«لقد توفي منذ فترة»

انبعث من هند شهقة عميقة:

«بهذه السرعة؟ كيف حدث ذلك؟»

«لقد مررت بحجرة الطبيب مستعلماً قال إن نموه لم يكن طبيعياً وقلبه كان ضعيفاً»

صرخت أم ماجدة في حدة مقاطعة:

«بسببك أنت، أذقتها المر والهوان وهي في أمس الحاجة إلى الحنان»

ترك المكان هارباً والدمعة تفر من مقلتيه، اصطدم بأبيه وهو في طريقه، شده الوالد:

«أين ذاهب؟ يفترض أن تقوم بالواجب، انتظر ريثما تفق ماجدة من المخدر، هل تتركها في هذا الأمر العصيب؟»

نفض ذراعي أبيه غاضباً وقد اعترته حالة من السخط والغضب.

«دعوني وشاني لا أريد سماع المزيد من التأنيب»

خرج هائماً على وجهه، يقطر قلبه أسى ولوعة، استقل سيارته وهو مشوش البال، مضطرب الوجدان لا يعرف وجهته، يقطع الطرق تائهاً يضطرم الصخب في صدره كعواء ذئب شرس، ويحاول أن يهدئ من نفسه، قرأ السّور القصار التي حفظها من القرآن الكريم مؤخراً، تتكاثف الصور القاتمة في عينيه حاول أن يبددها، إنها تتواطأ مع اللحظة الخانقة موقفه القاسي من أبيه وهو يدفعه بغلظة، أشياء كثيرة تغذي إحساسه الممض، اجتر أنفاسه اللاهثة متضرعاً «يارب اغفر لي ما فعلت، اغفر لي حماقاتي، ارحم هواني وضعفي، كنت أريد أن أكفر عن خطيئتي وإذا بالخطايا تتعاظم وتتفاقم فوق كتفي»

اشتد به الحزن، ففكر بمن هي أقدر على احتواء همومه وامتصاص آلامه، وجّه سيره ناحية الشارع المفضي إلى مكتب الجريدة التي تعمل بها «فداء».

وأحس بنوع من الارتياح حينما تذكر صوتها الحنون يسري دفئه إلى أوصاله فتسترخي، ركن السيارة في الموقف الخاص بالجريدة وانطلق بخفة الغزال الأرعن جامحاً غير هيّاب بالعواقب، حضوره كان يعطيها قوة.

سكن قلبه بمجرد الإحساس بها.

طرق الباب طرقاً خفيفاً وهو يطل عليها من وراء القاطع الشفاف.

حيّته وهي في دهشة من أمرها:

«فاجأتني بهذه الزيارة»

اتخذ له موقعاً مواجهاً.

طلبت له فنجان قهوة بعد أن حيته وسط دهشة مازالت عالقة في عينيها.

ابتدرها قائلاً:

«أرجو أن لا أثقل عليك بهذه الزيارة»

مأخوذة بسلوكه المفاجئ:

«كنت أتوقع اتصالاً مسبقاً كي يتسنى لي الاستعداد»

«أجمل اللقاءات حينما تأتي صدفة، إنها تظهر خلجاتنا الدفينة في لحظة اضطراب مدهشة»

ثم تابع:

«ألمت بي ضائقة نفسية لم استطع لها دفعاً وإذا بإشعاعك الجاذب يشدني بقوة فأنت الوحيدة من تقدر على استيعابي»

بدت متحفظة في انفعالها لكنه استطرد بعد أن شد نفساً عميقاً.

«توفي اليوم ولد لي، هوت عليّ مواقف سيئة فأردتني في حالة من البؤس والشقاء، أوقعتني الظروف في منعطفات قهرية

www.mlazna.com-RAYAHEEN

حاولت ترتيبها بالشكل الذي يرضي جميع الأطراف بيد أن النتائج تأتيني عكسية.

لم أكن أحب ماجدة كان زواجاً عارضاً في حياتي، شئت أن أنفذ إرادة والدي وتقبل الزيجة كوضع عادي يمكن أن أعيشه بأقل درجة من الخسائر، لكن أحسست منذ اليوم الأول بأنها امرأة أنانية تحب أن تمتلكني كحقيبة يد، كثوب سهرة، كعقد ماس، أشعر بأنفاسها تدفعني عنها نافراً، حاولت أن أحبها، صدقيني ثمة حاجز يقف بيننا كالجليد عجزت عن اختراقه لألج إلى أعماقها لكني اكتشف ما تضمره لي، تصعقني عيناها الخابيتان اللتان ماتت منهما العاطفة فاسترضائها لا يكون بدفق من العاطفة أو الحنان بل بشيكات من النقود أو قطع ثمينة من المجوهرات، كنت أشعر بالملل والفتور كلما خلوت بها، سئمتها منذ اليوم الأول وهي تحدثني باستعلاء بغيض فهي ذات مزاج سوداوي مقيت نقيضي تماماً، افتقدت فيها أنوثة فطرية وتلك النغمة الجاذبة في الإحساس»

تنهد وهو مطرق.

فانبرت «فداء» تدعوه لشرب القهوة ثم سألته:

«وما بك فاعل الآن؟»

شد نفساً عميقاً وهو يسبح في فكر قاتم مردداً في حيرة.

«لا أدري..... لا أدري»

اخترقت حيرته قائلة بحزم:

«عندما نخالف أهواءنا نقوى على أنفسنا»

رماها بنظرة متسائلة:

فطفقت تسرد على مسامعه مرمى فكرتها:

«في جميع حالاتك كنت تتبع مزاجك في انتقاء النساء وحتى باقي الأشياء، هذه المرة اتخذ قراراً حاسماً يساعدك على ترتيب حياتك من جديد»

قال لها موافقاً:

«وهذا ما سأفعله بالضبط، سأطلقها، سأسرحها، ذلك أفضل لي ولها، لم يعد بالإمكان الاختباء وراء قناع المجاملات»

«أنا برأيي أن تخيرها، فربما ترفض الانفصال»

انزعج من هذه الفكرة وراح يسألها:

«كيف يمكنني أن أتحرر من هذه الدنيا، أشعر بأذرعها تشدني كلما حاولت التخلص منها، إنها تنبت في كل لحظة أصابع صغيرة ذات نتوءات نابتة حتى في أزرار قميصي، في شعيرات جسدي، في عروة سترتي، أتعرفين أني أشعر بنوع من الراحة عندما أتحرر من هذه القيود وأغوص في تأملات كونية تشحن ذاتي بإحساس مريح حتى بت أحس أنني أفهم الحياة من منطلق آخر أكثر نضجاً وتحرراً»

وقالت موافقة:

«نعم لاحظت عليك اقتنائك الكتب الفلسفية في الآونة الأخيرة وتأثرك الشديد بها، كلماتك عبر رسائل الهاتف أوحت لي أنك تبحث عن حكمة الحياة والوجود والكائنات، أعجبتني هذه المقولة التي بعثتها لي مساء أمس «يصل المعلم عندما يستعد الطالب» حتى أنني اخترتها تعقيباً على مقالتي الأخيرة».

انتشى وبان عليه الانشراح قائلاً:

«هذه الفكرة جزء من ديانات شرقية كثيرة، فالمعلم يصل عندما يستعد الطالب يعني بكل بساطة أننا نجذب في حياتنا أشخاصاً وأحداثاً وتجارب ليعلمونا، فالكون يقدم لنا المعلم عندما نكون مستعدين للتعلم»

سرحت «فداء» عبر النافذة المطلة على الشارع ثم التفتت إليه قائلة:

«إن تجربتك الثرية شكلت لي طاقة تحفيزية على روايتي هذه إذ أحسست أنها تنبض مع نبضك وحروفها تختلج على الورق لكن البطل بدأ يتخذ منحى جديداً في اتجاهه»

رد كمن يبرر:

«ربما نضب دفقه»

«إنه يسافر دوماً يقطع الدروب بحثاً عن ذاته، لا يستقر على مرفأ حينما يدهمه عارض يلقيه إلى الخلف ويصوّب بوصلته نحو الأبعد»

«وما هو هدفه؟»

«ربما في منطلقاته أبعد من أن يقاس بمقاييس الناس العاديين إذ أنه انتهج نهج كل المصلحين على مر التاريخ، لهذا كان أسعد إنسان على وجه الكون، هزم خساراته بابتسامة عندما كتب عن الزيف والظلم والتسلط واستعد تماماً لتحمل نتائج هذه المجازفة فانطلق ممتطياً جواده الجامح إلى كل دروب الزيف ليضيء فيها شمعة ويرحل، عاش بلا وطن، بلا وظيفة، بلا زوجة، بلا مال، لكنه محمل بذخيرة ثقيلة، أهداف مرحلية تصب نحو هدف أوحد»

في دهشة يسألها:

«وماذا يترقب بعد كل هذه الخسارات؟».

«هناك حلمٌ تنتظره البشرية، فبعد معاناة الإنسان المريرة والظلم الواقع عليه والفساد المتفشي تنتقل إلى مرحلة النضج الفكري وتستعد لتوحيد الشعوب في مجتمع معصوم، وهذا الفارس الذي أعشقه وأنا أكتب عنه وكأنما أعيش معه قصة حب ذهنية هو أحد تلك الكوكبة المناضلة التي تمهد للعصر القادم»

هز رأسه في إيماءة موافقة وكأنه يعيش تلك اللحظات الصوفية بكل ما تحمل من خشوع ونزاهة، يسافر عبر صهيل أشواقها نحو آفاق أبعد، فلكلماتها وقع شديد على وجدانه، لها

دوّي فعّال يوقظ فيه العزم ويشعل في جوانحه جذوة قتال، فإذا بقواه الخائرة تنهض بحرارة ويستعيد في نفسه تلك القيم التي تحوّل حياة الإنسان إلى رسالة ذات هدف منسق المعالم واضح الأبعاد من أجله نطيّب جروحنا ونتعالى على أوجاعنا ونستعذب وخز الشوك.

اتجهت «فداء» بعد ذلك اتجاهاً آخر في حديثها:

«زوجتك الفرنسية رائعة جداً، بل مثالية وأظنها قد ألفت صداقتي»

صمتت هنيهة ثم قالت باسمة:

«يا للمفارقة العجيبة، تطمئن لي أنا شخصياً!»

قال بشيء أشبه بالغرور.

«يسعدني ذلك، أن يتوحد عقلي وقلبي في امرأتين»

صمتت وبان الحزن في تقاطيعها.

تأملها بوَلَه ثم أردف:

«لا تقولي أنني مخطئ في تفسير وضعي ناحيتك، ألست فارسك الذي يمتطي قلمك ويسرح بك في دنيا الفكر، فأنا المقصود دوماً في عصفك الذهني، أحتاجك وتحتاجيني، لقد قرأت في كتاب «في فلسفة الحجاب» للشهيد مطهري قضية التعدد بالنسبة للرجل هذه نزعة فطرية فيه وميل مسكون في

ذراته الذكورية قد لا تفهمها المرأة ولكن هي تشكل له احتياجاً من نوع آخر.

رنت إليه بطرف متأمل ثم قالت:

«ربما نحاول أن نؤطر علاقتنا بإطار فلسفي فكري، يتماشى مع احتياجاتنا لكنك تعرف ما وراء هذه الغلالة الشفافة التي نختفي وراءها»

«أنا لا أنكر كلفي بك وولعي بشخصك وإحساسي أنك النسيج المميز الذي احتواني وتغلغل في دمي بشكل مسكون، ولن أقف خائباً أمام الشمس وهي تلهب كياني وتثري تجربتي وتخترق جليد إحساسي لتذيبني في مداراتها النابضة بالحياة، أتدرين أنني خصصت ريع معرضي الأخير لمساعدة الأيتام في العراق الجريح، فكم هي نكبة عظيمة وجرح بليغ في قلب هذا البلد العريق، وأطفاله مشردون يعانون اليتم والضياع قد دمرتهم الحروب، أنهكهم النظام البائد، أحرقتهم المجازر الوحشية التي تحصد في الطرقات وعلى الأرصفة الأبرياء وهم في طريقهم للارتزاق، كل يوم نسمع انفجار سيارة مفخخة، وأجساداً ملغومة بالحقد، الحياة هناك مرعبة مسكونة بالخوف والقلق»

هذا أقل شيء ممكن أن أقدمه، ضوؤك عندما يسري في عروقي الميتة يحيي فيّ الأمل والرجاء والعطاء، أصبحت سعيداً عندما احترقت لأعطي حتى نشاطي كفنان صار له طعمٌ

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ومذاق، بالأمس كانت اللوحات خرساء، صماء، بكماء، عاجزة عن استثارة إلهامي كألم نابت في داخلي واليوم تناديني الريشة بشوق، مطواعة، تتراقص الألوان بين أصابعي وكأنها قناديل فرح تغرد بفرحة لكل مهموم.

انبسطت أسارير فداء وهي تشهد انقلاباته الفكرية، فعلّقت:

لأن لك هدفاً ومساراً واضحاً وغاية محددة تعرف أنها تشحذ طاقتك للأمام فالهدف النبيل يتحوّل إلى حقيقة ملموسة نتعايشها وكأنها كائن حي يتنفس، يتحرك، ويتبلور في كل صورة وشكل، ويمدنا بطاقة تحفيزية نتحسسه عندما نمشي، ننام، نتحرك، نأكل، نتكلم، واضح في الذهن كبوصلة متجهة بكل إصرار إلى ناحية ثابتة، يصبح للحياة طعم ونكهة ومعنى، مذ كنت صغيرة ألاحظ أمي تجلس القرفصاء على الفراش وتتناول دفتراً صغيراً وقلماً تبدو مستغرقة في الفكر، ثم تكتب وتدون بعد أن يستريح وجهها المتشنج على مرفأ هادئ، لم نكن نملك مكتباً، في كل ليلة تفعل ذات الشيء لفت نظري كتابة بعض الأرقام فسألتها ببراءة «هل تتعلمين مبادئ الحساب؟» تضحك ثم تقبلني على خدي، عندما كبرت عرفت أنها كانت ترسم خطتها لليوم التالي، برنامجاً يومياً تحدد فيه وقتها وعملها بمقتضى الأولويات كي لا يضيع يومها هباءً، سألتها بعد ذلك لِمَ تكتبين أدق الأشياء وهل أنت عاجزة عن التذكر؟ قالت لي بثقة، إننا عندما نكتب أهدافنا وبرامجنا على الورق نكتسب المزيد من

القوة في تفعيل ما نريد إنجازه، مع كل مرة نكتبه نمنحه قوة، وتعلمت منها كل هذه المهارات والفنون وأحسست أنها أسعد إنسان في العالم.

سعيدة بقناعاتها، بانسجامها مع ذاتها، فهي امرأة بسيطة جداً وعادية لكنها تملك مقومات تعجز أغلب النساء على مجاراتها.

ويوافقها «فؤاد» الرأي:

«حقاً إنها امرأة عظيمة، حدسي كان ينبئني دوماً أنها مميزة في كل شيء وأحسست بك نموذجاً آخر منها، عندما كنت صغيرة لم تكن ملامحك واضحة تماماً ظهرت عليك علامات التميز عندما نضجت»

رن هاتفه وإذا بصوتٍ هادر كالرشاش ينهمر في غضب.

«اضطر أحياناً إلى تجريحك لأنك تسيء التصرف يا ولدي، لقد فاقت زوجتك منذ فترة وأنت غائب عنها، هي في حالة نفسية سيئة، عد إلى المستشفى حالاً كفاك تخبطاً كالمراهقين، عجزنا ونحن نبرر هروبك»

تغيّرت معالم وجه فؤاد وتبدلت ألوانه خجلاً:

وقف ليستأذنها:

«لقد اتصل والدي الآن، أظن أن ماجدة تحتاجني إلى جانبها»

انطفأت حيويته في لحظة، لكنها شيعته عند الباب قائلة في محاولة منها لاستثارة عزمه:

«تذكر أن الواجبات الثقيلة لا تتماشى مع أهوائنا ورغباتنا، لكننا نؤديها بحكم الإلزام، هذه التكاليف هي التي تعلمنا الصبر والتفاني»

أومأ إليها موافقاً وابتسم وفي عينيه وهج خفّاق.

«عندما تغيب الفرحة من قلبي تشرق شمسك من جديد»

الفصل (٤٥)

ضريحك المقدس

على غير عادتها جاءت ثريا إلى الشركة لتلتقي هاشم بعد دعوة ملحة أفضت إلى هذا القرار، بدت خطواتها مرتبكة وهي تظن أنه سيحاصرها مجددا بهذا الطلب اللجوج، وقد أعدت فى مخيلتها صور مسبقة عن أجواء هذا اللقاء ورتبت أفكارها بشكل لا تتركه مجروحا، خائبا، فقد أحسن إليها وصنع المعروف من غير مقابل، وعند الباب أقبل يحييها بحفاوة وابتهاج ولم يتسن لها أن ترد تحيته حتى هرع إلى الباب واوصده بحركة مرتبكة وشت عن باطن جذل أجلسها على مقعد مريح وراح يردد بترحاب مسترسل «نورت المكان»

صعدت ثريا بصرها فيه وباضطراب أردفت:

«إنها المرة الأولى التي أزورك فى المكتب»

ورد على الفور:

«وأتمنى أن لا تكون الأخيرة»

قالت والارتباك يشتت أفكارها:

إنني...

قاطعها بتقديم كوب النسكافيه وقطع البسكويت مبرراً:

«أعرف أن الزيارة مبكرة، ولم يسعفك الوقت لتناول الفطور»

نقلت طرفها بين الجدران كأنها تستغيث بأي وهم ينتشلها من الحرج.

وتابع وهو يحوطها برعايته:

«أنا سعيد بهذا اللقاء الخرافي»

«وأنا أيضاً»

التقط خيطاً يبدد به حرجها:

«طمئنيني الآن كيف حال الأولاد؟»

«كلهم بخير، علياء حامل في الشهور الأولى وباشرت عملها كمعلمة في المرحلة الابتدائية، وعمل عماد مندوب مبيعات لإحدى الشركات التجارية وفداء كاتبة صحافية»

تعثر لسانه وهو ينتزع من أعماقه حزن السنين بوحاً لطالما تجرعه غصصاً وآلاماً، فاستطرد بعد وقفة صمت كأنه عابد متبتل في محراب قداسه:

«لازلت أخطب ودك ولم أتراجع قيد أنملة، لكني أترك لكِ

الخيار فبعد هذه السنين اكتشفت أنك تستوطنين كياني ولن تغادريني أبداً، سألت نفسي مراراً عن سر هذا الإيمان؟ عن ماهية هذه المشاعر التي تجذرت في منابتي، ووجدت أن سموك وكبرياءك الشامخ يبني لك في قلبي ضريحاً مقدساً، ما كنت في حياتي إلا جوهرة نادرة نموذج أمثل في هذا الزمن، أخلصت باقتدار حتى للرجل الذي نكأ جرحك وزرع الأشواك والجروح في درب حياتك انصرفت عن مباذل الأمور وتوافه الدنيا، ترفعت عن رغباتك رغم احتياجك العميق إلى مساندة رجل وكنت أتحسسك عن بعد وأنت تبتسمين في وجه الخطوب لا تحملين الهم إلا فينة ولا تحزنين إلا هنيهة»

صمت للحظات وبدا شارداً كأنه يغزل من الذكريات شرنقة يحاصر فيها محاولات هروبها، ومضى يتابع:

«عجبي لك لا ينقضي، هذا التورع والتعفف في شخصك استثناك جوهرة الحلم المستحيل، قد تمايلت النساء حولي من كل شاكلة وصنف وقلبي المترع بحبك المتأصل الجذور أزهدني المتاع، أزهدني النساء، قلبي ذلك الكنز الثمين ممهور بختم حبك لا تستحقه إلا امرأة ذات طهر وعفة تنضح عاطفة ترقى إلى ذروة الكمال»

شدّ نفساً عميقاً واستطرد:

«عندما حانت لحظة زواجي اقترح والدي اسمك ضمن كثير من المرشحات وعرفت رفضك وعنادك رغم لهفة الأخريات،

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أثرت فى نفسي شغفاً غامضاً فطلبت أن أراك صدفة وخطرت بباب الدكان حيث كنت أترقب حضورك وأنتِ تغادرين المدرسة القريبة من الدكان..»

توقف هاشم هنيهة وشعر بشيء يقف في حلقه حتى يكاد يكتم نفسه بينما لمعت في عيني ثريا العبرات وكأنها توشك أن تسيل سحر الماضي وعبق الأيام الجميلة وذكريات الأمس لها طعم اللهب الساكن

ومضى:

«استنفرت كل عواطفي فى لحظة خاطفة، أحسست فى قلبي طبولاً تدق بقوة، جئت وقتها مظاهرة إنسانية حاشدة بكل معاني القوة والكبرياء، تمشين كما لو كنت فى موكب تشريفي، يتطاير من عينيك بريق عنفوان، سألت نفسي وقتها «هل كانت تعرف سر فتنتها وسحر جاذبيتها؟»

«آه.. لازلت أسمع دبيب خطوك الجامع كفارسة تشهر سيفها البتار للزمن القادم، تختال بمشيتها الملكية كأنها سميراميس الأسطورة ترشح فى لفتاتها الرزينة دهشة تحبس الأنفاس، قارورة مشتعلة تتطاير منها ذرات الصفاء والشموخ والعفة، خلطة أنثوية مميزة».

نكست ثريا طرفها كمن يعتذر للتاريخ الموثق بمشاهد الحرمان ظل ينحت في قلبه وجعاً مزمناً:

تنهد من أعماقه، ثم أطلق زفرات ساخنة وهو يهتف متضرعاً فى لوعة:

«هل كنتِ لي قدراً بقى يلازمني إلى هذا اليوم كظلي، بلاءً يشعرني أن الكون لا يتشكل وفق ما نشتهي، كان الله يقول: «ملكت كل شي إلا قلب المراة التي أحببت»، بقى يا ثريا فى داخلي فراغ كبير يتضور ألماً لفترة من الزمن وأدتك فى قلبي كجثة بعد أن يئست من ردك وعندما باءت كل محاولاتي بالفشل وقفت على أرصفة الموانئ أبحث عنك فى كل وجه وفي أعماق كل امرأة بملامحك المنقوشة في وجداني وكانت هند الصورة السقيمة عنك، أقنعت نفسي اليائسة أنها شبيهتك في بعض الملامح وخدعت نفسي بهذه المجازفة لأنها كلفتني استحقاقات باهظة.. ربما خطواتها الوئيدة وبنيانها الخارجي كان له ذلك السحر الخطاف، ذكرني بلقائي الأول بكِ لكني اكتشفت أنكما ضدان فى الجوهر والمضمون.

تململت ثريا وهي تغوص فى مقعدها من شدة الحرج وواصل بشغف من يسرد حلماً:

«استيقظت من جديد ونفضت عنك غبار القبر لتخرجي الآن إلى وجودي ثانية حية، نابضة، بل شاءت الأقدار أن تعودي ثانية، فلم أكن أعرف بعد أن يئست من متابعة حياتك سنيناً وبعد أن أخذتنا دوامة الحياة لترمينا فى أمواجها المتلاطمة أنك ستردين جميل صبري بحضورك المبهج فى حياتي، الصدف

لعبت دوراً كبيراً في ترتيب الأحداث وصقلها بشكل يهيء لنا فرصة لقاء كمكافأة وكأننا نقبض الآن أثمان أتعابنا، لفرط انشغالي وسفري الدائم لم أعرف أن عماد وعلياء هما ولداك كنت قد وكلت أمرهما إلى ابني فؤاد لثقتي وقناعتي به، واعتقدت أن المصادفات هي تخطيط إلهي كي أعود لك ثانية وأنت في قمة الاحتياج، تجددت مشاعري مرة أخرى وأحسست بالمسؤولية تجاهك»

شد نفساً عميقاً ثم قال:

«هل تصدقين أنني دائماً أقول لنفسي أنك نقطة ضعفي الوحيدة، أراد الله عز وجل أن يذل جبروتي بهذا الاحتياج المرير ويكسر كياني الصلب لأتذكر أنني رغم هذه الإمبراطورية الفخمة التي شيدتها بكدي وكفاحي تهزمني امرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة»

تضرج وجه ثريا بحمرة الانفعال فأردفت بصوت متهدج متأثر بشدة:

«ما كنت أتوقع أنني زرعت فيك كل هذه المشاعر، تضطرنا الحياة أحيانا أن نلفظ الهواء والطعام والماء وأشد احتياجاتنا من أجل أن نعطي شيئاً هاماً للآخرين، كنت في موقف تحدٍ وتجربة صعبة منذ صباي احتجت أن أواجه الوحدة والغربة والحرمان مع ثلاثة أطفال لابد أن أتصلب كي أحميهم وأن أشحذ مخالبي أمام الظروف كي أفترس الشدائد رغم

احتياجاتي العاطفية والنفسية، توفي والدي، هجرني زوجي، الظروف العصيبة كانت تلتف حولي كأفعى سامة لتعصرني وترديني ميتة، فاضطررت مقاومتها بكل ما أملك من سلاح ومقاومة، نهشتني ألسنة الناس تقولوا وأشاعوا الكثير من الأقاويل، التفت حولي في حيرة ينقصني المال والرجل والحماية والأمان، اضطررت وأنا في خضم هذه الظروف أن أختلق حصناً من نسيج مقوماتي الذاتية كي أقف شامخة، وتعذبت وأنا أعظ على نواجذي صبراً، لم تكن في رأسي فكرة إلا أن أقيم ركائز هذه الأسرة كي تنمو في ظل آمن، فجاهدت وروضت نفسي على الحرمان وعاهدت الله على أن أحفر الصخر بمخالبي كي أتعدى المراحل الخطرة والمنعطفات الحرجة وزهدت في أشياء كثيرة تحبها النساء واكتشفت من خلال تجربتي أننا عندما نزهد رغباتنا تقوى فينا الإرادة، وتتصلب عزائمنا، وتسري في عقولنا ينابيع الحكمة.

«هكذا اتخذت قراري منذ سنين طويلة مؤمنة بما أفعل واثقة أنني سأحصد الخير في النهاية، لهذا أعترف لك في النهاية إنني ما زهدت فيك إلا لأني قضيت عمراً في معركة مع ذاتي وجهاد مع نفسي وصراع مع أهوائي وشعرت أن سعادتي أستمدها من هذا التحدي الكامن لكل هذه الصغائر وتلك المنغصات العابرة، صدقني أنا أشعر بالرضى والاطمئنان وسعيدة بكل ما حدث في حياتي وقد استطعت بفضل الله أن أجتاز العقبات وأتقوى على المحن وشكري الخاص موصول لك

أنت على وجه الخصوص لأني لم أنسَ وقفتك النبيلة وأنت تتنازل عن قضية (عماد) لتخرجه من السجن ولن أجد في حياتي أخا وسندا غيرك، ثق إنني عندما أحتاج مساعدة لن أبدد ماء وجهي هنا وهناك أنت الرجل الشهم الذي يحتويني بإيمان»

تراجع مقهوراً، أحس بأنها ردت يده الممدودة بسخاء، فجاء رفضها مجدداً، قال وهو يغالب ضيقه:

«يسرني أن أكون لكِ الأخ المخلص دوماً»

اعتذرت محرجة:

«يؤسفني أن أردك مرتين لكني مؤمنة أن في الحياة علاقات إنسانية سامية أوثق وأعمق لا تقل قداسة عن رباط الزوجية.

حاول أن يستعيد أنفاسه الهاربة:

«أوعديني أنك لن تترددي في طلب أي خدمة أو مساعدة وتذكري دوما أن لك ضريحا مقدسا في قلبي لا تمسه أصابع الدهر بسوء ولا تبدده رياح الأيام، شيء ثابت، راسخ على مر السنين يغذيه الوفاء ويطعمه الإخلاص كي يعيش متوقداً للأبد، فشريان قلبي متصل بقلبك يتحسس آلامك ومعاناتك عن بعد».

ردت باقتضاب كي توقف استطراده.

أشكرك مرة أخرى على كل ما قدمت.

نهضت من مكانها.

«سرني هذا اللقاء»

حملق فيها متضرعاً:

«تعجلتِ الرحيل؟»

قالت وهي في عجلة من أمرها:

«موعدي مع الطبيب»

اتجهت صوب الباب استوقفها:

«أنا مسافر هذه الليلة إلى النمسا»

استدارت وعيناها نديتان بالدموع تسمع صوته الواهن يستجمع فيه كل أعباء حزنه ويأسه.

مسحت طرفها، وهي أشد استغراقاً في الحزن:

«تعود بالسلامة إن شاء الله»

أطال النظر بوجهها الحزين في حسرة وانشداه وكأنه يشهد مصرع حبه للمرة الثانية، ويشعر بغيابها يحفر وجعاً في روحه، تلاشت ثريا عن ناظريه وكأنها حلم بددته اليقظة واستشعر أنفاسها عطراً ذائباً في خلجات روحه، تركته في وحشة اليأس يكابد أملا أجهضته قبل ولادته، وسارعت في بتر حبال الأمنيات حينما تخضب بأروع المشاعر، جلس منكفئاً ينوء بأحمال أساه، مذعوراً من ردها يستفرغ كل ما فيها من شدة وقسوة وأوعز ذلك إلى معاركها النفسية مع السنين حولتها إلى كيان صلب.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

انهار على المقعد يردد:

«قاسية، قاسية، قاسية»

ويهز رأسه المضطرب ثم يطرق ثانية ويستهيم مفكراً:

«ولكنها لم تكن أبدا قاسية، فهي النهر المدرار بالحنان تختزل عواطف الكون في باطنها الخصب خرجت بمدامعها الصادقة وانكسارها الجميل كأروع لوحة رسمتها ريشة فنان معذب»

لا يمكن أن تقف في هذه المعادلة الصعبة، تقتحم أسرة دخيلة تعرف أن له بيتا شيدته زوجة محبة، بل مجنونة بحبه، والسنون علمتها أن مشاهد العطاء أوقر في النفس من خزي الأنانية أشفقت على هذا الكهل المستغرق في عذابات الماضي ويأبى أن يتحرر من الذاكرة العتيقة.

وفي هذا المساء الماطر، سافر هاشم وزوجته إلى النمسا، وبقيت جميلة مع فؤاد وطفلهما في الفيلا الكبيرة.

اتخذت حياتهما بعضاً من الرتابة والملل وبدت جميلة في مزاج سيء وحالة عصبية غير عادية، فعندما خالطت هذا المجتمع وجدت نفسها غريبة، مقصية عن اهتمامه وأفكاره، جاءت باعتقاد مسبق أن المسلمين صور مثالية يجسدون حلمها المقروء على الورق، أينما دخلت تتهامس عليها النسوة كما لو

كانت كائناً غريباً، تتحدث إليهن بمثالية من تتصور أنها ستكون في موضع ملام وتقريع إن ابتدرت منها هفوة فإذا بها مثار حسد وسخرية، فوطنت نفسها على أنها في مقام جهاد على مستوى «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»

وستبذل وسعها لمكافحة هذه النقائص والأعذار في المجتمع النسوي فنصحت بعضهن ممن أسرفن في قتل الوقت دون طائل لاستغلاله بصنعة ذات نفع، يتغامزن عليها بالهمز واللمز، ضاقت بها السبل حينما وجدت نفسها محاصرة بالنقد والتجريح، فمازلن يرين فيها تلك الفرنسية الغريبة بما تحمل من ثقافة منفتحة وعقيدة مرفوضة، وهي أكثرهن حرصا على التشبث بالأوامر والابتعاد عن الزواجر ملتزمة في حجابها بشدة حريصة على اجتناب الشبهات.

فكرت في تأسيس حلقة دينية لدراسة القرآن الكريم وتفسيره للأجنبيات اللاتي اعتقدن بالإسلام وآمنَّ بتشريعه، وراحت تبحث في عناوينهن عبر اتصالاتها المكثفة وتقصيها الدقيق حتى عرفت منهن ثلاثة إنجليزية اسمها خديجة وأمريكية اسمها فاطمة ورحاب الهولندية، اتفقت معهن على صياغة هذه الجلسة وحددت يوم الخميس بعد صلاة المغرب موعدا للقائهن الأسبوعي، وقد أعدت لها (فداء) زاوية خاصة في الجريدة لتغطية هذه الندوة تحت عنوان «نور الهداية» وفي بعض الأيام تضطر إلى مجاملة أقارب زوجها واستجابة الدعوات الاجتماعية بناء على رغبته. عادت ذات ليله متذمرة،

سألها فؤاد مندهشا:

«ما بكِ ذهبت فرحة وعدتِ باكية؟»

انفجرت:

«سئمت الحياة هنا يا فؤاد، أشعر بالوحشة والغربة، لا أحد يفهمني لا أحد يستوعبني، جئت أتحدث لبعضهن عن مساوئ «الغيبة» أتفاجأ بعلامات السخرية على وجوههن، يعاملنني كما لو كنت من كوكب آخر، زهقت، هذا الوسط خانق ومزعج أكاد أجن كلما دخلت مكاناً شعرت بهن يتناجين عني بالسوء، أشعر أنني كائن غير مرغوب به، منبوذة، هل هي جريمة أن تزوجتني وجئت بي إلى هنا؟»

أجلسها وهو يحاول أن يهدئ من روعها:

«ربما أنت تبالغين بعض الشيء»

انتفضت:

«أرجوك يا فؤاد لا تضطرني إلى هذه المجاملات السخيفة ولست ملزمة على استجابة هذه الدعوات، تعرف أنني لا أنسجم مع البعض وأخريات يتهكمن عليَّ بسبب لكنتي»

«كل شيء في البداية صعب، مع الأيام ستألفينهم وتحبينهم، هذا هو مجتمعنا، وابني سيعيش في هذا الوسط فلا يمكن أن ننعزل عنه»

استأنفت شكواها:

«لقد تجمد نشاطي، وأحسست كما لو كنت عاجزة، مشلولة، لا أستطيع أن أفعل شيئاً هنا».

«هذا هو ميدانك حبيبتي، حاولي تغيير هذا المجتمع المتناقض الذي تتذمرين منه وأظنه أهون بعيوبه من المجتمع الفرنسي»

صرخت بحدة:

«لا يتركن لي المجال دعوتهن إلى حلقتي النقاشية فلم أسمع ردا سوى السخرية والتهكم».

«قد تبالغين بعض الشيء لابد أن لبعضهن جوانب إيجابية تستحق أن تذكر».

«المهم أنني أريد أن أسافر بين فترة وأخرى، دراستي وأعمالي وشؤوني معلقة هناك وأحتاج إلى تفهمك بعض الشيء»

زمجر فيها غاضباً:

«والطفل؟»

ردَّت بارتباك:

«سيكون معي لا أستطيع أن أفارقه لحظة، أرجوك حاول أن تستوعب ما أقول، شعرت بعدم قدرتي على التكيف ربما الفراغ الطويل الذي يتركه لي غيابك في الشركة و..»

وبينما هي موغلة في الشكوى فطن إلى قصوره وإهماله فسارع يقول نادماً:

«إننا نمرُّ بوضع حرج، الشركة تعاني من مشاكل مالية، ضغوط كبيرة تقع على كاهلي خصوصاً بعد أن فض الشراكة (عمي) والد ماجدة وأبي كان في وضع نفسي سيء اضطر أن يسافر مع والدتي لتستعيد حيويتها وليخفف عن نفسه وطأة هذه الأعباء. اضطررت للإشراف على الأعمال والإدارة، ومجلس الإدارة يحتاج إلى خطة جديدة لهذا أضطر إلى الاجتماع بالأعضاء والحضور المكثف ريثما تقف الشركة على قدميها، أنا أعتذر عن هذا التقصير لكنني مدرك أنها حالة عابرة وستمر بسلام»

رقت تقاطيعها بغتة فهتفت:

«صحيح غاب عن ذهني هذا الأمر، لا أدري لم أصبحت متقلبة المزاج، حادة الطباع، كنت في باريس مشغولة بالعمل لم يكن في حياتي ثمة فراغ، أشاغل يومي بأنشطة عديدة كنت سعيدة بها إلى حد كبير، الآن أحس ببعض التكاسل والتراخي»

لكنه عاد وطمأنها:

«لا تقلقي يمكنك السفر ساعة تشائين»

هجست من هذا الخاطر:

«لوحدي؟»

«بالتأكيد، لأني الآن أحل محل والدي في الشركة»

تراجعت خاضعة لقراره..

وفى غمرة حديثهما رن جرس الباب، الخادمة تدخل محملة بحقائب كبيرة وهي تقول كمن ينعى خبراً:

«سيدتي ماجدة ووالدتها».

عجلت جميلة بالنهوض من مكانها وهرعت إلى غرفتها تحاشياً لأي تماس.

أجفل فؤاد مذعوراً وهو يسمع صوت عمته ينساب بحدة في أذنيه يستبطن نوايا خبيثة يعرفها حق المعرفة.

«الحمد لله أن عدت سالمه لبيتك يا ابنتي»

ثم حدجت في فؤاد طرفاً غاضباً:

«أرجو رعايتها فهي مازالت مريضة»

نظرت (ماجدة) إلى زوجها ببرود، وترقب، صافحها:

«أهلا بك في بيتك»

خرجت الأم وهي تغمز بطرفها لابنتها احتيالاً دون أن يشعر بها فؤاد:

«أوصيك برعاية زوجك فليس للمرأة إلا زوجها»

تململ فؤاد متحرجاً وألجم لسانه لا يعرف ما يقول لكنه استجمع قواه يسأل بتكلف واضح:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«كيف حالك الآن؟»

صرخت وهي مازالت في حاله من الاحتقان:

«وضعي مؤسف كما تعلم»

تناهى إلى سمعها بكاء (يوسف) ينبعث من غرفته في الطابق الأعلى ارتعدت ماجدة واكفهرت بشكل مخيف وكأن صوت الطفل خنجر في قلبها المحطم، فبكاؤه طلقات نار تذعن في تذكيرها بخساراتها الجسيمة وانهزامها الذليل، استفز وجوده المفعم نكباتها الممضة وحرمانها الكبير وأن هذه المرأة الدخيلة كانت سبب فجيعتها ومأساتها التي مازالت تعاني مرارتها.

خاف فؤاد تبدلها المفاجئ وقد أنبأ بحالة مرضية مقلقة تبدو في انفعالها متطرفة إلي حد مقيت كأن أفاعي الشيطان تطل بعينيها الغائرتين، فوجهها مرعب في وجومه الغائم، نادت الخادمة بصوت بح لفرط الصراخ وطلبت منها إعداد حجرتها وحمامها ولما لم تجد في عيني زوجها حفاوة وحب حدجته بنظرة ذات مغزى قائلة:

«ما أخبار الفرنسية؟»

داخله شيء من الرهبة فقد عادت بإصرار من بيتت النية على شر رغم كل محاولاته في بتر أوهن خيوط الوصال وإرغامها ضمنا على طلب الطلاق ثمة خاطر في وجدانها

المريض ورغبة دفينة في البقاء معه حتى وإن بانت على زواجهما كل ملامح النضوب والشقاق.

فقد خيرها بين الانفصال أو الاستمرار معه مشيراً عبر مواقفه اليومية وتجاذباته السلبية أنه زاهد فيها منذ البدء.

تركته في وجومه وحيرته ساهماً يفكر وأحست أنها قد أصابت السهم في المرمى، وتذكرت إملاءات أمها قائلة: «الحمقاء هي من تخرج من الصفقة خالية الوفاض، بين يديك ثروة عظيمة وجاه عريض، اغرفي من هذا البحر ما شاء لك، هذا النعيم الوافر يقف بين يديك طيعا فلم تركليه بقدميك وتطلبين الطلاق، الدنيا قائمة على المصالح والمنافع ودنيا الحب تبددت مع السنين وأسدل عليه الزمن ستارة من الحديد والصلب فلن ترجع أحلام الصبا الوردية ترفرف في عالم يحسب قيمة الإنسان بالدولار، لا تأمني للرجال، انظري إلى جيوبهم لا إلى قلوبهم. فالقلب يشيخ مع الزمن، العاطفة تخبو، بينما الثروة تربو وتكبر فأيهما الأجدى بالحظوة في النفس، أبوك وأبوه شريكان في هذه الإمبراطورية العظيمة هل تتركين الأغراب ينهشون الغنيمة وتولين هاربة؟ كوني ذكية وماهرة في اقتناص الفرص واللحظات للاستئثار بأكبر رصيد يقيك شر الزمن».

ابتسمت ماجدة في ارتياح وتنهدت بعد أن استقرت على هذه الخطة وستعمل جاهدة على تطويع الظروف لصالحها،

لكنها سرعان ما هاجت في غضب عندما سمعت ضحك الطفل بين ذراعي أمه تناغيه وتلاعبه وصوته المنغم بلحن عصافير كان أشبه بعواء ذئب في رأسها أخذت الوسادة وصمت أذنيها كي تقاوم صوته تلتوي، تتشنج أحست أن في نبراته البريئة دبابيس توخز لحمها تعظ على نواجذها صارخة «اسكت، اسكت» ثم انفجرت باكية فقد لفظ جسدها المحروم طفلاً لطالما انتظرته بفارغ الصبر.

الفصل (٣٦)

صفر على اليمين

حاول عماد أن يبني نفسه مجدداً ويستخرج ذاته المحطمة من بين الأنقاض والركام ويرمم حياته بشكل آخر متشامخاً على ذله، متعالياً على جرحه، فقد ظل عبر ليالي السهد يسبر أغوار نفسه المضناة ليصل إلى قرار حاسم ومرحلة جديدة تقتضي منه البدء في مشوار جديد، وأحس أن نقطة الانطلاق في درب غامض غير واضح الملامح أمر مقلق لكن والدته أدركت بفطنتها مخاطر هذه المرحلة فعملت على شحذ همته وتسريب ارتباكه بحنانها وكلماتها المشحونة بالإصرار والتحفيز، فانكب على هذا الهدف يبحث عن عمل يشبع فيه طاقته وميوله، سأل نفسه وهو واقف على مفترق طريقين إما الصعود أو الهبوط ولابد أن يتجاوز هذه المحنة بكل ثقة وإيمان، فقد عاش أيام الخيبات والإحباطات في صراع وكمد حتى ذاب فؤاده حزناً ونحل بدنه، انغمر في ظلمات الضياع والحيرة يغلي حقداً وغيظاً على كل

الأشياء والناس بل وحتى العدم، فالطرق مسدودة أمامه، والأبواب مؤصدة، ولفرط اكتئابه ينام النهار بطوله ويمضي ليله في عبث يقلب قنوات التلفاز بسأم وملل.

«هكذا تهدر شبابك وصحتك ووقتك دون طائل»

انتبه إلى أمه تؤنبه مزعوجة:

«وماذا أفعل؟»

سألته في محاولة منها لاستثارته:

«أو تظن نفسك عاجزاً؟ لا تملك القدرة على النجاح ولو بشيء بسيط»

يتهكم:

«وماذا يفعل العاطل عن العمل؟ ومن أين لي أن أجد الفرصة؟»

قالت بإشفاق:

«هل فكرت بأحداث الماضي السعيدة والبهجة التي كانت ترتسم على محياك وأنت تدير شركة بهذا الحجم؟ ألا يعني هذا أنك تختزن طاقة هائلة لو استنهضتها من جديد فستدرك في داخلك مواهب دفينة»

أطرق يفكر بينما الأم تستطرد:

«ابدأ من الصفر، لا تستهن بهذا الصفر فهو يحدد مكانك

في العالم، إما أن تكون على يمينه أو على شماله، إن قررت أن تكون على يمينه فالنحت في الصخر قدرك منذ البدء»

سخر:

«الكلام سهل يا أمي»

وبثقة ردت:

«والعمل أسهل»

فجأة قالت وهي تتلفت في أنحاء الحجرة:

«إنني أرى حجرتك في فوضى تجعلني أفهم أنك تعيش في ارتباك»

بدا مدهوشاً لمسار حديثها المفاجئ:

«وما علاقة الحجرة بالعمل؟»

«صدقني لها علاقة، أريد أن أحرك دماءك الساكنة وأحفز طاقتك وأشعل وقودك، إن مكتبنا، حجرتنا، حمامنا، كل شيء نسكنه ونستعمله يعبّر عن باطننا المنظم أو المرتبك، دعني أساعدك في ترتيب الحجرة»

بانشداه:

«أنت غريبة الأطوار يا أمي»

سرها الإطراء:

«هكذا أوصف دائماً»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قفز من سريره بخفة وقد تسرب حزنه بعض الشيء قائلاً بحماس:

«سأفعل وفق اقتراحك»

«هل تحب أن أساعدك؟»

«أشكرك»

تناهت إلى رأسها فكرة:

«اليوم قرأت في جريدة الصباح أن مركز التدريب على المهارات قد طرح مجموعة من الدورات وخطر لي أن ألتحق بإحداها معك، هناك دورة في التفكير الإيجابي، دورة في مقومات النجاح، دورة في البرمجة العصبية، ربما عشر دورات على الأقل حتى إنني طلبت من «فداء» أن تسجل اسمي في دورة التفكير الإيجابي، ما رأيك أن نلتحق بها معاً؟»

اقترب منها يحيطها بذراعيه ويقبلها:

«أنت لوحدك أستاذة،عالم من المهارات والدورات، موسوعة مليئة بالعلم والمعلومات»

لكزته بذراعها وهي تفلت منه قائلة في مزاح:

«أخشى أن تقول عني قد كبرت ولا أصلح لهذه الأشياء»

قبّلها على وجنتها مردداً في ابتهاج:

«أنت وقود هذا البيت، قلبه النابض حيوية وشباباً، كل الناس تشيخ إلا أنت يا أمي»

ربتت على كتفه وهي تخرج قائلة:

«سأتركك لتقوم بالمهمة العاجلة»

باشر «عماد» بعد أن أخذ حماماً ساخناً في تنظيف حجرته وترتيب مكتبه ثم تخلص من الأوراق القديمة والقصاصات المتناثرة في إزعاج على سطح المكتب، بحث في خزانة ثيابه وكانت تفيض بثياب مهملة لا ضرورة لها جمعها في كيس ليتبرع بها إلى ذلك الكنّاس الذي يشاهده كل صباح في الشارع، انتبه إلى شجرة المطاط الذابلة قرب النافذة وتذكر أنه لا يقل عنها ذبولاً وعطشاً إلى الرواء هي تستقوي بقطرات من الماء، تشتد أغصانها وتخضر، وهو عطش إلى التقدير والتشجيع ليرتفع منسوب معنوياته فتتألق ذاته وتنتعش بطاقة من الحماس ترفعه إلى الحياة باقتدار، نفض عنه الكسل وانقضى عنه الفتور فإذا بالحبور والسعادة يشعان بريقاً من عينيه وشملته حالة من السكون والهدوء وفكر ضمن خطته الجديدة أن يخرج جهاز التلفاز من غرفته إلى الصالون محدثاً نفسه «أحتاج أن أتقدم خطوة إلى الأمام كي أشعل الحرارة في ذاتي، يا عماد لا تقف مكتوف اليدين وتنتظر هبة القدر تأتيك على طبق من فضة، ألقِ بنفسك في الدروب الشائكة بنية صادقة وبهدف نبيل وستَعثر على ضالتك وما عليك إلا أن تشعل شمعة صغيرة في هذا الظلام لتبدد عنك العتمة والغموض، يكفي أن تتلفت حولك لتجد أمامك تلك الأم العظيمة التي كانت وستكون قنديلاً مشعاً

في أحلك الظروف، وجودها في ظلمة حياتك يهدئ من روعك ويسكن وجعك، هي من تمنح دائماً ذلك النور الهادئ الذي يبدد همومك ومعاناتك»

تنهد وهو يشكر ربه في ركعتي صلاة خاشعة، وخرج ليتناول الفطور مع أمه ويتجاذب معها شتى الأحاديث، تسقيه من معينها ذلك الرواء العذب فتنجلي عنه الآلام والأوجاع، تعجبه كامرأة حكيمة، مرتبة الأفكار، منظمة التصرف، تنهض باكراً لتجهز فطور الصباح على مائدة جميلة منسقة بألوان وزخارف مبهجة ومن عادتها أن تضع أصيص الورد المحبب إلى نفسها قائلة في مرح «الناس تجد في شرائي الزهور بطراً وهي بالنسبة لي شريان حياتي، لا أحب مائدة ميتة منزوعة الحياة ناضبة تجمعني وأولادي على طاولة قاحلة»

ما أروع جلستها الفياضة بالحنان على أريكتها المتواضعة في شرفة المنزل تقرأ صفحات من القرآن الكريم بخشوع تسبح في هالة من الضياء.

قالت له وهي تصب له الشاي:

«ركز على أين تريد أن تذهب»

«أظن أن لي خبرة في تصميم المواقع، سأعرض هذه الفكرة على إحدى شركات الإعلان فقد نضجت خبرتي عبر الممارسة اليومية في الشركة السابقة»

حدقت الأم مبهورة:

«أرأيت أن في داخلك خبرات لم تكن مدركاً لها لأنك لم تكن مرتباً في تفكيرك»

ثم سأل بعد فينة:

«ما رأيك هل أوافق على عمل مندوب مبيعات الذي عرضته عليّ شركة التجهيزات المنزلية»

«وافق يا ولدي، اعمل كل عمل مهما كان صغيراً أو كبيراً، استغل وقتك وطاقتك، اعمل مندوب مبيعات هنا، ومصمم مواقع هناك لا تقف متردداً، نفذ على الفور كل خططك وأشعل فتيل حماسك، يا بني العمل كرامة الرجل ليس فقط من أجل المال وإنما لتحقيق ذاته ورجولته، فالرجل العاطل أشبه بالكهل العاجز الذي نضبت منه الحيوية والحياة، لا تكف عن السعي، اطرق كل الأبواب وأنا واثقة من نجاحك، تحمل مسؤولية نفسك واقتحم العقبات بشجاعة ما كنت تفعله في الأيام الماضية هروب وفشل، إذ كنت تعمق في ذاتك الإحساس بالفشل وأظنك مخطئاً في فهم ذاتك، فأنت مفعم بالطاقات والنعم والمواهب والميول، فيك مخزون عظيم من الإبداع، أريدك يا بني أن تضمّد جراحك وتستعد للمواجهة من جديد، انظر إلى «فداء» كم أنا فخورة بها الآن فاسمها يتردد على كل لسان، كافحت من أجل هدفها الذي رسمته مذ كانت تلميذة في المدرسة، شقت طريقها بإيمان وعزم وها هي الآن كاتبة عصامية يُشار لها بالبنان، نسي

الناس اسمها الحقيقي وظلوا ينادونها بشمس الحقيقة، لأنها الكشاف الذي يضيء البؤر الفاسدة في المجتمع، تسلط عليها حزم النور الإلهية كي تبدد جراثيمها ولوثتها وتطهرها من جديد وأنا مطمئنة لأنها وقفت على أرض صلبة بقدمين ثابتتين مدركة إلى أين هي ذاهبة، لهذا أرجو يا بني أن تحذو حذوها وتحدد وجهتك، لا يهم من نحن ومن أين أتينا، لا يهم إن كنا فقراء محرومين المهم أننا نمتلك كل مقومات النجاح التي تؤهلنا للصعود إلى القمة»

أطرق عماد مصغياً بكل جوارحه ثم نهض من فوره ناشطاً بعزم وكأن مسّاً من الحماس قد التهب في جوفه فسارع يقبلها وهو في طريقه إلى الباب.

«أشعلتني كلماتك، ألهبت مشاعري، أحسست أن لي قدرة على حمل الجبال فوق كتفي»

ومضى يجوب الشوارع والطرقات بخطوات متحمسة وطاقة متجددة طاف المكاتب والشركات وفقاً للعناوين التي احتفظ بها كقصاصات استقطعها من الصحف، وتذكر وهو في طريقه صديقه «فؤاد» إذ استبد به شوق عارم للقياه، فالأزمات أحياناً تمتص فينا روح الألفة والمحبة وتنسينا أقرب الناس إلى قلوبنا وبعد أن تسترخي نستعيد في داخلنا خيط حنين جاذب لذكريات لطيفة كالنسيم الهفهاف في النفس، هذه الروح تخبو وتتجدد كالأغصان حينما تعصف بها رياح الخريف تتنثر منها

الأوراق الخضراء فتبدو شاحبة ذابلة وعند طلوع الربيع تخضر عليها البراعم بنداوة جميلة فيدب فيها ذلك النماء المعطر بالقدّاح.

فكر أن يرمم هذا الشرخ الذي لوث صفاء العلاقة، فبرغم محاولات فؤاد في رأب الصدع واجتياز الجرح بقي عماد لفترة منكفئاً على نفسه متوارياً عن الناس، يرتاب من كل شيء، متأزم في محنته، أحاط نفسه بشرنقة خانقة، واستطاع بعد فترة طويلة أن يفك أغلالها ويخرج للنور فكّر في دعوته على الغداء خارج المنزل، إنه يحبذ لقاءه تحت ضوء الشمس وفي وضح النهار ليخترق أبعد حدود الصمت ويحتوي المسافات فتشهد عينا السماء ولادة لحمة صافية، وعزم على استئناف ميثاق الصداقة خصوصاً بعد أن بدد عماد عن قلبه كل النتوءات والجروح واستل عن صدره معظم أشواك الخوف والاضطراب، لكنه عاد وتذكر مجدداً أن فؤاداً منهمك في مشاكل الشركة، إذ علم أن هناك تسريب لبعض الموظفين، ونضوب في الميزانية وهو لا يملك الخبرة الكافية لمواجهة هذه الضغوط، فاستنجد بعمه والد زوجته ليدعم من المركز المالي للشركة ريثما يعود والده من الرحلة فمازال مجلس الإدارة قائم على قدم وساق يجتمع باستمرار لاجتياز هذه المرحلة الحرجة، وقد علم في الآونة الأخيرة إنها على وشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة خصوصاً بعد الأزمة الخانقة بين فؤاد وزوجته ماجدة التي

www.mlazna.com-RAYAHEEN

حرّضت والدها على فض الشراكة بعد ما لقيته من عذاب وهوان، وقد اعترف له فؤاد ذات يوم «أن الشركة قد شاخت ولم تعد قادرة على امتصاص الخسارات المفاجئة»

شاب «عماد» إحساس بالدونية والضعة وهو يتذكر فعلته وهاب فؤاد ذلك القديس المبجل يأتيه واثقاً وهو يمد له يد الصفح والسماح متغاضياً عن خطاياه قائلاً له: «يا صديقي التسامح يمحو كل آلامنا ويشفي جروحنا» لكنه ولفرط خجله ووخز الضمير انطوى على نفسه منكمشاً في إذلال يداري فضيحته، وبقيت أمه تطري شمائل فؤاد وخصاله النادرة بعد هذه الخطوة قائلة: «الشخص ذو احترام الذات الأعلى يتخذ الخطوة الأولى نحو تقديم الاعتذار»

بعد هذه التقاطعات الفكرية يدهمه إعلان كبير لشركة الإعلانات التي قرر أن يكون لها مندوباً، يتذكر مقولة أمه كن واثقاً من نفسك حتى يثق بك المسؤول، أخذ نفساً عميقاً وهو يشد جسده الناحل ثم دخل بعنفوان وتفاؤل، كانت في انتظاره إجراءات مضنية وكأنه شيخ هرم يمشي على عكاز ريثما يصل إلى هدفه، منذ فترة اتصلوا به معلنين موافقتهم على تعيينه حتى ظن أنه سيباشر عمله خلال يومين.

اصطدم بالروتين والقوانين المطاطية التي تجعله متردداً على كل المكاتب من أجل ختم أو توقيع حتى استقر به المقام عند مكتب المدير العام الذي أفاض في شرح العمل قائلاً:

«المندوب الناجح يعرف كيف يقنع الناس بأهمية السلعة بلباقة وذكاء، فالمستفيد هو هدفنا ولهذا نحتاج إلى مندوب قادر على التعامل الإنساني مستخدماً كل فنون الإقناع ومهارات الحديث الجذابة فبحماسك وإيمانك تستدرجه لشراء السلعة»

تمهل «عماد» قليلاً ريثما ينتهي المدير من حديثه ليعجله على الفور «وبإمكاني أيضاً أن أصمم مواقع للشركات بشكل جذاب على الإنترنت وسأطلعك على بعض النماذج، فقط امنحني وقتاً بعد الظهر لأتفرغ لهذا النشاط»

راقت هذه الفكرة للمدير الشاب:

«رائع، رائع جداً، يبدو أننا سنتعاون يا عماد، إنني أحتاج إلى شباب موهوبين على درجة عالية من الذكاء والكفاءة، وقد توسمت فيك هذه الصفات وسأساعدك في دخول دورات تنشيطية إن أثبت كفاءتك»

«لا تقلق يا حضرة المدير، فأنا لي خبرة سابقة خصوصاً في هذا المجال وسنعمل معاً على التجديد والتطوير»

وقف ليودعه:

«يسرني أن ألقاك هذا المساء لأطلّع على تصاميمك إن وجدتك متخصصاً في هذا المجال، أنقلك إلى قسم التصميم والتطوير»

«أشكر فضلك»

خرج «عماد» والبشر يرتسم على محيّاه، نظر إلى ساعته وكانت تشير إلى الواحدة والنصف ظهراً.

اتصل بفؤاد يدعوه على الغداء، يأتيه الرد سريعاً وأكثر مما تصوّر قائلاً في مرح:

«هل أنا في علم أو في حلم، أبعد هذا الغياب تذكرني يا عماد؟»

«اشتقت لك يا فؤاد»

«سأدعو نفسي على الغداء شرط أن يكون في بيتكم»

«أريد أن أختلي بك بعيداً عن ثرثرة النساء»

«يا لخسارتي حرمتني من شوربة الخضار اللذيذة»

«المهم أدعوك في مطعم (أفراح) أتعرفه؟ إنه يقع على شاطئ البحر، الطقس مشرق اليوم وصحو السماء يفتح شهيتي للطعام»

حجز «عماد» طاولة صغيرة لشخصين وجلس ينتظر صديقه وما هي إلا دقائق حتى أقبل وكأنه يسابق الريح في لهفة كبيرة تعانقا ثم جلسا في محاذاة البحر وقد بدت أمواجه هادئة، ساكنة تتواطأ مع صفاء الود بينهما واستقرار العلاقة.

بادره «عماد»:

«طمئني على أمورك يا فؤاد، أسألك ذلك وأنا آسف لما بدر مني...»

أشار له فؤاد أن اصمت:

«دعنا من الماضي ومن مأزق العمل البغيض، أريد أن ألقي همومي في جوف هذا البحر»

سأله عماد وهو يصعّد فيه نظراً فاحصاً:

وكيف أنت بعد هذه السنين؟

شد نفساً عميقاً وعب أنفاس الهواء الرطبة تهب من الشاطئ:

«الآن يا صديقي أولد من رحم السنين لأبحث عن ذاتي، لطالما كنت أدور في حلقة مفرغة استنزف طاقتي ونفسي وأنا أتساءل ماذا زرعت؟ وماذا حصدت؟ في كل مرة أقطع شوطاً قصيراً وأقف حائراً متردداً هل هذا هو الطريق؟ تركت على أرصفة حياتي قصصاً دون نهايات أبطالاً مشروخين من الأعماق يبحثون عن انتماء يقفون في الطرقات محنطي الذاكرة، لا يستفيدون من أخطائهم السابقة ويظلون أسرى اللحظة الخانقة، كنت أعيش عبثاً، ضياعاً، شروداً مستمراً لا أفهم إلى أين أنا ذاهب، عشت دون هوية فنان صعلوك عبث مع غانيات فرنسا زمناً، مولع في نحت مشاعري على جلودهن البيضاء حتى سئمت تلك البهيمية، لم أكن أشعر حتى بنجاح معارضي، المال كان وفيراً حاولت أن أتغاضى عن هذا الجموح والاضطراب يمور في صدري ولا أعرف له سبباً، لكني أدركت عندما صقلتني عذابات السنين أنني لم أكن موجهاً بهدف،

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تخيّل أن تقود سيارتك دون هدف ستظل تجوب الشوارع كالضال لأن عقلك، عاطفتك، مشاعرك، أفكارك تائهة كسفينة بلا ملاّح، كقصيدة شعر مهزوزة القوافي.

أطرق قليلاً بعد أن وقف لحظة صمت ثم سأل صاحبه:

«أزعجتك بهذا الاعتراف؟»

بارتياح شديد يرد عماد:

«طالما نحينا العمل جانباً، دعنا نخوض في حياتنا الخاصة، فأنا لم أجد الصديق الوفي الذي يستوعب آلامي ومعاناتي وأحسست أن استفاقة السنين مازالت كامنة في صدري تدعوك بكل قوة أن نلحم أواصرنا ونجمع من هذا الرفات صرحاً مشيداً لصداقتنا لنبعث فيها الحياة من جديد»

«خيراً ما فعلت، كنت أتألم في أعماقي لأننا افترقنا زمناً، بيد أنك كنت في ذاكرتي وبقيتُ متصلاً بكم كالشريان أستمد من بيتكم دفء الحياة مازلت أدعوك ثانية لتستأنف عملك من جديد»

نكس عماد طرفه واعترض بشدة:

«أرجوك لا تذكرني ثانية بخطيئتي، دعني أنسى وأتجاهل هذه الصفحة الملوثة في حياتي، فقد قررت أن أبدأ من الصفر فللكفاح طعم ومذاق أشعر به الآن أكثر من أي وقت مضى»

«لكني سعيد لأنك عدت بعد هذه الجروح قوياً، متفائلاً»

«صدّق يا فؤاد، عشت فترة أتأمل، فالتأمل وسيلة استرخاء تهدئ تفكير الإنسان»

ضحك فؤاد وهو يقاطع عماد بقوله:

«هل سمعت عن طريقة الفقاعة القرنفلية الكبيرة فوق رأسك يقول الكاتب إن إنطواءك على الفقاعة هو تحديك أو قلقك، تخيّل أن الفقاعة تُساق إلى أعلى فوقك وتسير اتجاه السماء مع تحديك الذي تبعده عن عقلك»

وبمزحة يشير «عماد» إلى رأسه:

«فلنتخيل معاً أن هذه الفقاعة فوق رأسينا»

يقهقه فؤاد:

«إن فقاعاتنا أكبر من أن نبددها بهذه اللحظات»

وأردف عماد:

إننا لا نحتاج إلى فقاعات من هذا النوع، فالدعاء سلاح المؤمن ارفع يديك إلى السماء وقل «يارب» كثيراً ما سمعت صوت أمي تدعو في صلاة الليل بصوتها الشجي وعذوبة أنفاسها ونداوة دموعها كأنها ملاك مقدس في محراب الإيمان «أناجيك يا موجود في كل مكان لعلك تسمع ندائي فقد عظم جرحي وقل حيائي، مولاي يا مولاي أي الأهوال أتذكر وأيها أنسى ولو لم يكن إلا الموت لكفى كيف وما بعد الموت أعظم وادهى، مولاي يا مولاي حتى متى وإلى متى أقول لك العتبى

مرة بعد أخرى ثم لا تجد عندي صدقاً ولا وفاءاً فيا غوثاه ثم واغوثاه بك يا الله من هوى قد غلبني ومن عدو قد استكلب عليّ ومن دنيا قد تزينت لي ومن نفس أمّارة بالسوء»

ترك فؤاد الشوكة والسكين من يده وأخرج منديلاً يجفف مدامعه وفجأة تهدج صوته وارتعشت الكلمات في حلقه قائلاً:

«ليس في الحياة طعمٌ إلا عندما تصبغها بنكهة إلهية، صدقني قد جربت كل شيء في الحياة في البدء تستهوي نفسك أمراً ما لكنها سرعان ما تزهده لأنه يفقد تأثيره ويبقى ذلك الشيء في داخلك يبحث عن الإشباع اللانهائي الذي يغمرك بسعادة دائمة رغم النكبات والمصاعب فما وجدت غير الارتباط بالله والتمسك بحبله، فعيناه سبحانه تسطلعان حياتك بحنان دائم، هو القوة التي تحميك وتصهرك في إرادة قوية، جمال وإبهار يثير في قلبك شغفاً مدهشاً وألقاً رائعاً، إن الله احتواني بعد أن ضيعت دربه في دوامات السنين، وحده سبحانه من يرعاني، يحميني، يقهر أعدائي يكفكف أحزاني، يربت على كتفي يشاطرني الليل في وحدتي، يؤنسني في وحشة قلبي»

صاح عماد منبهراً:

«مهلاً، مهلاً، لم أعد أستوعب ما تقول فقد صرت متصوفاً»

«صدقني عرفت الله بالفطرة، بالاحتياج، بالصدفة، بتقاطع

الأحداث كنت أسأل ما هو الشيء الذي ينقصني؟ أملك كل شيء وأشعر أني بلا شيء، وعندما انصهرت بحب الله أصبح لكل شيء معنى وهدف وأحسست أني عظيم»

لمعت عينا عماد دهشة فأردف:

«فعلاً أحسستُ بك مطمئناً، ساكناً، هادئاً، تخلصت من حالة الاضطراب والتوتر، ربما تأثرت بزوجتك الفرنسية»

«صدقني لم أخضع لمؤثرات من هذا النوع، عندما تعثر على نفسك مصادفة تكتشف في شخصيتك أشياء لم تكن تراها من قبل»

أطرق عماد يفكر:

«ربما»

ثم انتحى فؤاد إلى ناحية أخرى في الحديث:

«بعد تجربة زواجك الأولى ألم تفكر في الزواج ثانية؟»

هز عماد رأسه بانفعال وغضب وكأن صاعقة ألمت به فقال على الفور:

«ما رأيك لو نتمشى طالما انتهينا من الغداء»

«فكرة جيدة»

دفع عماد الحساب وتركا المكان متجهين ناحية الشاطئ.

أخذ فؤاد نفساً عميقاً وهو يهمس مغمض العينين مستغرقاً في نشوة حالمة:

«أنصت يا عماد إلى صوت الطبيعة هي أفضل طبيب للإنسان القلق تدفق الماء، المشي على شاطئ رملي، الجلوس تحت شجرة ندية مثمرة، النظر إلى السماء، شدو الطيور، آه إنها تنعش دماغي وتذيب همومي»

ثم فتح عينيه يتابع رد فعل صاحبه قائلاً:

«أشعر الآن بتحسن في مزاجي»

ثم حدق بعماد طويلاً وقال بإصرار:

«لا تهرب من السؤال، مازلت أبحث عن إجابة»

إنه يعرف عماد شاب كتوم، يطوي جراحه، يدفن همومه وأحب صداقته منذ الصبا لأنه مستمع جيد، كان فؤاد يثرثر باستمرار بينما هو يصغي ويمتص آلامه.

تنهد ثم أفضى:

«مازال جرحي عميقاً يا فؤاد، هذه المرأة دخلت حياتي بفتنتها الطاغية وأنوثتها المتجبرة أوهمتني حباً عاصفاً حتى غرقت في هواها لأكتشف بعد فوات الأوان أن هذا الحب ما كان إلا حبائل شيطانية استدرجتني لأغراض مادية بحتة، أدهشتني بفنونها ومكرها ودهائها»

اندفعت موجة كبيرة من الماء قرب الشاطئ فبللت قدميهما، وأحسا بدفء الماء يتسلل إليهما.

عاد فؤاد يسأله وقد خبت فرحته:

«نعم كانت مكيدة مدبرة لك، ألم تكتشف منذ البداية أنها شيطانة تتلاعب بعواطفك»

«كنت مفتوناً بها، مجنوناً بسحرها، خيل لي أن حياتي لم يكن لها معنى دون الإصغاء إلى نبرتها والتطلع في محيّاها استبد بي الحب وطغى الشعور فأفنيت إرادتي بإرادتها، لقد غزت قلبي كصاعقة مدمرة»

ابتسم فؤاد وكأنه يستعيد شيئاً من ذاكرته:

يحضرني قول لجان جاك روسو: «المرأة كالبحر مطيعة لمن يقواها جبّارة على من يخشاها» أعجب لأنك رجل فطن، قوي الشخصية، كيف استغفلتك هذه اللعوب، المهم انس الماضي فكلنا نمر في هذه المنعطفات ونتحطم لفترة لكن سرعان ما نستجمع شتاتنا ونرمم كسورنا لننهض من جديد»

صمتا وعيناهما مصوبتان ناحية البحر تتعانق أمواجه مع أفكارهما المتلاطمة، في قلبيهما أسرار لو أن الزمن ثرثر بها كلها لبقى في الذاكرة يختبئ الأهم.

فجأة نادى فؤاد صاحبه بنبرة خافتة توحي بانعطاف جديد لمجرى النجوى بينهما:

«عماد»

رفع رأسه بانتباه:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«نعم»

«أنا متردد بعض الشيء في طلب حساس ظلّ يصطلي في قلبي لفترة طويلة من الزمن أخشى البوح به ولأنك أقرب شخص لي ستفهم هذا الاحتياج»

رفع عماد عينيه:

«تفضل يا فؤاد... لا تشعر بالحرج»

غصت الكلمات في حلقه وشعر بالجبن لأول مرة وإذا بهذا الثرثار يتحوّل إلى تمثال صموت يستدرجه الآخر:

«تكلم يا فؤاد فكلي أذن صاغية»

بصوت ترتعش في أحباله الكلمات قال:

«أود أن أتقدم للزواج من شقيقتك «فداء» فقد شجعتني عودة صداقتنا وإيمانك بي على أن أتجرأ بطلبي هذا»

بهت عماد:

«لا أظن أمي تبارك هذه الزيجة لأنك متزوج من امرأتين وخصوصاً لفداء، الأثيرة على نفسها، حتماً سترفض بشدة ثم لا تنس فارق العمر بينكما»

أطلق زفرة حارة وهو يستحضر وجودها المهيمن على كيانه:

«لكني أحبها وهي مقتنعة بي تماماً وسأحرص على إسعادها»

«صدقني لا تجازف في هذه الخطوة لأن الرفض محسوم مقدماً، أعرف أمي وأفهم كيف تفكر»

تجهم «فؤاد» وصمت وغاص في فكر حزين لكن سرعان ما هون صاحبه الأمر: «لا تحزن يا فؤاد، أنا لا أريد أن أعرضك للحرج»

سكت «عماد» هنيهة ثم سأل مدهوشاً:

«فاجأتني بهذا الطلب، منذ متى وأنت تفكر بـ «فداء» ومن أين عرفت أنها ستوافق، فداء ترفض الزواج في هذه الفترة لانشغالها الشديد بالأنشطة الكتابية»

وبتخابث مشوب بغيرة يسأل:

«هل حدثت بينكما علاقة؟»

انتفض فؤاد:

«لا... إنني معجب بعقليتها، بنشاطها، بفكرها المتوقد، تأثرت بشخصيتها المتميزة وأحسست أنها الأقرب لي كفنان»

انحسرت موجة البحر بعد مد عنيف ومالت الشمس إلى الغروب حيث اختفى قرصها بين السحب الملطخة باللون الأرجواني لتتدلى أذيالها الهاربة في عمق البحر وكأنها عروس مدبرة في أحلامها إلى مصير مجهول، ارتعش فؤاد وهو يشد ياقة سترته ليخفي عنقه العاري.

«لقد برد الطقس فلنذهب».

أقفلا راجعين بخطوات تغوص في الشاطئ الرملي حيث موقف السيارات المحاذي للمطعم.

ودَّع فؤاد صديقه وهو يذكره:

«فكر في طلبي هذا، وأرجو أن يلقى الاستحسان والقبول».

«لن أعدك بشيء»

وراح صوت الأذان يصدح في آفاق المدينة، «الله أكبر، الله الأكبر»، لا أكبر من الله شيء، يردد عماد في سره استعاد شريط الذكريات واللقاء الذي لفظته سنون الغياب، والأيام التي ترحل تاركة في النفس الأحزان والأفراح.

وصل البيت، أقبل على أمه والبشاشة تغمر وجهه، فتح ذراعيه ليعانقها، صاحت:

«بشّرني يا ولدي»

رد في انشراح:

«إن شاء الله صفر على اليمين»

وصرخت بأعلى صوتها وهي تنتفض فرحة:

«إن شاء الله المزيد من النجاح والتألق يا ولدي»

الفصل (٣٧)

سوط الحرمان

هل انكسرت؟ هل وقعت في دوامة من الضياع والحيرة ولا حيلة لي إلا الاستسلام؟ أين قوتي وحيويتي؟ مالي أعيش حياة يظللها السأم والفتور؟!

وضعت دفاتر طالباتها التي كانت تصححها غاضبة تنادي الخادمة.

«ياقوتة، ياقوتة»

جاءت تهرول بفزع.

وتأمرها وهي مازالت ساخطة تنوء بأعباء الحمل.

«أعدي لي كوب الحليب مع العسل»

«حاضر سيدتي»

عندما صحت «علياء» من غيبوبة المرض شعرت في داخلها حيوية كامنة نهضت من كبوتها وتدفقت من جديد وبدت في

حالة مزاجية حادة مائلة إلى التوتر، تحاول أن تنمو وفق هذا القالب الجديد ومعطيات الحالة الزوجية الفطرية، فحيرتها تغذيها تناقضات نفسية بين مظهر النماء المعيشي وتفاعل الزوج الدائم في يومياتها الرتيبة وإحساس الذنب الدفين يخاتلها كومضة تضيء لها أخطاءها جليّة واضحة، مازالت في طياتها العميقة ترفض «مخلص»، إنه في انسحابه السلبي لا يثير فيها عاطفة أنثى، إنه يكبر مشوهاً في عينيها فيستفز فيها عدوانية نافرة، وعندما يهدأ جموحها تستقر أحاسيسها المتهيجة فتملي على نفسها ضوابط تخفف من وطأة العذاب، «نعم هذا هو الزوج المناسب، رجل عاقل، صالح، مستقيم، طبيب، ماهر، ماذا ينقصه كي أحبه؟ ما هو عيبه لأنفر منه؟»

إنهما طاقتان متنافرتان، تشعر بالانطفاء كلما انساقت نحو حالة الذوبان تخبو مقدرتها على مجاذبته حينما تستدرجها خيوط الماضي إلى تلك الهالة المهيمنة على مشاعرها، الرجولة المقدامة، وخيلاء الذكورة المسيطرة تجسمت في رجل تبدد كالسراب، في عمق الانهيار وتحت سطوة المرض تلاشت منها القوة فاستكانت جوارحها الفتية وهدأ عنفوانها انضوت بجناحي حنانه وسكونه يطيّب آلامها ويقوّض أركانها المبعثرة بكل ما تحمل العلاقة الزواجية من احتضان، وبعد أن استردت عافيتها وشهيتها للحياة اندلع لسانها الساخط يصرخ في صمت ويبتلع الغصص إلى جوفها المهشم «لا أحبك، لا أطيقك» لفتاتها الصادة وعيناها النافرتان كانتا ترشح ازدراء يتحسسه على مضض.

هذا الصراع مازال يلازمها كشبح مخيف، تحاول أن تغلبه بكل قواها تارة بالحوار العقلاني الصامت وتارة أخرى بالتجاهل والانشغال في أمور الحياة الأخرى، لكنها في الغالب تتدحرج بمعاناتها إلى هوة الطلاق وتغرق في عتمة خيالاتها يائسة، محبطة، بكت بمرارة وكل سياط الحرمان تلسعها وخناجر الوحدة تطعنها، مذبوحة يتسرب شرر الغضب المحرق من عينيها إلى قلبه فينكسر مطعوناً برجولته متجاهلاً أسباب حنقها، يحاول أن يتكلم ليزيح عنها الكرب، تصده بصراخها العنيف، بثورتها الحارقة فيفر إلى عيادته والغصة تقف في حلقه متسامحاً، غاض الطرف عن كل أساها فربما حملها قد أوهن فيها الحلم والتفكير وامتص منها كل قوى الصبر والحكمة ويظل فكرها المكدود يتخبط في فوضى الأوهام والظنون.

ويضيق بها الحال تثرثر لصديقتها في الهاتف ثم تتراجع نادمة كلما همت باتهامه، لائمة نفسها «ماذا فعل بي هذا المسكين لاستغيبه بهذا الشكل، إنه لم يظلمني قط، لم أرَ منه إلا جميلاً ماذا فعلت يارب؟ أستغفرك على هذا الجحود وذلك النكران فماذا أريد من دنياي وقد ملكت حياة رغدة وعيشاً خصيباً»

متاهات عميقة تخرج من واحدة لتسقط في الأخرى حتى ظنت أن مرضها كان أشبه بالمخدر لتوقدها، تستغيث بأمها وكأنها المسكن لهذه الآلام تتفهم أعماقها وتعرف كيف تغرس مشارطها الماهرة لاجتثاث جذور أوجاعها، تأتيها لاهثة بغيظها،

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تائهة بين الأسباب والنتائج خرجت في تفكيرها عن منطق الأشياء، فلسفت حياتها بشكل معقد، دراما مجنونة تخلط الألوان بعبثية وتهوّر.

صاحت أمها وهي في قلق كبير:

«ارحمي أعصابك فأنتِ حامل»

«حاولت يا أمي أن أتفاعل معه بأحاسيسي لكني غير قادرة، مشاعري ميتة، احترمه، وأقدره، بل أبذل قصارى جهدي كي أحبه، تعجز أعصابي عن التماس بمشاعره لتنقدح شرارة الحب، وكأن كل عصب فيّ مخدّر، ميت لا توقظه جذوة الشوق، عندما يمس أصابعي تبرد أطرافي كلها وأتحوّل إلى كتلة من الجليد، أخشى أن أصارحه بالحقيقة فأجرحه.

بقيت ثريا تصغي بكل جوارحها، فهي تدرك أنها لا تحتاج إلى حلول فلتدعها تسرب عن همها، الموقف معقد والعلاقة شائكة، من الصعب اقتراح حلول عملية في هذا الظرف الذي، يتطلب منها التعقل والتروي لامتصاص النقمة.

صرخت علياء:

«ما بك يا أمي صامتة وأنا أتعذب؟»

«سأسوي هذه المسألة بعد ولادتك، حينها تخمد أعصابك فأنت الآن ثائرة، غير متزنة وأعتقد أن الأمور ستتغير فيما بعد»

هدأت «علياء» هنيهة ثم استطردت بصوتها الحاد:

«لا أدري هل الطلاق هو الحل الأمثل لمشكلتي وأنا أريأ بهذا المسكين أن أضعه في هذا الموقف، أشفق عليه، أتعاطف معه يا أمي لأنه لم يظلمني أبداً لكني لم أستطع أن أحبه، أليست هي مفارقة محزنة؟»

عنفتها أمها:

«لابد أن تحسمي أمرك، لن أتدخل في حياتك، لكن أعود وأقول لكِ مرة أخرى قارني بين الإيجابيات والسلبيات ووازني الأمر وفكري بالنتائج والبدائل، أتسمعين؟»

«أنا أعجز ما أكون عن سبر غور هذا الشعور المتضارب»

عقبت أمها ووجهها ينطق غضباً:

«لكن لا أسمح لك بتشويه صورة زوجك الطيب، فهو إنسان حنون، راسخ المبادئ وقف إلى جانبك وقت المرض بمحبة وإخلاص ولا يعيبه إلا أنه اتخذ زوجة مشاكسة عصابية»

نكست «علياء» وجهها وقد تبددت كل ثورتها وكأنها احتاجت إلى مشرط يفصل أعصابها عن دماغها لتهدأ، فكأن أمها قررت لها الانفصال كفكرة مؤجلة، امتصت بها كل ثورتها واحتوت كامل صخبها.

فجأة رق صوتها قائلة:

«كان هاشم شخصية عظيمة فيه من المهابة ما يشعرني بضعفي وكأني أقف على سفح جبل وأتوق بشغف الصعود إلى القمة، هذا الشوق النازف يبقى عالقاً في النفس كذرات تشتعل في وجد وهيام دائم لا أحب أن أطاطئ هامتي وأنظر إلى رجل يقل عني طولاً».

أصاخت لها أمها مندهشة، تنظر إليها هنيهة ثم تتحول بناظريها إلى الباب خشية أن يباغتها أحد ثم حدقت بها غاضبة:

«هذه المقارنات ظالمة يا علياء، هذا الكهل أيقظ فيك شعوراً مزيفاً تظنين أنه الحب، وهو في الواقع أملٌ استعصى عليك نيله، فظل يشتعل في داخلك بفضول وحسرة»

صاحت علياء بصوت يتهدج حزناً:

«إن ما يعتمل في نفسي صخب واضطراب أبحث له عن مسكّن ولم يكن (مخلص) هو ذلك الرجل الذي أتوافق معه في الذوق والمزاج رغم أنه رجل ناجح فيه مزيج من الفضائل المرغوبة، التحامي المفتعل يسبب انخفاضاً في طاقتي ونضوباً في حيويتي»

قالت ثريا بعد أن فرغت «علياء» من حديثها:

«لا تظني أن الطلاق هو الحل الأمثل، فالمرأة في هذا الوضع هي الحلقة الأضعف، فمخلص سيتزوج من بعدك وفقاً لخيارات

عدة إذ له من المواصفات ما تسوغ له الاختيار الأفضل من أجمل الفتيات»

ضجت «علياء» وكأنها تدفع عنها تهمة:

«هذا الكلام إهانة موجهة لي، فلست من صنف النساء المكسورات عندما أفشل مع الرجل أتحطم، مازلت في شبابي وحيويتي ومواهبي، سأدخل مشاريع جديدة لأظهر كل ما فيّ من طاقة، أصبحت عاجزة، مشلولة يا أمي، البيت صار أشبه بالقبر يدفن كل ما فيّ من عنفوان، لقد تخطيت أزمتي العاطفية مع هاشم، وأستطيع الآن أن أهب من رقدتي وأنطلق من جديد كما تفعل فداء وهي تحصد النجاح تلو الآخر»

تثاقلت ثريا من حديث ابنتها:

«وهل زواجك يتعارض مع طموحك، بالعكس زوجك يقف أول المشجعين وأكثر المساندين وأقوى حليف في الحياة»

تنهدت بحسرة وهي تشعر أنها مازالت غير مفهومة:

«يا أمي الرجل عندما يعجز عن احتواء امرأته وإذابتها في كيانه والتغلغل إلى ذاتها تعجز وثيقة الزواج أن تصنع هذا السحر الغامض الذي يجعل الاثنين يتلاشيان في بعضهما ليسكنا في هدأة الانصهار كتوأمة روحية وتوليفة عقل وقلب»

ومضت تتحدث وكأنها تترمض على جمر العذاب:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«مازلت أشعر وكأني قلعة حصينة لم يعرف ذلك الفارس وجهتها وتاه بين حصونها، فبقيت في سكونها وخوفها موحشة، أشبه بأرض قاحلة نبتت عليها الحشائش والأشواك، مهجورة، تتعذب بصمت، اشتعلت في غربتها نار الوحدة واحترقت فإذا بها رماد، حطام، وهو في انجذابه يتسلق جدراني الشاهقة عاجزاً، فالمطمح بعيد، وأوهمه أني سعيدة وإذا بي كرة ثلج يحاول أن يوقد فيها فتيلاً فإذا بإخفاقاته المتكررة تذعن في حفر الهوة بيننا»

ثم سخرت بمرارة وهي تتابع:

«إنه أشبه بالطفل الذي يعبث بعود الثقاب فإذا به يحرق نفسه ويدمر كل شيء حوله، المسكين يحاول أن يسعدني، يوقظ فيّ امرأة، يلبي احتياجاتي المعيشية، وأنا أبعد باهتماماتي عن هذه الدائرة»

ثم التفتت إلى أمها قائلة:

«ليس هو ذلك النموذج الذي تتفتح له مساماتي وتستنفر لندائه أوصالي»

هدأت قليلاً وهي تنظر في ساعتها ضجرة:

«قصتي ليس لها نهاية يا أمي»

نهضت من فورها قائلة بامتعاض:

«أضطر الذهاب الآن فهو على وشك الوصول»

ربتت أمها على كتفها في محاولة منها لتسرية همها:

«من الحكمة أن تتصبري قليلاً مازلت أقول أن هناك فرصاً وخيارات يمكن ملاحظتها أو قد تستجد أشياء جديدة في الأفق، اتركي الأمر رهناً للوقت، فالزمن كفيل بحل الأمور المعقدة، وتبرئة الجروح وشفاء العلل المستعصية»

خرجت علياء وهي تترك هماً في قلب أمها، عادت ثريا لوحدتها تقلب في ذهنها الصور والمواقف المتعاقبة في حياتها تسبر غور النفوس وتتفحص كلمات ابنتها بدقة وتقيسها على بعض الحالات، ففي فترة ما ظنت أن ابنتها هدأت وركنت لزوجها وإذا بهذا الهدوء أشبه بالسراب أو جذوة تختبئ تحت رماد الضعف والمرض وما أن اشتعلت من جديد حتى تطاولت ألسنة اللهب سماء حياتها تريد أن تلتهم الأخضر واليابس ولن تدع هذا العش يحترق وتترك ابنتها غارقة في هذا الوهم وهي مكتوفة اليدين، رست أفكارها المتضاربة على فكرة حكيمة استخلصت منها حقيقة قد تنجح في رأب هذا الصدع وتنفع في استثارة عاطفة ابنتها الهامدة، اندفعت إلى الهاتف بحماسة من وثقت من نجاح التجربة واتصلت بمخلص تدعوه إلى لقاء سري وخاص بعيداً عن الأعين ؟

فيما فكرت ثريا؟

وما هو القرار الذي توصلت إليه؟

وكيف نجحت في خطتها هذه؟

الفصل (٣٨)

وداعاً أيها الشهم

جلس «فؤاد» في ركن منعزل يقرأ مقالة «فداء» فقد سئم هذا النزاع المستمر بين زوجتيه كلتاهما تشتكي غدر الأخرى، ضاق بهذا البيت المشحون بالصراخ والضجيج، فقد استطاعت ماجدة بدهائها أن تستثير «جميلة» وتشبعها تجريحاً وملامة حتى دفعتها إلى قرار الرحيل.

أتته «جميلة» باكية مستغيثة وقد خرجت عن طورها وبلغ بها العناء الذروة «قلت لك إنني لم أعد أطيق زوجتك هذه، أرجوك ابحث لي عن حل إنها تضايقني في جلستي الأسبوعية التي نتحدث فيها عن معاجز القرآن الكريم تعمل على رفع صوت المذياع أو تتحدث بالهاتف مقهقهة بشكل مزعج مما دفع بعضهن إلى التغيب وعندما أنادي الخادمة تشغلها عني، إنها تتفنن في مشاكستي، وفي كل مرة أستعد للذهاب مع السائق في مشوار خاص تسبقني إلى ذلك، لقد سئمت يا فؤاد لم أعد

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

أطيق ألاعيبها الخبيثة، تسرف في إيذائي وتذعن في إيلامي هذه الحمقاء المعتوهة جاءت لتعكر صفونا وتختلق أسباب الخصام، تريد أن تسيطر على البيت وتفرض قراراتها في غيابك وكنت أداريها تفادياً للمشاكل واتقاءً لشرها لكنها عمداً تسعى إلى استثارتي واستفزازي لدفعي خارج البيت»

اقتحمت ماجدة حديثهما والغضب ينقدح من عينيها:

«لأني أرفض الخطأ، أرفض شذوذ أخلاقها، هذه الدخيلة تمارس سلوكاً منافياً لآدابنا»

ارتج فؤاد وكأن صاعقة داهمته، وتابعت ماجدة افتراءاتها مشيرة إلى جميلة:

«قل لها هل يجوز في مجتمعنا مصادقة الرجال؟»

حدجتها جميلة بنظرة حارقة وودت لو نشبت مخالبها في عنق ماجدة فصرخت:

«أنا؟ أنا من أفعل ذلك؟ إنها ليست تهمة بل قذف محصنة تستحقين حيالها أعظم عقاب»

وهوت على الأريكة باكية منهارة.

وتسترسل ماجدة وهي تصب جام غضبها عليها:

«تستهين بعواقب فعلتها وتستذل كل الظروف من أجل تحقيق مآربها، في كل مرة أباغتها وهي تهمس إلى رجل تبثه

لواعجها وهذا السائق الذي اتهمتني بإشغاله وقت حاجتها له شاهد على لقاءاتها بهذا العشيق»

نهض فؤاد من مكانه كالملدوغ وهوى على خد ماجدة بصفعة قوية مهدداً:

«إن سمعتك تتفوهين بهذه الحماقات لن يكون مصيرك إلا الشارع»

انقدح من عينيها شرر كاللهب الحارق، يتطاير من شعاعهما الحقد والكره وإذا بصوتها سياط نارية لا ترحم، تزبد وترعد، تدفع الأشياء حولها وتقذفها بالهواء كنثار بعد أن تتحطم كما تحطم قلبها:

«ستدفع ثمن هذه الصفعة غالياً أيها البائس الأحمق»

استشاط غيظاً حتى لم تعد له القدرة على ضبط أعصابه فهوى على المقعد وهو يشير إليها مرتعداً:

«أنتِ عقدة عسيرة في حياتي، اغربي عن وجهي لا أطيقك»

ردت وهي تمعن في إيلامه:

«نعم فقد اعتدت الحياة مع عاهرات فرنسا»

تولاه اشمئزاز من كلماتها المستهجنة، ذهل لما رآه من تبدل سحنتها وتغضن في وجهها وهي تزمجر كذئبة مفترسة، تناول منفضة السجائر ليرميها، وإذا بها تهرب من أمامه تهرف بأبشع الشتائم.

فجأة استرعى انتباهه صوت الخادمة تأتيه بالهاتف، فزعة مذعورة:

«سيدي، سيدي والدتك على الهاتف»

ويأتيه صوت أمه المضطرب ينذر بخبر كالصاعقة.

«فؤاد!»

تسمّر في مكانه، جمدت الدماء في عروقه.

تتلاشى الكلمات من صوتها المستعبر وتختنق في وقفاته أنفاسها اللاهثة.

«توفي والدك»

لم يصدق ما سمع.

ذُهل، تحجرت مقلتاه وكأنهما عينا ميت.

وتستطرد الأم وفي حالة من الانهيار:

«عدت لأيقظه من النوم وجدته ميتاً في فراشه هذا الصباح»

وعندما لم يتمالك فؤاد أعصابه ترك السماعة تسقط من يده وهو يجهش في نوبة بكاء هستيرية.

انكبت عليه جميلة تحضنه، تقبل رأسه ملتاعة، باكية، تكفكف دمعه بينما أدبرت ماجدة كالمنتصرة وهي تردد متشفية.

«إن الله لا يضرب بعصا»

شعر فؤاد بانهيار معنوياته وبانحلال قواه وعماده، صار حطاماً لا يمتلك أدنى أسباب القوة، وهنت قدرته على التفكير فوقف يذرع الصالون في حيرة لا يدري ما يفعل وكيف يتصرف، تاهت الأفكار في رأسه لابد من موقف وإجراءات ينبغي اتخاذها في هذه المحنة وهو الآن عاجز، مشلول يكابد الحزن والجزع، تذكر ضمن ما تذكر أمه في وحدتها، ملتاعة في غربتها، تئن في عذابها جريحة فلابد أن يسافر ويتخذ كل السبل لإنقاذ الموقف وإعادة جثمان والده إلى الوطن.

صرخ فجأة كأنه مصعوق «جثمان؟!» هل تحوّل والدي الأسطورة إلى مجرد جثمان.

أسقط رأسه في حجره باكياً يتضوّر من الألم:

«أهكذا ترحل يا أبي، وكأن الزمن يخطفك على جواد الموت إلى نهاية أبدية، عشت أيامك ترحل من أرض إلى أرض، تحمل شموخك في حقائب مغلقة مستعداً في أية لحظة للفناء، منذ أن تفتحت عيناي عليك وأنا في انبهار لا يفتر، نهم إلى اكتشاف أغوارك، كأن مارد الموت يقف على يمينك يتابع سيرك منتظراً، يجس نبضك، يحصي أنفاسك ويغتنم غفلتك ليحصدك كما يحصد الخريف الزهور والسنابل، آه يا أبي كنت أرسم لك لوحة «الحصاد» كأن لريشتي المتشائمة حدساً مذهلاً، جاءت تلملم نثار سنينك في إطار بديع، مازال اللون الأبيض يكتسح الخطوط حتى نهايات الاكتمال، وإذا بهذا البياض كفنك هل

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ودعت حياتك بابتسامة الاستعلاء المهيبة؟ أم لفظت روحك بشهقة مرة ظلت في قلبك غامضة عجز فضولي عن استدلال مكامنها.

«فؤاد.. فؤاد»

صاحت به جميلة الجالسة بقربه تمسّد شعره بحنان واقترحت.

«اتصل بالأهل والأقرباء، لابد أن يعلم الجميع بنبأ الوفاة»

والصديق هو من يقف مع صديقه في وقت الشدة، اتصل «فؤاد» بعماد نعى له تلك الفاجعة التي سرعان ما شاعت بالبلد وكأن بيرقاً خفاقاً قد انتكس وتحوّل إلى خرقة بالية منسية مع العدم.

استعد فؤاد للسفر وقد لازمه عماد طيلة أيام محنته وحلّ محله في مراقبة شؤونه الخاصة، وناب عنه في متابعة إجراءات الدفن وتجهيز مراسيم الجنازة.

غاضت السعادة، وفاض الحزن في هذا البيت المنكوب وأدركتهم مصائب متلاحقة تواطأت مع غياب هذا الكهل.

كانت في الجانب الآخر «ثريا» تقف مشدوهة، مذعورة، تتذكر لقاءهما الأخير وقد فجّر مكامن حبه وأسرار حياته، في كلماته أنين وشجن وكأنه يعزف أنشودة وداع تظهر كل ما في روحه من عذاب، وحدها من ظلت في قلبه قديسة تبتهل لذكرها كل نبضاته الحيّة.

انهمرت دموعها، كل كلمة نقشت في ذاكرتها عاطفة خاصة لها سطوة القدر النابت في العظم وخواطرها تترى بضروب من المفارقات العجيبة والتقاطعات المفاجئة حيث ترغمنا السنون على اتخاذ موقف الحياد درءاً للمشاكل، ابنتها أحبت هذا الرجل وقلبه منصرف عنها إلى أمها وعاشت المرأتان «الابنة والأم» في صراع محوره هذا الرجل تلك بقوة جاذبة وهذه بقوة طاردة فخرج المسكين من دنياه وقد كفن حلمه وختم على حبه الأزلي بالشمع الأحمر.

أيام ووصل «الجثمان» ودفن في أرض الوطن كانت تشيعه تظاهرة حزن حاشدة بالسواد، وقف المحبون خلفه يستنطقون بعضهم بعضاً.

هل تستطيع الأقدار أن تقتص من الجبال الشامخة وتغتال الأشجار الباسقة فما كان هذا الرجل إلا فارساً انتحل شخصية عصرية في زمن العولمة، ثم عاد إلى بطون التاريخ بعد أن طهر القلوب بعذب صفاته وخيلاء نفسه المتورعة عن سفاسف الدنيا، ترتج الأرض تحت وطأة عزمه وإصراره، شاكل ثريا وكان لها توأمة ظلت تعاني اليتم والحرمان زمناً وبقي وجهه سمتاً زاهراً بالرواء حتى كان مثار حسد الرجال لفرط حيوية كوّنت فيه جموحاً غائياً ظل تواقاً إلى الحلم الأبعد... فماذا حدث له؟

«السكتة القلبية» المفاجئة أودت بحياته، هكذا حدثتهم «هند» وهي أشبه بشبح كئيب تجلس متلفعة بالسواد، وهنت منها القوة

فتحولت إلى عجوز جدباء لا روح فيها ولا حياة، فقدت صوتها وكأن فقده أشبه بالسيف يقطع فيها كل شرايين الحياة تحجرت مقلتاها ونضبت منها الدموع إلا نشيج وهمهمة تنبعث من حنجرة منهوكة استنزفت طاقتها لا يسمع منها سوى حسيس أنفاسها المخنوقة تصعد في صدرها وتهبط في عناء.

يصرخ فيها فؤاد وقد استبد به القلق:

«ابكي يا أمي، أطلقي دمعك، إنك لتعذبيني بهذا الصمت»

لطمت على وجهها وصرخة مزقت أحشاءها، وأخرجت كل ما فيها من عذاب وإذا بكلماتها الشجية تنساب مع مجرى انفعالها:

«كم كان حنوناً هذه المرة، كم كان طيباً، ليته بقي لي بصورته القاسية بغموضه، بصلابته، رحل عني بعد أن ذراني رماداً، لماذا يارب جئت به في الوقت الضائع ملاكاً حارساً يقطع وصل الحياة بمقراض الموت فيتركني في ذروة الشوق أمور، لاطفني قبل رقدته الأخيرة ووثق بدمعته السخيّة تاريخه لفظ ذوب روحه، «أنت الأغلى في حياتي» وطفر رذاذ دمعه فوق خدي لينهمر بعاطفة طفل صغير يلوذ بأمه، استشعرت بدفئه لأول مرة، بانتمائه، بتلاحمنا معاً في وطن واحد بعد سنين الغربة والضياع وأنا أبحث عنه تبعدني مسافات الاغتراب وتناقضات الطبيعة.

أطلقت تنهيدة محرورة من أعماق ملتهبة.

«لقد حف بي الشقاء من كل جانب يا فؤاد، كيف سأعيش بعده، كيف ستكون أيامي دونه، أنا ضائعة، تائهة، شريدة، إنني أتحرق على نار وأود لو أموت حتى ألحق به»

احتضنها فؤاد، يقبّلها:

«أنا معك يا أمي، أنا ابنك وزوجك وأبوك، لا تقطّعي قلبي أرجوك سأحمل عنك كل هذا الهم والضنك»

ويتعانقان، يبكيان، يتذكران الماضي تحت مظلة الغياب الموحش فينكفئان في صمت.

بينما تجلس هناك امرأة: تزدان طلتها الشاحبة بوشاح أسود تجلس عند قبر هاشم بعد أن انفض عنه الجمع، تقرأ في حضرة روحه الفاتحة وتردد في خفوت حزين تراتيل العزاء بنشيج ذوب أركانها فلم تقوَ على النهوض فتكومت بقدها النحيل قرب القبر تدعو له بروح نكأ قيحها ذكرى ولت، يتدفق في خاطرها عذب شمائله، وزلال أوصافه نبع من الشهامة الذكورية جفت في هذا الزمن وصارت النفس الأبية تتوارى فيه خشية أن تقتنص في وحشية العالم الرخيص.

أطلقت لناظريها العنان تحدق في الأفق البعيد، تجذبها أجراس ملائكية في فضاء لا متناهي، فتعتصرها وحشة الغروب متواطئة مع غيابه المقفر، فقد كان قرص الشمس يدبر

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بانكسار في كبد السماء وهي تذعن في رسم مأتمه الحزين، وأنينها المحرور يشتد كلما استحضرت وقفاته النبيلة، حبه الصادق وصدها المترفع، كلمات مبعثرة جاءت مع السنين أصداء حياة بعثت في قلبها يقظة جديدة استهوت هذه الحالة كأرض قاحلة شربت رذاذ مطر فاهتزت وربت وأنبتت في تجاويفها الناضبة خضرة ندية، أحبته في حالة مستثناة عن كل الصيغ المتعارف عليها بين المحبين، تركته يغوص إلى الداخل ويعبث في حرية مع حسيس نبضاتها مستحكمة في مخارج عاطفتها، منقبضة خشية أن يتسرب هذا السر مع أنفاسها وشذرات دموعها ولفتاتها فأقفلت في حرص على خزانة قلبها متشحة بالزهد درءاً لمواقف سيئة العواقب وناجته مستعبرة: «وقفتك يا هاشم أحسبها نذور مقدسة لها استحقاقات في زمن رحيلك، سأزورك كل خميس لأضع على قبرك زهوراً بيضاء كنقاء قلبك الذي طالما سبّح لله غفراناً وعرفاناً، هذا النبل الذي فاض فيك حتى غرسته في أحداقي جميلاً وزرعته في عنقي ديناً أستحضره كل ليلة فأدعو لك بالرحمة والمغفرة، نم في قبرك قرير العين واسترح في رياض جنانك لطالما كنت في قلبك أمنية معذبة تشقيك في محطات رحيلك وأنت تبحث عني بعطش، بحرمان، فسامحني، سامحني، لم أمتلك قراري بعد عصف الأحداث، أعرف كم كانت لي قدسية في ذاتك وأنني كنت الوجه الأخير الذي سجدت عليه دموعك الغالية قبل رقدتك الأخيرة»

ثم شدت نفساً عميقاً واستوت في جلستها وكأنها توثق حقيقة بإقرار مصيري منزوع من الباطن:

«أنت من كنت توأم روحي، وأمنيتي المستحيلة، عشنا غرباء، لم نلتق إلا على المفارق مصادفة بعد سنين الغياب وعشنا في شقاء نحمل خساراتنا ووزر فراقنا القدر، اسكن قبرك الآن وكأنه حديقة ورد في انتظار لقائنا الأبدي، سأظل أذكرك في دعائي وصلاتي وسآتيك يوماً مهما طال الزمان أو قصر فأنت فارس عمري أتاني على صهوة الشوق في زمن غيّب المثاليات والقيم. فوداعاً وداعاً أيها الشهم، سيبقى موقفك النبيل أمانة في عنقي إلى يوم القيامة شفاعة لك عند الله كي يفرّج كربك»

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (٣٩)

نقطة تحوّل

كثيراً ما كان يتردد عليها في المكتب يحمل ذاته المعذبة طعماً لورقها المتعطش يستكين في جلستها ويتحول إلى كائن مرن يتشكل بمزاجية قلمها، يستريح في فضاء أنفاسها والرغبة الملحة تدك بإصرار في حصونها المنيعة فقد تسربلت برهبانية فكريّة كانت ساتراً لدوافعها الخفيّة، عيناها كانتا بركتان من المشاعر تداريها بخجل، تقمع شوقها في أحداث رواياتها فلا تسمح لهذا المارد المختبئ بين الضلوع أن يشق طريقه إلى الفضاء ويعربد بنزق طائش فما في جنباتها إحساس يتمخض عن ارتياح أخذ مع المجاذبات اليومية ينسج حولهما شرنقة كونت لهما حياة منعشة فكلما اقتربت المسافات توحدا في فكرة وتوغلت حاسة الاحتياج في المنابت، حاولت أن تخرج من هذا المأزق لكن قوتها تتلاشى في العدم، ارتبكت في مواقفها وافتعلت أقوالها وأحس أكثر من مرة أن الإرهاق بلغ بها الذروة شاء أن يهدئ من روعها.

«واجهي نفسك، أوتظنين أن الهروب هو طريق الخلاص؟»

تعبث بالقلم المتذبذب بين أصابعها المرتعشة:

«قلت لك أن أمي ترفض هذه الزيجة»

لم يبد عليه أي انفعال:

«أظن أن عماد فشل في مهمة إقناعها»

أطرقت بحزن:

«لقد ضجت أمي صارخة، عنفتني بشدة»

انتبه إلى عينيها المحتقنتين وقد فاض فيهما الحزن.

«لم أكن أدرك أن لي هذه المكانة في قلبك»

لمعت الدموع من وراء أهدابها:

«والآن هل تحققت؟».

«يبدو أنك استمرأت هذا الحلم حتى وإن كان وهماً وعندما أيقظتك صفعة الواقع تراجعت محبطة»

مسحت طرفها:

«كأنك تقرأ أفكاري»

«حروفك دائماً تشي بباطنك وإن حاولت التحدث بطريقة موارية»

«إذن دعنا من هذا التماس، أخشى أن تنقدح شرارة مفاجئة تحرقنا معاً»

تشنج وجهها وكأنها تعتصر الكلمات من جوفها:

«نبقى أخوين»

امتعض:

«أخوان؟!»

اشتد غيظه:

«منذ متى وأنا أتعذب في هذا الانتظار وقد دخلت البيت من الباب ورُفضت»

«يقلقني هذا القرار، أخشى أن ينقلب ضدي، لا تنس أنني سأكون الثالثة في قافلة نسائك»

«لا تقلقي سأتحدث إلى أمك، وتعرفين أين محلك في قلبي»

قاطعته:

«لا أرجوك دعنا ننسى الأمر، أعرف أمي وأدرك أنها حاسمة في قرارتها»

«إذن ما هو الحل؟»

قالت وكأنها تتهمه:

«ارتباطي بك مخاطرة لا تُحمد عقباها»

«سأطلّق ماجدة، وجميلة ستقطع حياتها جيئة وذهاباً بين بيتها هنا وبيتها في باريس ولو لم آكن رباناً متمكناً لما أقدمت على هذه الخطوة»

فكرت ملياً وهي تنصت إليه ثم استطردت.

«أرجوك فلنقف عند هذا الحد»

قطع حديثهما أحد العاملين وهو يقدم ورقة لفداء:

«هذا الفاكس قد وصل تواً»

بانشداه:

«يخصني؟»

«يبدو كذلك»

قرأته بانقباض.

صاح فؤاد:

«ما بك؟ ماذا كُتب في هذا الفاكس؟»

وضعته أمامه مغتاظة:

«اقرأ»

«الكاتبة الصحافية فداء»

«احذري الخوض في هذه القضية وإلا مصيرك القتل»

التفت إليها محدقاً في قلق:

«أية قضية يقصدون؟»

قالت:

«منذ فترة كنت أكتب سلسلة مقالات تتناول الإرهاب والمجازر الجماعية التي تُسفك باسم الإسلام، وقد كنت أقدم معلومات ووثائق تثبت أن هؤلاء الفتية المفخخين ما هم إلا أدوات سهلة رخيصة تعرضت لتنويم مغناطيسي وغسيل دماغ من قبل الرؤوس الكبيرة التي حتماً وراءها مافيا يهودية وسمسرة تُحاك في العتمة، كنت أنبه الشباب الصغار الذين يظنون أن هذا هو ثمن الجنة وفي الواقع تكون قياداتهم قد قبضت قبلهم شيكات ضخمة موقعة بدم الأبرياء، فمنذ سقوط الطاغية صدام وحوادث القتل في كل زاوية وشبر من أرض العراق أطفال أبرياء ونسوة يدفعن ثمن هذه المؤامرة الدنيئة على الإسلام والمسلمين، وقد استشرت بشكل كبير ومخيف حتى بتنا نعتقد أنها جاءت لتثأر لصدام الذي كان الممول الرئيسي لهذه الحركات المستترة بمصطلحات الجهاد والدعوة.

عبّرت تقاطيع فؤاد الجامدة عن خوف وقلق فتساءل:

«ألا تخشين هذه المخاطرة؟»

«لو أن كل واحد منا تحصّن بالخوف ولاذ بجحره كالفأر لماتت الحقيقة وذبحت على أرصفة الظلم والضلال»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بصوت يقطر ألماً:

«دعيني أحميك، بت أخشى عليك، أحببتك أكثر»

«أعرف كم سيكون هذا الطريق شائكاً، إنها ليست المرة الأولى»

«ولكنهم سينفذون تهديدهم»

«مجرد تهديد، وهل تظن بعد هذه الحوادث الأخيرة وسقوطهم في براثن قوى الأمن لهم القدرة والشجاعة على النهوض من جديد؟»

تساءل فؤاد في حيرة:

«ماذا يريدون؟»

«حب السيطرة والحكم، إنه فكر تكفيري جامد يسعى إلى إلغاء الطرف الآخر بوحشية مطلقة فمن يفكر في تطبيق الشريعة لابد أن يفهم أصولها وقواعدها، فمعظم هؤلاء الشباب لو بحثت في هويتهم وجذورهم لوجدت فيهم كل معاني الضياع والإحباط والفشل كانوا طعماً سهلاً لقوى شريرة غامضة تعمل في الظلام كالخفافيش تسمع أسماءهم عبر الفضائيات ولا ترى لهم وجهاً، وربما انتحلوا أسماء وهمية لحماية أنفسهم والتستر على مخططاتهم التدميرية جعلوا من الفتية الصغار ألغاماً تعبد لهم الطريق كي يحققوا أهدافهم، هؤلاء تركوا

الحوار الحضاري المبني على العقل والإقناع والانفتاح الثقافي وتشبثوا بفكر الغاب»

صمتا، ثم شق فؤاد وسط هذا الصمت فكرة مثيرة:

دعينا من هذا الموضوع، الآن أصرّ على الزواج منك لأقف حامياً لك، فكرت أن نتزوج سراً.

تغضن وجهها غضباً فلم تتفوه بكلمة.

وتابع رغم إعراضها:

«أصرّ الآن على حمايتك، إن لم يكن عن طريق الإشهار فهذه الطريقة تخولني لوضع حد لهؤلاء، فكري ملياً بهذا العرض؟»

هدأت والحيرة توقد فيها ضروباً شتى من الانفعالات.

وقبل أن ينصرف قال:

«ابعثي لي رسالة هاتفية لأطمئن عليك دائماً عند خروجك لأي مكان وسأعمل على توصيلك بنفسي لاحقاً»

ترك غيابه حيرة في نفسها، فغرقت في لجة الأفكار تنهبها الوساوس وتتنازعها الشكوك، مدركة أنها محاصرة به دون أن يلزمها بطقوس هذا الحصار، فمنذ أن كتبت قصته وهي تعيشه قدراً يحتم عليها معايشته كيوميات تحمل كل صنوف المرارة والحلاوة حتى كاد أن ينصهر في أنفاسها ويتردد مع خلجاتها يحتويها بنضج إحساسه وتفهمه الانسيابي لضرورات الإبداع

فيها، يتناغم مع إلهامها الواعي بشكل متنام مع فصول روايتها وإحساسها به يكبر وانفعالها يتعقل حتى أدركت أنها تقف معه موقفاً مصيرياً ويجدر بها أن ترسم معه طريقاً موحداً ليزرعا فيه كل مهاراتهما وفنونهما وجنونهما وحالاتهما الإبداعية من واقع تلك المشكلة والتوافق بين مزاجيهما، وبقي هاجس ثريا المخيف يتعمق فيها ويقحم نفسه في قراراتها، مازالت تتذكر عينيها اليقظتين لكل دبيب وحسيس داخل البيت فيهما دفء الحنان وفيها تلك الرقابة المشددة، أمها لم تعرف في حياتها الوسطية أبداً، تركت أنصاف الحلول، المساومات، المهادنات، لها تلك القوة الاستثنائية التي تخترق المجهول فتكشفه بوضوح.. وعندما تقرر، تستشرف برادارها الصائب ما ورائيات الأشياء وخلفيات الأمور، تخشى الاختباء بصمتها فتأتي سقطاتها أفواه نمامة تشي عن دون قصد سرها.

في عرضه السخي ارتجال محبب إلى نفسها الزاهدة، المنصرفة دوماً عن المباذل في حداد دائم، بثوبها المتبتل الأسود الذي جعل منها جرماً محنط الأنوثة يؤجل إحساسه لزمن غامض، يأتيها ذلك الفنان الجريء مقتحماً جدرانها الصماء ويستوطنها بكل إصرار، ولا تعرف كيف تمنطق هذا الإحساس وتحدده بمعادلة عقلية مقنعة، حضوره الباذخ في روايتها يصبغ كلماتها حيوية ويوقد في قلمها فتيل حياة، عندما يجلسان معاً تشعر أن في مدارهما جاذبية ممغنطة تشدهما لبعض في

عصف ذهني مشترك، حوارهما متأجج حماسة، فلسانه يلهج إبداعاً، وكأن تماسها الكهربائي يضيء في كيانه خلايا منطفئة، إشعاعها المتساقط كنعاس يخدّر عصبه فتفرّ الحكايات المختبئة من جوفه إلى فضائها عصافير فاضحة لمكنونه فيقرع ذاته لائماً:

«لمَ قلت؟ لمَ فعلت؟ لمَ اعترفت لها؟»

«كأن هذه الفتاة تخضعني لتنويم مغناطيسي يدفعني لاجترار الأسرار الدفينة دون وعي مني»

وعندما يفكر على هوادة، وتهدأ فورة الانفعال يدرك أنها هي حلمه الأوحد والأمنية التي ظلت بالنسبة له هروباً جاذباً استفز فيه كل الشغف فاستنفر طاقة إبداعه كفنان.

وعادت تبسط هذا العرض على واقعها ومن خلال التحامها اليومي مع أمها بقوتها المؤثرة وسطوة قراراتها.

«قد كان لأمي زهد شاخ فيها وحولها إلى نموذج شذ عن الناس، هي بصمة فريدة من نوعها وقد أكون لها امتداداً لكنها لن تتكرر، أجد مشقة في استنكار ذاتي وهويتي وبصمتي، إنها مؤتلفة مع نهجها، منسجمة في هذا الزهد، والزمن يفرض علينا واقعاً متقلباً يقتضي منا المرونة في تعاملنا مع الناس والأحداث، فقد أثقل عليّ هذا الصراع وحوّل عاطفتي إلى موج متلاطم، هل أفر منه إلى رجل آخر محكومة وإياه بوثيقة زواج

قد تفشل في ترويض مشاعري وفقاً لانضباط قوانينها، وأنا صوت قلم مرهف تنخفض نبراته وتعلو بمقتضى المنغصات والمسرات فعذراً أمي، عذراً ثريا، دعيني أقر برغم القلق والخوف بعيداً عن مرفأ حبك الآمن، هناك في وسط البحر سأحرق جميع مراكبي وأكتشف ذاتي بعمق دعيني أختزل سنين عذابك بعملية فدائية ترهن شظاياها عبرات لزمن النكبات»

تنفست فداء الصعداء بعد أن استراحت لهذا القرار، إنها تتخطى الربيع منتظرة على رصيف الحياة، ينهمر منها الرواء تلفاً، تسحقه الأيام، وثمارها تجف وتذوي ورؤاها عقائد محكوم عليها بالإعدام فلتبن مع هذا الرجل فارس قصتها دفتي كتاب يتصفحان وريقاته مع الأيام حتى النهاية، مازالت تخلق منه حكاية في هذا الزمن المعطوب بكل تناقضاته، فيه شموخ الزمان وانكساراته فيه الغياب الجارح والحضور المبهج، ستعتصم في ساحة الوغى لوحدها رابضة بقامتها الذهبية عندما يصدأ الآخرون وينكسر غيرهم تبقى هي مقاومة.

همت بالهاتف لتتصل به وكان قراراً أشبه بسيف تقطع به الحقيقة رأس التردد.

بصوت يختلج:

«فؤاد.. أنا موافقة»

الفصل ([illegible])

الممرضة الشقراء

حاولت «علياء» أن تتمالك أعصابها فلا ترخي العنان لغيرتها الشديدة التي أوقعتها في مشاكل مع زوجها، فمنذ فترة و«مخلص» أشبه بالنجم الساطع يشار له بالبنان، بعد اللقاء الأخير الذي استضافه برنامج صحتك والعملية الجراحية الناجحة التي كتبت عنها الصحف وعيون المعجبات تلاحقه، التقته المذيعة الحسناء لتكشف للناس أسرار نجاحه والزوايا المعتمة في حياته الشخصية، طبيب ذاع صيته وبلغت شهرته الآفاق.

رسائل إعجاب وودٌ تنهال عليه من كل مكان تستثيرها نجوميته، وإبهار عبقريته، «وما قصة الممرضة الشقراء التي تلازمك كظلك وأجدك تواقاً لمخاطبتها ليلاً نهاراً؟»

عنفته «علياء» وهو يقف يحلق ذقنه في الحمام استعداداً للخروج.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ببرود:

«ممرضة جديدة ماهرة في العمل»

اغتاظت:

«لا يعجبني سلوكها، تتغنج عندما تحدثك في الهاتف»

ابتسم في استرخاء من يستمرئ إغاظتها:

«لا أدري لِمَ كل هذا التدخل السافر في عملي؟»

ارتدى ثيابه وعجّل في الخروج، لم يعد مخلص ذلك الكيان الباهت الذي لا يسترعي الانتباه إنه الآن يتحرك ضمن إطار برّاق متخذاً وضعاً قيادياً في الحياة قام بعملية استئصال الكلية لرجل كان على شفير الموت وزرع أخرى في وقت حرج ووضع كان أشبه بالمخاطرة جعله مثار إعجاب طاقم المشفى بأكمله وقد كرّمه وزير الصحة في احتفالية رائعة ضمّت الطبقة الحاكمة للبلد، فالمريض هو أحد الوزراء الذين كان مجرد تسفيره خارج البلد أمراً مرهقاً لصحته، وقد كانت مغامرة مخلص تحدياً لقوانين الطب التي عجزت عن توفير أسباب أمل شفائه، فهذه المشارط تحتاج إلى أصابع عبقرية وعقلية لا تستنزف نفسها في روتين الحياة، إنما برمجت لغاية واحدة ومهمة صعبة وأي طور آخر معناه تسفيه لقدراتها وتشتيت لجهودها فعرفوا أن خلف قناع هذا الرجل الصامت تسكن ذاتٌ خلاّقة أدركت أنها غير قادرة على افتعال المعايشة اليومية بشكل يرضي الآخرين.

استهجنت «علياء» نفسها وهي ترزح تحت هيمنة الغيرة وهوان إهماله يستذلها بكبرياء من لا يدرك أنه يوقد جمرة تحت رماد برودها.

لِمَ تلاحقه الآن وهي التي خططت للطلاق؟ لِمَ نزهد بالشيء عندما يكون ملء يدينا ونتضور ولعاً عندما يتعذر نيله، فعيون النساء حوّله سلطت عليه أضواء من السحر ألهب فيها عاطفة كامنة، نوع من الغيرة الناهشة في القلب حركت مياهها الراكدة وأرغمتها على متابعته في قلق وخوف خشية أن تستحوذ عليه امرأة أخرى، هالة الشهرة لها من الرونق ما يكل العين عن استبصار العيوب المعتادة وكأن الإنسان يتكون من جديد وبهوية جذابة فإذا الذي كان بين كفينا تراب صار أشبه بالسراب الذي نتعطش له دون أن ندركه... فهذا البائس ينتفض فجأة ويبدد عنه غبرة الرقود ويشتد عوده لينضح قوة وإبهاراً، يهيمن عليها ذلك الشعور الجديد ناحيته رغبة مشتعلة، إرادة قوية في استرداده لكنها تكابر كأنها الملكة التي أوقعها الغرام في حب عبد من عبيدها، التجاذبات اليومية لم تكن بمستوى حلمها وتوقها، تلك الإثارة المعتقلة في موات الحياة فكت أغلال أسرها الموغلة في سكون كئيب، وهذه الارتعاشات في أطرافها المشلولة قد أيقظت فيها حميمية مدهشة، اليوم في وقفتها المفاجئة تحاول ملامسته وافتعال مشاهد الالتصاق التي تنفس مشاعرها المكبوتة، فمساماتها الناضبة قد اخضرت بأحاسيس

نديّة بدلت ذلك الانكماش البغيض فيها، إنها اليوم أكثر طراوة وأغزر في النعومة تتهدت وهي تقف أمام المرآة تمشط شعرها الطويل وتبتسم بإشراقة متألقة كالفجر ونشوة غامرة كالدفق الزلال يخترق شقوقها المتعطشة.

هذه الكهرباء أضاءت ليل وحشتها، انجلت غبرة الحزن عن ذلك القلب الكسيف، يأتيها خصباً كفاكهة المواسم، تغمره بعاطفة كالمطر، يتجاذبان في منازلة شوق عاصفة حولت ركودهما الطويل إلى غربال محموم.

هل كانت تبحث عن مخلص في عيون النساء؟! استثرن فيها مكامن الحب، هن من رسمن له قدراً جديداً فاستعذبت فيه تلك الصورة البراقة.

ما هذا الجنون يا امرأة؟ ماذا حدث لك؟ ألا تخشين يوماً أن تطارده إحداهن حتى الأسر، كلهن سراب إلا تلك الشقراء الفاتنة التي جاءت من شرق أوروبا بهوية ممرضة ارتابت من انسيابها اللين بين أنفاسه ليل نهار، تلك الأيقونة الملتهبة أيقظت فيه دافعاً وحيوية فالتفت إلى نفسه باهتمام بالغ في هندامه وعطره.

نهشتها الغيرة إلى حد فقدت الحكمة والتروي فأوغرت صدرها بهواجس مجنونة أضرمت في عشها النار فإذا بمقلتيها جمرتان من اللهب.

يتندر «مخلص» في سرِّه:

«عيناك الساكنتان كانتا ميتتين أنفر من مرآهما والآن تسخن مشاعرك إلى حد الجنون»

تصرخ:

«ما بك تحدق بي ساهماً»

ابتسم:

«ما أجملك وأنت مشتعلة بنيران الحب»

باستنكار ترد وكأنها تدفع عنها تهمة.

«أنا؟ أنت واهم»

تركها إلى عيادته.

صاحت كالملدوغة:

«ذاهب إليها أليس كذلك؟»

هز رأسه بالإيجاب.

هل كانت تحتاج إلى صعقة كي تتنبه؟ أم هي تلك المصادفات يفاجئنا بها الزمن كفيلة بانقلاب مشاعرنا بشكل مغاير، فنحن لا نستطيع السيطرة على اتجاه الريح ولكن نستطيع تغيير أشرعتنا، من داخلنا نصنع المعجزات، لم يكن مخلص باهتاً إلا في عينيها، في وسم إدراكها المحدود في نبضها الموجه إلى رجل آخر، استسلمت للقدر بعد أن رحل عن دنيا خيالاتها وإذا

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بالأسطورة تموت وهذا القوي يُقهر ولم يبق أمامها إلا الرجل الحي يعيشها بالثواني واللحظات، متحيّناً الفرصة التي ترفعه إلى حيز قلبها الشاغر، قد كانت تشوه ملامحه بعين خيالها وهماً لاستبعاده عن ذهنها المشوش، الرؤية السلبية داخل نفسها قد تبدلت إلى منظار مشع يسقط نوره على كل جزء فيضيئه في أحداقها فلم تعد ترى فيه إلا مفخرة واعتزازاً، الكائن المسخ الذي شاءت أن تراه زمناً هو في عقيدتها الآن رجل يخترق قلعتها الصامتة ويمزق أغلال قيدها ويطويها بذراعيه ولأول مرة تلمحه قمراً فتغتسل بضوئه طهراً وإذا بالماضي يسقط خلفها تذروه رياح النسيان وتطويه في كنفها الأيام، وبقيت هذه الشقراء حالة معلقة بين حلمها ويقظتها تشهر في كل مساء مخالب غيظها وأنياب غيرتها كمرة مثيرة يستلذ عذابها، ويستمرئ غضبتها فتشتعل الجذوة وتنتفض الشطآن الساكنة ليغرقا في أتون الصخب.

وتكتشف في يقظة محمومة أن وطنها بين خفقات قلبه وعلى جنبات روحه تستقر، تستميله مجدداً بشوقها المتحفز وولعها الفائر.

نسيت الطلاق، نسيت مرارة ضجعة مفتعلة، نسيت أنه كان أسوأ رجل، وإذا به في انعكاسات ذاتها الجديدة شخص عميق في صفاته، لطيف في شمائله، كامل في أوصافه متوازن في معاملاته، هو الظل الآمن الذي تتفيؤه بأمان وسكون.

فخرجت «علياء» من شرنقتها الذاتية إلى الزمن الجديد بشخصية مختلفة تضع أقدامها على أعتاب صلبة واضحة الهدف متصالحة مع نفسها، هادئة، تترقب ولادتها بشغف، تتهيأ بكامل جوارحها لصرخة طفل ترسم لحياتها مسرات جديدة.

عاش هذا البيت مستقراً بعد أن نبض قلبه حياة وحيوية وكشفت أستار الصمت عن إشكالية وضعتهما في سوء فهم ومفارقات سلبية سرعان ما تداركها الطرفان لتقويض التصدعات.

ما أكرم القدر حينما يقدم لنا بكفه السخي هدية تلك المصادفات القهرية التي تحوّل أشرعتنا في اتجاه النجاة بعد أن كنا قد غرقنا في اليأس والعدم.

حبهما تحوّل إلى خارطة جغرافية تأخذهما في انسياب مريح بين المرتفعات والمنخفضات، في مرات عدة تتراكم كثبان الحزن على حياتهما لكن سرعان ما تأتي رياح الأيام لتبددها وإذا بالأجواء صافية هادئة.

تركت الممرضة الشقراء عملها بعد أن تزوجها أحد الأطباء في المستشفى، فقد أدركت «علياء» أن مخلص ليس بذلك الرجل الضعيف الذي تفتنه المرأة فيفقد رزانته، عندما فارقته الممرضة دامعة العينين قالت لزوجته: «لم أر في حياتي أفضل من هذا

الرجل كياسة وخُلُقاً فيه من الأدب ما تتورع النفس عن خدش هذه الشفافية النابتة فيه»

فهمته علياء واستوعبته عندما تخلصت من عوائق ذاتها والصد النافر الذي اختلقته في نفسها زمناً وهي ترزخ تحت هيمنة رجل ظنته حلم حياتها... إنه يتجاهل انقلاباتها المفاجئة، يتعالى على صغائر سقطاتها، إنه يكبر فوق توافه الأمور، يمتص في صمته المتأدب حممها ويحولها إلى رصيد حب يكبر في قلبها يوماً بعد آخر، انصاعت له وذوبت أعصابها في نفسه الكبيرة كي تستريح في كنفه.

أتت ذات يوم إلى أمها تحمل على يديها طفلتها الصغيرة تشتكي:

«أشك أن في حياته امرأة أخرى»

قالت الأم في دعابة:

«إذن اطلبي الطلاق»

جحظت عيناها دهشة:

«الآن؟ بعد أن أصبح مدير مستشفى يُشار له بالبنان، مستحيل»

وبتخابث تسأل ثريا:

«وماذا ستفعلين؟»

في قلق يفضح حبها الثائر:

«لا أدري يا أمي فهو كثير الغياب والشرود؟»

تربت «ثريا» على كتف ابنتها وهي واثقة أن مخلصاً زوج مستقيم:

«عليك بمضاعفة الجرعات فربما شغلتك عنه الطفلة»

حدقت بأمها متسائلة عن المغزى.

أوضحت الأم:

«جرعات الحب!»

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (٤١)

بلا أجنحــة

اتخذ فؤاد من إحدى شققه البعيدة عن العاصمة مستقراً لعشه الجديد، فقد كان يلتقي «فداء» في ساعات محدودة من النهار ثم يفترقان، وقد وطَّن نفسه على الاكتفاء بحدود معينة من هذه الرابطة المقدسة، وعملت فداء على تجهيز المكان بكل لوازم المعيشة الضرورية ورتبت المقاعد بشكل يسمح للجلوس عليها في أوقات لقائهما وبدت سعيدة بهذا المقدار، هانئة بهذه الألفة الشفافة فقد شعرت أخيراً أن لها بيتاً ومستقراً مع الرجل الذي عاشته فكرة نابضة في روحها سنوات، سال مع حبرها المخضب بحرارة إيمانها وفي كل مرة تعمل على تغذية هذا المكان بأسباب الحياة، أطباق الشاي، ركوة القهوة، بعض البسكويت، وصنف من الفواكه، حياة مثيرة جلبت لها كل صنوف الراحة والاطمئنان، فقد سرها ذلك النعيم وأفعم قلبها بهجة، إذ لازمها «فؤاد» كظلها، يناغيها بحنان، يناجيها بحب ولأول مرة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تقف بين يديه منتشية برحيق السعادة، يبرق في عينيها ذلك الوميض الخفاق، تهمس في هدأة القرب الحميم أنفاسها في أنفاسه.

«ما ندمت في حياتي ندمي على خواء سنين عمري دونك»

ويناجيها همساً:

«سأعوضك عن هذه السنين»

اختلجت أهدابها وإذا بنظراتها الهائمة تسبح في عينيه وبرقة تهتف:

«مازال في عينيك ذلك الاستجداء والابتهال وكأنهما يغوصان في المستحيل رغم أني قربك»

افترت عن ثغره ابتسامة راضية:

«مازلت غير مصدق أنك صرت لي زوجة»

وعاشا أياماً مضيئة يتسربلان بعاطفة متبادلة تجيش بأمنيات وتعتمل برجاء وتتمخض عن صور مدهشة وألوان من العطاء يسبحان في مدار واحد كنجمتي الليل المسهدتين تتناجيان عشقاً وهياماً يحلقان في أفق الأمل وكأنهما في كوكب بعيد عن الأرض، مندهش بعد سنين الاغتراب كيف استطاعت هذه المرأة أن تخلق من حياته جسراً معبداً إلى أروع الآفاق، ما هذا التأثير الذي أحدثته في قلبه، حينما غذت شعوره بالعزة والثقة، فبعد الشتات لملمت قواه وآلفت بين نوازعه المضطربة

واستجمعت فتاته المبعثر فاستقوى بحبها وأنشأ يبرمج خططه وفقاً لأهداف أكثر وضوحاً، كانت قوة روحه تبعث فيه دفقاً حاراً إلى الحياة، فيتجيش صدره برغبات أقوى من ذاته، وتفتق هذا الحب عن عطاءات مثمرة وطاقة متوقدة بالعمل، هي الإلهام والإشعاع بالنسبة له، فحينما يبتعد عنها يتحرق على وقد الشوق، فمنهل حبها المدرار يفيض في نفسه ألقاً متميزاً يصبغ حياته بلون الشروق، يغمره بسكينة وهدوء، أحبها بكل ما في مشاعره من قوة حتى فنت نفسها في طوفانه، حرصت على إرضائه بفنونها المهذبة وعمل على احتوائها بقدراته المتاحة، تناغم في العقل والقلب والروح، تشكلت به وتشكل بها فوجدا في أعماقهما طاقة خلاقة فاقت كل قوى الأرض اندفاعاً وانهماراً، اشتغل في فنه وطوره وعمل على تعلّم بعض المواهب والمهارات ونشطت «فداء» في كتاباتها في كلمتها، في قولة الحق وكأن قوة هذا الرجل تسند قلمها فهي المتكئ المريح لانهياراتها الأدبية على مفارق الأيام، وحينما يلتقيان يثرثران كطفلين بريئين منعمين بقدرهما الذي سلم لهما مقاليد فرحة لا تعرف النضوب، يتحدثان عن نشاطهما، أعمالهما، إنجازاتهما في أيام الغياب، ما أجمل هذه الحياة وهي مخضبة بعبق زهور ربيعية، فيها طعم الإثارة المشحونة بالعمل فلا يعرفان في حياتهما أي حالة من غثيان الروتين وبلادة الوقت الكسول ذاقا كل صنوف السعادة وشهد الهناء، تتجاهل «فداء» تلميحات أمها المقصودة، شرودها في بعض الأوقات وانغمارها بحالة من ضجر وترقب

تحسبه بعيداً مقياساً لغربال الشوق المصطخب في جوانحها، فلم يعد يعنيها في الحياة سواه، حتى أنها قد تعرضت إلى النقد والملام اثر اضطراب شاب سلوكها، ولم تجد غير الابتسامة الرضية رداً رادعاً على تلك الثرثرة الحمقاء، وتبرر: «قلق الإبداع» تكتفي بهذه التورية درءاً لنميمة تقتحم خصوصية عواطفها، وهي قد نجحت في كل شيء حتى في حياتها الخاصة، إذ كان فؤاد يعمل على سدّ كل ثغرات النقص ويغطي كل المساحات المكشوفة فلم تشعر يوماً أنها كيان ناقص أو جسد معطل، تجمعهما تلك اللحمة الفريدة حتى في بعادهما كانت لهما نجوى خاصة يشهد لها القمر في طلوعه ليلاً، تتوارد خواطرهما في اللحظة ذاتها فأدركا أنهما توأمة روحية لا انفصام لها، انصهرت روحيهما في بوتقة حب راسخ عميق نمى وترعرع كطفل وليد حتى شب عن الطوق فتياً حاراً مقداماً.

ولفرط انشغال فؤاد بحياته الجديدة ومشاريعه الفنية إضافة إلى الشركة التي اضطر إلى توكيل مسؤولياتها لمدير جديد متمرس، تفاقمت المشاكل بين زوجتيه في البيت وهذا الطفل الذي بلغ عامه الرابع، نشأ مضطرباً في مناخ مشحون وأم متوترة.

قررت جميلة الرحيل به إلى فرنسا أو الاستقلال في بيت جديد، لكنه يعرف أن أمه المكتئبة المزاج تحتاج جميلة فهي الأثيرة في قلبها وانطلاق الطفل بين يديها دافع لتخفيف وطأة

الحزن عنها إذ كانت «هند» تجد في لحظات اللعب معه شيئاً من السلوة والعزاء وقد لازمت بيتها باعتباره الموطن لبقايا ذكرياتها الدفينة في قبر السنين ومعبد حبها الشاهق بعد وفاة زوجها، وزوجته ماجدة عادت إليه بعد الطلقة الأولى نادمة آسفة فظن أنها قد وثبت إلى رشدها، بعد محاولات ومفاوضات الصلح وضرورات العمل في الشركة رجعت متصنعة الخضوع والإذلال وما إن استقرت حتى نشبت الخلافات من جديد بل اشتدت إثر تعذر حملها وقد كانت أجمل أيام فؤاد عندما تغادر جميلة والطفل إلى باريس يبقى البيت هادئاً ساكناً، ويتسنى له الوقت للقاء «فداء» لينهل من معين حبها ما شاء له ذلك، لكن القدر متقلب دائماً، وأيام السعادة لا تدوم، عادت سماء البيت تدلهم بالمشاكل والصراخ والمشاكسات المزعجة وبدا «يوسف» عدوانياً، شرساً رغم كل ما يتوفر له من رعاية واهتمام، بقت أمه «هند» في حجرتها منطوية، بعد أن باعت الصالون بثمن بخس اتخذت من عزلتها مجناً لكل ضربات القدر حينما تفاجئها بصدمات صاعقة، انطوت على حزنها الدفين وألمها الممض وكان شيئاً من الضيق يتبدد عندما تتردد عليها جميلة مع طفلها، تلاطفها، تسامرها، بيد أن أزمتها الخانقة أشعرته بالحرج الكبير فكان يضطر إلى ملازمتها في كثير من الأحيان، تشتت وقته، وجهده فانعكس ذلك على لقائه بزوجته السرية «فداء» وما أقلقه إصرار جميلة على الرحيل إلى باريس لتكون مستقرها الأخير مع الطفل، فقد تبدلت أحوالها وشابها نوع من

الفتور والإحباط، عاشت صراعاً مع ذاتها لفترة فقد خططت نهجها زمناً على أن تبقى داعية للإسلام في أوروبا وعندما قلّم فؤاد أظافرها وركنت إلى الحياة الهادئة شعرت بالفراغ وبالوقت الثمين يتسرب دون نفع أو فائدة، تحولت مقاييسها فجأة وأدركت أن جذورها هناك ولن تستطيع اجتثاثها، ستجف، ستموت، ستنضب، فهناك دنياها المشبعة حيوية، نشاطها، أعمالها التي كافحت من أجل أن يستتب نجاحها وكانت باستمرار تتصل بالشيخ «عز الدين» فيحدثها بإفاضة عن تطوّر الأوضاع وطلبت منه أن ينسّق برامجها المرتقبة قبل السفر، فبعد أن نالت شهادة الماجستير بامتياز قررت أن تستقر في المركز الإسلامي كداعية وترحل إلى أوروبا حيث القلة المضطهدة من المسلمين، وكان فؤاد يرفض وهي مصرة على موقفها وهذا ما كان يزيدها توتراً وتبرماً، الإجازة الشرعية المستحيلة من زوجها، فاكتسحتها موجة مشحونة بالتوتر والغضب فتسرب غيظها إلى الطفل عبر ضرب ونهر عند أوهن مشاكسة، فتعهدت الخادمة بإطعامه ورعايته، تأخذه إلى جدته في أوقات صحوها فأقراص الاكتئاب خدّرت أعصابها وشلّت قواها فاستسلمت للنوم وما كانت ماجدة إلا الوباء الذي حلّ بهذه الأسرة وعمل على تمزيق الأواصر، تستحثها لعنة المال وكيد الشيطان إلى اتباع كل المكائد تغذيها أماً نهلت من نبع الشيطان ذلك الماء الآسن الذي لوّث نفسها وشوّه أجمل المعاني في قلبها فنشبت لها مخالب وأنياب، ترتفع بالحقد والكراهية

إن أعاقت مطامحها المقادير، فذاتها المريضة وحشٌ كاسر يفترس الفضيلة ويقوّضها، كان يوسف وجعها المر والغصة التي تذكّرها بعجزها، بطفلها المفقود الذي كان سيرث الجزء الأكبر من هذا النعيم، واشتد نفورها حتى تحولت إلى شبح مخيف يطوي داخله رغبة ملحة في إبادة هذا الطفل، كان فؤاد يتوقع منها الشر في حده الأدنى، في سلوكها العدواني، في تلك المشاكسات المفتعلة، لم يكن يدرك أن الشر عندما يكبر يتحول إلى إجرام والمجرم حينما يذنب يغض عن ذنبه بتبرير ويتطاول حتى تتحول ذنوبه إلى حبائل شيطان توقع الأبرياء في هاوية لا قرار لها.

وقد قرر بعد آخر مشادة بين الزوجتين أن يطلقها طلاقاً لا رجعة فيه، إذ أصبح البيت جحيماً لا يطاق، كان يتهاتف مع «فداء» وهو مضطرب الفكر ويعتذر لإهماله بعد أن يشتكي الغصص والآلام وتحاول أن تهدئ من روعه وتصبره قائلة: «أنا مسلّمة بكل شيء وأقدر ظروفك، وأرى الهاوية السحيقة التي تعيش فيها».

بعد قرار الطلاق كانت ماجدة تقاسي شعور المذلة والغيرة واندلعت ألسنة الشيطان من أعماق صدرها الموغل في الحقد، والتهب فحيحها المستشري كجرثومة تتشطر كرهاً في ظل مناخ مضطرب، شعورها بالمهانة والإذلال، ولأنها منبوذة، مرفوضة، أشبه بالأرض الجدباء قاحلة، تفقد كل أسلحتها الأنثوية وتخرج

www.mlazna.com-RAYAHEEN

مهزومة مسحوقة تحدثها المرآة أنها وجه ضائع القسمات، ناضب الرواء، كرهت نفسها وعافت كل ما في الحياة من مباهج، وتغلغل الشر كأغصان موبوءة بمرض مزمن تنمو في باطنها وتتغلغل حتى استحكمت فيها ينهرها فؤاد بخشونة لاذعة وهو غاضب.

«سأعطيك مال الدنيا إن شئت، فقط اغربي عن وجهي، فقد عجزت عن استبقاء مظهر زواجنا، نسفتِ كل الأواصر ولم يبق لكِ مكان في هذا البيت»

رنت إليه بلحظ مغرورق بالدموع والأسى يلعثم لسانها:

«هذا هو قرارك النهائي؟!»

انسحبت بخذلان مرير إلى حجرتها لتحزم حقائبها وترحل، تكابد وقع الهزيمة بانكسار، بينما لزمت جميلة دارها وهي تصغى لأدنى حس ويخيل إليها كلما ارتفع الصراخ أنها ستقتحم عليها الحجرة مهاجمة، وعندما سمعت دبيب أقدامها وهي تنزل من أعلى السلم ارتخت أعصابها فهمّت بالنافذة لتطل على يوسف وهو يلعب مع الخادمة قرب المنزل، ثمة حديقة صغيرة نصبت فيها أرجوحة ليوسف يقضي فيها ساعات لهوه، مسوّرة بأشجار كثيفة تفصلها عن الشارع، اطمأنت جميلة لوضع الطفل فعادت إلى كتابها لتواصل القراءة، خرجت ماجدة بحثاً عن السائق في تواطؤ عجيب وتسارع في الأحداث يخرج القدر مأساة قصمت ظهر هذه العائلة، تنادي إحدى الخادمات في

الداخل رفيقتها «ماري» مربية يوسف قائلة في صوت لجوج ويفزع يحمل نوعاً من الابتهاج.

«أسرعي ماري، هاتف من الفلبين»

وفي عجلة وارتباك تتلفت «ماري» حيرى مضطربة، يرفض الطفل مرافقتها فقد طابت نفسه اللعب في الدراجة، تصادفها ماجدة وهي مغادرة إلى الخارج تستأذنها على عجل.

«سيدتي انتبهي إلى الطفل ريثما أرد على الهاتف»

هزت «ماجدة» رأسها بامتعاض وغيظ، هرولت الخادمة إلى الداخل لترد على الهاتف خشية أن ينقطع الاتصال، حاول الطفل أن يقود دراجته على العشب، وعندما تعذر عليه قيادتها حملها إلى الأرض المرصوفة، وبانعطاف بسيط تدحرج مع الدراجة وفقد السيطرة لم تكن ماجدة في وضع يسمح لها أن تفكر أو تختار أو تعقل، أبخرة الغضب، غيبت وعيها، تركت الطوفان يحرق الجميع كما احترقت بنار الإهمال والهجر عندما لم تجد ماجدة السائق بانتظارها أقفلت راجعة إلى الداخل، وإذا بصوت فرامل سيارة بالخارج يصدح في الأثير وغبرة تتناثر تحجب الرؤية، صرخة طفل مزقت هدأة الشارع بلوعة ألم، تقفز جميلة كمن أصابها مس، وبصدر منقبض تصرخ «يوسف».

ضوضاء في الخارج، همهمة، نثار دم، صاحت مذعورة، وكأن نبضة قلب ابنها المغتالة تنساب في دمها كحمم ألم، أطلت من

النافذة وإذا بضجة أدمت القلوب ومزقت نياط الأفئدة، تقطع طفلها تحت عجلات السيارة، جمدت كالمصعوقة وباختلاجة ورعده تأوهت وسقطت على الأرض مغشياً عليها من هول الصدمة اندفع الخدم إلى الخارج.

طرقات على باب الحمام.

الخادمة في جزع:

«سيدي أُخرج»

وفي ارتباك خرج فؤاد مبلّل الجسد، مرتبك الحال، جحظت عيناه بفزع هستيري وفمه مطبق، فقد حدس أن مكروهاً قد حل في العائلة.

الخادمة بلسان متعثر وحال كسيف:

«سيدي الصغير يوسف صدمته سيارة»

ثم تقترب الخادمة من «جميلة» تحاول أن توقظها من الإغماء، وتسقيها شربة ماء وهند تخرج من مواتها جزعة تصرخ بكل ما فيها من لوعة وأسى «يوسف، يوسف، يوسف» لا تقدر قدماها على حملها، انهارت على الكنبة تلهث، تئن «يوسف، يوسف» فقد بلغ بها الجزع أشده، صدمة ماحقة زلزلت أركان البيت وهدت دعائمه.

يدفن «فؤاد» حشاشة جوفه، فلذة كبده في ذلك الغروب الحزين وقد شاخت ملامحه في لحظات، وغاضت حياته وحف

به اليأس والشقاء، انطوى على نفسه مذبوحاً، مقهوراً، ففي كل مرة يطعنه القدر بطعنة نجلاء يظل على أثرها يتمرغ على جمر الألم، ففي اليوم الذي يقدم له شهد السعادة ورحيق النعيم يسقيه المرارة والحزن لأيام، وينسى أنه حي يتنفس، كل قواه تنهار ويتكئ على الذكرى يحييها فيبكي طفلاً ملائكياً تجرّع في هذا البيت مرارة وكابد حرماناً انتشلته يد الرحمة من هذا المستنقع الآسن إلى جنان الخلد حيث المستقر السعيد، لم يكن هذا المكان لائقاً لطهر قلبه وصفاء روحه.

يلتفت إلى جميلة وقد ألمّت بها الأحزان والكمد فطافت في عين مخيلتها كل صور الشقاء واليأس، فقررت أن تحسم أمرها بعد أن انتهت مراسم العزاء، لم يعد لبقائها طعم أو لوجودها أثر، آن لها أن تغادر دون رجعة، ليته أذن لها الرحيل لما حدثت تلك الفاجعة، لفها الجزع وبرّح بها الهم فودعت فؤاداً وهي تكتب له رسالة لتضعها على مكتبه فقد غاب في صمت سلب كل حواسه عن البوح، لهذا يئست من مخاطبته شفاهاً وكانت رسالتها مرثية لمنعطفات حياتها معه.

عزيزي فؤاد..

إني راحلة، وهذه المرة لن أعود، قد عشت في تكويني زمناً حاولت أن أحمي أواصرنا وأذود عن لحمتنا وإذا بكل محاولاتي باءت بالفشل، إذ شعرت أن أحلامي قد هوت على صخرة الواقع المؤلم كم صبرت وأنا أذرف الدمع السخين في ليالي

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وحدتي وأنت ترهن نفسك لحالة مزاجية متقلبة أرهقتني حتى نفذت كل حيل الأمل وأسباب الرجاء في استعادة هذا النعيم الذي خبا، كانت أيامنا رائعة وذكريات محفورة في ذاكرتي لن أنساها ما حييت.

كنت أظن في نهاية الرحلة أني سأستقر معك في وهدة الحب وإذا بي أشعر أنك أكثر ابتعاداً وأقل حباً، تحاملت على نفسي من أجل هذا الطفل المأسوف على براءته أن يكبر وينمو في ظل توليفة أخذت في الانكماش والانشطار يوماً بعد آخر واكتشفت أن رحلتي معك كان ينقصها الاحتواء إذ يبدو أنك أحببتني في لحظة غربة وباندفاع ينقصه العقل كي يقرر على هوادة، فلا تظن صمتي كان رضى، إنه السكون الذي يحكم أرض المعركة بعد عاصفة حرب طاحنة، إنه ذلك الهدوء الذي ينجلي بعد صولات وجولات محمومة ليسفر ذلك الصراع عن خواء كبير ووحشة، وقفت مع نفسي كثيراً أفكر في حبنا، في دربنا المتعثر، في وضعنا المتذبذب، وألوذ بالحكمة كي تستمر القافلة في سيرها، حتى أرهقني التعب ومزقني الكدر، وحولني إلى كائن غضوب، استنزفت كل قواي وشحبت كل طاقتي حتى لم يعد لي في الحياة سوى هذه القضية التي ناضلت من أجلها وغامرت بحياتي كي أشيد صرحها، فأرجوك أن تعتقني لوجه الله فقد وهنت أواصرنا وذبلت زهرة حبنا، تنتظرني هناك معركة، معركة المبادئ، معركة العقيدة قد نذرت نفسي لأجلها،

سأفتح بيتنا الأصم الذي كتمت السنون عذوبة صوته فخبت أجراسه، سأرجع إلى وطني بلا أجنحة، بلا قلب، بلا نبض، فقد أخذ يوسف ذوب روحي وحولني إلى أشلاء وأحسست أن بقائي في هذا البيت أسيرة ذكرى طفل مهمل يعذبني في وحدتي ويفجر حزني وأدعوك أن تلملم جراحك وتطيب آلامك وتستأنف حياتك من جديد كما أفعل ويفعل كل إنسان يعيش في هذه الحياة لهدف فما هذه الدنيا إلا محطة عبور ومساحة بلاء يختبر فيها الله عزمنا وقوتنا وإيماننا، سأتقوى بالتهجد، بالابتهال إلى الله، بالدعاء، بالتضرع ولن أخفق وانهزم فالموت يحصد في اليوم ملايين الناس صغاراً وكباراً، شباباً وكهولاً والحياة لا تتوقف، لا تنتهي، المسيرة تنطلق إلى الله بكل اندفاع وحرارة، أرجوك أن ترحم نفسك وتخرج من صمتك وتنفض عنك غبرة البلاء، قد نفترق أزواجاً، لكننا مازلنا أخوة في الإنسانية تجمعنا الكلمة والفن والإبداع وكل ممارسات الجمال التي تلون الحياة بلون متجدد.

أشكر الله أن جمعني بك.

وأشكرك لأنك أثريت تجربتي بشتى المعاني.

أشكر الزمن وقد زرع في أنفسنا قيماً أكثر خصوبة.

أستودعك في حفظ الله ورعايته.

«جميلة»

قرأت الخطاب مراراً لتستوثق أن هذه الوقفات كفيلة بأن تضع النقاط على الحروف وتحدد موقعها الجديد من حياته وعندما اطمأنت إلى كل كلمة واستراحت لكل حرف أطبقته ووضعته على المكتب وتلفتت كعادتها تبحث عن زهرة نضرة كإمضاء حيوي لقلبها المتدفق بالحياة لم تجد أمامها سوى زهور ذابلة تراجعت عن الفكرة، وإذا بإلهامها النابض يسعفها في اللحظة الأخيرة، تخرج من حقيبتها مصحفاً صغيراً وضعته فوق الرسالة وكانت تقصد وهو لمّاح يفهم أن كل شيء في الحياة يذبل ويموت إلا القلوب الحيّة الفتية تظل تتنفس وتعيش وتنبض وخير زاد يبقيها مطمئنة «القرآن الكريم» النبع الصافي الذي سيغسل أدران حزنه ويكفكف دمعه ويلملم جراحاته ويطيبها ليعود من جديد أكثر قوة وصلابة.

ورحلت...

وتركت له الفراغ والغياب وأنشودة حب قد تعثر بها الزمان لفترة وانعطفت بها نحو مسار آخر.

الفصل (٤٢)

في مهب الريح

انتظرته مرات عدة فوقفت قرب النافذة تترقب وقع أقدامه تخاتلها الظنون وتنتهبها الوساوس، فلما دخل تلقته بلهفة وشوق وإذا به مهلهل الروح، كسير الفؤاد، فاتر العزم، جلس مطرقاً وقد بانت على ملامحه الهزيمة وفى محياه الانطفاء، جلست أمامه تستنطقه فقد أرهقها الانقلاب المفاجئ في العلاقة وصبرت معولة على الأيام تواترها في امتصاص حرارة النكبة، لكنه غارقٌ في الحزن، مكتئباً، صمته لعنة قوضت عشهما الرغيد وغول ابتلع الهناء فلم يبق منه إلا الخواء.

حاولت أن تقتحم جدار كآبته وتخترق حاجز حزنه فإذا به متحصن بقشرة صلبة إلى حد العزلة المخيفة.

وعن قصد استفزته أوقدت في موات أعصابه حرارة الانفعال حاصرته بنداءات استغاثة لكنه معرض، ساكن، نفضت كل ما بداخلها من حياة حتى برمت بهذا العبء ونفذ منها الصبر فانطلقت من جوفها صرخة:

«قتلتني قتلتني» وتابعت وهي تنفضه بقوة:

«أرجوك لا تكن مسرفا في التشاؤم».

أطرق دون أن ينبس بحرف، وبصوت ضجر تشوبه لوعة تابعت:

«أرجوك فكر فيّ أنا، فقد عقدت عليك الآمال، وشيدت معك صرح المستقبل، أهكذا تتركني معذبة، قلقة، دعني أساعدك افتح لي قلبك إن كل من يراني يندهش لذبولي، لنحولي، يظنونني مريضة وأنا كذلك مرضت لحالك البائس فأنت تنتحر، تعاقب نفسك بعد موت طفلك لقد انتزعت موافقتي على زيجة سرية وكانت مخاطرة غامرت بها من أجلك كي أعيش سعيدة بعطفك، هانئة برعايتك، وأحتاج أن تكافئني بشيء من الاهتمام، لقد تضاءلت لقاءاتنا وانقطعت اتصالاتك بي، وصمتك يتضاعف يوماً بعد آخر، أخشى أن تتركني هكذا معلّقة بين السماء والأرض وأنا أحبك يا فؤاد، عملت على أن نعيش معاً للأبد ونعلن زواجنا في الوقت المناسب، مازلت أنت رجلي، حلمي الأوحد، أتمناك أن تعود إلى حيويتك رغم كل ظروفك وأساك... ماذا قررت يا فؤاد؟ بربك أجبني؟ دعني أفهم موقفك، أنطق، تكلم، سئمت صدّك، ماذا يجول في خاطرك؟ بماذا تفكر؟»

اختلس إليها نظرة طويلة فاحصة وكأنها مشوار عمره الطويل دون أن يتفوه بأدنى حرف. أشارت إلى الطعام قائلة:

«تناول غداءك فقد طهوت لك الطعام الذي تحبه، في كل مرة تتركه بارداً فألقيه في الحاوية، هكذا تحولت مشاعرك من النقيض إلى النقيض، كنت تلتهم طعامي بشوق ونهم.. كل يا فؤاد..

هز رأسه، ولوح بيده.

وإذا بنار كربها تدلع ولهيب حزنها يفثأ باطنها الملتاع « اتبع مشورة ذهنك أرجوك فهل ما تفعله عدل وحق في إنسانة رهنت حياتها لأجلك».

أغض طرفه وبدا عليه انكسار الندم، فتأوه وكأنه يتحسر على نعيم غاب وسعادة ولّت.

نهض من مكانه دون أن يلتفت إليها وخرج كالمحنط شارد اللبّ تائه النظرات وما إن صفق الباب وراءه حتى انهارت باكية كأنها المتهم الذي حكم عليه بالإعدام ظلماً بعد أن كان في انتظار القرار الأخير.

وعاش فؤاد مقتولاً في حزنه ملتاعا في حيرته، في قلبه غصة لا تدركها إلا ذاته المعذبة عاد إلى بيته الموحش مخذولاً، يلفه صمتٌ كصمت القبور المقفرة، كل ركن تلطخ بذكرى دامية، الخسارات تترى في حياته، أحباؤه يرحلون كعصافير المواسم، هكذا قدره يخط على جبينه مسارات قهرية وعليه أن يستسلم في هذا البيت البارد تعتصره غربة ظلت تثرثر بها كل الأشياء حوله، الحيطان، الستائر، النباتات المهملة، اللوحات المتسخة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بخبرة الزمن، مأدبة أموات رحلوا بأهازيج عزاء، حياة قاحلة جفت منها كل روافد النعيم، تشاطره الدمعة أمه العجوز الذائبة وقد فقدت رواءها المعهود، تمكث في حجرتها المعتمة كمومياء محنطة لا يسمع منها سوى أنين ينساب من ثقوب صدرها المثقل بأعباء السنين.

أغلق هواتفه وأحال نفسه عن كل اتصال، انغمر في عزلته وألف وحدته واعتكف في سرداب الفيلا الذي تحول بعد فاجعة طفله إلى مرسم يمارس فيه طقوس جنونه ولاذ بذاته المضنية فما عادت الدنيا تعنيه بكل تحولاتها ومفاجآتها، تعرضت الشركة إلى الإفلاس وطالب البنك بتسديد الديون الضخمة فتم الحجز على كل ممتلكات العائلة من عقار ومبان فلم تبق إلا هذه الفيلا المتآكلة الأحجار قد انتهبتها المحنُ وتنازعتها الأطماع.

حاول عماد بكل جهد وحيلة إخراج فؤاد من حزنه وإذا به مقفل النفس نافر الرغبة حتى قالت لهم ثريا عن يقين:

«دعوه منسحباً فهو يفكر، ويحاول استنباط قرار مصيري من زحمة حياته».

وتترقب (فداء) بقلق لعل هذا الصمت يتمخض عن قرار مريح لكي تعود الفرحة إلى قلبها، مرضت ووهنت بعد أن قطع عنها الاتصال ويأسها المرير يخيف أمها فسألتها مغتاظة:

«منذ فترة وأنا ألاحظ شرودك وغيابك، ما بك يا ابنتي؟»

تداري اضطرابها:

«إرهاق العمل»

إنها جريمة تنطبق عليها كل الشروط والمقاييس في منطق أمها الحكيمة وقد تضبطها متلبسة فالأدلة والقرائن تشهد أن ثمة موقف مخز تتكتّم عليه، لهذا عليها أن تتخذ الحيطة والحذر ولكنها عندما يفيض فيها الحزن وتجيش بها الأشواق تغادر إلى عشهما المهجور حيث الذكريات الخرساء تستنطقها بدموع مدرارة وأنفاس مكبوتة.. لكنها تتفاجأ هذه المرة بأن العمارة قد انتقلت إلى مالك جديد فترجع محطمة، محبطة، مهزومة وتنتظر على مضض كشف الغمة وانفراج الأزمة.

صارت قصة فؤاد خبزهم اليومي فثريا وأبناؤها يتمرغون على جمر الألم بانتظار انجلاء العتمة وانبلاج صبح الأمل في حياة هذا الرجل المحزون.

ولا يدرون أن فداء في القصة قتيلة ممزقة الفؤاد، معلقة المصير، مغيبة الكيان، يتلاشى منها الصبر تواتراً مع الأيام غموضاً واستحالة.

تعاقبت الشهور، وتواترت المواسم وما برحت فداء في أتون محنتها تنازع الموت، الموت الذي يسقيها المرارة وهي حية، في مكتبها يأتي ساعي البريد يحمل لها رسالة وعلى عجل تقرؤها مذعورة وكانت من فؤاد:

بسم الله الرحمن الرحيم

زوجتي الحبيبة فداء

ستبقين دوما زوجتي، فأنت من عاشت وستعيش في فكري وروحي وكياني، قد تتساءلين عن سر صمتي، وغموض موقفي والآن أكشف لك الحقيقة دون ريب أو تزييف لكن أرجوك أن تتقبليها بصدر رحب وعقل رصين.

لاشك أنك أغلى انسانة في حياتي ذقت معك شهد السعادة ورحيق الحب حتى غبت عن نفسي وأهلي وحياتي وعشتك قدراً وعشت لي أملاً ولفرط حبي الشديد لك كنت أفكر وأنا أتألم كيف أستطيع إسعادك وأنا لا أملك أسبابها كيف يمكنني أن أسقيك كأس الهناء وأنا مكبل بحياة كلها أسى ومرارة وأنت مازلت شابة نضرة ينتظرك الفجر المشرق والوعد الزاهر لِمَ أقتل فرحتك في المهد وأنا قادر على أن أعبر بك من رصيف شقائي إلى رصيف آخر مصانة الكبرياء، عفيفة النفس وهناك تنطلقين إلى الحياة حيث الربيع الأخضر والحلم الوردي، كنت أحاول أن أفكر بعقل وأكبح طوفان عواطفي وأعظ على نواجذي صبراً وجلداً كي أقرر هذا القرار ولا تتصوري كم أنا أتألم وأنا أشعر أنني أطعنك في كل حرف وأجرحك في كل كلمة.إن مذاق الحرمان كالسم الزعاف في حلقي أشهر طويلة، أتخيل غياب محياك عن إشراقات صباحاتي العذبة وصوتك الهامس ينتزع أشواك العناء من جسدي، أحبك مالم أحب أحداً في حياتي

كنت حوريتي، تحفة الجنة النازلة لطالما نثرت في طريقي ورود المحبة النادرة أستقبل صبحي بباقة زهر متجمل بنورك فعطرت مكاني بأعبق عبير وأشعلت في دربي قناديل الحب والسرور..

يا حوريتي الرائعة ما أجمل تحياتك زمناً، يا اشراقة السعادة وعبير الياسمين، ما أنبل عواطفك يا نفيسة الجواهر وفريدة اللب والشعور، بدعائك كانت أيامي حافلة بالنجاح والنور ومن معين عشقك وحنانك أرفد أنقى القوى وأنطلق بكل سرور.. صدقيني فقد حجزت نفسي بعدك عن جميل الريحان والغيد الحسان فبعد أن انتهيت إلى وجهك الفتان لم تعد لي في النساء ميل أو افتتان فقد رشفت من خمر الحنان بشغف نادر فلطالما مسحت يداك جروحي فبرأت عجباً ونثرت شفتاكِ درراً فاستحالت لرجم غمومي شهباً فما عادت لي من حيلة سوى الاستسلام لقدر حبك.

كنت أسعد رجل في زواجه إذ رفرفت روحي في سماء السعادة مسرورة وكيف لا وقد أحاطتني رعايتك وغمرتني أنهار عواطفك الخمرية، فغسلت غمائم حبك همومي وطيبت دعواتك جروحي وسكنت مواطن أوجاعي، فكنت بعد كل لقاء أسجد للباري الكريم حباً وشكراً على نعمة وجودك في حياتي فقد كان حباً ملائكياً عميق الجذور وسيبقى قلبي محباً لك أبد الدهور فمشاعري خالدة موصولة بلقاء أرتجيه في الآخرة.

رغم كل هذا الطوفان وحرارة هذه الحمم أعتبر حبي لك

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ناقصاً ما لم يوثق بتضحية، فنكران الذات وذبح مسراتها من أجل الآخر أقدس ترجمان على صدق المشاعر والتضحية التي أقدم عليها وأنا في أشد الحاجة لك هي تذكرة عبور إلى رضوان الله تعالى بعد أن اقترفت في حياتي الظلم لأناس لا ذنب لهم هكذا شعرت أيتها الحورية الغالية.

كانت أيامي القليلة معك هي زادي وغذائي في ضنكي وعنائي القادم لن أنسى وقفتك سنداً في أيام عذابي كنت أتمزق لمرآك وأنت تتحرقين لتعرفي مكنون قلبي، أغادرك مقهوراً محزوناً، أذرف الدمع السخين فنوارة عمري تنطفئ وإشعاع الفرحة يخبو من عينيها لا تدرين أنني ماض في طريق ذبحك، فمن غيرك كان قمراً في ليالي غربتي وشمساً لنهارات عنائي؟!

إن حجم معاناتي لا يمكن تحديده في إطار أو تشبيه بصورة إنه فاق الوصف والتشبيه لهذا لن أدعك رهن أنانية رجل محطم وجسراً لآلامي أعبر به ناحية الأمل، فأنت المرأة المبدعة الكلمات والشمس الملتهبة بالحق تظل تشرق بقرصها الدامي على الحياة تأبى عليّ كرامتي أن أحجب ضوءك بغبار همي وحزني، أنت حلم هذا العالم والقضية التي يحترمها الناس أنت يا مخلوقة الجنة موعودة بمصير زاخر بالقيم والمعاني لا ينبغي أن يحتكر ضوءك رجل وفيض سراجك تغتسل به ملائكة الكون، وحبك الأسمى نثار تنتشي الدنيا بضوعه المتألق.

حوريتي الأسمى..

صدقيني لم تكوني يوماً في ذاكرتي حالة مزاجية أو حمى عارضة شفيت منها، كان قلمك إغراء يستفز كل ما في داخلي من أوجاع فكرية تظل روحي تلفظها على ألواح عذاباتي بألوان دافئة تستنطق ريشتي الخاملة بإلهام محترف، فأنا مجنون في انفعالاتي قد أدهس من أحبه في لحظة طيش لأعتصر من حزني دوافع إبداع فكلماتك النارية تلتهم الأوراق لتضيء حقيقة، كنت أول إنسان يستنير بها فإذا بحياتي بركان عطاء، وحدك ثائرة أما هم فإن نفاياتهم الذهنية تستحوذ على المكان مفروضة على الإنسان كي يقرأها كل يوم لكنها في النهاية تستقر في الحاويات وعلى أرصفة الشوارع العتيقة..

وحدك كاتبة استثنائية، وامرأة خرافية أنتِ حلم الكون اللامتناهي أحملك طيفاً شفافاً أخشى أن يتلوث وأربأ بنفسي أن أدنس نقاوة إشعاعك بأوهامي الرجولية لو كنت أستطيع أن أضيف لك شيئاً لما ترددت، لو كنت أمتلك أسباب القوة لما تراجعت ليس لي خيار إلا أن أطلق سراحك وأفك قيدك وأدفع خيول طموحك الجامحة أن تخترق المستحيل بصهيلها المشتاق إلى الكمال.

تعلمت منك أيتها الصغيرة أشياء كثيرة ومعان كبيرة ربما ستعرفين في يوم ما وعند حصاد السنين أن بذارك المزروع صدقاً جعل مني إنساناً فعالاً.

عزيزة قلبي..

لو أتينا من الهناء بأكمله ومن السعادة بأتمها فسينقصنا دوما تلك الصلة الرسمية التي أوجبتها التقاليد والقانون وأحالت منها حقيقة معترف بها بين الناس، شعرت بالظلم الذي أوقعته عليك بسبب حبي الأناني ورغبتي في امتلاكك ولهذا وجدت أني عاجز عن خلق ذلك الوطن المريح الذي تستقر فيه أحلامك وتمرح في مروجه غزلانك .

وفي الختام..

أدعو الله سبحانه أن يحتويك بعنايته ويحفظك برعايته وحتما سيصلني إشعاعك في يوم ما وإينما كنت عبر فضائيات العالم وسيسري دفؤك في قلبي وأنا في صقيع الغربة فقد كنت وساكون مسروراً وسعيداً لأني كنت في زمن ما أهيم في مدارك المتوهج، فسرت معك على خارطة في جنون تركنا العقل يسرح في غياب لنعيش في سعادة وهمية وأحلى ما في هذه الحياة أن يعيش المرء قدرياً دون تخطيط فالمصادفات تكون أجمل وقعها في النفس أحلى إذ نظل في ترقب للآتِ تتضور داخلنا دهشة تحرّض كل ما في منابتنا من إبداع.

هذه حياتنا نحن المبدعين قلق، حرمان، عذاب، أفراح، أوجاع كل الانفعالات المختزلة في قصيدة شعرية ورواية خالدة أو تحفة فنية.

إنه المخزون الذي يتغذى عليه شريان الإبداع وبمعادلات كيميائية عاطفية ينهمر العطاء كنهر خالد لا نضوب له.

وأقول لك بكل صدق أنه رغم تراكم الأحزان سأنتظر الفرحة وأنتظر الفرج مهما كان بعيداً وستعرفين أن هناك مسيرة مشتركة تجمعنا معاً وإن افترقنا جسدين.

فسلمتِ أيتها الشمس المتوهجة بالعطاء رمزاً لحب الإنسانية جمعاء.

فـؤاد

هبت كالعاصفة الهوجاء من مقعدها فقد تولاها كمد شديد وقهر قاتل لو توزع على الناس لأورثهم الموت لا محالة، وتجول بناظريها حيرى مضطربة كأنها النمرة المجروحة تكابد في لحظة كل مشاعر السخط والمهانة والعذاب، وتحولت إلى كيان معطوب بعد ومضة اشتعال أحرقت كل ما بداخلها من آمال وما لبث أن خرجت وهي شبه منهارة إلى غايتها بوجهها الشاحب حيث نضب منه الدم وجفت من عروقه الحياة.. جن جنونها أهكذا يجنح إلى الكذب والمراوغة في الأيام الأخيرة متعللاً بموت ولده؟!

ما أتعس المحزون عندما يجرح ولا يجد ذلك الصدر الحنون الذي يمتص آلامه، بالأمس كان فؤاد طبيبها، حبيبها، جراحها، دواءها فكيف به الآن وهو القاتل والجلاد، انتفضت ومدامعها تفر بعد سكات ودهشة فإذا بكل شواردها مبعثرة تستبد بها

www.mlazna.com-RAYAHEEN

نقمة وحنقاً على أيام ضاعت طمست اسمها في وحل شهوته لم يطرأ عليها مثل هذا الفكر من قبل، كانا متوحدين، منسجمين بشكل يصعب على الدهر أن يمد يده خلسة ويدنس هذا الصرح، ليته تأنى وتريث وعمل على التحاور معها لما اكترثت، بيد أنه هرب، طعنها بخنجر الغدر في خاصرتها وتركها مضرجة بدم المهانة فإذا بها بركان تلتهب فيه كل المشاعر بتناقضاتها الفوارة، غضب، شوق، حقد، كره، حب وعندما توقفت سيارتها أمام بيت فؤاد ترجلت كالمسعورة وكادت أن تتعثر في مشية مرتبكة، في صدرها يمور الغيظ وفي رأسها يغربل سؤال كسهم من نار «لِمَ هجرتني» سألت البواب بعد أن التقطت أنفاسها اللاهثة تبحث عن مصيرها العاثر بكل جوارحها المرتعشة.

قال البواب وكأنه بوم ينعق في خرابات الموت والشقاء:

«سافر مع والدته».

انشلّت قواها وانهار فيها آخر معقل من معاقل الصمود في أعصابها:

«أين؟».

«لا أدري، لكنهم باعوا الفيلا لسكان جدد».

وتود لو تضرب البواب بكل ما أوتيت من عذاب ويأس لتنفض ما بصدره من أسرار مختبئة.

واستأنفت السؤال مرات عدة وكل أسئلتها رجعها الصدى.

فأقفلت راجعة كأنها تودع أحلامها المقبورة في بيداء الحياة محطمة الفؤاد، مبلبلة الفكر، واهنة العقل، وألقت نفسها في السيارة جزعة، يائسة تتمزق أحشاؤها أسى وعذاباً، ولفها سكون ممض وإذا بحمم القهر المكبوت صمتاً غربال يحرق كل طاقة صبر فيها، فإذا بعينيها أنهار دموع ظلت تذرفها طوال الطريق، تستحضر مشاهد قصتها المبتورة قهراً عبر أيام أزهرت في عمرها القصير لكنها سرعان ما لفظت الفرحة لتتردى في حمأة الكآبة والكدر فإن ما تصدع لن يربأ أبداً فقد ترك فؤاد نهاية مؤسفة وقدراً غامضاً وذلاً كحبل خانق طوق كل آمالها في العودة.

استسلمت لأساها، لواقعها المرير، للمعركة الشرسة تكابدها عزلاء تائهة، عاثرة، تدخل البيت برأس مطرق أثقلته المحنة وجسد منهك تترك نعليها عند الباب جزعاً وتكاد تهوى على الأرض وإذا بذراعين حانيتين يسري دفؤهما في حناياها تتلقفها احتواء طوق نثار روحها المعذبة.

«استريحي يا ابنتي»

ترفع «فداء» إلى أمها ناظرين اغتالت أسلحة القهر رونقها وحولت أحداقها إلى مقبرة أطبقت على فرحة لن تعود.

«سامحيني يا أمي، إنه العقاب الذي أستحقه»

بإشفاق:

«أعرف كل شيء وتركت لك الخيار»

بانشداه:

«كيف؟»

«تعذر عليّ أن أحشر أنفي في فصولك الأخيرة، إنها قدرك، حياتك، تجربتك الخاصة، إثراء للبشرية اكتبيها بنبضك، بحسك، بقلمك النازف قهراً وحبرك السري، ليست هزيمة يا ابنتي، بل بداية لرحلة جديدة فأنتِ لم تقترفي ذنباً، بالعكس فقد قدمت عكازة لفارسك الأعرج حتى يتكئ عليها ليواصل المسير.

قالت وهي تنهار باكية على الكنبة:

«ولكني أحبه»

«الزمن سيطيب جرحك»

واستأنفت تقول في جزع:

«لا أفهمك يا أمي»

«كلنا في فترة من حياتنا نظن أن التجربة التي أوقعتنا في فخ المعاناة ستسلبنا القدرة على مواصلة الحياة، لكن الله يمدّ لنا من وراء الغيب يد رحيمة وبأسباب غير متوقعة تفك العقد وتحل المكاره وإذا بالحاضر الموجع يتحول بغمضة عين إلى ماضٍ نلتفت إليه بابتسامة ساخرة»

توقفت ثريا هنيهة وهي تنظر إلى فداء نظرة شديدة ذات عزم وقوة كأنها تستحثها أن تقف على قدميها ثانية.

استرسلت:

«أنت مبدعة، والمبدعون دوماً يقتاتون المعاناة طعماً لتوقد ذهنهم وطموحاتهم، لا تنصهر الكلمة في وجدان بليد أو عقل خامل لابد من ضراوة الإحساس وحرقة الأعصاب عواصف نفسية تستثير مكامن إحساسك، اكتبي ما تشعرين بمنتهى الصدق والشفافية لا تقفي مكتوفة اليدين كعاشقة بلهاء حوّلي معاناتك إلى حبر مطعم بأفكار وعبر، رسائل إنسانية يتعايشها كل قارئ ويستخلص منها حكمة»

جعلت تفكر للحظة استطردت:

«لقد كتب لي رسالة يخنق كل ما تبقى لي من أنفاس».

«إذن أجيبي عليه يا ابنتي لابد للنفس من منفذ يسرب منها اليأس وأنت خير من يدرك أن القلم أشبه بمشرط الجراح يستأصل الألم من الأعماق»

أيقنت فداء والغصة ترمضها:

«سأفعل»

وتسألها ثريا:

«أظنك قد أسرفت في إهمال روايتك فما زالت فصولها الأخيرة لم تكتمل»

تنهدت وهي تسرح في فكر شارد:

«ها أنا أعيش فصولها الأخيرة».

«إذن سأدعك لوحدك في مناخك الخاص وأذهب لأعد الطعام لعماد»

وتوحدت فداء بحلمها المذبوح على سفح الحرمان فبعد أن كانت وإياه في قمة التلاقي تنحدر بآلامها الخائبة إلى حيث الوحشة والفراغ وفتحت نافذتها البكر على وجه الخريف وأطلت إلى شحوب الكون وتنهيدة أغصان عافت نضارتها الأيام فاستعبرت خضرتها حفيف حداد تحدث في خشخشتها ألماً كالجرح المفتوح كأن الكون تلفع بالسواد وأسرج من عتمته مأتماً لقلبها المكدود، أقفلت النافذة بنفس يائسة شتت الحزن كل رجاء فيها وأمل.

وكتبت:

عزيزي الراحل فؤاد:

لم أشأ أن أكتب لك إلا بعد أن استنزفتني الدهشة واستحكمتني حيرة طفت في آفاقها أبحث عن مبرر يسوغ لك الهروب بهذا الشكل، أشهر قليلة وإذا بك تتخذ خطوة حاسمة في علاقتنا التي قطعنا عليها عهداً وميثاقاً على أن لا يحنث به أحدنا أو يقرر منفرداً في معزل عن الآخر، وقد توحدت في موقفك وفكرت لاغياً وجودي من حياتك وكأن هذا الأمر لا

يعنيني، ألا ترى أن في ذلك غدراً وخيانةً بل طعنة دامية في قلبي وجرح نازف لكرامتي، لا أريد أن أقع فريسة ذكرى أطلال وأقبع في زاوية الحرمان أترقب إطلالة قمرك ليضيء حياتي من جديد إنما أحاول أن أمنطق الوضع بطريقة تجعلني أقبل الانفصال الهادئ الذي لا يدفعني إلى محرقة الخذلان والنسيان هكذا وهنت في نفسك وتحولت ذكراي إلى رماد تذروه رياح الفرقة والبعاد، فتات تدوسه تحت أقدامك وترحل دون أن تمنحني عنواناً أو هاتفاً أستدل به على مكانك، أرتاب في موقفك الغامض وأتشكك من هروبك المفاجئ وهذا ما جعلني غاضبة، حانقة، بل نادمة على كل لحظة قضيتها معك سخّرت كل ما أملك من طاقة وروح وكيان من أجل إشباعك وإسعادك، هل رخصت كرامتي بهذا الشكل كي تستذلني وتقصيني عن حياتك كما لو كنت نكرة؟ لم كل هذا الإجحاف والظلم؟!

لِمَ كل هذا القتل المتعمد لأروع فرحة في حياتنا.

فؤاد.. عزيزي..

يا من غيبتك الأيام عني قد تناثر قلبي كأوراق زهرة ندية بعد أن شربت منك رواء النعيم، إن شمسي لا تسطع من قلب مقفر وروح موحشة، ها هي ذيولي المدبرة في أصيل الحزن وشقاء البعد تتوارى كسيفة بعد رحيلك المر.

غابت سويعات اللقاء حيث كان حضورك يشرق في قلبي فإذا بالكون يدق طبول العرس ابتهاجاً وسعادة.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أتشوق أن يكون لي جناحان كي أطير بهما إليك، اقسم بدمي ودمعي إني أحتاجك دائماً لأنك سندي وعمادي، تركتني أتخبط في العتمة دون ضياء!

مازلت أكتبك حقيقة، وهماً، جرحاً، وأنغرس في صدرك خنجراً يظل يحفر وجعي فيك صرخة مغدور، دعني أكتب لك خاتمتي، نهاية رواية انسحب منها الفارس دون هدنة فر من البيداء ملقياً سلاحه، مستسلماً بعد أن طوقته بجناحي حبي وحناني أعطيته راية نصر.

تذكر أنني عندما أحببتك أطعمتك مع الخبز قيمة وجعلتك تدرك أن الرجولة عهد وميثاق وعندما يحنث يخرج من دنيا الأحياء إلى القبر، وقد عاهدتني أنك لن تتخلى عني، لن تتخلى عن حبنا، عن شرعية رباطنا المقدس، هكذا تستعذب الهزيمة وترحل تاركاً امرأة على خط النار مهددة بالقتل من الأعداء، مهددة بانهيارات عاطفية متوقعة بعد حبها الذي انتكس، مهددة أن تعيش دون رجل وحماية، مهددة أن تنسج قريحتها قبرها المحتم في أي لحظة.

مندهشة هل كنت نزوة طارئة استهلكتها فلم تعد تضيف على حياتك شيئاً جديداً، أو خطيئة تداريها عبر مصطلحات التضحية والإيثار ظناً منك أنها الأقدر على إقناعي، هل جاءت الكلمات مرتبكة صدقاً كتبتها والحزن يغرغر في حلقك أم

رشحات قلم يهرف بكل ما اختزن من أفكار؟ كيف لي أن أصدقك بعد أن هجرتني بهذه القسوة؟ وتركتني رماداً.

فرّ القلم المذبوح من بين أصابعها المرتعشة وسقط مغشياً عليه وبقت مشدودة الأعصاب تتحدى ذاتها المبعثرة، دخلت عليها أمها، رفعت إليها عينين متسائلتين، كيف عرفت سرّها؟ كيف أدركت خبيئتها؟ تلفها بذراعيها وتمسد ظهرها بكفها الدافئ.

«منذ أن غابت شواردك في طرقاته الوعرة أدركت أنكما مشروع قصة»..

الفصل (٤٣)

في الانتظار

لم يكن الباعث على الحياة سوى العمل ضمن هدف يرقى به إلى الآخرة فالدنيا أوقعته في خيبات وأوردته موارد الذل والهزيمة خصوصاً تلك النكبة الماحقة أحنت ظهره وبترت قطعة من جسده واستأصلت حبه، ذلك الوجع المقدر الذي سيكابده طول العمر.

بقيت في داخله أشياء تستحق أن يكافح من أجلها، فجمع ما تبقى له من مال وأنشأ مشروعاً خيرياً لإغاثة المنكوبين والمحرومين واتخذ من باريس مقراً له، كان يستثمر وقته وجهده في أنشطة عدة بعد أن حفر الزهد في قلبه مقعداً شاغراً لا تشغله غير الحقيقة، هي موطن الذات الشريفة وغذاء الضمير الحي، اشترى شقة متواضعة في حي شعبي وعاش فيها مع والدته يرعاها، اشترى الكتب والمجلدات والتراجم، قرأ بنهم وأدرك المحاضرات الفكرية والفلسفية التي يقيمها المركز

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الإسلامي في باريس، وعاش يرحل من بلد إلى بلد سائح فكر وفنان يتسكع في الطرقات، يعرض لوحاته المفترضة كمفاتيح حقيقية يبهر بها العقول الخاملة، بينما لبثت «جميلة» في شقتها القديمة تمارس دعوتها عبر إلقاء المحاضرات الثقافية والتربوية لأخواتها المسلمات الفرنسيات وكانت تصادف فؤاداً يتردد على الملتقى الثقافي الأسبوعي مندهشة لانقلابه المفاجئ، فقد انطفأت بينهما فورة المشاعر التي كانت تحدث يوماً تماساً خلاباً كلما التقيا، وصارا يتحاوران كأخوين وكأن رأس الحاضر انفصم عن جسد الماضي، يتعاليان على جروح الأمس برغبة صادقة، فهي في رعاية هدف أسمى وقيمة إصلاحية، قالت له ذات مرة وهي تخرج من الباب الرئيسي من المبنى: «أخشى أن يكون رد فعلك حدثاً عارضاً يا فؤاد؟»

«مستحيل، إن من خبر الحياة وعاش في أحضانها يتقلب بين الورد والشوك يعرف أي طريق يسلك، فأنا أقف الآن منتظراً، على أهبة الاستعداد فالعالم يمر بمرحلة عصيبة والمحن والشدائد تشتد، حتماً سيتقوض هذا النحس ويزول ذلك البلاء ليحل الأمن والرخاء والعدالة، فقد جندت نفسي وفنّي وجهدي لهذا الأمل المنشود والفجر الآتِ.

هزت رأسها موافقة:

وهذا ما نحرص عليه يا فؤاد، فالزمن المرير يقتضي منا الحفاظ على عقيدتنا والعمل على توجيه أنظار العالم إلى حكم

عادل، إلى نظام عادل، إلى نهج سليم يعم البشرية جمعاء، بعد هذا الصراع الذي ظل يشغل نفس كل إنسان صراع الشهوات والدنيا الدنيئة، أما ترى يا فؤاد ماذا حصل بالأمس؟ عمليات إرهابية في كل شبر من هذا العالم، إذ يقتل الأبرياء عمداً ودون هدف، شباب مفخخون بالأحقاد والضغائن يحصدون النساء والأطفال، الفكر الإرهابي استشرى في العالم بشكل مخيف، ينبغي أن لا نقف مكتوفي الأيدي يا فؤاد، فقد أعجبني المحاضر اليوم وهو يقول: انتبهوا إلى أبنائكم بماذا ينطقون؟ وكيف يفكرون خشية أن يقعوا ضحايا براثن شبكات إرهابية، العالم أشبه بغابة يستأسد بها القوي على الضعيف والحقيقة ضائعة، لا تدري عن من تدافع، المتدينون في الظاهر يتصدون للحقيقة والغرب ينادي بها والكتّاب يكتبون وفق أهواء ومزاجية ذاتية يتلبس بعضهم لباس الحامي عن الحقيقة، الدعاة يتراهنون أن العاقبة لأصحاب الحقيقة، والحقيقة مازالت مجهولة، تتوارى خشية أن تغتال في وضح النهار برصاص الغدر.

تنهد فؤاد مستحضراً في الذاكرة «شمس الحقيقة» وحبها الغارب عن إشراقات حياته، غاب في العدم وشرد في أفق بعيد ولفظ ذوب الروح كلمات من نور.

الحقيقة في الزمن الآتِ مع المنتظر على مشارف الزمن، أن تتهيأ النفوس المعطوبة بقذارات الدنيا وتنتفض لاستقباله، لا يظهر بطل الحقيقة والأنا غارقة في وحل الشهوات تستثيرها

مطامح المركز والوجاهة والشهرة التي يتكالب عليها دعاة الحقيقة وهم في الغالب عبيد لأوثان المادة بكل صنوفها ومظاهرها، من يستطع أن يصهر ذاته في حب الله ويتشكل بشاكلة من يقدر على حمل الجمرة في كفه دون صرخة ألم.

بغتة قدمت له جميلة جريدة «عين الشرق» قائلة:

«هل قرأت الفصل الأخير في رواية فداء؟»

شد الجريدة على الفور غير مصدق.

ومضت تكمل:

«النهاية كانت هروب البطل من الواقع»

«اسمحي لي بقراءتها»

«خذها فيمكنني شراء أخرى وأنا في طريقي إلى البيت».

واتخذ من إحدى المقاهي المنتشرة على الأرصفة مستقراً له، جلس في ركن هادئ وعيناه تلتهمان السطور، بشغف، بفضول، رعشة في أوصاله كان قد نسيها زمناً، وقرأ حروفها النارية واشتعل في صدره الحنين حتى كاد أن يجهش في البكاء لولا بقية عزم وجلد، كانت تقلقه الأخبار الآتية من الشرق سيارات مفخخة، صحف مهددة، كتّاب معرضون للاغتيال ويعرفون «فداء» وحربها المسعورة ضد الفساد، ضد الجريمة، ضد الظلم، ضد الضلال، عرف نضالها المسدد بهدف رفيع وغاية مقدسة، كان قد شرب جرعات من عذب منهلها الصافي ومازال ثملاً به،

هو ذلك النور الذي يجعلنا سعداء رغم خساراتنا، انهياراتنا، رغم جفاف الدنيا وخوائها من كل حلم جميل يبقى في داخلنا ذلك المصباح يضيء في ليل غربتنا ووحشة شقوتنا نور الإيمان بالله وبحقيقة وجودنا وحتمية هدفنا، ومآلنا إلى نهاية تشكل بداية لعالم أرحب، كم من المرات جلسا معاً وتباحثا وتحاورا وشعر أن هذه المرأة لم تكن تملك قلماً فحسب بل قلباً مشعاً بالحماس لقضية الإنسان المخلوق على الأرض واستخلافه أمانة عظيمة تأبى الجبال على حملها لعظيم ثقلها، إنه كدح مستديم وجهاد من أجل أن يستتب الأمن والأمان، فلا تترك الحياة عائمة، معلقة، بل موجهة بإرادة إنسان حر، صاحب ضمير يقظ وعقل رصين وقلب مؤمن، عرفها في كل هذه المعاني، قديسة خارجة من غار حراء تحمل في يدها مشعل هداية تستطرق الزمن المخبأ في كهوف الضلال، تلقفته في منحدرات ضياعه وطبّبت جروحه، وأسرجت في ليله ضوء فجرها الجديد، وغذت عقله قيماً عظيمة جعل يتعايشها كالأنفاس، كطعم الشهد، يتلذذ رحيقها ويستقوي بها على جراحاته، فبقيت هذه المرأة وشماً على صدره، يحمله إلى القبر وثيقة، لن ينساها على مر الأيام، ولا تمحو على مرّ السنين ذكراها، كل النساء في وجدانه هفوات أمام حقيقتها المستثناة.

أطرق يفكر وهو يحدث نفسه:

«إذن هكذا ختمت فصول قصتنا، كنت قد أعددت لها غلافاً

يوثّق وجودها المعبر في حياتي ولابد أن أبرّ بوعدي، لن أبقى مشوهاً في عينيها، هارباً من قدرها، ستعرف أنها في دمي وأنني أكثر الناس لها إخلاصاً وأحرصهم على قلمها، ووعدتها بطباعة الرواية وسأفعل، حتماً هي مضطربة الآن، حيرى، لكني واثق أنها ستمتص الصدمة بالتدريج وتقبل على حياتها بشكل مختلف، سأتصل بها مجدداً، بطريقة ما، فروايتها أعظم مشروع يستنهض شباب الأمة لاستغلال طاقاتهم ومقدّراتهم»

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل (٤٤)

أزمـة فرسـان

إن حرارة الإيمان أشد ضراوةً من لهيب البركان، وقوة المؤمن الصلب أفتك من شراسة النمر.

بعد إخفاقها الأخير في التجربة العاطفية وطّنت «فداء» نفسها على مقارعة الظلم وسخَّرت قلمها في متابعة ذيول الضلال وخفافيش الظلام زهدت كل رجال الأرض بعد فؤاد وعاشت رهناً لقضيتها، لقلمها الذي أطلق حمم الحق في وجه مجتمع نائم كم من المرات أطلقت حنجرتها صافرة إنذار واستنهضت همم المستضعفين، صرخت بأعلى المآذن والكنائس والقباب «يا أيها المجتمع المريض هب من سباتك، ما جئتك إلا ثائرة استهديك إلى النور، تركت الغرباء يقتحمون بيتك ويأكلون طعامك، يفترشون بساطهم الحريري على بلاط عشك وأنت محنط، مكبل بأصفاد الذل والخنوع، لا تأخذك الغفلة، لا تصرعك لحظة لذة تنغمس فيها للحظات ثم تكتشف فيما بعد

كم من الملوثات تدخل روحك فتنهك قواك وتجعلك خانعاً، صاغراً، تبعاً للآخرين، لا قيمة لك، مجرد كيان مستهلك تتلاعب بك المصالح والأهواء تحت ذرائع ومبررات.

تحولت «فداء» بعد رحلة صراع إلى جرم دخيل على مجتمع يرفض موقفها، مع نضوجها المطعم بنكهة حزن تكتب وجعها بمداد من دم، اتُهمت بأنها مرتزقة تتصدى لجهة غامضة وبعضهم يسخر حينما يظن بها فدائية بلهاء جاءت في زمن لا يرى المرأة إلا جسداً منسقاً ووجه يهذب تشكيل تقاطيعه مشرط جراح تجميل ومنعوتة «بالعانس» وموصوفة بالعود اليابس تلك التي فقدت طعم الحب وما عرفت في تاريخها رجلاً فصبت عقدها على ورق، وهكذا عاشت سنين المحنة في شقاء وتستحثها غربة النبي «محمد» (صلى الله عليه وآله وسلم) وضراوة الدعوة وعذاب السخرية وشدة التنكيل، لكن النصر المؤزر قادم لا محالة على يد القائد المظفر، هو الوعد المشرق بعد عتمة الظلم والضلال، فكتبت دون خوف ووجل وتنقلت من صحيفة إلى أخرى، تخرج من مشادة وتدخل في أخرى، لا تجامل ولا تهادن، رفضت أن يتحوّل قلمها الثائر إلى قلم كحل تكتحل به الحسان تجملاً خداعاً، فقلمها سلاح تعرية لتلك الأقنعة المزيفة التي يظل البعض منهم يتشدق بالدين والبعض الآخر بالتقدم إنها تصوّب سهامها في مرمى الحقيقة وتستجمع قواها من أجل أن تقشع تلك الغمامة عن عيون الناس ليحدقوا في الأفق وينتبهوا إلى ما ينتظرهم من انقلاب.

استقرارها الأخير كان في مجلة «مفاجآت» كانت تقدم للقراء تحقيقات صحافية ناشطة تفاجئ بها غفوتهم ورئيس التحرير شاب متفتح يبحث عن الحقيقة ويلتقطها حتى لو كانت على خط النار، ولهذا كان المحررون فئة مميزة ونخبة فدائية تستطيع أن تقدم نفسها طعماً للموت والمخاطرة إذا اقتضى الأمر، ووجدت «فداء» ذاتها في هذا المكان، مع هذا التوجه الجديد، لن يقف أحد يتحدى قلمها الناري ستصرخ حروفها حمماً حارقة وقد أظهرت شجاعة فائقة يتندر بها المحررون.

وقد تبنّت قضية الإرهاب كتحقيق تنشره على حلقات بحثت في جذور هذه الفئة التي اتخذت من الإسلام ثوباً تداري به أهدافها الغامضة، تقصت في كتب التاريخ وجندت بعضاً من طالبات الجامعة لاستعارة الكتب والبحوث التي تتناول الحركات السياسية التي ظهرت في المشرق العربي بعد سقوط الخلافة العثمانية والاستعمار الغربي وأساليبه في خداع الشعوب، واتخذت من بعض ظواهر التفجيرات والعمليات الانتحارية مادة لتوجيه رسائل ومناشدة لعلماء الإسلام في العالم كي يوقفوا هذا النزف، ولم يثن عزمها أي تهديد، وعندما شاءت أن تغوص في عمق القضية وتلتقط بذورها من المنابت وصلت إلى نتيجة مفادها أن العدو الرابض خلف أقنعة الجهاد هم أعداء الإسلام فكل المؤشرات والقرائن تثبت ذلك، ما أذكى حبائل الشيطان وما أعظم كيده، كيف يستطيع شاب صغير أن يلغم نفسه ويلقي

نفسـه في فم الموت بهـذه السهـولة؟ من وراء هؤلاء الفتيـة الصغار؟ من درّبهم؟ من علمهم؟ من أيقظ في القتل حماسهم؟ فليقف القادة أمام شاشات التلفاز ويعلنوا بكل شجاعة عن أنفسهم، لكنهم مختبئون بجحورهم، ثمة أفعى كبيرة سامة تدبر وتخطط ولا يعرف لها هوية أو مكان تصدّر فكرة الموت على طبق الشهادة وكنوع من التضليل لشباب متوقدي العاطفة، كم قبضت هذه القيادات مقابل حصاد الموت، وما هو حجم التورط والشبهة، قرأت ذات مرة في جريدة جزائرية عن كثير من شباب الإسلام يرتدّون عن الدين، قد ضيعتهم المذابح وأربكت قوانينهم فسئموا حياة العدم والقتل اليومي يحصد الآلاف البريئة، ونفرة شديدة من الإسلام تلتبس عليهم الرؤيا وتشتبه عليهم المواقف، لغط في كل مكان مشاهد متناقضة تضع الإنسان في تقاطعات محيّرة، وها هو العراق يتنفس بعد أن كم الحكم البائد فمه بكمام الخوف والرعب، يلفظ وجعه وألمه ويشق له درباً في وطن الحرية ويخط على صدره المجروح عهداً جديداً، تتقدم الجموع إلى صناديق الاقتراع تنتخب لا تقعدها السيارات المفخخة والأجساد الملغومة عن توثيق تاريخها الجديد.

هؤلاء يستأجرهم سماسرة الموت لتنفيذ مخطط صهيوني يستهدف بلداً كان ذات يوم منار حضارة وقبلة العلماء، انكساره يعني كسر في أضلاع الأمة الإسلامية ونكسة توقعهم في

منحدر الضياع، دخلوا العراق وقتلوا العلماء والكتّاب وعباقرة العلم، وانتهبوا الخزائن الأثرية، وتنازعوا النفط، وبذروا في حقل الحب فتنة طائفية.. دول الإسلام مهددة تتساقط كالشهب من قمم العزة والكبرياء.. ومكرهم تعجز في إدراكه العقول، اخترقوا المسلمين بهذا الرعب اليومي يلتقطون فتية ضالة، من أسر محطمة وبعد غسل أدمغتهم وشحن عواطفهم بقوة مغناطيسية مدروسة يُلقى بهم في الطرقات والشوارع والأزقة منوّمين بمحلول الشهادة المزيف، زغرودة عرس في جنة موعودة، بانتظارك النبي، لحظات وينتهي الألم لتقطف ثمار سعادة سرمدية، وتتحول أشلاؤك إلى كيان مقدس يلتحم مع روح الرسول (ص) نشوة يستطرب لها الوجدان فيندفع الانتحاري إلى هذا المصير بكل عزم وحماس.

كتبت «فداء» وعبر حلقاتها المميزة أننا مستهدفون، ديننا مستهدف، وحدتنا مستهدفة، قيمنا مستهدفة، ثرواتنا مستهدفة، إننا نتعرض إلى إبادة تارة باسم الإسلام وتارة باسم الإباحية، العالم يمر في منعطف خطير وعلينا أن نراقب أنفسنا ونحاسب نوايانا وأن نتثبت على الصراط المستقيم صامدين أمام تلك التيارات المتصارعة، فُقد الأمان في كل مكان طالما الطفل يُقتل باسم الجهاد فأي أمان نرتجيه في هذا الزمن؟!

يا أيها الحلم القادم من جوف العصور أقبل علينا وانتشلنا من وحل الضياع، كبر الحزن وفاض العذاب، فخطايا صمتنا

لعنة يتمرغ بأديمها الظالم حتى النخاع، في كل شبر زرعوا لغماً وشوكاً وحدودهم محفورة على خارطة الجرح الكبير من الفرات إلى النيل.

وكلما نفضت الحقيقة عن ثوبها تراب الذل، ذبحوها، وتركوا شبيهتها في الملامح تخادعنا، انطلت علينا الكذبة معتقدين أننا أحرار وأن جلادنا، قاتلنا، ما هو إلا الأب الرحيم الذي يحتوي دمعتنا فانقدنا لقانونه كالبلهاء وعرفنا الزيف من الأصل وإذا بالحقيقة مقبورة تحت ركام من الأوهام بيد أننا استمرأنا الكذبة وانتشينا بلذة الراحة الذليلة.

ذات يوم..

جاءت «فداء» كعادتها إلى المكتب منغمرة بانفعالات غيظ وحزن بعد أن سمعت أخبار اغتيال أحد الكتاب الناشطين، وآلت على نفسها مشقة التحري في هذا الحادث كي تفاجئ قراءها بالملابسات المغيبة، عند البوابة التقت أحدهم يخرج متلفتاً في ذعر، وجه غريب لم تره من قبل ويبدو من أماثره الواضحة أنه من الجنسية الأجنبية، ظنته زائراً أو صديقاً لأحدهم، لكن سمته دل على وجاهة غير عادية، أقبلت على مكتبها لتجلس، ابتدرت الموظفين الجالسين بالسلام لا أحد يرد، ثمة شيء يدعو على الغرابة تساءلت في دهشة ما بهم اليوم؟ اقتربت من حجرة رئيس التحرير كان مرتبكاً بعض الشيء، أجلسها وهو يشيح عنها ناظريه وبنبرة مقتضبة قال:

«أرجو أن تقدمي استقالتك الآن!».

انتفضت كالمصعوقة:

«ولماذا؟ ماذا فعلت؟»

«بلغنا أنك كنت يوماً خليلة لرجل مشبوه».

باضطراب من يكذّب سمعه:

«أرجو أن تعيد على مسامعي الخبر، يبدو أنني قد أصبت بالصمم فجأة!!»

«أتعرفين فؤاد هاشم؟»

تجمدت في مكانها:

«ما به؟»

«إنه تاجر مخدرات، ألا تعرفين أنه كان يملك يوماً امبراطورية ضخمة من المال، أو تظنين أنها قانونية أو شرعية؟ عندما تم اكتشاف أمره هرّب الأموال إلى الخارج وقد كنت يوماً عشيقة له، ولك معه صور في أوضاع إباحية»

هبّت واقفة كالإعصار تصرخ:

«اخرس، أنا أشرف منك ومن كل من يتطاول عليّ بكلمة، وسأقطع تلك الألسنة الشرهة إلى الإشاعات المغرضة»

تمالك أعصابه:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«إنها خصوصياتك، لكني لا أرغب بمحرر يدّعي الفضائل وهو في الحقيقة...»

بغيظ ردت تقاطعه:

«الحقيقة أن هذا الخبر كاذب جملة وتفصيلاً والمعلومات مغلوطة وأظن أن هذا هو ثمن الصدق الذي أكتبه، ضريبة الحق الذي أدعو له، أعرف أن هناك مغرضين خلف هذه الحركة القصد منها تشويه تاريخي المشرف وكسر عزمي والتشهير بي، لكني لن أنحني ولن أقف مهزومة أبداً، فهدفي أسمى من أحده بحدود شخصية وأحلام مزيفة وأمل مؤقت»

أدار ظهره خشية المواجهة قائلاً بصوت حاسم:

«ابحثي لك عن مكان آخر، أتمنى لك التوفيق».

وبثقة استطردت:

«وأنا لا يشرفني أن أكون عضوة في جريدة المغفلين»

تركت المكان قائلة في ثرثرة حانقة:

«كنت أظنك فارساً مميزاً في هذا العصر البائد وإذا بك نمر من ورق!»

وسحبت نفسها وسط همز ولمز بان في فحيحهم الخافت وكأن في غورهم حقداً دفيناً كشف عن أنيابه فجأة.

أهكذا ينقلبون، اسمعوا الحقيقة، اسمعوا دليل براءتي،

أوكنتم تنتظرون قرار الإعدام دون سماع المرافعة المقرونة بالأدلة والبراهين، تستقبلون النتيجة وترفضون المقدمات، ما هذا المجتمع الذي أصبحت فيه النخبة تقتات على الافتراءات والفضائح؟ ما هذا النهم إلى الكذب والتزوير؟! المثقفون هم أول من يطلق قذائف الإشاعات ويحتمون بمتاريس اللباقة والكياسة والعقل، يروّجون الجريمة ويتهمون الناس بالجهل، هل بلغ بكم الحقد أن تحملوا الخنجر لطعني في الخلف وأنا البريئة العفيفة، أنسيتم مواقفي الإنسانية؟ أنسيتم حبي وحناني؟ أنسيتم من أنا؟

أنسيت يا «حسام» يوم جئتني مخذولاً، مسحوقاً وقد ذلّلت لك العقبات لتعمل مصوراً في الجريدة؟ أنسيتِ يا «هالة» يوم احتجت مبلغاً من المال لعلاج أمك؟ قدمته ونسيته، هل تتذكر يا «محسن» يوم أن كنت وساطة خير مع زوجتك العنيدة؟!

نسيتم كل شيء وتذكرتم أني امرأة سيئة؟! وأدرتم ظهوركم لي خشية أن تتلوثوا برجسي، والأنكى والأشد أن لاكت ألسنتكم سمعتي بذميم الوصف متجاهلين حكم الدين والعقل والضمير.

صفقت الباب بقوة وكأنها تصفعهم صفعة نكراء تمسح بنعالها وجوههم قائلة:

«لا مكان لي مع الأدنياء، البطالة عبء مرهق، لكن الشرف وكلمة الحق عزة وكرامة»

قاومت ضعفها ببسالة وهي تردد أنشودة أمها «إنما الدنيا أعدت لبلاء الكرماء»، الصور تراءت كشريط ملون في ذهنها المشتعل بالغضب، تذكرت فؤاد، وعرفت أنها كانت مراقبة، وهكذا حال كل إنسان شريف في هذا الزمن لأن صوته شوكة في قلب الظالم ويقظة الآخرين تأتي من شدة الخوف، فالرعب النفسي الذي يسببه أناس مستعدون لقلب المائدة في وجه الباطل دون خوف جدير بإرباك المجتمع وإثارة سكونه المريض، عينا الظالم لا تغفو، يخشى أن تدهمه قوة صاعقة تقلبه رأساً على عقب لهذا تراه يقظاً، أرقاً، يراقب صاحب الحق، يطارده في الحلم واليقظة.

تذكرت «فداء» أنها بلا عمل، وسيظل هذا الظلم واقعاً عليها طالما تكتب بالأبيض والأسود قلمها لا يعرف الألوان، وذاتها ترفض أنصاف الحلول، إن من يكتب بالألوان وإن كانت خطوطه جميلة وكلماته زاهية إلا أنها في النهاية تضع كاتبها في مصاف الرعاع الذين يميلون في كل اتجاه دون أن يعرف لهم موقف واضح، حملة القلم هم حملة سيف يتركون لغة النزال تعبّر عن وجهة نظرهم واتجاههم الفكري، فأصحاب القلم الرفيع امتداد لشريان النبوة والرسل، فالنبض الإلهي يخفق مع كل حرف، هؤلاء حملة الأديان يستوحون مدادهم من رب الأكوان ويصبون الحكمة في عمق البشرية قيماً ومبادئ ونهضة. عندما غيّب أصحاب القلم الحقيقة بصراعاتهم الذاتية ورهنوا مطامحهم

من أجل أصنام المادة والشهرة والمجد، ذوبوا الحقيقة في بوتقة ألوان وتركوا الناس في ضلال الشبهات يتخبطون شرقاً وغرباً، يتمايلون مع كل اتجاه يظنون أن في ذلك خلاصهم، لأن الرياء والنفاق لا يهبان إلا الشقاء والضياع وهي لن تكون رقماً عادياً ضمن صنف من الكتّاب يجلسون على منابر براقة ويتصدرون الصحف والمجلات، تربو أموالهم مع كل قصيدة أو إطراء لصاحب سلطة أو جاه، إنها ولدت قنديلاً وستمضي بنورها دون انطفاء.

وستظل في هدفها منشغلة حتى وإن سلبت منها القدرة وحجبت عنها الأضواء، كلماتها فتيل ينقدح في عصب خامل فيوقد في مواته رعدة حياة.

ستواصل بكفاح طالما لها عينان ولسان وشفتان وتمتلك عقلاً وقدرة، كم هي محظوظة بكل هذا الكم الهائل من النعم قد تخسر من كفها الأيمن لكن الله يعوضها في الكف الأيسر، ثريّة بكل هذه الثروات فغيرها لا يمتلك الحواس كاملة، قد يعجز عن التعبير أو ربما يقصر فكره عن التفكير، ستستثمر طاقاتها المتبقية من أجل أن تمهد للمستقبل القادم، ابتسمي يا فداء، فخساراتك كلها بعين الله سبحانه وهي أثمان العهد الجديد الذي بانت تباشيره.

استقبلت أمها ببشاشة وكأنها تزف لها بشرى.

«فصلت من الوظيفة»

وتفهم أمها قدرها، فتلعق جراحها برضاب الصبر والعزم:

دعتها لتناول الغداء

بدت ثريا متجهمة، تحاول أن تخفي حزنها وتداريه بابتسامة وديعة.

«ما بك يا أمي منذ فترة ألاحظ عليك الصمت والذهول؟»

تجتر ثريا أنفاسها دون أن تنبس بحرف ثم تحدق بابنتها طويلاً وهي شاردة ثم تغرق في حزن وكمد.

تقترب «فداء» تحضنها وتشدها ثريا بلوعة من يفارق إنساناً وتبكي بانكسار شديد.

سألتها مذهولة:

«يا أمي لا أعرف ما يكدرك، فدموعك أشبه بذبح السكين في نحري هلا أفصحت لي عن مكنونك؟»

مسحت الأم طرفها وابتلعت الغصة بصوت متحشرج.

«أبداً يا عزيزتي مجرد قلق عليك لا أكثر، أختك علياء استقرت حياتها وكذلك عماد وأنت الأثيرة في نفسي...»

انعقد لسانها، توقفت عن البوح.

بينما استكملت «فداء»:

«ألا تعرفين قدري؟! أولا تفهمين أنني نذرت قلمي للحقيقة وأن ثمنها باهظ وطريقها مر، هذا ما كنت أسمعه منك حينما

كنت صغيرة نشأت في أحضانك ملتهبة بالمبادئ وكأن حضنك مدرسة ألهمتني النبالة»

تضمها أمها وتقبلها:

«أنت ذوب روحي يا فداء، ونوّارة حياتي، نسختي الفتية بل ربما أنت الأفضل»

أشارت بسبابتها أن تصمت:

«لا تقولي ذلك يا أمي أنت الأصل، والأفضل، لولاك ما عرفت الصدق وما فهمت حقيقة وجودي في الحياة»

«وماذا أنتِ فاعلة الآن؟»

«سأكتب، فنزف الشريان لا يجف، ولن أقف عند حدود الوظيفة فالله هو الرزاق الحكيم، سأتحقق من قضية «رشاد مصلح» إذ كتبوا أنه انتحر وأنا أجزم أنهم الموساد، هذا البطل قضى حياته من أجل تحرير بلده من الاحتلال الصهيوني وحتماً هناك عملاء مندسون بين الناس قد قدموا تقارير مفصلة عن تحركاته ونشاطه فتربصوا به حتى اغتالوه في بيته، أُثير كثير من اللغط حول هذا الموضوع لكني لن أسكت سأحاول نشر الحقائق وإن لم يكن بالصحف فعن طريق الإنترنت»

«وكيف ستطبعين روايتك؟»

تنهدت وهي تشرد بعيداً، تذكرت ماضيها، تاريخها مع فؤاد غيابه، وعوده...

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ثم هتفت في لوعة:

«بقيت السطور الأخيرة، سأضعها في درج المكتب متى ما أذن لها الله سبحانه أن ترى النور، يهيئ لها أسباب الطبع وسأجمع الحلقات في كتاب واحد»

قالت أمها:

«على الأقل تستفيدين من ثمنها في هذه الفترة»

تنهدت:

«إن أجري على الله دوماً يا أمي فهو حسبي دنياً وآخرة»

الفصل (٤٥): الحلقة الأخيرة

وغابت الشمس

ربما لن نلتقي، فرقتنا الأقدار عند المفارق، ولكن بقيت سطور أخيرة أكتبها لأختم بها قصتي معك حتى وإن كانت وهماً أنسجه في مخيلة مرهقة.

تشتد المحن حولي، وتفر اللحظات هاربة إلى نهايتي حيث أجد نفسي أتسابق مع الزمن لألحق بشيء كنت موعودة به لا أدري ما هو بالضبط لكنه جائزة، هدية، ثمن أتعابي، إذ أحس بقلبي يخفق إليك بشدة وكأني أسمع ضرباته الآن ويكاد يفر من بين أضلعي، نبضاتي أحسها حزمة أقلام ترسم لك خرائط ومدناً في أعماقي، لم تغب عن ذاكرتي أبداً، ولم تهدأ عواطفي نحوك كنت أتذكر كل لحظة جمعتنا سوية، وكل كلمة قلتها لي وثائق منحوتة في قلبي، مرت الأيام والأشهر وبعض السنين وأنا في حداد دائم على حبي الذي عاش مكبلاً في عش هجرته دون وفاء، بالأمس طافت مشاهد الماضي كحلم في غفوة قصيرة

استشارت فيّ حنيناً جارفاً فنهضت بشوق منكسراً إلى جنتنا، فإذا بالطرقات الباردة تسألني عنك والشارع المؤدي إلى بيتنا موحش، وصفير عاصفة الشتاء، ينساب في سمعي كأنشودة وداع، لم تبق إلا النخلة صامدة قرب المبنى الشامخ الذي كان يوماً معقد آمالي وقبلة أحلامي... نسفوا الطرقات، وهدوا مباني وشيدوا أُخَر، تحولات كثيرة حدثت في غيابك المر الذي أنطق أطلالك فغدوت أهيم في الذكرى بكل حرقة وعذاب... هنا كان بيتنا الصغير حيث التقينا وكنا نطل من النافذة على تلك النخلة الباسقة وقلت لي بقلب مشروح إنه أروع من قصر جمعني بزوجتين لا أشعر بذاتي فيهما، معك أتكون من رحم الحب وأغرس نفسي في كيانك الملائكي فأنبت من جديد وهذه روايتي الأولى والأخيرة، وأحسبها الأخيرة؟ لأني لا أكتب عن أبطال قطعوا يميناً كاذباً وخانوا العهد، الفرسان في زمن المادة قلّة وكنت آخرهم لكنك انقرضت قبل أن تكتمل فقررت أن أختم بك فصولها بنهاية مفتعلة.

كنت إعصار قلمي، تمثل حالات إبداعي، بجنونك واندفاعك، بهذه الانقلابات التي تعيدني إلى الصفر من جديد ثم تأخذني إلى أبعد الاحتمالات، كنت نموذجاً لهذا الزمن العاثر الذي يفاجئنا كل يوم بمواقف استفزازية لأن المقاييس انقلبت من النقيض إلى النقيض وباغتك ضوء خاطف دلّك على الخلاص، فوجدتني منتهى النساء والكمال الأنثوي الذي تتوق له الرّجولة،

لكني عابرة سبيل جئتك صدفة ورحلت كطيور المواسم إلى شتاء آخر ليس له زمن محدد، وهذه سطوري مدينة لك بالزخم الهائل من الانفعالات الصادقة التي أوقدتها فيّ، غربال إحساس يصطخب فينفث الآهات قطرات دمع تحفر على ورقي تاريخنا معاً.

ورغم كل هذه الآلام مازلت تسكنني ورغم هذا العار الذي لحقني جراء هروبك بقيت أحبك، وبعادك الغامض تركني رماداً بعد أن كنت جمرة تتقد حسناً ورواء.

كل رجل يخطر ناحيتي أختلس إليه نظرة أحس به تمثالاً من طين وماء، كنت الحلم الأعذب، والتوق المستبد، أحنّ لاضطرابك كطفل مشاغب، أشتاق لطلوعك المشرق في عتمة دنياي، ويئست من عودتك، حالت الأيام دون لقائك، وتركت حياتي ثمناً للأمل الذي ينشده المستضعفون في الأرض، أمارس كل طقوس العدالة وأرسم ملامح الغد الجميل لأناس ضلّوا الطريق.

استوقفتني يوماً قصيدة قرأتها في إحدى الصحف، لا أدري لمَ أحسست أنها أصابت مرمى جرحي وأن حروفها تنطق عما بداخلي فكتبتها على قصاصة صغيرة وخبأتها في محفظتي، فكرت أن أحفرها على قبر حبي شاهداً على قصة لم تكتمل، تنتظر الخاتمة من رحم الغيب لعلّ القدر ينصفنا ويجمع روحينا من جديد.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«انتهينا.. انتهينا

قصة الأمس الغريب

قد غدت في ناظرينا

مثل أشباح الخطايا

ذكرها عارٌ علينا».

شمس الحقيقة.

بينما فؤاد..

جلس في المقهى الباريسي مع ثلة من الفنانين يتناولون وضع الفنان في ظل الواقع الاقتصادي المتعثر، وقد كان منهمكاً في توضيح حقيقة غفل عنها أغلب الناس، فليس شح الموارد الاقتصادية سبب الأزمة في العالم، وإنما ظلم الإنسان للإنسان والممارسات الخاطئة في التعامل البشري مدفوعة بروح أنانية وعقلية مادية هي الباعث على هذا الشح، فالله خلق السماء والأرض الزاخرة بالنعم، الموفورة بالعطايا، كنوزاً مختبئة لم يكتشفها الإنسان بعد، لكن طغيان البشر سبب تلك المشكلة، فالدول القوية تهيمن على الشعوب الضعيفة وتحتال لتنتهب ثرواتها وتبتز خيراتها فبأيدينا وفرة من الموارد، لكنها تتبدد بفعل الجشع والنهم المرضي.

أقبلت نحوهم جميلة لاهثة من بعيد، سابقت الريح بعجلة من

بداخله ثقل ينوء بحمله ووقفت لتستريح من هذا العبء، فزعة، تحدق بذهول، تغص الكلمات في حلقها، تدفع الجريدة إلى فؤاد.

يهز رأسه مستدركاً دون أن يتفوه بحرف.

وانطلق الخبر الصاعق:

«مصرع كاتبة في جريدة المفاجآت»

ابتلعت ريقها وبأنفاس تتهدج تخرج منها الكلمات عصية:

«فداء... توفيت»

تسمّر في مكانه مذعوراً وطاف الخبر في رأسه مشوشاً، مضطرباً، واستهام بعاطفة نفضت عن رقدتها التراب وإذا بها جموح وصخب وبنبرة مخنوقة ردد «فداء... ف....»

تنهدت جميلة وهي تمسح طرفها الندي:

«نعم فداء»

هل من المناسب أن يعرف متى وكيف ولماذا وماذا...؟ فكل علامات الاستفهام تتكسر أمام طغيان الحدث هز وجدانه من الأعماق فانكب يقرأ الخبر بأوصال مرتعشة، وقوى خائرة، ثم رفع إلى جميلة عينين باكيتين، فرّ منهما سؤال أخرس، فاستجابت لصمته المكدود قائلة:

«تعرضت لمعاكسة شابين في الشارع العام، يبدو أنها ارتبكت، فانقلبت بها السيارة»

استجمع ذاته الممزقة على أرصفة باريس واستحال فجأة إلى نمر شرس، أخذ يردد بغيظ:

«لا أظنها الحقيقة»

ترك الجمع فاراً إلى المجهول، هارباً إلى الماضي، لحقته جميلة:

«إلى أين؟»

«سأسافر»

وعاد إلى الذكرى بعد سنين غياب.

قالت له ثريا وهي تقدم له «مظروفاً كبيراً» وبعينين خبا بريقهما والتاعت في أحداقهما الروح:

«قد وعدتها في طباعة الرواية وتصميم غلاف مناسب»

«أتيت لأبرّ بوعدي»

جلس مهشم الروح، منكوباً، يتفرس الوجوه الواجمة أطرقت في أسى وكأنها في مأتم مقفر، أخرس الحزن الممض دمعتها، علياء كانت أشبه بكائن محنط تجلس بكومتها بعد اكتنازها المفاجئ إثر ولادة حديثه وعماد ساهم مازال يترقب وقع أقدامها وطلوع فجرها عبر نافذة الصباح، وثريا هي الأكثر نشاطاً، تفتل القوة في أحلك الأزمات.

ابتدر فؤاد الحديث وهو يتقطر أسى:

«في حياتها كنت الأقوى وبعد موتها أصبحت أفتك»

انتزعت ثريا نفساً ذائباً من جوفها القاحل:

«كنت أتوقع لها تلك النهاية، وقد رأيتها في حلم نبأني بالآت»

بكى فؤاد كطفل مشرد بعد أن مزق كل أستار الوقار منجذباً إلى لقائهما الأخير فتذكر انكسار فرحتها وحيرتها المضنية صاح:

«أنا السبب، كنت أزعم أن بعدي عنها خير»

وتهدئ ثريا من روعه:

«لا تلم نفسك إن المقدر في اللوح لا يتغير إلا بأمر الله»

وعاد يسأل كأنه غير مصدق:

«وكيف حدث لها ذلك؟»

استطردت ثريا بعد أن استغرقت في تفكير عميق:

«كثر الحديث واللغط ومازال البحث عن المجهول مستمراً، هذا المجهول الذي اعترض سيرها في الطريق ليس له اسم أو عنوان، لا يمكن أن أحدد لك هوية القاتل، لأنه فعل اشتركت فيه كل قوى الشر وتحالفت لتحفر لها قبراً منذ البدء، الناس، المجتمع، الأقلام المرتزقة، الكلمة المزيفة، الدجل النابت في

العظم، عناوين عـريضـة تلمع الخطايا برتوش ملونة ورسم مدهش له جماليات تغيب الوعي، صمتت للحظات ثم واصلت كأنها تخرج من ذاكرتها بعضاً من الوثائق إننا في زمن الدجل والنفاق والقلم الرخيص يجمل الحقائق البشعة، عمليات تجميل لشخصيات سيئة، لمواقف خاطئة، لممارسات شاذة، لقوانين ظالمة، لقيم هدّامة تقلب الموازين وتزوّق تلك التشوهات وتعنون بشكل مقنع وبإيحاءات مقبولة فتختلق الأباطيل ويعم الفساد وتضطرب المبادئ وتتفشى الفواحش.

تنهدت وهي تمسح طرفها وتابعت:

«ليس التجميل في وجه وجسد المرأة لإصلاح بعض العيوب، وتنسيق الملامح أو لاسترداد الصبا المدبر في وقت انتزع منها الزمن فتيل شبابها، في الداخل يبقى كل شيء معطوباً، مخدوشاً رغم ذلك السطح المصقول، هناك العجز الداخلي في الإحساس والانفعال رغم النضارة المفتعلة.. وهكذا نحن في مجتمعات تقتل كرامتنا، قيمنا أصالتنا، إبداعنا بتبعية وخذلان، كانت فداء تثور غيرى على أمة الإسلام وهي ذليلة تقتات على موائد مشبوهة، بليدة تستهلك فضلة الغرب وتتجرد من هويتها إذلالاً وانسحاباً، زمن الرفض انتهى، زمن الإباء رحل وعندما تقف أمام هذا الموج العاتي رافضاً أن تنزع ثوبك، أن تسلخ جلدك تصرعك الاتهامات والافتراءات والسخرية حرب نفسية تمزقك شر تمزيق، كم عانت هذه المسكينة، في كل يوم تذبح،

في كل موسم تأتيني بأكداس من الشقاء وكنت أكابد معها صابرة»

سكتت لتلتقط أنفاسها وواصلت:

«يوماً وأنا أنظف حجرتها عثرت على وثيقة زواجكما السري، لم يدهشني الموقف لأني أفهم أن المبدع له شطحات غريبة وتجاوزات تضعه في خانة مختلفة عن غيره، تركت لها الفرصة كي تفاتحني بالسر لكنها تكتمت، وكنت أتابع قصتها في اضطراب، تعابيرها وهي تميل من البهجة والحبور إلى الضيق والكدر، ولآخر لحظة في حياتها لم أقتحم خصوصيتها، إنها من النضج ما يدفعها إلى اتخاذ قراراتها عن قناعة وعقل، هي ليست مندفعة، متهورة... دائماً كانت ثابتة الجذور، راسخة المبادئ تتصدى لرياح الأيام بقوة صبر وعزم وشكيمة، كانت رحمها الله...»

انتفض فؤاد كالمجنون وأشار لها أن تسكت.

«بالله عليكِ ارحميني، لا أصدق أنها ميتة، هكذا رحلت بغمضة عين»

توقفت ثريا عن الحديث، ودعته أن يشرب الماء.

نهض كالمسعور، يتلوى ألماً، يتفطر كبده حزناً، وبنبرة مرهقة قال:

«لا.. أكاد أختنق، لا أقوى على حمل ثقلي»

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فـرَّ هارباً دون أن يتـرك لهم عنواناً، يحـمل روايتـها ذكـرى بقاياها يعرف عن يقين ما تعنيه الكلمة للكاتب، إنها بوح ذات، ذوب روح، عـصارة فكر، شق في الحـشـد نفـقـاً من الصـمت يختصه وحده، تجرد عن حواسه الآدمية وانطلق محض روح التحمت في روحها الحاضرة وغالب دمعته باستحضار ثرثرتها على هامش لقاءات عارضة جمعتهما في بعض الأيام كان لها وقع خاص في قلبه، حتى الأشياء الصغيرة التي تغض الطرف عنها إهمالاً تتحول في وقت الغياب إلى أجزاء هامة من حياتنا، حينما كان يجلس تحرص أن يأخذ وضعاً مريحاً، تضع له المساند خلف ظهره، أعطته ذات مرة قصاصة صغيرة ليحفظها في جيبه هامسة في حنان «إنه حرز يحميك من حوادث الطريق»

فرت مدامعه سخيّة فانعطف في سيره إلى الطريق المفضي إلى شاطئ البحر وهناك اتخذ ركناً قصياً عن الناس وإذا بها حاضرة تخرج كقديسة من بوابة الكون مكفنة بأوراقها البيضاء تجاذبه الحوار بطقوس ملائكية، بلغة أشبه برنين أجراس المعابد، ساكنة، وادعة، افترشت البحر بردائها الفضفاض، تتهافت عليها النوارس مبتهجة، تتمايل ذيولها المشعة على سطح الماء كأنها شرائط عذارى بيض يلمح قرصها الأرجواني وقد تلطخ بقطرات قلمها السيّال، يصدح صوتها الغنّاء في فضاء الكون فرحاً أن قد صدقت ظني في الله فالعالم العلوي منتهى

الكمال والسعادة السرمدية فلا تقايضه بدنيا رخيصة، انتعلها واتخذها لأهدافك مطية.

حدَّق فؤاد بوجهها المخضب بحمرة وإذا بالحقيقة تلهب في كبد الغروب، تجارة كونية لن تبور تسفر عن قدر حتمي يرجع الإنسان إلى الجذور.. نفخة من روح الله تسترد حقها في الآخرة الأبدية.

أنصت إلى صوتها ينساب في ثنايا السحاب الناعس شذرات روح بقيت خالدة خلود الدهر، فالتصفية الجسدية لا تمحي الحقيقة ولا تبدد سنن الكون ولا تطفئ النور، فالشمس تشرق برغمهم، وتتسيد عرش الحقيقة وإدبارها عند المغيب خاضع لمزاجية خاصة في قانونها التكويني لاستكمال دورتها، وهاهي الشهيدة رحلت إلى عالم آخر وعبرت شاطئ الدنيا إلى جرف آخر عبور الاكتمال ودورة أطوار الخلق، مازال هناك بقية أمل، الراحلون يتركون آثارهم مغلفة بحكايات جميلة تتحول مع السنين إلى تاريخ يوثق إخفاقاتنا، خيباتنا، نجاحاتنا، تجاربنا في الحياة، انحدرت مدامعه وهو يحتضن أوراقها إلى صدره كأن كلماتها قلوب تخفق بشدة، يشعر بدفئها، بصوتها، بحرقة الحق المهدور نبضاً بين سطورها.

خلال هذه اللحظات شق في هذا التيه نفقاً من نور حوّل حزنه إلى طلقات حق نارية في وجه الباطل وكل رموز الكذب

والفجور وسار في محاذاة الشاطئ بخطوات حازمة ينحت قدره الآت.

الحقيقة لا تموت واغتيالها ثمن الزمن القادم وبطاقة دعوة للفارس المصلح بعد غربة طويلة، فالشمس تغيب هنا لتشرق هناك على المرافئ البعيدة، لهفي إلى المخلّص المنتظر آتياً بخزائن النبوة يختزل العصور في نهاية حتمية.

وبعد برهة من الزمن العاثر...

طبع فؤاد رواياتها ونشرها في جميع البلدان النامية نحو التخلف، شخوصها رموز ثائرة تشذ في لغتها عن لغة العصر البائد تناقلوها في كل مكان حكاية شاب ثري دار به الزمان حتى التقى الشمس واغتسل بشعاعها النقي فكانت مساراته دروب عطاء، ترجمتها جميلة إلى الفرنسية، تجددت طباعتها سنة بعد سنة لتتألق الحقيقة رغم العتمة والضباب وتناقلتها الأجيال أنشودة حب في زمن كفر بالحب وأوقدت فيهم جذوة أمل نحو عصر قادم مليء بالأمان والازدهار بعد كبوات الانحطاط والظلام.

كتب فؤاد نبضه نعياً لمحبوبة قلبه فداء.

حداد على كاتبة شاءت أن تكتب في زمن كانت أرخص شيء فيه الكلمة.

عندما تحوّل القلم إلى سوط يلسع ظهر الحقيقة لتقر بعد الصمت والتعذيب أنها ما كانت إلا شبهة، وحينما نضب المداد، وصدأت حنجرة القلم، كان الدم هو الحبر والدواة.

كتبتني وكتبتها..

تجربة صراع نحو القدر الآتِ بالمدد

الناشر:

فؤاد هاشم

«انتهت بحمد الله»

انتهيت من كتابة هذه الرواية

الثلاثاء ١٣ شوال ١٤٢٦ هـ

١٥ نوفمبر ٢٠٠٥

في الساعة الواحدة بعد الظهر

حسب التوقيت المحلي لدولة الكويت.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

رجل تكتبه الشمس

أيها الرجل البعيد، قف معي متشامخاً نكسر طوق جمودنا ونهب من وهن الحب لنرحل باسم الله عصافير شوق تنثر بذار الأمن بين الناس، انهض من كبوتك فالحب الذي كبلني بقيدك استفرغ عقلي وأنهك قلبي، لست فتاة ضائعة أبحث عن مرفأ، فالشطآن الباردة لا تستهويني، أنا من شكّلتني الأقدار قناديل نور أسرج من ضوئي مصابيح هداية ...

موقع الأديبة/خولة القزويني
www.khawlaalqazwini.com

www.mlazna.com-RAYAHEEN